



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عشر
عليه
ص

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

التفسير والعقيدة

المجلد ٢



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير و المفسرون

كاتب:

محمد حسين ذهبى

نشرت فى الطباعة:

القاهرة دار الكتب الحديثه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٨	التفسير و المفسرون المجلد ٢
١٨	اشارة
١٨	[الجزء الثاني]
١٨	[تتمة الباب الثالث
١٨	[تتمة الفصل الرابع
١٨	الشيعة و موقفهم من تفسير القرآن الكريم
١٨	كلمة إجمالية عن الشيعة و عقائدهم:
١٨	اشارة
١٩	الزيدية:
١٩	اشارة
٢٠	قوام مذهب الزيدية:
٢٠	الإمامية «٢»:
٢٠	اشارة
٢١	الإمامية الاثنا عشرية:
٢١	اشارة
٢١	أشهر تعاليم الإمامية الاثنى عشرية:
٢٢	الإمامية الإسماعيلية:
٢٣	موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم
٢٣	اشارة
٢٣	من تأويلات السبئية «١»:
٢٤	من تأويلات البيانية:
٢٤	من تأويلات المغيرية:

- ٢٤ من تأويلات المنصورية:
- ٢٥ من تأويلات الخطابية:
- ٢٥ من تأويلات العبيدين:
- ٢٩ (١) موقف الإمامية الاثنى عشرية من تفسير القرآن الكريم
- ٢٩ اشارة
- ٢٩ موقفهم من الأئمة و أثر ذلك فى تفسيرهم:
- ٣٠ تأثر الإمامية الاثنى عشرية بأراء المعتزلة و أثر ذلك فى تفسيرهم:
- ٣٠ تأثرهم بمذاهبهم الفقهيّة و الأصولية فى تفاسيرهم.
- ٣١ احتيالهم على تركيز عقائدهم و ترويجها:
- ٣١ [النقط الأربعة بالذات فى اتجاه التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية]
- ٣٢ اشارة
- ٣٢ (١) ظاهر القرآن و باطنه:
- ٣٤ (٢) موقف القرآن من الأئمة و أوليائهم و أعدائهم:
- ٣٥ (٣) تحريف القرآن و تبديله:
- ٣٧ (٤) موقفهم من الأحاديث النبوية و آثار الصحابة:
- ٣٩ أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية
- ٣٩ اشارة
- ٤١ (١) مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار للمولى عبد اللطيف الكازراني
- ٥٨ (٢) تفسير الحسن العسكري
- ٦٨ ٣- مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسى
- ٩٤ ٤- الصافى فى تفسير القرآن الكريم لملا محسن الكاشى
- ١١٦ ٥- تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوى
- ١٢٣ ٦- بيان السعادة فى مقامات العبادة لسلطان محمد الخراسانى
- ١٤٢ ٢- الإمامية الإسماعيلية (الباطنية) و موقفهم من تفسير القرآن الكريم

- ١٤٢ كلمة إجمالية عن الإسماعيلية و عقائدهم و أغراضهم:
- ١٤٢ اشارة
- ١٤٣ مؤسسو هذه الطائفة:
- ١٤٣ احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم:
- ١٤٣ مراتب الدعوة عند الباطنية:
- ١٤٥ إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم:
- ١٤٥ موقف متقدمى الباطنية من تفسير القرآن الكريم
- ١٤٥ اشارة
- ١٤٦ من تأويلات الباطنية القدامى:
- ١٥٢ موقف متاخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم
- ١٥٢ تمهيد: في بيان انتشار الباطنية في البلاد الآن و تعدد ألقابهم:
- ١٥٣ البابية و البهائية
- ١٥٧ موقف البابية و البهائية من تفسير القرآن الكريم
- ١٦٥ ٣- الزيدية و موقفهم من تفسير و القرآن الكريم
- ١٦٥ تمهيد:
- ١٦٦ أهم كتب التفسير عند الزيدية:
- ١٦٦ اشارة
- ١٦٨ فتح القدير للشوكانى
- ١٧٦ الخوارج و موقفهم من تفسير القرآن الكريم
- ١٧٦ كلمة إجمالية عن الخوارج:
- ١٧٦ اشارة
- ١٧٧ أولا- الأزارقة:
- ١٧٨ ثانيا- النجدات:
- ١٧٨ ثالثا- الصفريه:

- ١٧٨ رابعا- الإباضية:
- ١٧٩ مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم
- ١٧٩ اشارة
- ١٧٩ سلطان المذهب يغلب على الخوارج فى فهم القرآن:
- ١٨١ مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن:
- ١٨٣ موقف الخوارج من السنة و إجماع الأمة، و أثر ذلك فى تفسيرهم للقرآن:
- ١٨٤ الإنتاج التفسيرى للخوارج:
- ١٨٥ أسباب قلة إنتاج الخوارج فى التفسير:
- ١٨٦ هميان الزاد إلى دار المعاد لمحمد بن يوسف إطفيش
- ١٨٦ التعريف بمؤلف هذا التفسير «١»:
- ١٨٧ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ١٨٧ اشارة
- ١٨٧ حقيقة الإيمان:
- ١٨٨ موقفه من أصحاب الكبائر:
- ١٨٨ حملته على أهل السنة:
- ١٨٩ مغفرة الذنوب.
- ١٨٩ رأيه فى الشفاعة:
- ١٩٠ رؤية الله تعالى:
- ١٩١ أفعال العباد:
- ١٩١ موقفه من المتشابه.
- ١٩٢ موقفه من تفسير الصوفية
- ١٩٢ موقفه من الشيعة
- ١٩٢ رأيه فى التحكيم
- ١٩٣ إشادته بالخوارج و حطه من قدر عثمان و على و من والاهما:

- ١٩٥ اعتداده بنفسه و حملته على جمهور المسلمين:
- ١٩٦ الفصل الخامس تفسير الصوفية
- ١٩٦ تمهيد أصل كلمة تصوف- معناها- نشأته و تطوره- أقسامه
- ١٩٦ أصل كلمة تصوف:
- ١٩٦ معنى التصوف:
- ١٩٧ نشأة التصوف و تطوره:
- ١٩٧ أقسام التصوف:
- ١٩٧ أولا- التفسير الصوفى النظرى
- ١٩٧ اشارة
- ١٩٨ ابن عربى شيخ هذه الطريقة:
- ١٩٨ اشارة
- ١٩٨ تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية:
- ١٩٩ تأثره فى تفسيره بنظرية وحدة الوجود:
- ١٩٩ قياسه الغائب على الشاهد:
- ٢٠٠ إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية:
- ٢٠١ التفسير الصوفى النظرى فى الميزان
- ٢٠١ اشارة
- ٢٠٣ رأينا فى التفسير الصوفى النظرى:
- ٢٠٤ ثانيا- التفسير الصوفى الفيضى أو الإشارى
- ٢٠٤ حقيقته:
- ٢٠٤ اشارة
- ٢٠٤ الفرق بينه و بين التفسير الصوفى النظرى:
- ٢٠٤ هل للتفسير الإشارى أصل شرعى؟
- ٢٠٦ التفاوت فى إدراك المعانى الباطنة و إصابتها:

- ٢٠٧ التفسير الإشارى فى الميزان
- ٢٠٧ اشارة
- ٢١١ مقالة الشاطبى فى التفسير الإشارى:
- ٢١٢ مقالات بعض العلماء فى التفسير الإشارى:
- ٢١٢ اشارة
- ٢١٢ مقالة ابن الصلاح:
- ٢١٣ مقالة سعد الدين التفتازانى:
- ٢١٣ مقالة ابن عطاء الله السكندرى:
- ٢١٣ مقالة ابن عربى فى التفسير الإشارى:
- ٢١٤ اشارة
- ٢١٦ رأينا فى مقالة ابن عربى:
- ٢١٧ شروط قبول التفسير الإشارى
- ٢١٨ أهم كتب التفسير الإشارى
- ٢١٨ اشارة
- ٢١٨ ١- تفسير القرآن العظيم للتستري
- ٢١٨ التعريف بمؤلف هذا التفسير:
- ٢١٩ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ٢٢٠ ٢- حقائق التفسير للسلمى
- ٢٢٠ التعريف بمؤلف هذا التفسير:
- ٢٢١ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ٢٢١ اشارة
- ٢٢١ طعن بعض العلماء على هذا التفسير:
- ٢٢٢ نماذج من تفسير السلمى:
- ٢٢٣ ٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن

- ٢٢٣ اشارة -
- ٢٢٣ التعريف بمؤلف هذا التفسير:
- ٢٢٤ التعريف بهذا التفسير:
- ٢٢٤ اشارة ..
- ٢٢٤ و إليك بعض ما جاء فى هذا التفسير:
- ٢٢٥ ٤- التأويلات النجمية لنجم الدين داية و علاء الدولة السمنانى
- ٢٢٥ التعريف بمؤلفى هذا التفسير:
- ٢٢٥ اشارة ..
- ٢٢٥ أما نجم الدين داية:
- ٢٢٥ و أما علاء الدولة السمنانى:
- ٢٢٦ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفيه فيه:
- ٢٢٦ اشارة ..
- ٢٢٧ من تأويلات نجم الدين:
- ٢٢٨ من تأويلات السمنانى:
- ٢٢٩ ٥- التفسير المنسوب لابن عربى
- ٢٢٩ من مؤلف هذا التفسير؟
- ٢٢٩ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه.
- ٢٢٩ اشارة ..
- ٢٣١ نماذج من التفسير الاشارى:
- ٢٣١ نماذج التفسير المبنى على وحدة الوجود:
- ٢٣٢ ابن عربى و مذهبه فى تفسير القرآن الكريم
- ٢٣٢ ترجمة ابن عربى «١»:
- ٢٣٣ مكانته العلمية:
- ٢٣٥ مذهب ابن عربى فى تفسير القرآن الكريم

- ٢٣٧ الفصل السادس تفسير الفلاسفة
- ٢٣٨ كيف وجدت الصلة بين التفسير و الفلسفة؟
- ٢٣٨ كيف كان التوفيق بين الدين و الفلسفة؟
- ٢٣٨ اشارة
- ٢٣٨ أما الطريقة الأولى: فهي طريقة التأويل للنصوص الدينية و الحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية
- ٢٣٩ و أما الطريقة الثانية: فهي شرح النصوص الدينية و الحقائق الشرعية بالآراء و النظريات الفلسفية
- ٢٣٩ الأثر الفلسفي في تفسير القرآن الكريم
- ٢٣٩ اشارة
- ٢٣٩ أما الفريق المعاند للفلسفة:
- ٢٣٩ و أما الفريق المسالم للفلسفة:
- ٢٣٩ من تفسير الفارابي:
- ٢٤٠ من تفسير إخوان الصفا:
- ٢٤٢ ابن سينا الشخصية الأولى التي كان لها أكبر أثر في التفسير الفلسفي
- ٢٤٢ اشارة
- ٢٤٢ ترجمة ابن سينا:
- ٢٤٣ مسلك سينا في التفسير:
- ٢٤٥ رأينا في تفسير الفلاسفة:
- ٢٤٦ الفصل السابع تفسير الفقهاء
- ٢٤٦ كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي
- ٢٤٦ ١- التفسير الفقهي من عهد النبوة إلى مبدأ قيام المذاهب الفقهية.
- ٢٤٧ ٢- التفسير الفقهي في مبدأ قيام المذاهب الفقهية:
- ٢٤٧ ٣- التفسير الفقهي بعد ظهور التقليد و التعصب المذهبي:
- ٢٤٨ تنوع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية:
- ٢٤٨ الإنتاج التفسيري للفقهاء:

- ٢٤٨ اشارة
- ٢٤٨ فمن الحنفية:
- ٢٤٨ و من الشافعية:
- ٢٤٩ و من المالكية:
- ٢٤٩ و من الزيدية:
- ٢٤٩ و من الإمامية الاثنى عشرية:
- ٢٤٩ و هناك كتب أخرى فى تفسير آيات الأحكام
- ٢٤٩ اشارة
- ٢٥٠ ١- أحكام القرآن للجصاص (الحنفى)
- ٢٥٠ ترجمة المؤلف:
- ٢٥٠ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ٢٥٠ اشارة
- ٢٥٠ استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:
- ٢٥١ تعصبه لمذهب الحنفية:
- ٢٥١ حملة الجصاص على مخالفيه:
- ٢٥٢ تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة.
- ٢٥٢ حملة الجصاص على معاوية رضى الله عنه:
- ٢٥٣ ٢- أحكام القرآن لكيا الهراسى (الشافعى)
- ٢٥٣ ترجمة المؤلف:
- ٢٥٣ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه
- ٢٥٣ أهمية هذا التفسير و مبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعى:
- ٢٥٤ تأدبه مع الأئمة و حملته على الجصاص:
- ٢٥٥ ٣- أحكام القرآن لابن العربى (المالكى)
- ٢٥٥ ترجمة المؤلف:

- ٢٥٦ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه.
- ٢٥٦ اشارة
- ٢٥٦ تفسير ابن عربي بين إنصافه و اعتسافه:
- ٢٥٧ حملته على مخالفى مذهبه:
- ٢٥٩ احتكامه إلى اللغة:
- ٢٥٩ كراهته للإسرائيليات:
- ٢٥٩ نفرته من الأحاديث الضعيفة:
- ٢٦٠ ٤- الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى (المالكى)
- ٢٦٠ ترجمة المؤلف:
- ٢٦٠ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ٢٦٠ اشارة
- ٢٦١ إنصاف القرطبى و عدم تعصبه:
- ٢٦٢ موقفه من حملات ابن العربى على مخالفيه:
- ٢٦٤ ٥- كنز العرفان فى فقه القرآن لمقداد السيورى (من الإمامية الاثنى عشرية)
- ٢٦٤ ترجمة المؤلف:
- ٢٦٤ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ٢٦٥ ٦- الثمرات اليانعة و الأحكام الواضحة لىوسف الثلاثى (الزيدى)
- ٢٦٥ ترجمة المؤلف:
- ٢٦٥ التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:
- ٢٦٥ اشارة
- ٢٦٦ اعتماد المؤلف على الروايات التى لا تصح:
- ٢٦٦ تقديره لكشاف الزمخشرى:
- ٢٦٦ مسلكه فى أحكام القرآن:
- ٢٦٨ الفصل الثامن التفسير العلمى

- ٢٦٨ معنى التفسير العلمى:
- ٢٦٩ التوسع فى هذا النوع من التفسير و كثرة القائلين به:
- ٢٦٩ اشارة
- ٢٦٩ الإمام الغزالى و التفسير العلمى:
- ٢٧٠ الجلال السيوطى و التفسير العلمى:
- ٢٧١ أبو الفضل المرسى و التفسير العلمى:
- ٢٧٥ إنكار التفسير العلمى
- ٢٧٥ اشارة
- ٢٧٥ إنكار الشاطبى للتفسير العلمى:
- ٢٧٨ اختيارنا فى هذا الموضوع
- ٢٧٨ اشارة
- ٢٧٨ أولا- الناحية اللغوية:
- ٢٧٨ ثانيا- الناحية البلاغية:
- ٢٧٩ ثالثا- الناحية الاعتقادية:
- ٢٨٠ الخاتمة كلمة عامة عن التفسير و ألوانه فى العصر الحديث
- ٢٨٠ التفسير بين ماضية و حاضرة:
- ٢٨٠ مميزات التفسير فى العصر الحديث:
- ٢٨١ ألوان التفسير فى العصر الحديث:
- ٢٨١ اشارة
- ٢٨١ اللون العلمى للتفسير فى عصرنا الحاضر
- ٢٨١ اشارة
- ٢٨١ رواج التفسير العلمى فى عصرنا الحاضر.
- ٢٨١ أهم الكتب التى عنيت بهذا اللون:
- ٢٨١ اشارة

- ٢٨٥ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشخ طنطاوى جوهرى «١»
- ٢٨٥ الدوافع التى حملت المؤلف على كتابة هذا التفسير:
- ٢٨٥ متى و كيف شرع المؤلف فى كتابة هذا التفسير:
- ٢٨٦ غرض المؤلف من تفسيره:
- ٢٨٦ مسلك المؤلف فى تفسيره:
- ٢٨٧ لم يلق تفسير الجواهر قبولاً لدى كثير من المثقفين:
- ٢٨٧ طريقة المؤلف فى هذا التفسير:
- ٢٩٢ إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير
- ٢٩٣ اللون المذهبى للتفسير فى عصرنا الحاضر
- ٢٩٤ اللون الإلحادى للتفسير فى عصرنا الحاضر
- ٢٩٤ اشارة
- ٢٩٤ الباعث على هذا اللون من التفسير:
- ٢٩٩ الهداية و العرفان فى تفسير القرآن بالقرآن
- ٣٠٠ حملته على جميع المفسرين:
- ٣٠٠ طريقته فى التفسير:
- ٣٠٠ اشارة
- ٣٠١ إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:
- ٣٠١ اشارة
- ٣٠١ موقفه من معجزات عيسى عليه السلام:
- ٣٠٢ موقفه من معجزات موسى عليه السلام:
- ٣٠٢ موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام:
- ٣٠٣ موقفه من معجزات داود عليه السلام:
- ٣٠٣ موقفه من معجزات سليمان عليه السلام:
- ٣٠٤ موقفه من معجزة الإسراء:

- ٣٠٤ إنكاره للملائكة و الجن و الشياطين:
- ٣٠٥ إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين:
- ٣٠٥ إشارة
- ٣٠٥ حد السرقة:
- ٣٠٥ حد الزنى:
- ٣٠٥ تعدد الزوجات:
- ٣٠٦ التسرى:
- ٣٠٦ الربا
- ٣٠٧ زكاة الزروع:
- ٣٠٧ مصارف الزكاة:
- ٣٠٧ الطلاق:
- ٣٠٨ اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير فى عصرنا الحاضر
- ٣٠٨ إشارة
- ٣٠٨ مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده و أثرها فى التفسير
- ٣٠٨ إشارة
- ٣٠٨ محاسن هذه المدرسة:
- ٣٠٩ عيوب هذه المدرسة:
- ٣١٠ أهم رجال هذه المدرسة:
- ٣١٠ إشارة
- ٣١٠ ١- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده «١»
- ٣٢٢ ٢- السيد محمد رشيد رضا «١»
- ٣٣٠ ٣- الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى «١»
- ٣٤٠ رجاء و اعتذار
- ٣٤١ تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

التفسير و المفسرون المجلد ٢

إشارة

سرشناسه : ذهبى محمدحسين عنوان و نام پديدآور : التفسير و المفسرون بحث تفصيلى عن نشأ و التفسير و تطوره و الوانه و مذاهبت مع عرض شامل لاشهر المفسرين و تحليل كامل لاهم كتب التفسير من عصر النبى ص الى عصر الحاضر مشخصات نشر : القايره دار الكتب الحديثه ١٩٦٢ - ١٩٦١.

مشخصات ظاهرى : ج ٣

وضعت فهرست نويسى : فهرست نويسى قبلى يادداشت: ج ٣ (چاپ اول ١٣٨١ق = ١٩٦٢م =) ١٣٤٠

يادداشت : كتابنامه ج ٣٢ ص ٢٩٢ - ٢٨٥

موضوع : تفسير -- تاريخ موضوع : مفسران رده بندى كنگره : BP٩٢/ذ٩٠٧ ١٣٤٠

رده بندى ديوبى : ٢٩٧/١٩

شماره كتابشناسى ملى : م ٥١-٢٦٧٨

[الجزء الثانى]

[تتمه الباب الثالث]

[تتمه الفصل الرابع]

الشيعه و موقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمه اجمالية عن الشيعه و عقائدهم:

إشارة

الشيعه فى الأصل، هم الذين شايعوا عليا و أهل بيته و الوهم، و قالوا: إن عليا هو الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و إن الخلافة حق له، استحقها بوصيه من رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هى لا- تخرج عنه فى حياته، و لا عن أبنائه بعد وفاته، و إن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين:

أحدهما: أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه.

ثانيهما: أن يتخلى صاحب الحق عنه فى الظاهر، تقيه منه، و درء للشر عن نفسه و عن أتباعه.

و هذا المذهب الشيعى، من أقدم المذاهب الإسلاميه، و قد كان مبدأ ظهوره فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه «١» ثم نما و اتسع على عهد على رضى الله عنه؛ إذ كان كلما اختلط رضى الله عنه بالناس تملكهم العجب، و استولت عليهم الدهشه، مما يظهر لهم من قوة دينه، و مكنون علمه، و عظيم مواهبه، فاستغل الدعاء كل هذا الإعجاب و أخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس.

ثم جاء عصر بنى أميه و فيه وقعت المظالم على العلويين، و نزلت بهم محن قاسيه، أثارت كامن المحبه لهم، و حركت دفين الشفقه عليهم، و رأى الناس فى على و ذريته شهداء هذا الظلم الأموى، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعى و كثر أنصاره.

و يظهر لنا أن هذا الحب لعلى و أهل بيته، و تفضيلهم على من سواهم، ليس بالأمر الذى جد و حدث بعد عصر الصحابة، بل وجد من الصحابة من كان يحب (١) و قيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله صلى عليه و سلم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤

عليا و يرى أنه أفضل من سائر الصحابة، و أنه أولى بالخلافة من غيره، كعمار ابن ياسر، و المقداد بن الأسود، و أبى ذر الغفارى. و سلمان الفارسى، و جابر ابن عبد الله ... و غيرهم كثير.

غير أن هذا الحب و التفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا عليا رضى الله عنه؛ لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، و أن صلاح الإسلام و المسلمين لا بد له من شمل متحد و كلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدإ الذى تكاد تتفق عليه كلمة الشيعة، و يروونه قوام مذهبهم و عقيدتهم و هو «أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، و يعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين و قاعدة الإسلام، و لا يجوز للنبي إغفاله و لا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، و يكون معصوما من الكبائر و الصغائر، و أن عليا رضى الله عنه، هو الذى عينه رسول الله صلوات الله و سلامه عليه» (١) لم يكن الشيعة جميعا متفقين فى المذهب، و العقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فرق عدة، يرجع أساس اختلافها و انقسامها إلى عاملين قوين، كان لهما كل الأثر تقريبا فى تعدد فرق الشيعة و تفرق مذاهبهم:

أولهما: اختلافهم فى المبادئ و التعاليم، فمنهم من تغالى فى تشييعه و تطرف فيه إلى حد جعله يلقي على الأئمة نوعا من التقديس و التعظيم، و يرمى كل من خالف عليا و حزبه بالكفر. و منهم من اعتدل فى تشييعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة و خطأ من خلفهم، و لكن ليس بالخطأ الذى يصل بصاحبه إلى درجة الكفر.

و ثانيهما: الاختلاف فى تعيين الأئمة، و ذلك أنهم اتفقوا جميعا على إمامة على رضى الله عنه، ثم على إمامة ابنه الحسن من بعده، ثم على إمامة الحسين من بعد أخيه. و لما قتل الحسين على عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهه نظر (١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥

الشيعة فىمن يكون الإمام بعد الحسين رضى الله عنه: ففريق يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلى أخيه من أبيه، محمد بن على، المعروف بابن الحنفية.

فبايعوه بها.

و فريق ثان، يرى حصر الإمامة فى ولد على من فاطمة، و قد أصبحت بعد قتل الحسين حقا لأولاد الحسن؛ لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر بها غير أولاده، و هم ينتظرون كبرهم ليبايعوا أرشدهم.

و فريق ثالث، يرى ما يراه الفريق الثانى من حصرها فى ولد على من فاطمة، غاية الأمر أنه يقول: إن الحسن قد تنازل عنها فسقط حق أولاده فيها، و بقيت الإمامة حقا لأولاد الحسين الذى قتل من أجلها فهم أولى بالانتظار.

بلغ عدد الفرق التى انقسم إليها الشيعة حدا كبيرا من الكثرة، منها من تغالى فى تشييعه و تجاوز بمعتقداته حد العقل و الإيمان، و منها من اعتدل فى تشييعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها.

و لست بمستوعب كل هذه الفرق، و لكنى سأقتصر على فرقتين هما:

الزيدية، و الإمامية (الاثنا عشر و الإسماعيلية)؛ لأنى لم أعر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

الزيدية:

إشارة

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم، طمحت نفسه إلى استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموى هشام

بن عبد الملك، و لكن أتباعه خذلوه و تفرقوا عنه فقتل و صلب، ثم أحرق جسده. و قد ورد في سبب تفرق أصحابه عنه و خذلانهم له «أنه لما اشتد القتال بينه و بين يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه: ما تقول في أبي بكر و عمر؟ فقال زيد: أثنى عليهما جدى على، و قال فيها حسنا، و إنما التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦

خروجى على بنى أمية؛ فإنهم قاتلوا جدى عليا، و قتلوا جدى حسينا، فخرجوا عليه و رفضوه، فسموا رافضةً بذلك السبب «١» اه. و الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، إذا أنها لم تغل في معتقداتها، و لم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين.

قوام مذهب الزيدية:

و قوام مذهب زيد و أتباعه إلى ما قبل طرو التغير عليه و التفرق بين أصحابه، هو ما يأتي:

١- أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، و هذه الأوصاف هي: كونه فاطميا، ورعا، سخيا، يخرج داعيا الناس لنفسه.

٢- أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه.

و بنوا على هذا أنه لو وقع اختيار أولى الحل و العقد على إمام لم تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود من تتوفر فيه صحت إمامته، و لزم بيعته؛ و لهذا قالوا بصحة إمامة أبى بكر و عمر رضى الله عنهما، و عدم تكفير الصحابة ببيعتهما.

و لقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين فى قطرين مختلفين لا فى قطر واحد، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مخلد فى النار، و هذا هو عين مذهب المعتزلة. و يظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا بها كما قالوا بكثير من مبادئهم. و السر فى ذلك هو أن زيدا رحمه الله تتلمذا لوصل بن عطاء، فأخذ عنه آراءه الاعتزالية و قال بها «٢».

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمنا طويلا، بل تفرقوا (١) التبصير فى الدين ص ١٨.

(٢) الملل و النحل للشهرستاني ج ٢ ص ٢٠٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧

و اختلفت عقائدهم. و قد ذكر لنا صاحب المواقف أنهم تفرقوا إلى ثلاث فرق، و ذكر لكل فرقة خصائصها و مميزاتها و عقائدها «١»، و لا نطيل بذكر ذلك.

و من أراد الوقوف عليه فليرجع إليه فى موضعه.

الإمامية «٢»:

إشارة

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبى صلى الله عليه و سلم نص على إمامة على رضى الله عنه نصا ظاهرا، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد على فى ولده من فاطمة رضى الله عنها.

و أصحاب هذا المذهب قد بالغوا فى تشيعهم، و تعدوا حدود العقل و الشرع، فكفروا الكثير من الصحابة، و اعتبروا أبا بكر و عمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعلى رضى الله عنه، فأوجبوا التبرؤ منهما، و لم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسى صاحب التفسير.

و قد اتفق الإمامية على إمامة على رضى الله عنه، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلى أخيه الحسين من بعده،

ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك في سوق الإمامة، وانقسموا إلى فرق عدة أشهرها فرقتان: الإمامية الاثنا عشرية و الإمامية الإسماعيلية.

الإمامية الاثنا عشرية:

إشارة

أما الإمامية الاثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى ابنه علي الهادي، ثم إلى ابنه الحسن العسكري، ثم إلى ابنه محمد المهدي المنتظر (١) الموافق ج ٨ ص ١٠.

(٢) الإمامية: نسبة إلى الإمام لأنهم أكثروا من الاهتمام به؛ و ركزوا كثيرا من تعاليمهم حوله.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨

و هو الإمام الثاني عشر، و يزعمون أنه دخل سردابا في دار أبيه بسر من رأى و لم يعد بعد، و أنه سيخرج في آخر الزمان، ليملاً الدنيا عدلا و أمنا، كما ملئت ظلما و خوفا.

و هؤلاء قد جاوزوا الحد في تقديسهم للأئمة، فرعموا: أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء. و قالوا: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، و أن مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر، و غير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة في الأئمة.

أشهر تعاليم الإمامية الاثني عشرية:

إشارة

و أشهر تعاليم الإمامية الاثني عشرية أمور أربعة: العصمة، و المهديّة، و الرجعة، و التقية.

أما العصمة:

فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر و الكبائر في كل حياتهم، و لا يجوز عليهم شيء من الخطأ و النسيان.

و أما المهديّة:

فيقصدون منها الإمام المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان فيملاً الأرض أمنا و عدلا، بعد أن ملئت خوفا و جورا. و أول من قال بهذا هو كيسان مولى علي بن أبي طالب في محمد بن الحنفية. ثم تسربت إلى طوائف الإمامية، فكان لكل منها مهدي منتظر «١». (١) وردت بعض الأحاديث في شأن المهدي، رواها الترمذي و أبو داود و ابن ماجه و غيرهم، كقوله عليه السلام «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم؛ لطول الله ذلك حتى يبعث فيه رجلا- مني أو من أهل بيتي؛ يواطئ اسمه اسمي؛ و اسم أبيه اسم أبي» و مثل قوله «لو لم يبق إلا يوم؛ لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جورا» و قد وقع بين المسلمين خلاف في شأن المهدي هذا؛ فمنهم من يقول به؛ و منهم من ينكره؛ و لكن لم نر من المسلمين من ذهب مذهب الإمامية في تعيين المهدي و دعواهم أنه الامام الثاني عشر الذي اختفى حيا و سيعود في آخر الزمان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩

و أما الرجعة:

فهى عقيدة لازمة لفكرة المهديّة، ومعناها: أنه بعد ظهور المهدي المنتظر، يرجع النبي صلى الله عليه و سلم إلى الدنيا، و يرجع على، و الحسن، و الحسين، بل و كل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبى بكر و عمر، فيقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعا، ثم يحيون يوم القيامة.

و أما التقيّة:

فمعناها المداراة و المصانعة، و هى مبدأ أساسى عندهم، و جزء من الدين يكتمونه عن الناس، فهى نظام سرى يسيرون على تعاليمه، فيدعون فى الخفاء لإمامهم المختفى و يظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة فى وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه هى أهم تعاليم الإمامية الاثنى عشرية، و هم يستدلون على كل ما يقولون و يعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لا تسلم لهم، و لا تثبت مدعاهم. و نحن نمسك عنها و عن ردها خوف الإطالة، و سيمر بك- إن شاء الله تعالى- شىء من ذلك.

الإمامية الإسماعيلية:

و أما الإمامية الإسماعيلية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه على ذلك، قالوا: و فائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة فى عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، و هو أول الأئمة المستورين، و بعده تتابع أئمة مستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدي رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لقبوا بسبعة ألقاب، و بعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم، و هذه الألقاب هى ما يأتى:

١- الإسماعيلية: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

٢- الباطنية: لقولهم بالإمام الباطن أى المستور، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهرا و باطنا، و المراد منه باطنه دون ظاهره.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠

٣- القرامطة: لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له حمدان قرمط «١».

٤- الحرمية: لإباحتهم المحرمات و المحارم.

٥- السبعية: لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم، و نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمد، و محمد المهدي المنتظر سابع النطقاء، و بين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، و لا بد فى كل عصر من سبعة بهم يقتدى و بهم يهتدى.

٦- البابكية أو الخرمية: لاتباع طائفة منهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان.

٧- المحمرة: للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميرا «٢».

هذا و سيأتى بعد ما يكشف لنا عن عقيدة هؤلاء الباطنية، عند ما نتكلم عن موقفهم من تفسير القرآن الكريم.

و قبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبى المظفر الأسفراينى فى كتابه (التبصير فى الدين) قال رحمه الله:

«و اعلم أن الزيدية و الإمامية منهم، يكفر بعضهم بعضا، و العداوة بينهم قائمة دائمة، و الكيسانية يعدون فى الإمامية، و اعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون على تكفير الصحابة، و يدعون أن القرآن قد غيرهما كان و وقع فيه الزيادة و النقصان من قبل الصحابة، و يزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة على فأسقطه الصحابة منه، و يزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن و لا على شىء من الأخبار المروية عن المصطفى صلى الله عليه و سلم، و يزعمون (١) قرمط: قرية من قرى واسط، أو نسبة لقرمطة فى خطوه- و قيل فى خطه و قرمطة الخطا تتابعها.

(٢) المواقف ج ٨ ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١

أنه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين، و ينتظرون إماما يسمونه «المهدي» يخرج و يعلمهم الشريعة، و ليسوا على شيء من الدين و ليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام في الإمامة، و لكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا في استحلال المحرمات الشرعية، و يعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة و تغير القرآن من عند الصحابة، و لا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين «١» اه (١) التبصير في الدين ص ٢٤، ٢٥ و قد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢

موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم

إشارة

إذا نحن أجلنا النظر في مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق و التحزب و الانقسام في الرأي و العقيدة. فبيننا نجد الغلاة الذين رفعوا عليا إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون عليا أفضل من غيره من الصحابة، و أنه أحق بالولاية و أولى بها من غيره فحسب؛ و نجد من يقف موقفا وسطا بين هؤلاء و هؤلاء، فلا هو يؤله عليا، و لا هو يرى أنه بشر يخطئ و يصيب، بل يرى أنه معصوم، و أنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم غير منازع و لا مدافع و إن غلب على أمره و اغتصبت الولاية منه. و لم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزينين أو ثلاثة، بل تفرقت بهم الأهواء - كما قلنا - إلى حد الكثرة في التحزب، و كان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، و رأى خاص لا يقول به سواه.

و كان طبعيا - و كل حزب من هذه الأحزاب يدعى الإسلام، و يعترف بالقرآن و لو في الجملة - أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن و يحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهدا له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلا على مذهبه تمسك به، و أخذ في إقامة مذهبه على دعامة منه. و ما وجده مخالفا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقا لا مخالفا، و إن أدى هذا كلها إلى خروج اللفظ القرآني عن معناه الذي وضع له و سيق من أجله. و إليك طرفا من تأويلات هؤلاء الغلاة:

من تأويلات السبئية «١»:

فمثلا نجد بعض السبئية يزعم أن عليا في السحاب، و على هذا يفسرون (١) السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام رغلا في حب علي حتى جعله نبيا؛ ثم بالغ في الغلو حتى جعله إلها. و زعم أنه لم يقتل و لكنه رفع إلى السماء.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣

الرعد بأنه صوت علي و البرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، و لهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمدا صلى الله عليه و سلم سيرجع إلى الحياة الدنيا، و تأول على ذلك قوله تعالى في الآية (٨٥) من سورة القصص:

«إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد «١»».

من تأويلات البيانية:

كذلك نجد بيان بن سمعان التميمي زعيم البيانية «٢»، يزعم أنه هو المذكور في القرآن بقوله تعالى في الآية (١٣٨) من سورة آل عمران «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» ويقول: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفن كله غير وجهه، ويتأول على زعمه هذا قوله تعالى في الآية (٨٨) من سورة القصص. «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» وقوله في الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الرحمن. «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ...» «٣»

من تأويلات المغيرية:

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلي زعيم المغيرية «٤» يقول: إن الله تعالى (١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٢٤، و تاريخ الجدل لأبى زهرة ص ١٢٨

(٢) البيانية هم أتباع بيان بن سمعان التميمي، وهم الذين زعموا أن الامامة صارت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبى هاشم إلى بيان ابن سمعان بوصيته إليه. واختلف هؤلاء في بيان زعيمهم فمنهم من زعم أنه كان نبيا، وأنه نسخ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. ومنهم من زعم وأنه كان إلها. انتهى من الفرق بين الفرق ص ٢٢٧.

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٤) المغيرية هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلي. و كان يظهر في بدء أمره موالاته الامامية ثم ادعى النبوة. و ادعى أنه يعرف الاسم الأعظم: و زعم أنه يحيى به الموتى و يهزم الجيوش: انتهى من الفرق بين ص ٢٢٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤

لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم و وقع تاجا على رأسه، و تأويل على ذلك قوله تعالى في الآية «١» من سورة الأعلى «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» و زعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج «١» ...

و يزعم المغيرة أيضا، أن الله تعالى خلق أطلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد صلى الله عليه وسلم. قال: فذلك قوله في الآية (٨١) من سورة الزخرف «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» .. قال: ثم أرسل ظل محمد إلى أطلال الناس، ثم عرض على السموات و الجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك، فعرض ذلك على الناس. فأمر عمر أبا أن يتحمل نصرته على و منعه من أعدائه، و أن يغدر به في الدنيا، و ضمن أن يعينه على الغدر به، على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك. قال: فذلك تأويل قوله في الآية (٧٢) من سورة الأحزاب «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» فزعم أن الظلوم و الجهول أبو بكر.

و تأول في عمر قوله تعالى في الآية (١٦) من سورة الحشر: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ...» و الشيطان عنده عمر «٣».

من تأويلات المنصورية:

و كذلك نجد أبا منصور العجلي زعيم المنصورية «٤» و المعروف بالكسف، (١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٩.

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٣٠-٢٣١.

(٤) المنصورية هم أتباع أبى منصور العجلي؛ الملقب بالكسف؛ الذى زعم أن الامامة دارت في أولاد على حتى انتهت إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على المعروف بالباقر. و ادعى هذا العجلي: أنه خليفة الباقر ثم أُلحد في دعواه فزعم ما نقلناه عنه

بالأصل. اه من الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥

يزعم أنه عرج به إلى السماء، و أن الله تعالى مسح بيده على رأسه و قال له: يا بنى بلع عنى، ثم أنزله إلى الأرض، و زعم أنه الكسف الساقط من السماء المذكور فى قوله تعالى فى الآية (٤٤) من سورة الطور: «وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ» (١).

و تأولت هذه الطائفة الجنة بأنها رجل أمرنا بموالاته و هو الإمام، و النار بالصد، أى رجل أمرنا ببعضه و هو ضد الإمام و خصمه كأبى بكر و عمر. و تأولوا الفرائض و المحرمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم، و المحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم (٢).

من تأويلات الخطابية:

كذلك نجد من الخطابية (٣) من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا، و النار بأنها آلامها (٤).

و وجدنا منهم من يقول إنه لا مؤمن إلا و الله تعالى يوحى إليه، و على هذا المعنى كانوا يتأولون قوله تعالى فى الآية (١٤٥) من سورة آل عمران:

«وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا» و يقولون: إن معناه بوحى من الله، و يقولون، إذا جاز أن يوحى إلى النحل كما ورد فى قوله تعالى (١) الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٢) المواقف ج ٨ ص ٣٨٦.

(٣) الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى و هم خمس فرق، يقولون إن الامامة كانت فى أولاد على إلى أن انتهت إلى محمد (الحبيب آخر الأئمة المستورين) ابن جعفر الصادق و يقولون: إن الأئمة كانوا آلهة؛ و كان أبو الخطاب يقول فى أيامه: إن اولاد الحسن و الحسين كانوا أبناء الله و أحباءه، و كان يقول: إن جعفرًا إله، فلما بلغ ذلك جعفرًا لعنه و طرده، و كان أبو الخطاب يدعى بعد ذلك الألوهية. انتهى من التبصير فى الدين ص ٧٣-٧٤.

(٤) المواقف ج ٨ ص ٣٨٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦

فى الآية (٦٨) من سورة النحل: «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» لم لا يجوز أن يوحى إلينا (١).

من تأويلات العبيدين:

كذلك نجد أبا إسحاق الشاطبى يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعى المسمى بالمهدى، حين ملك إفريقيا و استولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره، و كان أحدهما يسمى بنصر الله، و الآخر يسمى بالفتح فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكر كما الله فى كتابه فقال: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ». قالوا: و قد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى.

فبدل قوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» بقوله: (كتامة خير أمة أخرجت للناس (٢)).

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون، يجدون فى صرف اللفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم، و يتناسب مع أهوائهم و نزعاتهم، و هم بعملهم هذا يحملون القرآن ما لا يحتمله، و يقولون على الله بغير علم و لا برهان.

كذلك نجد الإمامية الاثنى عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، و يلوونه حسب أهوائهم و مذاهبهم، و هؤلاء ليس لهم فى تفسيرهم المذهبى مستند صحيح يستندون إليه، و لا دليل سليم يعتمدون عليه، و إنما هى أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، و خرافات

صدرت من عقول عشش فيها الباطل و أفرخ، فكان ما كان من خرافات و ترهات!!.

نعم يعتمد الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم للقرآن الكريم و نظراتهم إليه، على أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام و الخرافات التى لا توجد إلا فى عقول أصحابها، فمن ذلك الذى يعتمدون عليه ما يأتى: (١) التبصير فى الدين ص ٧٤.
(٢) الموافقات ج ٣ ص ٣٩٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧

أولاً: جمع القرآن الكريم و تأويله، و هو كتاب جمع فيه على رضى الله عنه القرآن على ترتيب النزول «١».

ثانياً: كتاب أملى فيه أمير المؤمنين عليه السلام ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن، و ذكر لكل نوع مثلاً يخصه. و يعتقدون أنه الأصل لكل من كتب فى أنواع علوم القرآن، و هم يروون عن على رضى الله عنه هذا الكتاب بطرق عدة، و هو فى أيديهم إلى اليوم، و يبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعا بالقطع الكبير الكامل، كل صفحة منها سبعة و عشرون سطراً «٢».

ثالثاً: الجامعة و هى كتاب طوله سبعون ذراعاً من إماء رسول الله صلى الله عليه و سلم و خط على عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق فى عرض الجلد، جمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعاً و عدها من مؤلفات على باعتبار أنه كتبها و رتبها من قول رسول الله صلى الله عليه و سلم و إمامه. قالوا: و فيها كل حلال و حرام، و كل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش فى الخدش «٣».

رابعاً: الجفر، و هو غير الجامعة و فيه يقول ابن خلدون: «و اعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلي و هو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، و فيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، و لبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر و نظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة و الكشف الذى يقع لمتلهم من الأولياء، و كان مكتوباً عند جعفر فى جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلي، و كتبه، و سماه: «الجفر» باسم الجلد الذى كتب فيه «٤»؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير. و صار

هذا (١) أعيان الشيعة ج ١ ص ١٥٤

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٤-١٥٥

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٦٦-١٦٨

(٤) المعروف من كتب اللغة أن الجفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، و فى القاموس: الجفر من أولاد الشاء ما عظم و استكرش.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨

الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم، و كان فيه تفسير القرآن و ما فى باطنه من غرائب المعانى، مروية عن جعفر الصادق. و هذا الكتاب لم تتصل روايته، و لا عرف عينه، و إنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، و لو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه، أو من رجال قومه؛ فهم أهل الكرامات «١»... اه.

و يعرف صاحب أعيان الشيعة الجفر بأنه كتاب أملاه رسول الله صلى الله عليه و سلم على على رضى الله عنه، و يذكر فى ذلك أقوالاً متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها: «الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فى العلوم النبوية من حلال، و حرام، و أحكام، و أصول ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم و ما يصلحهم فى دنياهم، و الإخبار عن بعض الحوادث، و يمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد «٢» ثم ينكر على من يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم، و يتمثل بقول أبى العلاء المعرى:

لقد عجبوا لأهل البيت لما أروهم علمهم فى مسك جفر

و مرآة المنجم و هى صغرى أرتة كل عامرة و قفر

«٣» خامساً: مصحف فاطمة، جاء فى البصائر: «أن أبا عبد الله سأل بعض الأصحاب عن مصحف فاطمة، فقال: إنكم تبحثون عما تريدون و عما لا تريدون.

إن فاطمة مكنت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة و سبعين يوما، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، و كان جبريل يأتيها و يحسن عزاءها على أبيها، و يطيب نفسها، و يخبرها عن أبيها و مكانه، و يخبرها بما يكون بعدها في ذريتها.

و كان عليّ عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة «٤». (١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٣

(٢) أعيان الشيعة ج ١ ص ١٨٢

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٤

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩

هذه هي أهم الأشياء التي يستند إليها الإمامية الاثنا عشرية في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، و هي كلها أوهاام و أباطيل لا ثبوت لها إلا في عقول الشيعة ..

و كيف يكون سائغا و مقبولا أن يبنى تفسير القرآن و فهم معانيه على أوهاام و أباطيل؟؟ لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى فيقول:

«و أعجب من هذا التفسير- يعنى تفسير المعتزلة- تفسير الروافض للقرآن، و ما يدعون من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره هارون ابن سعد العجلي، و كان رأس الزيدية فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلهم في جعفر قال منكرا

فظائفه قالوا: إمام. و منهم طوائف سمته النبي المطهرا

و من عجب لم أفضه جلد جفرهم برئت إلى الرحمن ممن تجفرا

برئت إلى الرحمن من كل رافض بصير بباب الكفر .. في الدين أعورا

إذا كف أهل الحق عن بدعة مضى عليها، و إن يمضوا على الحق قصرا

و لو قال: إن الفيل ضب لصدقوا و لو قال: زنجي تحول أحمر

و أخلف من بول البعير فإنه إذا هو للإقبال و جه أدبرا

فقبح أقوام رموه بفرية كما قال في عيسى الفرسى من تنصرا

«١» (١) هذا الذي ذكره ابن قتيبة عن هارون بن سعد العجلي، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هارون بن سعد

العجلي و هو يرويه عن جعفر الصادق و يمكن دفع هذا التناقض بأن نقول: إن هارون بن سعد العجلي، و كان رافضيا مغاليا أول أمره،

و كان يروى هذا الجفر و يصدق به ثم رجع عن مذهبه و غلوه و تصديقه بالجفر، و قال مقالته التي رواها ابن قتيبة بعد توبته. و هذا

الذي ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء في تهذيب التهذيب عند الكلام عن هارون بن سعد العجلي ج ١١ ص ٦ و خلاصته: أن

هارون ابن سعد العجلي، و يقال الجعفي الكوفي الأعور. قال أحمد:

روى عنه الناس .. و هو صالح. و روى عن ابن معين أنه قال: ليس به بأس ذو ذكره

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠

قال أبو محمد: و هو جلد جفرا دعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه، و كل ما يكون إلى يوم القيامة، فمن ذلك

قولهم في قول الله عز و جل «و وَرَثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ» «١» إنه الإمام، و رث النبي صلى الله عليه وسلم علمه. و قولهم في قول الله عز و

جل «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا» بقرة «٢» إنها عائشة رضی الله عنها و في قوله تعالى فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعَصَاهُ «٣» إنه طلحة و الزبير. و

قولهم في الخمر و الميسر: إنهما أبو بكر و عمرو (رضى الله عنهما).

و الجبت و الطاغوت: إنهما معاوية و عمرو بن العاص ... مع عجائب أرغب عن ذكرها، و يرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها.

و كان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر، فإنه قال ذات يوم: ما سمعت بأكذب من بنى تميم زعموا أن قول القائل:

بيت زرارة محتب بفنائهم و مجاشع، و أبو الفوارس نهشل

أنه في رجال منهم ... قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت: بيت الله. و زرارة: الحجر، قيل. فمجاهع؟ قال: رمز .. جشعت بالماء. قيل:

فأبو الفوارس؟ قال: أبو قيس، قيل له: فنهشل؟ قال نهشل ... أشده، و فكر ساعة ثم قال: نهشل: مصباح الكعبة؛ لأنه طويل أسود، فذلك نهشل. ابن حبان في الثقات، و ذكره أيضا في الضعفاء؛ قال: و كان غالبا في الرفض لانحل عنه الرواية بحال. و روى عن ابن معين أيضا أنه قال: كان من غلاة الشيعة. و قال الساجي: كان يغلو في الرفض و حكى أبو العرب الصقلي عن ابن قتيبة أنه أنشد له شعرا يدل على نزوعه عن الرفض، اه ملخصا، و نزع عن الرفض معناه: رجع عنه، يقال نزع عن الأمر إذا انتهى عنه و أباه. كما أفاده صاحب القاموس و غيره.

(١) في الآية ١٦ من سورة النمل

(٢) في الآية ٦٧ من سورة البقرة

(٣) في الآية ٧٣ من سورة البقرة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١

و هم أكثر أهل البدع اقترافا و نحلا، فمنهم قوم يقال لهم البيانية، ينسبون إلى رجل يقال له بيان، قال لهم: إلى أشار الله تعالى إذ قال «هذا بيان للناس و هدى و موعظة للمتقين» (١).

و هم أول من قال بخلق القرآن. و منهم المنصورية، أصحاب أبي منصور الكسفي و كان قال لأصحابه: في نزل قوله «و إن يزوا كسفاً من السماء ساقطاً» (٢) و منهم الخناقون و الشداخون و منهم الغرابية، و هم الذين ذكروا أن عليا رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه و سلم من الغراب بالغراب، فتغلط جبريل عليه السلام حيث بعث إلى علي لشبهه به.

قال أبو محمد: و لا نعلم في أهل البدع و الأهواء أحدا ادعى الربوبية لبشر غيرهم؛ فإن عبد الله بن سبأ، ادعى الربوبية لعلي فأحرق علي أصحابه بالنار، و قال في ذلك.

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أجمت ناري و دعوت قنبرا

«٣» و لا نعلم أحدا ادعى النبوة لنفسه غيرهم؛ فإن المختار بن أبي عبيد ادعى النبوة لنفسه، و قال: «إن جبريل و ميكائيل يأتيان إلى جهته. فصدقه قوم و اتبعوه، و هم الكيسانية» (٤) اه.

هذا و لا يفوتنا أن القول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، و أشهر ما بقي منها إلى اليوم ثلاث فرق، هي: الإمامية الاثنا عشرية، و الإمامية الإسماعيلية، و هم المسمون بالباطنية، و الزيدية.

أما الإمامية الاثنا عشرية، فينتشرون اليوم في بلاد إيران، و بلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام. (١) في الآية (١٣٨) من سورة آل عمران

(٢) في الآية (٤٤) من سورة الطور.

(٣) قبر هو مولى علي الذي تولى طرحهم في النار.

(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤-٨٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢

و أما الإسماعيلية، فينتشرون في بلاد الهند؛ كما يوجدون في نواح أخرى متفرقة، و زعيمهم آقاخان الزعيم الهندي الإسماعيلي

المعروف «١» و أما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.

إذا فالأجدر بنا أن نمسك عن موقف هذه الفرق البائدة من تفسير القرآن، ما دامت قد بادت و لم يبق لها أثر، و ما دمنا لم تقف لها على شيء في التفسير أكثر من هذه البند المتفرقة التي وجدناها للبعض منهم و جمعناها من بطون الكتب المختلفة. و الذى يستحق عنايتنا و بحثنا بعد ذلك، هو تلك الفرق الثلاث التي لا تزال موجودة إلى اليوم محتفظة بتعاليمها و آرائها. و سنبدأ أولاً بالإمامية الاثنى عشرية، ثم بالإمامية الإسماعيلية، ثم بالزيدية فنقول و بالله التوفيق. (١) و هو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت و الحسن هذا من نسل على بن أبى طالب إه من ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٢٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣

(١) موقف الإمامية الاثنى عشرية من تفسير القرآن الكريم

إشارة

للإمامية الاثنى عشرية معتقدات يدينون بها، و ينفردون بها عن عداهم من طوائف الشيعة. و هم حين يعتقدون هذه المعتقدات لا بدلهم - ما داموا يقرون بالإسلام و يعترفون بالقرآن و لو بوجه ما - أن يقيموا هذه العقائد على دعائم من نصوص القرآن الكريم، و أن يدافعوا عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل و قوة الدليل.

موقفهم من الأئمة و أثر ذلك فى تفسيرهم:

و إذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يلقون على الأئمة نوعاً من التقديس و التعظيم، و يرون أن الأئمة (أركان الأرض أن تميد بأهلها، و حجة الله البالغة على من فوق الأرض و من تحت الثرى) «١» و يرون أن الإمامة (زام الدين، و نظام المسلمين، و صلاح الدنيا، و عز المؤمنين «٢»).

و لما كان الإمام عندهم فوق أن يحكم عليه، و فوق الناس فى طينته و تصرفاته، فإننا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التي للأنبياء و الرسل، و أنه مشروع و منفذ، و أن الله قد فوض النبى و الإمام فى الدين، و يروون عن الصادق أنه قال: (إن الله خلق نبيه على أحسن أدب و أرشد عقل، ثم أدب نبيه فأحسن تأديبه فقال: «حُذِرِ الْعَفْوُ وَ أُمِرَ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» «٣» ثم أثنى الله عليه فقال: (وَ إِنَّكَ لَعَلَى (١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢١٥ نقلاً عن أصول الكافي ص ٩٣

(٢) المرجع السابق

(٣) فى الآية (١٩٩) من سورة الأعراف

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤

حُلقٍ عَظِيمٍ «١» ثم بعد ذلك فوض إليه دينه، فوض إليه التشريع فقال:

«وَ مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» «٢» و «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» «٣» الله فوض دينه إلى نبيه. ثم أن نبى الله فوض كل ذلك إلى على و أولاده سلمتم و جحدته، الناس، فو الله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا و أن تصمتوا إذا صمتنا، و نحن فيما بينكم و بين الله، و ما جعل الله لأحد خيراً فى خلاف أمرنا «٤».

و حيث إن الله تعالى خلق النبى و كل إمام بعده على أحسن أدب و أرشد عقل، فلا يختار النبى و لا الإمام إلا ما فيه صلاح و ثواب، و لا يخطر بقلب النبى و لا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله و ما يناقض مصلحة الأمة. فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلى رأى النبى و رأى الإمام مثل الزيادة فى عدد ركعات الفرض و مثل تعيين النوافل من الصلاة و الصيام، و ذلك إظهاراً لكرامة النبى و الإمام، و لم يكن أصل التعيين إلا بالوحى، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام، و له فى الشرع شواهد: حرم الله الخمر، و حرم النبى كل مسكر فأجازة

الله، و فرض الله الفرائض و لم يذكر الجسد، فجعل النبي للجسد السدس، و كان النبي يبشر و يعطي الجنة على الله و يجيزه الله. و أيضا فوض الله للنبي و الأئمة من بعده أمور الخلق، و أمور الإدارة و السياسة من التأديب و التكميل و التعليم، و واجب على الناس طاعتهم في كل ذلك. قالوا: و هذا حق ثابت دلت الأخبار عليه.

و أيضا فوضهم الله تعالى في البيان، بيان الأحكام و الإفتاء و تفسير آيات القرآن و تأويلها، و لهم أن يبينوا و لهم أن يسكتوا، و لهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا و على أي وجه شاءوا تقيته منهم و على حسب الأحوال و المصلحة. (١) الآية ٤ من سورة نون

(٢) في الآية ٦٤ من سورة النساء

(٣) في الآية ٨٠ من سورة النساء

(٤) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٨٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥

و التفويض بهذا المعنى يدعون أنه حق ثابت لهم، و الاخبار ناطقة به و شاهدة عليه. يقول صاحب الكافي (سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة في كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب، أجاب ثلاثة بأجوبة ثلاثة، و اختلاف الأجوبة في مسألة واحدة كان يقع إما على سبيل التقيّة و إما على سبيل التفويض «١»).

و هناك نوع آخر من التفويض يشبّهونه للنبي و الأئمة، ذلك هو أن النبي أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة، و له أن يترك الظاهر و يحكم بما يراه و ما يلهمه الله من الواقع و خالص الحق في كل واقعة، كما كان لصاحب موسى في قصة الكهف، و كما وقع لدى القرنين «٢».

ثم كان من توابع هذه العقيدة التي يعتقدونها في أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة، و قالوا بالمهدى المنتظر، و قالوا بالرجعة، و قالوا بالتقية، و هذه كلها عقائد رسخت في أذهانهم و تمكنت من عقولهم، فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسروا القرآن وفقا لهوهم، و فهموا نصوصه و تأولوها حسبما تمليه عليهم العقيدة و يزينه لهم الهوى. و هذا تفسير بالرأى المذموم، تفسير من اعتقد أولا، ثم فسر ثانيا بعد أن اعتقد.

تأثر الإمامية الاثني عشرية بأراء المعتزلة و أثر ذلك في تفسيرهم:

و هذا و إن الإمامية الاثني عشرية لهم في نصوص القرآن التي تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تنفق إلى حد كبير مع نظرة المعتزلة إلى هذه النصوص نفسها و لم يكن بينهم و بين المعتزلة خلاف إلا في مسائل قليلة، و يظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذي كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة و علمائهم لبعض شيوخ المعتزلة، كما يظهر لنا جليا أن هذا الارتباط في التفكير شيء قديم

غير جديد، فالحسن العسكري، و الشريف المرتضى، (١) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٨٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦

و أبو على الطبرسي، و غيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية في تفسيرهم التي بأيدينا، و التي تعرضنا لبعضها و سنعرض لبعضها الآخر قريبا، بل إننا نجد الشريف المرتضى في أماليه يحاول محاولة جديده أنه يجعل عليا رضى الله عنه معتزليا أو رأس المعتزلة على الأصح، و قد تقدمت لنا مقالته التي عرضنا لها عند الكلام عن أماليه «١». و ليس من شك في أن هذه النظرات الاعتزالية كان لها أثر كبير في تفسيرهم، و ستقف على شيء من ذلك إن شاء الله تعالى.

تأثرهم بمذاهبهم الفقهية و الأصولية في تفسيرهم.

ثم إن الشيعة لهم في الفقه و أصوله آراء خالفوا بها من سواهم. فمثلا نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة و هي: الكتاب، و السنة، و الإجماع؛ و دليل العقل. أما الكتاب فلهم رأى فيه سنعرض له فيما بعد.

و أما السنة فهم غير أمناء عليها و لا ملتزمين ما صح منها، و سنعرض لها فيما بعد أيضا.

و أما الإجماع فليس حجة بنفسه، و إنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم في المجمعين، أو كان الإجماع كاشفا عن رأيه في المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر؛ فهو في الحقيقة داخل في الكتاب أو السنة. (١) يرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله، و الحسن، ابنا محمد بن الحنفية، و عن أبي هاشم أخذ واصل بن عطاء - مقدمة تبين كذب المفترى ص ١٠، ١١- و يقول أبو الحسن الطرائفى الشافعى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ فى كتابه رد أهل الأهواء و البدع (عند ما بايع الحسن بن على معاوية و سلم له الأمر، اعتزل جماعة من أصحاب على الحسن و معاوية و جميع الناس و لزموا منازلهم، و قالوا: نشتغل بالعلم و العبادة فسموا بذلك معتزلة. اه من هامش تبين كذب المفترى ص ١٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧

و أما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس، و لا الاستحسان، و لا المصالح المرسله، لأن ذلك كله ليس حجة عندهم «١» و فى الفقه لهم مخالقات يشذون بها، فمثلا تراهم يقولون: إن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح دون الغسل، و لا يجوزون المسح على الخفين، و جوزوا نكاح المتعة، و جوزوا أن تورث الأنبياء، و لهم مخالقات فى نظام الإرث، كإنكارهم للقول مثلا، و لهم مخالقات كثيرة غير ذلك فى مسائل الاجتهاد:

لهذا كان طبيعيا أن يقف الإمامية الاثنا عشرية من الآيات التى تتعلق بالفقه و أصوله موقفا فيه تعصب و تعسف، حتى يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص و يجعلوها أدلة لآرائهم و مذاهبهم، كما كان طبيعيا، أن يتأولوا ما يعارضهم من الآيات و الأحاديث، بل و وجدناهم أحيانا يزيدون فى القرآن ما ليس منه و يدعون أنه قراءة أهل البيت، و هذا إمعان منهم فى اللجاج، و إغراق فى المخالفة و الشذوذ.

احتياهم على تركيز عقائدهم و ترويجها:

و يظهر لنا أن الإمامية الاثني عشرية لم يجدوا فى القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم و ميولهم، فراحوا- أولا- يدعون أن القرآن له ظاهر و باطن بل و بواطن كثيرة، و أن علم جميع القرآن عند الأئمة، سواء فى ذلك ما يتعلق بالظواهر و ما يتعلق بالبواطن، و حجروا على العقول فمنعوا الناس من القول فى القرآن بغير سماع من أئمتهم، و راحوا- ثانيا- يدعون أن القرآن وارد كله أو جله فى أئمتهم و مواليهم، و فى أعدائهم و مخالفيهم كذلك و راحوا- ثالثا- يدعون أن القرآن حرّف و يدل عما كان عليه زمن النبى صلى الله عليه و سلم، و كل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال على تركيز (١) أنظر أعيان الشيعة ج ١ ص ٤٧٧- و قد مثل لدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. أنظر ص ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد على تقى الحيدرى طبع شركة النشر و الطباعة العراقية سنة ١٩٥٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨

عقائدهم و إيهاهم الناس أنها مستفاه من القرآن الذى هو المنبع الأساسى و الأول للدين.

و أعجب من هذا، أنهم أخذوا يموهون على الناس، و يغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول الله صلى الله عليه و سلم و على أهل بيته، و طعنوا على الصحابة إلا- نفرا قليلا- منهم، و رموهم بكل نقيصة فى الدين؛ ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عند ما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التى يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم.

إشارة

و يحسن بنا ألا نمر سراعاً على هذه النقط الأربعة بالذات، بل علينا أن نقف أمامها وقفهً طويلاً و دقيقةً حتى نستطيع أن نقف على مدى هذه الأوهام و الدعاوى التي كان لها أكبر الأثر في اتجاه التفسير عند الإمامية الاثني عشرية، فنقول و بالله التوفيق.

(١) ظاهر القرآن و باطنه:

إشارة

يقول الإمامية الاثنا عشرية: إن القرآن له ظاهر و باطن. و هذه حقيقة نقرهم عليها و لا نعارضهم فيها بعد ما صح لدينا من الأحاديث التي تقرر هذا المبدأ في التفسير «١» غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد. بل تجاوزوا إلى القول بأن للقرآن سبعة و سبعين بطناً، و لم يقتصروا على ذلك بل تبادوا و ادعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن في الدعوة إلى التوحيد و النبوة و الرسالة، و جعل باطنه في الدعوة إلى الإمامة و الولاية و ما يتعلق بهما.

حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن و باطنه:

و لقد كان من أثر هذا الرأي في القرآن، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به على أن يعقدوا صلةً بين المعاني الظاهرة و المعاني الباطنة للقرآن. و يعملوا بكل ما في وسعهم و طاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يقربوا هذا المبدأ من عقول (١) سيأتي بيان المراد بالباطن قريباً، و ستري أنه بمعزل عما ذهب إليه الإمامية.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩

الناس و يجعلوه أمراً سائغاً مقبولاً. و من أمثله هذا التوفيق و الربط بين ظاهر القرآن و باطنه، قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة محمد عليه السلام «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَّ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَّ أَنْهَارٌ مِنْ حَمِيمٍ لَدَدَةٍ لِلشَّارِبِينَ وَّ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَّ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى، و مراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطنى هو علوم الأئمة عليهم السلام، و يقولون: إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما و بمثل هذا يوفقون بين المعاني الظاهرة و الباطنة، حتى لا يكون مستبعداً إرادة الله لمعنى خاص بحسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، و إرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن.

و كآنى بالإمامية الاثني عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن و باطنه، و جمعوا بينهما بجامع التناسب و التشابه ... كآنى بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا- يكفى في حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوه عليه من ناحية العقيدة و الإلهاب الدينى، الذى يشبه الإرهاب الكنسى للعامه فى العصور المظلمه، من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم أعمال العقل، و حالوا بينهم و بين حريتهم الفكرية، فقالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن و باطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه و متشابهه، و ناسخه و منسوخه، و لا بد أن يكون ذلك على سبيل التفصيل إن وصل إليه علم ذلك مفصلاً عن آل البيت، و يكفى فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل. قالوا: و لا يجوز له أن ينكر الباطن بحال، و عليه أن يسلم بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت و إن لم يفهم معناه، و لو أن إنساناً آمن بالظاهر و أنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر و آمن بالباطن أو الظاهر و الباطن جميعاً.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠

و حرصا منهم على تعطيل عقول الناس و منعهم من النظر الحر في نصوص القرآن الكريم، قالوا: إن جميع معاني القرآن، سواء منها ما يتعلق بالظاهر و ما يتعلق بالباطن، اختص بها النبي صلى الله عليه و سلم و الأئمة من بعده، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله؛ لأن القرآن نزل في بيتهم (و أهل البيت أدرى بما في البيت). أما من عداهم من الناس فلا- يرون أدنى شبهة في قصور علمهم، و عدم إدراكه لكثير من معاني القرآن الظاهرة، فضلا عن معانيه الباطنة، قالوا: و لهذا لا يجوز لإنسان أن يقول في القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه و انقياده لله و لرسوله و لأهل البيت و استمد علومه من أهل البيت حتى أنس من نفسه العلم و المعرفة.. جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له؛ لأنه بحبه لآل البيت و أخذه عنهم سار كأنه منهم و قد قيل (سلمان منا آل البيت).

أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن.

و لقد كان من نتائج هذا التفسير الباطني للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطربا بالغا و مجالا رحبا، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى و تزينه لهم العقيدة، فأخذوا يتصرفون في القرآن كما يحبون، و على أى وجه يشتهون، بعد ما ظنوا أن العامة قد انخدعت بأوهامهم و سلموا بأفكارهم و مبادئهم.

فقالوا- مثلا:- إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعاني الباطنة لبعض الآيات إلى ما سيحدث في المستقبل من حوادث، و يعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يفرعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى، و ما يزينه في أعينهم داعي العقيدة و سلطانها، فيقولون مثلا في قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الانشقاق «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ» إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء كذلك مكن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللفظ الذى يراد به العموم ظاهرا كثيرا ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن، فمثلا لفظ

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١

الكافرين الذى يراد به العموم، يقولون: هو فى الباطن مخصوص بمن كفر بولاية على.

كما مكنهم أيضا من أن يصرفوا الخطاب الذى هو موجه فى الظاهر إلى الأمم السابقة أو إلى أفراد منها، إلى من يصدق عليه الخطاب فى نظرهم من هذه الأمة بحسب الباطن، فمثلا قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأعراف (وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) يقولون فيه: قوم موسى فى الباطن هم أهل الإسلام.

و لقد مكنهم أيضا من أن يتركوا أحيانا المعنى الظاهر و يقولوا بالباطن وحده، كما فى قوله تعالى فى الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكَبُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا» فالظاهر غير مراد عندهم، و يقولون عنى بذلك غير النبي؛ لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجه للنبي عليه الصلاة و السلام، و إنما هو معنى به من قد مضى، أو هو من باب (إياك أعنى و اسمعى يا جارة).

كذلك مكنهم هذا المبدأ من إرجاع الضمير إلى ما لم يسبق له ذكر، كما فى قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة يونس «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَرُّوْا غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ...» حيث يفسرون (أو بدله) بمعنى أو بدل عليا.

و معلوم أن عليا لم يسبق له ذكر، و لم يكن الكلام مسوقا فى شأن خلافته و ولايته.

و مما ساع لهم أن يقولوه بعد تقريرهم لمبدأ القول بالباطن: إن تأويل الآيات القرآنية لا يجرى على أهل زمان واحد، بل عندهم أن كل فقرة من فقرات القرآن لها تأويل يجرى فى كل آن، و على أهل كل زمان، فمعانى القرآن على هذا متجددة، حسب تجدد الأزمنة و ما يكون فيها من حوادث. بل و ساع لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: إن الآية الواحدة لها تأويلات كثيرة مختلفة متناقضة، و

قالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها في شيء و آخرها في شيء آخر ..

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢

و لا شك أن باب التأويل الباطني باب واسع يمكن لكل من ولجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلد و يجيش بخاطره. و ليس لقاتل أن يقول: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم صرح بأن للقرآن باطنا، و إن المفسرين جميعا يعترفون بذلك و يقولون به، فكيف توجه اللوم إلى الإمامية و حدهم؟ ليس لقاتل أن يقول ذلك؛ لأن الباطن الذي أشار إليه الحديث و قال به جمهور المفسرين، هو عبارة عن التأويل الذي يحتمله اللفظ القرآني، و يمكن أن يكون من مدلولاته. أما الباطن الذي يقول به الشيعة فشيء يتفق مع أذواقهم و مشاربهم، و ليس في اللفظ القرآني الكريم ما يدل عليه و لو بالإشارة.

مخلصهم من تناقض أقوالهم في التفسير:

ثم إن الإمامية الاثني عشرية، أحسوا بخطر موقفهم و تخرجوا عند ما جوزوا أن يكون للآية الواحدة أكثر من تفسير واحد مع التناقض و الاختلاف بين هذه التفاسير. فأخذوا يموهون على العامة و يضللونهم، فقرروا من المبادئ ما أوجبوا الاعتقاد به أولا على الناس ليصلوا بعد ذلك إلى مخلص يتخلصون به من هذا المأزق الحرج، فكان من هذه المبادئ التي قرروها و أوجبوا الاعتقاد بها ما يأتي:
أولا: أن الإمام مفوض من قبل الله في تفسير القرآن.
ثانيا: أنه مفوض في سياسة الأمة.
ثالثا: التقية.

و كل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصا للخروج من هذا التناقض الذي وقع في تفاسيرهم التي يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوضا من قبل الله في تفسير القرآن مخلص لهم؛ لأن باب التفويض واسع. و كونه مفوضا في سياسة الأمة مخلص أيضا؛ لأن الإمام أعلم بالتنزيل و التأويل، و أعلم بما فيه صلاح السائل و السامع، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣

و القول بالتقية مخلص أوسع من سابقه، لأن الإمام له أن يسكت و لا يجيب، تقيه منه (قيل عند الباقر: إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذي ریح بطونهم أهل النار، فقال الباقر: فهلك إذا مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتوما منذ بعث الله نوحا، فليذهب الحسن يمينا و شمالا، لا يوجد العلم إلا هاهنا .. و أشار إلى صدره «١»).

و للإمام أن يجيب بحسب الأحوال و ما يرى فيه المصلحة .. تقيه منه أيضا و بنوا على هذا (أن الإمام إن قال قولا على سبيل التقيه، فللشيعة أن يأخذ به و يعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعة إلى أن قول الإمام كان على سبيل التقيه «٢» و نحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجئون إلى هذه التقيه .. تقيه الخداع في الأخبار، و النفاق في الأحكام، و إنما هي تمحلات يتمحلونها، ليخلصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذي وقعوا فيه.

(٢) موقف القرآن من الأئمة و أوليائهم و أعدائهم:

ثم إن الإمامية الاثني عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة على و من بعده من الأئمة و التزام جبههم و موالاتهم، و بغض مخالفهم و أعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقي الأصول، كما قرروا و جوب طاعة الأئمة، و اعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين.

قرر الإمامية هذا كله، ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن على ما قرروه، بل و زادوا على ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح و الثناء وردت في الأئمة و من والاهم، و كل آيات الذم و التقرع وردت في مخالفهم و أعدائهم، بل و يدعون (١) الوشيعة في نقد عقائد

الشيعة ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق ص ٨٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤

ما هو أكثر من ذلك فيقولون: إن جلّ القرآن بل كله، أنزل في الإرشاد إليهم، و للإعلان بهم، و الأمر بموافقتهم، و النهي عن مخالفتهم.

و لقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جله أو كله وارد في أئمتهم و من والاهم، و في أعدائهم و من وافقهم، أن قالوا: إن ما نسبته الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره سره أن أراد إدخال النبي صلى الله عليه و سلم و الأئمة معه. قالوا:

و هو مجاز شائع معروف، بل و بالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحيانا كما في قوله تعالى: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» حيث رووا عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال فيها: إن الله أعظم و أعز و أجل من أن يظلم، و لكن خلطنا بنفسه فجعل ظلمه، و ولايتنا ولايته، حيث يقول:

«إِنَّمَا وَثِقْتُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» بمعنى الأئمة منا «١» اه.

و أعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة، و الإله و الرب، مرادا به الإمام و كذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه، و تأولوا ما إضافة الله إلى نفسه من الإطاعة و الرضى و الغنى و الفقر مثلا، بما يتعلق بالإمام كإطاعته، و رضاه و غناه، و فقره ... الخ، و يعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف ... و لكن لا شيوخ لمثل هذا المجاز و لا معرفة لنا به إذا المجاز المتعارف عليه بين العلماء هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه تمنع من إرادة المعنى الأصلي، و أين العلاقة هنا؟ و إذا تكلفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم ... لم هذا التكلف و العدول إلى المجاز، و قد تقرر أنه لا يعدل إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة؟.

(٣) تحريف القرآن و تبديله:

و أحسب أن الإمامية الاثني عشرية، عز عليهم أن يكون القرآن غير صحيح في عقيدتهم بالنسبة للأئمة و موافقيهم، و بالنسبة لأعدائهم و مخالفينهم، و كاني بهم (١) مقدمة مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار ص ٣٩. و الآية رقم (٥٥) من سورة المائدة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥

و قد تساءلو فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جله و اردا في شأن الأئمة و شيعتهم، و في شأن أعدائهم و مخالفينهم، فلم لم يأت القرآن بذلك صريحا مع أنه المقصود أولا و بالذات؟ و لم اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟ ... كآنى بهم بعد هذا التساؤل، و بعد هذا الاعتراض الذى أخذ بخناقهم، راحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن و تبديله، فقالوا:

إن القرآن الذى جمعه على عليه السلام. و توارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف و لا تبديل، أما ما عداه فمحرّف و مبدل، حذف منه كل ما ورد صريحا في فضائل آل البيت، و كل ما ورد صريحا في مثالب أعدائهم و مخالفينهم. و أخبار التحريف متواترة عند الشيعة، و لهم في ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، و هم منها برآء.

يروى الكافى عن الصادق: أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد سبعة عشر ألف آية، و التى بأيدينا منها ستة آلاف و مائتان و ثلاث و ستون آية، و البواقي مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه على «١».

و يقولون: إن سورة (لم يكن) كانت مشتملة على اسم سبعين رجلا- من قريش بأنسابهم و آبائهم. و إن سورة (الأحزاب) كانت مثل سورة (الأنعام) أسقطوا منها فضائل أهل البيت. و إن سورة (الولاية) أسقطت بتمامها ... و غير ذلك من خرافاتهم.

و أخف ما لهم فى هذا الموضوع هو (أن جميع ما فى المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل. و الباقي مما نزل عند المستحفظ لم

يضع منه شيء و إذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله على ما جمعه أمير المؤمنين على) (٢)».

و نقد اصطدم مدعو التحريف و التبديل، بنصوص من القرآن صريحة في هدم مدعاهم هذا، فمن تلك النصوص: قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (١) الوشيعه ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦

الحجر (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذُّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) و لكن سرعان ما تخلصوا منها بالتأويل فقالوا: (و إنا حافظون .. أى عند الأئمة) و بمثل هذا التأويل يتخلصون من باقى النصوص المعارضة لهم.

و اصطدموا أيضا بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر على عقائدهم و مبادئهم.

أولهما: كيف تعتمدون فى تعاليمكم و معتقداتكم على هذا القرآن الذى بأيدينا و قد جزمتم بوقوع التحريف و التبديل فيه؟

ثانيهما: كيف توجبون على الناس أن يعترفوا بفضايا آل البيت، و يتبرءوا من أعدائهم و مخالفاتهم، و الحجج غير قائمة عليهم بعد أن حذف كل ذلك من القرآن؟

و قد أجابوا عن الأول: بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم على، و آل محمد. و أسماء المنافقين. و أجابوا عن الثانى: بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف و التبديل فى القرآن، فلم يكتف بما جاء صريحا فى فضائل أهل البيت و مثالب أعدائهم، بل أشار إلى ذلك و دل عليه بحسب بطون القرآن و تأويله، و هذا قد سلم من التحريف و التبديل قطعا، فبقيت الحجج، قائمة على الناس و إن بدلوا الظاهر و حرفوه.

و الحق أن الشيعة هم الذين حرفوا و بدلوا، فكثيرا ما يزيدون فى القرآن ما ليس منه، و يدعون أنه قراءة أهل البيت، فمثلا نراهم عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» يزيدون (فى شأن على) و هى زيادة لم ترد إلا من طريقهم، و هى طريق مطعون فيها.

و هم الذين حرفوا القرآن أيضا حيث تأولوه على غير ما أنزل الله (قيل للصادق:

ألم يكن على قويا فى دين الله؟ قال: بلى. قيل: فكيف ظهر عليه القوم و لم يدفعهم؟ و ما منعه من ذلك؟ قال الصادق: آية فى كتاب الله منعتة. قيل: أى آية؟ قال: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» كان لله و دائع

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧

مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين و منافقين، و لم يكن على يقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر على من ظهر فقتلهم (١)».

و روى العياشى عن الباقر أنه قال: لما قال النبى «اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بعمر بن هشام» أنزل الله: «و ما كنت متخذ المضلين عضدا» (٢)».

و تقول أصول الكافى فى قوله تعالى فى الآية (١٢٧) من سورة النساء:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْزِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا» إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر و عمرو و عثمان، آمنوا بالنبى أولا، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية على، ثم آمنوا بالبيعة لعلى، ثم كفروا بعد موت النبى. ثم ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة (٣)».

هذه أمثلة نذكرها و نضعها بين يدى القارئ الكريم ليحكم بنفسه حكما صادقا: أن هؤلاء الشيعة، الذين يدعون التحريف و التبديل للقرآن، هم أنفسهم المحرفون لكتاب الله، المبدلون فيه، بصرفهم ألفاظ القرآن إلى غير مدلولاتها و تقولهم على الله بالهوى و التشهى.

(٤) موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة:

إشارة

و لقد رأى الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. و فى تلك الأحاديث و هذه الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة؛ لذا كان بدهيا أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها، و إما بطريق تأويلها. و الرد عندهم سهل ميسور؛ ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولاً لصحابي، و إما أن تكون قولاً لرسول الله صلى (١) الوشيعة ص ٦٤ نقلا عن الوافى ج ٢ ص ١٥٢.

(٢) الوشيعة ص ٦٤.

(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلا عن أصول الكافى ج ٣ ص ٣٢٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨

الله عليه و سلم عن طريق صحابى، و هم يجرحون معظم الصحابة، بل و يكفرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولاً، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما ... و أما التأويل فباب واسع .. و هم أهله و أربابه.

فمثلا- نجدهم يردون الأحاديث و الآثار التى ثبتت فى تحريم نكاح المتعة و نسخ حله، كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين و يقولون: إنها من رواية المغيرة بن شعبة رأس المنافقين. ثم نجدهم يسلمون صحة الرواية جدلا و لكنهم يتأولونها فيقولون: إن الخف الذى كان يلبسه النبى صلى الله عليه و سلم كان مشقوقا من أعلى، فكان، يسمح على ظاهر قدمه من هذا الشق .. و ظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف، فإذا كان هؤلاء لا يقبلون أقوال الصحابة، و لا يثقون بروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، إذا فمن يقبلون قوله؟ و من يثقون بروايتهم؟.

الذى عليه الشيعة إلى اليوم، أنهم لا يأخذون الحديث إلا ممن كان شيعيا، و لا يقبلون تفسيراً إلا ممن كان شيعيا، و لا يثقون بشيء مطلقاً إلا إذا وصل لهم من طريق شيعي!! ... و بهذا حصرنا أنفسهم فى دائرة خاصة، حتى كأنهم هم المسلمون وحدهم، فإن عاشور و سبط السنين فباطنهم لأنفسهم، و ظاهرهم للثقة!! ..

و لبت الأمر وقف بهم عند هذا الحد- حد الثقة بأشياعهم و الاتهام لمن عداهم- بل وجدنا الرؤساء من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفى و غيره «قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، و قلوبهم الطيبة الطاهرة، و حبه لآل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه و سلم و على آل بيته، و يضمنونها ما يرضى ميولهم المذهبية، و أغراضهم السيئة الدنيئة، و لم يفتهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم ...

و يعجبني هنا ما ذكره أبو المظفر الأسفرايينى فى كتابه التبصير فى الدين،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩

و هو: أن الروافض (لما رأوا الجاحظ يتوسع فى التصانيف، و يصنف لكل فريق، قالت له الروافض: صنف لنا كتابا، فقال لهم: لست أدري لكم شبهة حتى أرتبها و أتصرف فيها، فقالوا له. إذا دلنا على شيء نتمسك به «فقال:

لا أرى لكم وجها إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئا تزعمونه، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف لكم سببا تستندون إليه غير هذا الكلام ..

فتمسكوا بحمقهم و غباوتهم بهذه السوءة التى دلهم عليها، فكلما أرادوا أن يخلقوا بدعة أو يخترعوا كذبة، نسبوها إلى ذلك السيد الصادق، و هو عنها منزه و من مقالاتهم فى الدارين برىء «(١)».

أهم الكتب التى يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث و الأخبار:

هذا .. و للإمامية الاثنى عشرية كتب كثيرة، يعتمدون عليها في رواية الأحاديث و الأخبار، و ينزلونها من أنفسهم منزلة سامية، و يثقون بها و ثوقا بالغا، فمن أهم هذه الكتب ما يأتي:

أولاً: كتاب الكافي، و هو أهم الكتب عند الإمامية الاثنى عشرية على الإطلاق، و هو لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ هـ أو ٣٢٩ هـ.

و هو عندهم كالبخارى عند أهل السنة و هذا الكتاب يحتوى على ستة عشر ألف حديث، قسمها - كما فعل أهل السنة - إلى صحيح، و حسن، و ضعيف.

و هو يقع في ثلاث مجلدات: المجلد الأول في الأصول، و الثانى و الثالث في الفروع.

ثانياً: كتاب التهذيب لمحمد بن الحسن الطوسى مجلدان في الفروع.

ثالثاً: كتاب من لا يحضره الفقيه، لمحمد بن على بن بابويه. و هو في الفروع.

رابعاً: كتاب الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار، لمحمد بن الحسن الطوسى «اختصره من كتاب التهذيب. (١) التبصير في الدين ص ٢٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠

هذه الكتب الأربعة، هى أمهات كتب الشيعة التى يعتمدون عليها و يثقون بها، و قد جمعها كتاب الوافى في ثلاث مجلدات كبيرة، و هو من مؤلفات محمد بن مرتضى، المعروف بملاً محسن الكاشى.

و هناك كتب في الحديث ذكرها صاحب أعيان الشيعة غير ما تقدم، منها:

وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة، للشيخ محمد بن الحسن العاملى، و بحار الأنوار فى أحاديث النبى و الأئمة الأطهار، للشيخ محمد الباقر، و هى لا تقل أهمية عن الكتب المتقدمة «١».

و الذى يقرأ فى هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات و أضاليل إلا أن يحكم بأن متونها موضوعه، و أسانيدها مفتعلة مصنوعة، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع؛ لأنهم ينقصهم الذوق، و تعوزهم المهارة، و إلا فأى ذوق و أية مهارة فى تلك الرواية التى يروونها عن جعفر الصادق رضى الله عنه، و هى: أنه قال: (ما من مولود يولد إلا و إبليس من الأبالة بحضرته، فأعلم الله أن المولود من شيعتنا حجه من ذلك الشيطان، و إن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان إصبغه فى دبر الغلام فكان مأبونا، و فى فرج الجارية فكانت فاجرة «٢»).

أظن أن القارئ معى فى أن الذى وضع هذه الرواية و اختلقها على جعفر الصادق، رجل ينقصه الذوق، و تعوزه المهارة، و نحن أمام هذه الأحاديث و الروايات، لا يسعنا إلا أن نردها رداً باتاً، و ذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إن غالب هذه الأحاديث يروونها بدون سند، بل يعتمدون على مجرد وجودها فى كتبهم. تروى كتب الشيعة أن إماماً من أئمة أهل البيت أولاد على يقول: (ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس و إنكم أخذتم عن رسول الله).

و لكر بأس سند؟ تجيب كتب الشيعة: (إن شيوخنا رووا عن الباقر و عن (١) أعيان الشيعة ج ١ ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) الوشيعة ص ٤٠ نقلاً عن الوافى ج ١٣ ص ١٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١

الصادق و كانت التقية شديدة، و كانت الشيوخ تكتم الكتب، فلما خلت الشيوخ و ماتت وصلت كتب الشيوخ إلينا، فقال إمام من الأئمة حدثوا بها فإنها صادقة «١».

ثانياً: إن ما روى من هذه الروايات مسنداً لا بد أن يكون فى سنده شيعى متعصب لمذهبه، و قد قال رجال الحديث: إنه لا تقبل رواية المبتدع الذى يدعو لمذهبه و يروج له.

ثالثاً: (إن القاعدة المتفق عليها بين المحدثين أن كل متن يناقض المعقول.

أو يخالف الأصول. أو يعارض الثابت من المنقول، فهو موضوع على الرسول) و غالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة.

و كلمة الحق و الإنصاف: أنه لو تصفح إنسان أصول الكافي: و كتاب الوافي و غيرهما من الكتب التي يعتمد عليها الإمامية الاثنا عشرية، لظهر له أن معظم ما فيها من الأخبار موضوع وضع كذب و افتراء، و كثير مما روى في تأويل الآيات و تنزيلها، لا يدل إلا على جهل القائل بها و افتراءه على الله، و لو صح ما ترويه هذه الكتب من تأويلات فاسدة للقرآن، لما كان قرآن، و لا إسلام، و لا شرف لأهل البيت، و لا ذكر لهم.

و بعد ... فغالب ما في كتب الإمامية الاثني عشرية في تأويل الآيات و تنزيلها، و في ظهر القرآن و بطنه، استخفاف بالقرآن الكريم، و لعب بآيات الذكر الحكيم ... و إذا كان لهم في تأويل الآيات و تنزيلاتها أغلاط كثيرة، فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جهل منهم؛ بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل. و الكثير منها صدر عمداً عن هوى ملتزم، و للشيعه - كما بينا - أهواء التزمتها.

(١) الوشيعه ص ٤٦-٤٧ نقلاً عن الوافي ج ١ ص ١٢٤ و شرح الكافي ج ١ ص ٢٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢

أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثني عشرية

إشارة

للإمامية الاثني عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير، منها ما تم، و منها ما لم يتم و منها القديم و منها الحديث. و منها ما بقي، و منها ما اندثر، و كلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بيتهما في الغلو و الاعتدال، و اختلاف في المنهج الذي سلكه مؤلف كل منها و من هذه الكتب ما يأتي:- ١- تفسير الحسن العسكري، المتوفى سنة ٢٥٤ هـ أربع و خمسين و مائتين من الهجرة لم يتم، و هو مطبوع في مجلد واحد، و منه نسخة بدار الكتب المصرية.

٢- تفسير محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمى الكوفى المعروف، بالعيشى، من علماء القرن الثالث الهجرى، و هو من أمهات كتب التفسير عند الشيعة، و عليه يعولون كثيراً، و لم يقع لنا هذا التفسير.

٣- تفسير على بن إبراهيم القمى. فى أواخر القرن الثالث و أوائل القرن الرابع الهجرى، و هو تفسير مختصر يعتمد عليه أرباب هذا المذهب كثيراً، و هو مطبوع فى مجلد واحد كبير، و منه نسخة بدار الكتب المصرية.

٤- التبيان: للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ستين و أربعمائه من الهجرة. و هو الذى استمد منه الطبرسى تفسيره، و قد ذكر صاحب أعيان الشيعة أنه يقع فى عشرين مجلداً. و لم يقع لنا هذا التفسير أيضاً «١».

٥- مجمع البيان: لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ (١) ذكر لى عند ما كنت بالعراق: أن هذا التفسير يجرى طبعه فى النجف، و لعله ثم الآن.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣

ثمان و ثلاثين و خمسمائة من الهجرة، و هو مطبوع فى مجلدين كبيرين، و موجود بدار الكتب المصرية و بالمكتبة الأزهرية «١».

٦- الصافى: لمحمد بن مرتضى، الشهير بملا محسن الكاشى، من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، و هو مطبوع فى مجلد واحد كبير، و منه نسخة بدار الكتب المصرية.

٧- الأصفى: للمؤلف السابق، و هو مختصر من الصافى، و مطبوع فى مجلد واحد كبير، و منه نسخة بدار الكتب المصرية، و أخرى بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

٨- البرهان: لهاشم بن سليمان بن اسماعيل الحسيني البحراني، المتوفى سنة ١١٠٧ هـ سيع و مائه بعد الألف من الهجرة، و هو مطبوع في مجلدين، و موجود بدار الكتب المصرية.

٩- مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار: للمولى عبد اللطيف الكازراني، و لم يقع لنا هذا التفسير و الموجود منه مقدمته فقط، و هي مطبوعة في مجلد كبير و موجودة في دار الكتب المصرية.

١٠- المؤلف: لمحمد مرتضى الحسيني، المعروف بنور الدين، من علماء القرن الثاني عشر الهجري، و هو مخطوط في مجلد واحد صغير، و موجود بدار الكتب المصرية.

١١- تفسير القرآن: للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوي، المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ اثنتين و أربعين و مائتين بعد الألف من الهجرة، و هو مطبوع في مجلد كبير، و موجود بدار الكتب المصرية.

١٢- بيان السعادة في مقامات العبادة: لسلطان بن محمد بن حيدر الخراساني، من علماء القرن الرابع عشر الهجري، و هو مطبوع في مجلد كبير و موجود بدار الكتب المصرية. (١) و قد طبع أخيراً في إيران في عشر مجلدات، كما أن دار التقريب بالقاهرة تقوم على طبعه الآن و قد صدر منه جزء واحد.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤

١٣- آلاء الرحمن في تفسير القرآن: لمحمد جواد بن حسن النجفي المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ اثنتين و خمسين و ثلاثمائة بعد الألف من الهجرة. لم يتم، و الموجود منه بدار الكتب المصرية الجزء الأول، و هو كل ما كتبه المؤلف، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه. و هو يبدأ بسورة الفاتحة، و ينتهي عند قوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة النساء «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا... الآية ..

هذا هو أهم ما عرفناه من كتب التفسير عند الإمامية الاثني عشرية. و قد أمكنني أن أطلع على كل ما ذكرته من الموجود من هذه الكتب. و على غير ما ذكرته مما هو موجود أيضا بدار الكتب المصرية، فوقفت بنفسى على مشارب أصحابها في التفسير، و اتجاهاتهم في فهمهم لكتاب الله تعالى، و كم كنت أود أن أطلع على تفسير العياشى، و تفسير الطوسى؛ لأقف بنفسى على هذين الكتابين المعترين أهم المراجع في التفسير عند أرباب هذا المذهب.

و أظنني لست بحاجة إلى أن أتكلم عن كل كتاب اطلعت عليه من كتب هؤلاء القوم في التفسير، بل يكفيني أن أتكلم عن بعض منها، و هو أهمها، مع ملاحظة أن يكون كل كتاب يقع عليه اختياري، له لون خاص من ألوان التفسير عند الإمامية الاثني عشرية، و طالع يمتاز به عما سواه.

و قد رأيت أن الخص أولاً مقدمه مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار للكازراني، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، و من وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص.

ثم أتكلم عن تفسير الحسن العسكري، لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين، الذين عندهم علم الكتاب كله، ظاهره و باطنه. ثم عن مجمع البيان للطبرسي، لأنه يمثل لنا تفسير معتدلي الإمامية الاثني عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم، و مقدار دفاعهم عن آرائهم و عقائدهم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥

ثم عن الصافي لملا محسن الكاشي: لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفي الإمامية الاثني عشرية.

ثم عن تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوي؛ لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذي جمع بين الاختصار و كثرة الفائدة.

ثم عن بيان السعادة في مقامات العبادة، لسلطان بن محمد الخراساني؛ لأنه يمثل لنا التفسير الصوفي الفلسفي عند الإمامية الاثني عشرية.

هذه هي أهم الكتب التي سأتكلم عنها و عن مؤلفيها و سأعرض لها مرتبة حسب ترتيبها في الذكر، فأقول مستمداً من الله العون و التوفيق:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦

(١) مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار للمولى عبد اللطيف الكازراني

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو المولى عبد اللطيف الكازراني مولداً، النجفي مسكناً «١».

التعريف بمرآة الأنوار و مشكاة الأسرار و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

هذا التفسير يعد في الحقيقة مرجعاً مهماً من مراجع التفسير عند الإمامية الاثني عشرية، و أصلاً لا بد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه و من على شاكلته في فهمه لكتاب الله، و تنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية و هواه الشيعي ... و لكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الاثني عشرية، و نحن لم نعثر عليه في مكتبة من مكاتبنا المصرية؟ أليس هذا يعد من قبيل الحكم على ما نجهله، و القول فيما ليس لنا به علم؟؟ ... لا، فالكتاب و إن لم نظفر به و لم نطلع عليه، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التي قدم بها مؤلفه لتفسيره هذا.

وجدت هذه المقدمة في دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها في تفسيره، و توضح لنا كثيراً من آرائه في فهم كتاب الله و تبين في صراحة تامّة كيف تأثر المولى الكازراني بعقيدته الزائفة، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأى حال من الأحوال. و ها أنا ذا أخلص لك أهم المباحث التي تشتمل عليها هذه المقدمة. و بذلك نلقى ضوءاً على هذا التفسير المفقود و نعطي القارئ فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف و منهجه في تفسيره (١) لم نقف له على ترجمه أكثر من ذلك.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧

المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره و على منهجه الذي سلكه فيه:

[المقدمة الاولى]

إشارة

يجد القارئ أول ما يقرأ في هذه المقدمة، بيانا مسهباً من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذي حمله على تأليفه لهذا التفسير، و عن المنهج الذي نهجه لنفسه فيه و سار عليه، كما يكشف لنا في أثناء بيانه هذا، عن نظره لكتاب الله و موقفه من تفسيره. تلك النظرة التي لا- نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، و ذلك الموقف الذي لا نرتاب في أنه موقف من أغراه مذهبه و خدعه هواه.

يقول المؤلف في المقدمة ص ٢، ٣ ما نصه: «... إن من أبين الأشياء و أظهرها، و أوضح الأمور و أشهرها، أن لكل آية من كلام الله المجيد ...

و كل فقرة من كتاب الله الحميد، ظهرا و بطنا؛ و تفسيراً و تأويلاً، بل لكل واحدة منها- كما يظهر من الأخبار المستفيضة- سبعة بطون

و سبعون بطناً، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها و تأويلها، بل كثيرا من تنزيلها و تفسيرها، فى فضل شأن السادة الأطهار، و إظهار جلاله حال القادة الأخيار، أعنى النبى المختار. و آله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفار. بل الحق المتين، و الصدق المبين، كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير، أن أكثر آيات الفضل و الإنعام، و المدح و الإكرام، بل كلها فيهم و فى أوليائهم نزلت، و أن جل فقرات التوبيخ و التشنيع، و التهديد و التفضيح، بل جملتها فى مخالفهم و أعدائهم وردت. بل التحقيق الحقيق - كما سيظهر عن قريب - أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم، و الإعلام بهم، و بيان العلوم و الأحكام لهم، و الأمر بإطاعتهم و ترك مخالفتهم، و أن الله عز و جل جعل جملة بطن القرآن فى دعوة الإمامة و الولاية، كما جعل جل ظهره فى دعوة التوحيد و النبوة و الرسالة».

و هذه الدعاوى من المولى الكازرانى لا نكاد نسلمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، و ما ادعاه من دلالة الأخبار المستفيضة و الأحاديث المتكاثرة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨

على ما ذهب إليه، أمر لا يلتفت إليه و لا يعول عليه. لأن ما يعنيه من الأخبار و الأحاديث لا يعدوا أن يكون موضوعا لا أصل له. و من هذا يتضح لنا أن هذا الشيعى مبالغ فى تشييعه إلى حد جعله يحمل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله، و يجعله موزعا بين دعوة الحق و دعوة الباطل، تلك بظاهر القرآن و هذه بباطنه!! ..

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسرى الشيعة الذين سبقوه، و سكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة فى تفاسيرهم. و بين عذرهم فى ذلك.

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدوره، و يدور بخاطره و خلده، أن يجمع ما تفرق من الأخبار المأثورة عن آل البيت و يشرح مضامينها، ثم يلحق نصوص كل آية بسورتها، و ذلك كله فى كتاب مستقل، و لكن حال بينه و بين ما تطمح إليه نفسه - حقه من الزمن - تفرق باله، و تشتت حاله، و كثرة أشغاله، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التى كان حريصا على جمعها، فرأى أن الذى تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل و التسامح فيه، فاستخار الله و استعان بحوله و قوته على تحقيق مرامه، فشرع فى جمع الروايات و تحريرها، و تفسير الآيات و تقريرها.

ثم بين لنا هدفه الذى يرمى إليه من وراء هذا التفسير، و هو أنه أراد أن يفسر آيات القرآن و يقرر معانيها على وجه منيف، و بيان لطيف، و طور رشيق، و طرز أنيق، بطريق الإيجاز و الاختصار، مع ذكر لب المقصود من الآيات و الأخبار، بحيث يوضح غوامض أسرارها، و يكشف عن خبايا أستارها، و يتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها، و يرفع النقاب عن وجوه رموزها، من غير تطويل ممل، و لا اختصار زائد مخل.

ثم بين لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير، و هو يتلخص فيما يأتى:

١- يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة، و يحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩

٢- أنه لا- يتعرض لبيان جمع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم، و قد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جملها.

٣- أنه إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤- أنه يحرص كل الحرص على ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت. عند كل آية من القرآن.

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير «ببركات أول من آمن بالله بعين الإيقان، و ثانى أول ما خلق الله قبل الكون و المكان، قاسم درجات الجنان و دركات النيران ... إمام المشارق و المغرب. أمير المؤمنين أبى الحسين على بن أبى طالب».

ثم قال: و كنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلني في شيعته الخاصين. و أوليائه الخالصين. و أن تدركني شفاعته المقبولة، و حمايته المأمولة و جعلته خدمة لسدته السنية، و ثوابه هدية إلى حضرته العلية، و سميته (مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار) اه. و بالجملة، فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه ببيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت إما صريحا أو استخلاصا من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، و لا يعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من علماء آل البيت رضی الله عنهم.

بعد هذا البيان قال المولى عبد اللطيف الكازراني (و لنذكر قبل الشروع في المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها هاهنا) و نستعرض هذه المقدمات الثلاث فتراه قد جعل المقدمة الأولى في بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية و الإمامة، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد و النبوة و الرسالة، و أن الأصل في تنزيل آيات القرآن بتأويلها، التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠

إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبي و الأئمة صلوات الله عليهم و إعلام عن شأنهم و ذل حال شأنهم، بحيث لا خير أخبر به إلا و هو فيهم و في أتباعهم و عارفيهم و لا سوء ذكر فيه إلا و هو صادق على أعدائهم و في مخالفيهم. قال (و يستبين ذلك في ثلاث مقالات).

المقالة الأولى.

في بيان ما يوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة في خصوص هذه المقدمة، و هي تتم بفصول. ثم ذكر ثلاثة فصول. جعل الفصل الأول منها في بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطونا و لآياته تأويلات. و أن مفاد فقرات القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد، بل بل لكل منها تأويل يجرى في كل أوان و على أهل كل زمان ... ثم ساق الروايات الدالة على ذلك و كلها مسندة إلى آل البيت، فمن هذه الروايات ما رواه العياشي:

و غيره عن جابر قال (سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كيف أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لي؛ يا جابر. إن للقرآن بطنا، و للبطن بطنا و طهرا. يا جابر. و ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن .. إن الآية ليكون أولها في شيء و آخرها في شيء و هو كلام متصل يتصرف على وجوه). ثم عقب المولى عبد اللطيف على هذا الخبر فقال (دلالة مبدأ هذا الخبر على وجود تأويل له باطن و ظاهر، و على تعدد تأويل آية واحدة، و على عدم تنافي تأويل أول آية في شيء و آخرها في آخر، بل عدم تنافي التفسير بالظاهر في أولها و الباطن في آخرها أو بالعكس ظاهرة، فإذا سمعت شيئا من ذلك فلا تنكره؛ لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل و التأويل. و بما فيه إصلاح السائل و السامع، و لهذا ورد: إن القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه، و يؤيده ما في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿١﴾ هذه نزلت في رحم آل محمد صلى الله عليه و سلم (١) في الآية (٢١) من سورة الرعد.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١

و قد يكون في قرابتك، فلا تكونن ممن يقول للشيء إنه في شيء واحد).

و من هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبي حكيم الزاهد قال: حدثني أبو عبد الله بمكة قال: «بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلي فاستحسن صلاته، فقال: يا هذا الرجل، إن الله تبارك و تعالي ما بعث نبيه صلى الله عليه و سلم بأمر من الأمور إلا و له متشابه و تأويل و تنزيل، و كل ذلك على التعبد، فمن لم يعرف تأويل صلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة» ثم عقب المولى على هذا فقال «الظاهر أن المراد بالمتشابه الشبيه، و بالتأويل الباطن و بالتنزيل الظاهر، و بالتعبد سبيل الإطاعة، و المعنى: أن كل ما جاء به النبي صلى الله عليه و سلم و أمر به في الظاهر فله شبيه و نظير مأمور به في الباطن، و يلزم الإيمان

بهما جميعا، فمن لم يعرف شبيه الصلاة و باطنها الذي هو الإمام و إطاعته - كما سيأتي - فصلاته الظاهرية ناقصة» اه ص ٣-٤. وعند الفصل الثاني في ذكر الأخبار الصريحة في أن بطن القرآن و تأويله، إنما هو بالنسبة إلى الأئمة - و ولايتهم و أتباعهم و ما يتعلق بذلك، فكان من جملة الأخبار التي ساقها: ما رواه الكليني بإسناده إلى أبي بصير قال: «قال الصادق عليه السلام؛ يا أبا محمد، ما من آية تقود إلى الجنة و يذكر أهلها بخير إلا و هي فينا و في شيعتنا، و ما من آية نزلت يذكر أهلها بشر و تسوق إلى النار إلا و هي في عدونا و من خالفنا».

و ما نقله عن الكافي و تفسير العياشي و غيرهما، عن محمد بن ميمون، عن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ ﴿١﴾... قال: القرآن له ظهر و بطن» فجميع ما حرم الله في الكتاب هو الظاهر، و الباطن من ذلك أئمة الجور، و جميع ما أحل الله في الكتاب هو الظاهر و الباطن من ذلك أئمة الحق.

و ما رواه عن الباقر عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم في خطبته (١) في الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢

يوم الغدير «معاشر الناس: هذا عليّ أحقكم بي و أقربكم إليّ، و الله و أنا عنه راضيان، و ما نزلت آية رضى إلا فيه، و ما خاطب الذين آمنوا إلا بدأ به، و ما نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه. معاشر الناس: إن فضائل علي عند الله عز و جل، و قد أنزلها عليّ في القرآن أكثر من أن أحصيتها في مكان واحد، فمن نبأكم بها و عرفها فصدقوه.

و ما رواه عن عبد الله بن سنان أنه قال: قال زريح المحاربي؛ سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴿١﴾» فقال: المراد لقاء الإمام، فأثيت أبا عبد الله عليه السلام و قلت له: جعلت فداك، قوله عز و جل.

«ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ» قال أخذ الشارب. و قص الأظافر، و ما أشبه ذلك، فحكيت له كلام ذريح فقال، صدق ذريح و صدقت، إن للقرآن ظاهرا و باطنا و من يحتمل ما يحتمل ذريح؟ ثم عقب المولى على هذا فقال «الكلام من الإمام عليه السلام صريح في أنهم عليهم السلام كانوا يكتمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس» حتى عن ابن سنان الذي كان من فضلاء أصحابه» اه (ص ٥).

و عقد الفصل الثالث في بيان نبذ مما يدل على وجوه تناسب الظواهر مع البطون، و جهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال «اعلم أن ما دلت عليه الأخبار الماضية، و ما تدل عليه الأخبار التي ستأتي من المعاني الباطنة و التأويلات. ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة، بل أكثرها و معظمها على طريق التجوز، و نهج الاستعارة، و سبيل الكناية و من قبيل المجازات اللغوية و العقلية، إذ أبواب التجوز في كلام العرب واسعة و موارد في عبارات الفصحاء سائغة، فلا استبعاد إن أراد الله عز و جل بحسب الاستعمال الذي يدل عليه ظاهر اللفظ معنى، و بحسب التجوز الذي تدل عليه القرائن و يجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر و سنشير الى كثير من وجوه التناسب في المقدمة الثالثة و غيرها، و لكن نذكر (١) الآية (٢٩) من سورة الحج

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣

في هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يستفاد من أخبار الأئمة الأطياب، و نرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب، و تكشف عنها النقاب، تبصرة لمن أراد التبصر من أولى الأبواب. و أما إحاطة العلم بالجميع، فهي للراسخين في العلم و من عنده علم الكتاب ... كما سيظهر في الفصل الأخير.

فاعلم أنه يمكن تبين المرام في هذا المقام من وجوه و إن أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال، فكان مما ذكره في الوجه الرابع ما جاء في البصائر عن نصر بن قابوس قال، سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز و جل (وَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ* وَ مَاءٌ مَسْكُوبٌ* وَ فَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ* لَا مَقْطُوعَةٌ وَ لَا مَمْنُوعَةٌ* ﴿١﴾) قال يا نصر إنه ليس حيث يذهب الناس إنما هو العالم و ما يخرج منه.

ثم قال المولى قال: شيخنا العلامة - رحمه الله - لعل المعنى ليس حيث مذهب الناس من انحصار جنه المؤمنين في الجنة الصورية

الأخروية، بل هم في الدنيا أيضا ببركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية من ظل حمايتهم و لطفهم الممدود في الدنيا و الآخرة. و ماء مسكوب من علومهم الممتعة التي بها تحيي النفوس و الأرواح، و فواكه كثيرة من أنواع معارفهم التي لا تنقطع عن شيعتهم و لا يمنعون منها، و فرش مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم و آدابهم بل لا يتلذذ المقربون في الآخرة أيضا في الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التي كانوا يتنعمون بها في الدنيا كما تشهد به الأخبار- انتهى كلامه أعلى الله مقامه، فتأمل و لا تغفل عن جريان مثله في ساير نعم الجنة، مثل أنهار الخمر و أمثالها، كما يشهد له ما سيأتي في الأنهار و اللبن من تأويل اللبن و الخمر بعلوم الأئمة عليهم السلام. و سيأتي في الجنة و النار و ما بمعناهما من تأويل الأولى بولاية الأئمة، و الثانية بعداوتهم. و أمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار في الترجمات الجائئة المناسبة لها فافهم. (١) الآيات (٣٠-٢٣) من سورة الواقعة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤

و كذا كل ما ورد ظاهره في العذاب، و المسخ و الهلاك، و الموت البدني، و نحو ذلك، فباطنه في الهلاك المعنوي بضلالاتهم و حرمانهم عن العلم و الكمالات، و موت قلوبهم و مسخها و عميها عن إدراك الحق، فهم إن كانوا في صور البشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل، و إن كانوا ظاهرا بين الأحياء، فهم أموات، و لكن لا يشعرون، إذ لا يسمعون الحق، و لا يبصرونه، و لا يعقلونه، و لا ينطقون به» و لا- يأتي منهم أمر ينفعهم في أخراهم، فهم شر من السموات و كذا كل ما كان في القرآن مما ظاهره في النهي عن القبائح الصورية، و تحريم الخبائث الظاهرية، كالزنا، و السرقة و الإيذاء، و نحوها مما هو علامة رذالة حال فاعله، و دليل خبائث طبع مرتكبه، كالخمر و الميتة، و الدم، و نحوها مما تستقذر منه الطباع السليمة، و تنفر منه القرائح المستقيمة، فبطنه في النهي عن القبائح الباطنة التي هي معاداة الأئمة عليهم السلام، و الزجر عن الخبائث المعنوية التي هي أعاديهم و منكروا ولايتهم و الفضائل التي هي فيهم، فإنها أيضا- في استقذار الأرواح، و تخبث القلوب، و استنفار العقول ... و نحو ذلك مثل الخبائث الظاهرة و القبائح الصورية. بل أشد كما لا يخفى. و هكذا حال بطون ما ظاهره في الترتيب بالمبرات و الأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة و ولايتهم و معرفتهم، و بالجملة المدار على تشبيه الأمور المعنوية بالصورية، كالحياء و الموت و الانتفاعات و التصورات الروحانية بالجسمية ... و هكذا في البواقي. على أن في هذا الأخير تناسبا آخر أيضا، و هو أنه لا- خفاء في كون النبي و الأئمة صلوات الله عليهم و سائط معرفة العبادات و المأمورات، و أنهم الأصل في قبولها فلا بعد إن أريدوا بها في بطن القرآن. و كذا لا بعد في كون أعدائهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث و المنهيات) اه ص ٨.

و في الوجه الخامس من العلل، علل ما ورد من تأويل معرفة الله. و عبادته و مخالفته، و أسفه، و ظلمه، و رضاه، و سخطه، و أمثالها بمعرفة الإمام، و إطاعته و مخالفته، و أسفه و ظلمه و رضاه، و سخطه و كذا تأويل الإمام،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥

يد الله، و عينه، و جنبه، و قلبه و سائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه و خصه به، بالإمام عليه السلام، و ما ورد من الأخبار في تأويل روح الله و نفسه، و لفظ الجلالة و الإله و الرب الإمام عليه السلام ... علل هذه التأويلات و ما شاكلها بأن الذي جرى من عادة الأعظم و الملوك و الأكابر أن ينسبوا ما وقع من خدمهم بأمرهم إلى أنفسهم تجوزا، و كذا قد ينسبون مجازا ما يصيب خدمهم و مقربيه من الإطاعة و الخير و الشر إلى أنفسهم، إظهارا لجلالة حال أولئك الخدم عندهم، و إشعارا بأنهم في لزوم المراعاة و الإطاعة و دفع الضر عنهم و جلب النفع إليهم بمنزلة مخاديمهم و في حكمهم، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم.

قال الصادق عليه السلام- كما سيأتي عن الكافي و غيره- إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، و لكن خلق أولياء لنفسه يأسفون و يرضون و هم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، و سخطهم سخط نفسه؛ لأنهم جعلهم الدعاء إليه و الأدلاء عليه ... الخبر ... في رواية أخرى: و لكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، و ولايتنا ولايته، ثم أنزل بذلك قرآنا على نبيه ... الخبر قال المولى: و سيأتي بقية الأخبار مفصلة. و هكذا كثيرا ما يطلق تجوزا على مقربي الرجل و أعوانه أسامى جوارحه و أعضائه و سائر ما يختص به في النفع

كما يقال للوزير الكامل المقرب عند السلطان النافع له جدا: إنه يده و سيفه و يمينه ... و هكذا بناء على أنه فى الدفع و النفع و القرب و العزة مثل ذلك، حتى أنه قد يقال: إنه روحه و نفسه، بل ربما يقال إنه السلطان تجوزا بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته، و مخالفته مخالفته، بحيث لا يرضى بغير ذلك. اه ص ٩ ثم عقد الفصل الرابع فى بيان ما يدل على أن الواجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن و باطنه، و تنزيله و تأويله معا، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه و متشابهه و ناسخه و منسوخه، و بسائر ما يتعلق بذلك جميعا مفصلا أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدرى بما فى البيت.

و إن من أنكر الظاهر كافر و إن أقر بالباطن، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦

الخطائية و الإسماعيلية و غيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر، و كذا بالعكس: أى إنكار الباطن و إن أقر بالظاهر، على كل مؤمن أن لا يجترئ بإنكار ما نقل عن الأئمة عليهم السلام فى ذلك تفسيرا و تأويلا و إن لم يفهم معناه و لم يدرك مغزاه ... ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك، و كلها منسوبة إلى أهل البيت، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه قال:

إن الله عز و جل قد أرسل رسلا بالكتاب و بتأويله، فمن كذب بالكتاب أو كذب بما أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك» اه ص ٩ و منها ما روى عن الهيثم التميمي، قال: (قال أبو عبد الله عليه السلام:

يا هيثم إن قوما آمنوا بالظاهر و كفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئا، و جاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن و كفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئا لا إيمان بظاهر إلا بباطن، و لا بباطن إلا بظاهر) اه ص ٩.

و عقد الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام، و ما ذكر فى الأخبار الواردة فى المنع من تفسير القرآن بالرأى و بغير سماع من الأئمة، و فى الجمع بينها و بين ما يعارضها من الآيات و الروايات و توجيه ما هو الحق فى ذلك، فقال اعلم أنه لا-ريب فى اطلاع النبى و الأئمة على جميع وجوه آيات القرآن و معانيها كلها؛ ظواهرها و بواطنها تنزيلها و تأويلها، و أنهم الذين عندهم علم الكتاب كله، كما أنزله الله فى بيتهم؛ فإن أهل البيت أدرى بما فى البيت، و قد دلت على هذا أخبار متواترة ...

فمنها ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال: و الله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام: إن الله علم نبيه صلى الله عليه و سلم التنزيل و التأويل قال: فعلم رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا عليه السلام؛ قال: و علمنا .. الخبر.

و ما فيه أيضا بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع به، فقال أبو الحسن: فنحن نعرف حلاله و حرامه، و ناسخه و منسوخه، و سفره و حضره، و فى أى ليلة نزلت من آية، فيمن نزلت، و فيم أنزلت .. الخبر

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧

و استدلت أيضا بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال: ما يستطيع أحد يدعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره و باطنه إلا الأولياء ...

ثم قال المولى عبد اللطيف بعد سياقه لهذه الروايات و غيرها «و أما غيرهم عليهم السلام فلا شبهة فى قصور علومهم و عجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر و التنزيل، فضلا عن البواطن و التأويل، بلا إسناد من الأئمة العاملين، و عناية من الله رب العالمين».

ثم بعد أن استدلت على ذلك بما ذكره من روايات سابقة و لاحقة قال:

«و لهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام». ثم استدلت على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى و ضرورة الرجوع إلى الأئمة فى فهم معانيه، فكان مما استدلت به، ما رواه عن العياشى عن الصادق عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم

يؤجر، و إن أخطأ فهو أبعد من السماء» و ما روى عن النبي صلى الله عليه و سلم «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، و ما ورد في تفسير الإمام عليه السلام من قوله: «أ تدرؤن من المتمسك بالقرآن الذى له الشرف العظيم؟ هو الذى يأخذ القرآن و تأويله عنا أهل البيت، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين، و قياس الفاسقين، فأما من قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله، و إن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار» اه ص ١١-١٢.

ثم بعد ذلك وفق بين الأخبار الدالة بظواهرها على حرمة التفسير بالرأى و بين ما ورد من قوله تعالى «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» (١) و قوله «لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» (٢) و قوله عليه السلام «القرآن ذلول ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه» و غير ذلك من الآيات و الأخبار (١) الآية (٢٤) من سورة محمد عليه السلام.

(٢) فى الآية (٨٣) من سورة النساء.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨

الدالة على أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعا بالغا و مجالا رحبا فقال: لنا فى هذا المقام توجيهات عديدة نشير هاهنا إلى ما هو الأكمل منها، و هو ما ذكره بعض محققى علمائنا، و قال «الصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله و رسوله و لأهل البيت، و أخذ علمه منهم؛ و تتبع آثارهم، و اطلع على جملة من أسرارهم، بحيث يحصل له المراس فى العلم و الطمأنينة فى المعرفة، و انفتح عينا قلبه، و هجم به العلم على حقائق الأمور، و باشر روح اليقين، و أنس بما استوحش منه الجاهلون، فله أن يستفيد من القرآن غرائب، و يستنبط منه نبذا من عجائبه، و ليس ذلك من كرم الله بغريب، و لا من جوده بعجيب، و ليست السعادة وفقا على قوم دون آخرين، و قد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل» اه ص ١٢-١٣ ثم قال: و أما التفسير المنهى عنه، فقد نزله المحقق أيضا على وجهين:

أحدهما: أن يكون للمفسر فى الشىء رأى و إليه ميل من طبعه و هواه فيتأول القرآن على وفق رأيه و هواه، ليحتج به على تصحيح غرضه و مدعاه، فيكون قد فسر القرآن برأيه؛ أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير، و لو لا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. و هذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلا كذلك قد يكون مع العلم، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته و هو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، و لكن يلبس على خصمه، و من هذا ما مر من تأويلات الباطنية، و قد يصدر مثله عن من له غرض صحيح، لكن يطلب له دليلا- من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كالذى يدعو مثلا- إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: قال الله تعالى:

«أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ وَيَشِيرُ إِلَىٰ قَلْبِهِ وَيَوْمَ إِلَيْهِ أُمِرَ أَن يَخْسِرَ»

قال ذلك المحقق، و هذا قد يستغله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام و ترغيبا للمستمع و هو ممنوع.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩

ثانيهما: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسمع و النقل عن الأئمة فيما يتعلق بغرائب القرآن و ما فيها من الألفاظ المبهمة و المبدلة، و ما فيها من الاختصار و الحذف و الإضمار و التقديم و التأخير، و فيما يتعلق بالناسخ و المنسوخ و الخاص و العام و الرخص و العزائم و المحكم و المتشابه، إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع إذ من بادر إلى استنباط المعانى فيها بمجرد فهم العربية كثر غلظه، و دخل فى زمرة من يفسر بالرأى، فلا بد له أولا من السماع و ظاهر التفسير ليتقى مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم و الاستنباط، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم، و من هذا القبيل قوله تعالى: «وَآتَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا» (١) فإن معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. و الناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة و لم تكن عمياء، و لا يدري أنهم بما ذا ظلموا، و أنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، و من ذلك الآيات التى سنشير

إلى كونها واردة على سبيل الكناية و الرموز بحيث لا يطلع على ما فيها إلا من تجرع كثوس علوم آل محمد صلوات الله عليه و عليهم أجمعين، كما سيأتي في الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة في قوله تعالى: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (٢) من أن المراد ظلم محمد و آله. و منها ما سيأتي أيضا في الفصل الثالث من المقالة المذكورة في قوله تعالى: «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَوَكَّنْ إِيَّاهُمْ شَيْئًا قَلِيلًا» (٣) من أنه تعالى عنى بذلك غير النبي صلى الله عليه و سلم كما قال الصادق عليه السلام: «ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به من قد مضى» و قد روى الكليني و غيره عنه عليه السلام أنه قال: «نزل القرآن بإياك أعنى و اسمعى يا جارة». و عن الباقر عليه السلام: «إذا علم الله شيئا هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان» و قد مر في حديث جابر قوله عليه السلام:

«و ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إن الآية ليكون أولها (١) في الآية (٥٩) من سورة الإسراء.

(٢) في الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(٣) الآية (٧٤) من سورة الإسراء.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠

في شيء و آخرها في شيء ... الخبر» و سنذكر عن قريب في فصول المقالة المذكورة و غيرها، ما يوضح حال تفسير الآيات التي كذا شأنها؛ ليتبصر به الناظر فيما ذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى اه ص ١٣. و نحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير، و لكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال، بل جعل القرآن تبعاً لرأيه، و نزله على معان تتفق و هوأه، و رمى غيره بالداء الذي هو فيه.

ثم ذكر المقالة الثانية

فجعلها في بيان ما يوضح اشتغال كلام الله تعالى، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد و النبوة صريحا و تنزيلا، على ما يتعلق بالولاية و الإمامة بطنا و كناية و تأويلات بحسب الأخبار الواردة في أن الولاية أى الإقرار بنبوة النبي و إمامة الأئمة و التزام حبههم و إطاعتهم و بغض أعدائهم و مخالفتهم أصل الإيمان، مع توحيد الله عز و جل؛ بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل إنها بسبب إيجاد العالم، و بناء حكم التكليف، و شرط قبول الأعمال و الخروج عن حد الكفر و الشرك، و أنها التي عرضت كالتوحيد على الخلق جميعا، و أخذ عليهم الميثاق، و بعث بها الأنبياء. و أنزلت في الكتب، و كلف بها جميع الأمم و لو ضمنا، و أن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد في تلازم الإقرار بها و بقرينها، بحيث إن الكفر بكل في حكم الكفر بالآخر.

و لا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، و أن الأئمة مثل النبي في فرض الطاعة و الأفضلية بعده على الحلائق أجمعين، و كونهم وسائل و وسائل لسائر عباد الله المكرمين، من الأنبياء و الأوصياء و الملائكة المقربين ... عقد هذه المقالة الثانية لهذا الغرض فقال: «اعلم أن الأحاديث الغير المحصورة، تدل على هذه الأمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مجمع عليه عند علمائنا الإماميين، و قد نص على حقيقتها بل كون جلاها من ضروريات هذا المذهب أعظم أصحابنا المحدثين، و كفى في بيان ذلك ما ذكره من مباحث الإمامة و كتب فضائل الأئمة، و سنذكر في هذا الكتاب لها شواهد كثيرة، فلنكتف هاهنا بنقل شيء من تصريحات محققى أصحابنا في هذا الباب، و ذكر أقل قليل من نصوص الأئمة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦١

الأطياب إذا ليس هنا موضع البسط و الإطناب و يكفى ما سنذكره في تبصرة من هو من أولى الألباب «فهنا فصول خمسة» ... ثم ساق الفصول الخمسة؛ فجعل الفصل الأول منها في بيان نبذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظم شأن الأئمة و ولايتهم و كفر منكريهم، و جعل الفصل الثانى في بيان نبذ من الأخبار التي وردت في خصوص فرض ولاية أهل البيت و حبههم و طاعتهم، و أن ذلك مناط صحة الإيمان، و شرط قبول الأعمال و الخروج عن حد الكفر و الشرك، و أورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية و الشك

فيهم، و كفر مبغضيههم و مخالفيههم.

و جعل الفصل الثالث فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن الإقرار بإمامة الأئمة و حبهم و ولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبى صلى الله عليه و آله فى مدخلية صحة الدين و صدق الإيمان، كما أن الإقرار بالنبوة يتلو التوحيد فى ذلك، و أن نسبة النبوة إلى الإمامية، كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها و بقرينها، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر و لا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر. و جعل الفصل الرابع فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى خصوص أن الولاية عرضت مع التوحيد على الخلق جميعا، و أخذ عليهم الميثاق، و بعث بها الأنبياء، و أنزلت فى الكتب، و كلف بها جميع الأمم، و أورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضا. و جعل الفصل الخامس فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن النبى صلى الله عليه و آله و الأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، و أفضلهم «و أكملهم، و أكرمهم، بحيث كانت الملائكة و الأنبياء تتوسل بهم و بولايتهم، و تفخر الملائكة بخدمتهم، و تعلموا التسبيح و التمجيد منهم، و أنهم و ولايتهم العلة فى الإيجاد، و الأصل فى الطاعة و المعرفة.

ثم ذكر المقالة الثالثة

و جعلها فى بيان ما يوضح ورود بطون القرآن فيما يتعلق

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٢

بالولاية و الإمامة، بحسب الأخبار التى تدل على أن هذه الأمة تقتضى سنن الأمم السابقة، و سيرة من كان قبلهم فى كل أفعالهم و جميع أطوارهم و أعمالهم، كما أنه كان كذلك فى سائر الأمم. قال: «فإنها بجملتها- يعنى بطون القرآن- تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يترك الإنذار و التبشير فيهم، كما لم يترك بالنسبة إلى سابقهم، و أن يشير إلى الزين و الشين فى كل أوان بالنسبة إلى أهل كل زمان. و حيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعد منهم، فلا بد من أطفاه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يستفاد من التنزيل و التبليغ، و لا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز و أجمل للإيجاز...» و قد أورد فى جملة ما أورد من الاخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» (١) أى لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء. و ما رواه الكليني فى الصحيح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» قال: يا زرارة.. أى لتركن هذه الأمة بعد نبيها طبقا عن طبق فى أمر فلان، و فلان. و فلان» قال المولى الكازراني: «أقول: أى كانت ضلالتهم بعد نبيهم مطابقة لما صدر من الأمم السابقة فى ترك الخليفة و اتباع العجل و السامرى و أشباه ذلك ...

قال: و يحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة و الفساد» اه ص ٢٣ و ٢٤.

ثم ذكر المقدمة الثانية

فتكلم فى بيان ما يوضح وقوع بعض تغيير فى القرآن و أنه السر فى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية و الإمامة و الإشارة إلى فضائل أهل البيت و فرض طاعة الأئمة بحسب بطن القرآن و تأويله، و الإشعار بذلك على سبيل التجوز و الرموز و التعويض فى ظاهر القرآن و تنزيهه فقال: «اعلم أن الحق الذى لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية و غيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه و آله شىء (١) الآية (١٩) من سورة الانشقاق.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٣

من التغييرات، و أسقط الذين جمعوه بعده كثيرا من الكلمات و الآيات، و أن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى، ما جمعه على عليه السلام و حفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام ... و هكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام، و هو

اليوم عنده صلوات الله عليه. و لهذا- كما قد ورد صريحا حديث سنذكره- لما أن الله عز و جل قد سبق في علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين في الدين، و أنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم و يزيد في شأن على عليه السلام و ذريته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأسا أو تغييره محرفين، و كان في مشيئته الكاملة و من أطفاه الشاملة محافظة أوامر الإمامة و الولاية، و محارسة مظاهر فضائل النبي صلى الله عليه و آله و الأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع و التحريف و يبقى لأهل مفادها مع بقاء التكليف، لم يكتف بما كان مصرحا به منها في كتابه الشريف، بل جعل جل بيانها بحسب البطون و على نهج التأويل. و في ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل، و أشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوز و التعريض، و التعبير عنها بالرموز و التورية و سائر ما هو من هذا القبيل، حتى تتم حجته على الخلائق جميعا و لو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحا بأحسن وجه و أجمل سبيل» قال: «و يستين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما نذكره في هذه الفصول الأربعة المشتملة على كل هذه الأحوال.

ثم عقد الفصل الأول في بيان نبذ مما ورد في جمع القرآن و نقصه و تغييره، من الروايات التي نقلها أصحابه من الإمامية في كتبهم. و عقد الفصل الثاني في بيان نبذ مما ورد في جمع القرآن و نقصه و تغييره، و الاختلاف فيه من الروايات التي نقلها المخالفون في كتبهم.

و عقد الفصل الثالث في بيان ما وعد به سابقا، من الخبر المشتمل على التصريح بتغيير القرآن، و أنه هو السر في الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية و الإمامة على سبيل الرمز و التعريض.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٤

و عقد الفصل الرابع في بيان خلاصة أقوال علمائهم في تغيير القرآن و عدمه و تزييف استدلال من أنكر التغيير.

ثم ذكر المقدمة الثالثة

إشارة

و قد عقدها لبيان ما يوضح نبذا من التأويلات المأثورة عن الأئمة السادات و المفهومة من بعض الروايات، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية و الآيات. قال:

و يستبان بها أيضا ما بينته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية و الإمامة، و أن في هذا الأمر تأويل ما ورد تنزيهه فيما يتعلق بالتوحيد و النبوة ... عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال:

اعلم أن التأويلات التي ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد مختصا بكلمة أو آية مذكورة في موضع واحد بحيث لا يجرى في غيرها، و محل ذكر مورده.

الثاني: ما ورد في آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى في غيرها، بل ربما يكون الورد على سبيل العموم أيضا، و نحن نذكر هذا القسم في هذه المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص.

الثالث: ما لم يرد في تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها، كقوله عليه السلام:

«نحن يد الله، و نحوه»، و هذا أيضا مما نذكره في هذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه، و في هذين الأخيرين إذا وصلنا في كتابنا

هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل و موضعه، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص في مواردها. ثم من هذه التأويلات ما هو على نهج الكناية و التعريض و المجازات العقلية، و منها ما هو من قبيل المجاز اللغوي، و ها نحن

نرتب هذه المقدمة على مقالتين، نذكر في إحداهما ما ظاهره على النهج الأول مما لا بد من إفراد ذكره، و في الأخرى سائر التأويلات

العامه مع نصوصها. ثم نلحقها بخاتمة نختم بها المقدمات. اه ص ٣٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٥

ثم ذكر المقالة الأولى:

فجعلها في بيان بعض التأويلات التي لا بد من إفراد ذكرها من حيث عظم فوائدها، و جلها من قبيل المجازات العقلية، و التجوز في الإسناد، و الكناية، و التعويض و إن أمكن التكلف في إدخال بعضها تحت المجاز اللغوي، و قد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول:

جعل الفصل الأول منها: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عز و جل كثيرا ما أراد في كتابه بحسب الباطن بالألفاظ و الخطابات الواردة ظاهرا على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك. قال: و يدل على هذا أحاديث كثيرة. منها ما سيأتي في تأويل الكافرين بمن كفر بالولاية، و المنافقين بمن نافق فيها، و المشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، و أشباه ذلك ... ثم قال: و الحق أنه إذا تأمل بصير في أكثر ما ورد من تفسير البطن علم أن معظم ذلك من هذا القبيل، و هو مجاز شائع ذائع استعماله في كثير من الألفاظ العامة و المطلقة و نحوها ... إلخ اه ص ٣٦.

و جعل الفصل الثاني: في بيان ما يظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيرا ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق على الماضين من أهل أزمان النبي صلى الله عليه و سلم و الأمم السالفة بحسب الظاهر، و مراده بحسب التأويل و الباطن من صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأمة بالنظر إلى حال الإمامة و الولاية و إن لم يكن في ذلك الزمان ... ثم ذكر في ضمن ما رواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله في قوله عز و جل «وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» (١) قال: قوم موسى: هم أهل الإسلام. قال المولى «و الظاهر أن مراده عليه السلام، أن نظيره جار فيهم، و إنما ذكر في الآية تمثيلا لحال هذه (١) في الآية (١٥٩) من سورة الأعراف

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٦

الأئمة، و يؤيده ما سيأتي في الأئمة «١» فلا ينافي هذا ما هو الظاهر من الآية من وجود جماعة في قوم موسى هادين إلى الحق صريحا كما يظهر من بعض الأخبار) اه ص ٣٧ و جعل الفصل الثالث: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله سبحانه قد يريد بخطابه في كتابه بحسب التأويل و البطن مخاطبا غير من يفهم من الظاهر كون الخطاب متوجها إليه. و كان ذلك في أثناء الخطاب و بين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر و في آية واحدة، و ذلك كما ورد في خبر جابر من قوله عليه السلام «إن الآية لتكون أولها في شيء و آخرها في شيء» و ما ورد في الكافي و في تفسير العياشي عن عبد الله بن بكير عن أبي عبد الله قال:

«نزل القرآن بإياك أعنى و اسمعى يا جارة» و فيهما أيضا عن أبي عمير عن حدثه عن أبي عبد الله قال «ما خاطب الله به فهو يعنى به من قد مضى ذكره في القرآن مثل قوله «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» عنى بذلك غيره. قال بعض المحدثين: لعل المراد من مضى ذكره في القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملحدون في آيات ... قال و في كثر الفوائد عن الأعمش قال سمعت عطاء بن أبي رباح يقول سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قول الله عز و جل «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» (٢) فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم «أنا و على نلقى في جهنم كل من عادانا ... الخبر» اه ص ٣٧.

و جعل الفصل الرابع: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير في القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعا إلى شيء ليس بمذكور صريحا، بل مقصود بحسب الباطن و معهود تأويلا، كالضمائر التي ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك، بلا سبق ذكر ظاهرا. ثم ذكر (١) لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة «وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا.» (الآية) حيث يحمل على الأئمة الاثني عشر

(٢) الآية (٣٤) من سورة ق

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٧

ما ورد من الأخبار في ذلك، منها: ما رواه الكليني عن المفضل قال. سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِرُؤْيَا غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ» (١) قال: قالوا أو بدل عليا... و ما ورد في كنز الفوائد للكرجكي من تأويل أهل البيت في حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ» (٢) أي أن شكر النعمة التي رزقكم و ما منّ عليكم بمحمد و آله «أنكم تكذبون» أي بوصيته. فلولا إذا بلغت الحلقوم* و أنتم حينئذ تنظرون» إلى وصيه علي عليه السلام يبشر وليه بالجنة «و نحن أقرب إليه منكم» يعني أقرب إلى أمير المؤمنين علي منكم «و لكن لا تبصرون» أي لا تعرفون. و منها ما ورد في تفسير القمي عن أبي الشمال عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى في سورة المدثر «إِنَّهَا لَأُحَدِّثُ الْكُتُبِ» نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣) قال: يعني فاطمة: و كذا قال في سائر الضمائر التي في السورة اه ص ٣٨.

و جعل الفصل الخامس: في بيان ما يدل على أنه لا استبعاد في أن يحمل ما عبر عنه بالماضي على ما هو المستقبل الآتي كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال: روى الكليني في الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: إذا علم الله شيئا هو كائن أخبر خبر ما قد كان» يعني إذا كان في علم الله تعالى الكامل وقوع الشيء لا محالة و أنه سيكون قطعاً، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى و كان، سواء كان ذلك مما يدل عليه ظاهر القرآن و تنزله، أو باطنه و تأويله، كما هو مقتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثلاً، و الثواب العقاب و سائر ما هو من هذا القبيل كالرجعة و ما يكون فيها، و ما يصدر من الأمة (١) في الآية (١٥) من سورة يونس (٢) هي و ما بعدها إلى قوله «و لكن لا تبصرون» الآيات (٨٢-٨٥) من سورة الواقعة.

(٣) الآيتان (٣٥، ٣٦) من سورة المدثر

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٨

بالنسبة إلى الإمامة و أمثال ذلك .. قال: و لا يخفى أنه بناء على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور. اه ص ٢٨.

و جعل الفصل السادس: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التي نسبها الله عز وجل إلى نفسه على صيغة الجمع و ضميره كقوله سبحانه و تعالى «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» (١) و قوله عز وجل «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَتُهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ» (٢) و أمثالها من الكلمات القرآنية فإن السر فيه إدخال النبي صلى الله عليه و سلم و الأئمة فيها، بل إنهم هم المقصودون في كثير منها. و عد هذا من قبيل المجازات الشائعة في كلام الملوك و الأعظم ... ثم قال:

فلنكتف هاهنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه، و ذكر أخبارا، منها: ما رواه الكليني في الصحيح عن حمزة بن بزيع عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» فقال: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، و لكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون و هم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضى نفسه، و سخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاء إليه و الأدلاء عليه ... الخ، و ليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، و لكن هذا معنى ما قال من ذلك، و قد قال «من أهان لى و ليا فقد بارزنى بالمحاربة و دعانى إليها» و قال «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» (٣) و قال «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (٤) و هكذا الرضا و الغضب و غيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر و لا يخفى صراحة في المقصود هاهنا ... قال: و فى الكافي و غيره عن زرارة عن أبي جعفر قال: سألته عن قول الله عز وجل «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» فقال: إن الله أعظم و أعز و أجل من أن يظلم، (١) فى الآية (٥٥) من سورة الزخرف.

(٢) فى الآيتان (٢٥، ٢٦) من سورة الغاشية.

(٣) فى الآية (٨٠) من سورة النساء.

(٤) فى الآية (١٠) من سورة الفتح.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٩

و لكن خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، و ولايتنا ولايته حيث يقول.

(إِنَّمَا وَكَيْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) «١» يعنى الأئمة منا. اه ص ٣٩.

و جعل الفصل السابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة و الإله و الرب بحسب بطن القرآن و تأويله على الإمام فى مواضع عديدة، بل هكذا حال بعض الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه و أن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة، و الإطاعة و المعرفة، و الرضى، و السخط، و المخالفة، و الفقر، و الغنى، إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته، و إقامته، و إطاعته، و رضاه، و سخطه، و سبه، و أذاه، و مخالفته، و غناه، و فقره، و نحو ذلك. و عد ذلك من قبيل المجازات العقلية و التجوز فى الإسناد. قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن فى ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوى أو التشبيه بالمعنى العرفى.

ثم ذكر بعض ما هو نص فى بيان المقصود، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى حديث له طويل: إن قوله تعالى:

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ۚ» و قوله «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ» و قوله «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ۚ» فإنما أراد بذلك استيلاء أمثاله بالقدرة التى ركبها فيهم على جميع خلقه، و أن فعلهم فعله ... الخبر، و ما رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ» يعنى بذلك لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد، و ما جاء فى كنز الفوائد للكراچكى عن على بن أسباط عن إبراهيم الجعفرى عن أبى الجارود عن أبى عبد الله عليه (١) فى الآية (٥٥) من سورة المائدة.

(٢) فى الآية (٨٤) من سورة الزخرف.

(٣) فى الآية ٤ من سورة الحديد.

(٤) فى الآية ٧ من سورة المجادلة.

(٥) فى الآية (٥١) من سورة النحل.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٠

السلام فى قوله تعالى: أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «١» قال: أى إمام هدى مع إمام ضلال فى قرن واحد؟ و ما رواه القمى فى تفسير قوله تعالى:

«وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ۚ» أن الصادق عليه السلام قال: أى رب الأرض، يعنى إمام الأرض، و ما جاء فى تفسير القمى فى قوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ... الآية «٣» قال: من لم يقر بولاية على عليه السلام بطل عمله مثل الرماد الذى تجىء الريح فتحمله، و ما جاء فى كنز الفوائد من تأويل قوله تعالى «قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۚ» أن الإمام عليه السلام قال: هو يرد إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيعذبه عذاباً نكراً، ثم يقول «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۚ» أى من شيعة أبى تراب. اه ص ٤١

و أما المقالة الثانية:

فهى فى بيان سائر التاويلات العامة التى تجرى فى غير موضعها و تعم أكثر من موضع واحد مع نصوصها و أدلتها. و قد رتب المولى ما فى هذه المقالة على ترتيب حروف الهجاء و نهج فيها منهج كتب اللغة بملاحظة الحرف الأول، ثم الآخر ثم الثانى. فمن ذلك الذى ذكره ما يأتى:

(الإصر) قال هو فى سورة البقرة، و آل عمران، و الأعراف. و فى أساس البلاغة: الإصر: الثقل. و فى القاموس: الإصر بالكسر: الذنب، و

سيأتي في الذنب تأويله. وقد روى الكليني أيضا عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (٦) أنه قال «الإصر الذنوب التي كانوا فيها قبل معرفته فضل الإمام، فلما عرفوا فضل (١) في الآية (٦١) من سورة النمل.

(٢) في الآية (٦٩) من سورة الزمر.

(٣) في الآية (١٨) من سورة إبراهيم.

(٤) في الآية (٨٧) من سورة الكهف.

(٥) في الآية (٤٠) من سورة النبأ.

(٦) في الآية (١٥٧) من سورة الأعراف.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧١

الإمام وضع عنهم الإصر، قال: قال عليه السلام. الإصر الذنب. و هي الأصار .. الخبر» و تأويله ظاهر. و في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام أنه قال في قوله تعالى «وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي» (١) «أى عهدى، أى عهد الإيمان بالنبي صلى الله عليه و سلم و نصره على عليه السلام. اه ص ٥٠ (الباطل) قال: الباطل و المبطلون، و الباطل ضد الحق و قد ورد تأويله بأعداء الأئمة، و بدولة الباطل؛ و بما كان عليه بنو أمية و أشباههم من غاصبي الخلافة، كعداوة الأئمة و غيرها، و منه يظهر المراد بالمبطلين أى مدعى الباطل و أتباعهم، ففي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى «ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ» (٢) «قال هم الذين اتبعوا أعداء على و آل الرسول ..

الخبر. اه ص ٧٠ (الراجفة) قال: الراجفة، و الرادفة، و المرجفون: أصل الرجفة الحركة و الاضطراب، و منها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب. و فى سورة الأحزاب [فى الآية ٦٠] «وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ» قال: و سيأتى هناك عن الصادق عليه السلام: أن الراجفة الحسين عليه السلام، و الرادفة أبوه على عليه السلام، و أن أول من ينفذ التراب عن رأسه فى الرجفة الحسين عليه السلام. و قد فسرها المفسرون بالنفخ الأول، و الرادفة بالنفخ الثانى، و هو أيضا مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى الصور. و ربما أمكن إجراء ما ذكرناه من التأويل فى بعض موارد الرجفة على حسب التناسب، بل يمكن التأويل أيضا بقيام القائم و رجعة الناس فلا تغفل. اه ص ١٠٩ (الزيت و الزيتون) قال أما الزيتون فمعروف. و أما الزيت ففرد منه.

و يأتى إن شاء الله فى المشكاة، و فى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم، و فى سورة (التين) ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين، و قد أوله القمي أيضا بعلى عليه السلام كما سيظهر فى السورة (١) فى الآية (٨١) من سورة آل عمران.

(٢) فى الآية (٣) من سورة محمد صلى الله عليه و سلم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٢

المذكورة، و لعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضا. و قد قيل فى وجه هذه الاستعارة: إن الزيتون فاكهة و إدام و دواء له دهن مبارك لطيف، و على عليه السلام و كذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقربين، و علومه قوة قلب المؤمنين، و بنوره و نور أولاده الطاهرين اهتدى جميع المهتدين، و قد مثل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى (الطور) اه ص ١١٣.

(القبلة) قال فى القاموس: القبلة التى يصلى نحوها، و الجهة، و الكعبة، و كل ما يستقبل - يقال: ما له قبله و لا دبره بكسرهما أى وجهه. هذا و قد مر فى الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام، و أنهم المراد بها بحسب بطن القرآن، و استقبالها كناية عن التمسك بهم و اتباعهم و نحو هذا.

و فى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام «نحن قبلة الله و نحن كعبة الله» و سيأتى بعض المؤيد فى (الكعبة) و الله الهادى. اه ص

ثم ذكر الخاتمة، و جعلها مشتملة على فصلين:

الفصل الأول: فى بيان نبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال «اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشر النبى و فاطمة و الأئمة الاثنى. و السور هى هذه: الم. المص. ألر. المر.

كهيعص طه طسم. طس. يس. ص. حم. حمعسق. ق. ن. ثم قال:

و فى معانى الأخبار بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال:

«الم حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن، الذى يؤلفه النبى و الإمام عليه السلام، فإذا دعا به أجيب» قال بعض الأفاضل: فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله و نبيه، و رموز لم يقصد بها إفهام غيره و غير الراسخين فى العلم من ذريته. أقول: و يؤيده ما فى تفسير الإمام عليه السلام: أن معنى الم أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها الم و هو بلغتكم و حروف هجائكم، فأتوا بمثله

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٣

إن كنتم صادقين ... ثم قال و سنشير فيما ورد فى (ص) إلى ما يدل على أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبى صلى الله عليه و سلم، و لنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها على ترتيبها. فما ورد فى الم، و المص، و ألر، و المر. ما قيل من أن معنى الم: أنا الله أعلم و أرى. و المص: أنا الله أعلم و أفضل. و على هذا يمكن التأويل بأنه أعلم حيث اختار محمدا و عليا و آلهما الطيبين للنبوّة و الإمامة و أنزل لهم و فيهم كتابه المجيد، و على هذا القياس تأويل ما يأتى بعده .. (الخ) اه ص ٢٣١.

ثم قال و أما (كهيعص) فمعناه أنا الكافى الهادى، و الوالى العالم الصادق الوعد ...

أقول: تأويل هذا: ما ورد عنه عليه السلام أيضا أنه قال: أى كاف لشيعتنا، هاد لهم، ولى لهم، وعده حق، يبلغ بهم المنزلة التى وعدهم إياها فى بطن القرآن- و ما فى الاحتجاج و المناقب و إكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحجة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل (كهيعص) فقال.

إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا، ثم فصلها على محمد صلى الله عليه و سلم، و ذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمدا و عليا، و فاطمة، و الحسن سرى عنه همه و انجلى كربه، و إذا ذكر الحسين خنفته العبرة و وقعت عليه البهرة. فقال ذات يوم: إلهى ما بالى إذا ذكرت أربعا منهم تسليت بأسمائهم من همومى، و إذا ذكرت الحسين تدمع عيني و ثور زفرتى؟ فأنبأه تبارك و تعالى عن قصته فقال: كهيعص، فالكاف اسم كربلاء، و الهاء هلاك العترة و الياء يزيد لعنه الله .. و هو ظالم الحسين، و العين عطشه، و الصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، و منع فيها الناس من الدخول عليه ... الخبر.

قال و سيأتى تتمته فى سورتته. اه ص ٢٢٣.

و جعل الفصل الثانى من الخاتمة فى ذكر بعض الفوائد.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٤

فالفائدة الأولى: بين فيها أن دأبه فى هذا التفسير على شيئين:

أحدهما: تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة و ما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة أنبيائه و عصيانهم، بأن المراد الإطاعة و عدمها فيما بلغوا إليهم و أمرهم به من الإقرار بولاية النبى و الأئمة، و الاعتراف بحقهم، و التمسك بهم، مع التبرى من أعدائهم. بعد الإقرار بالله و رسله، و تصديقهم فيما بلغوا جميعا، لا سيما الولاية.

و ثانيهما: تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم و إلى إطاعتهم و إلى معصيتهم و ما ورد عليهم من الشر و النقم و الخير و النعم و غير ذلك على طوائف هذه الأمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبي و الأئمة في أمر الولاية و عدمها، و ما ورد و يرد عليهم من الشر و الخير لذلك، و ذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، و الأشرار بالأشرار، و تبيان وجه الشبه في تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتنظير أصحاب السبب بقتلة ذرية النبي كبنى أمية و بنى العباس مثلا، و أصحاب الكهف بأبى طالب و نظرائه مثلا، و أصحاب العجل بأهل السقيفة، و غير ذلك، اه ص ٢٣٥.

و الفائدة الثانية: بين فيها أن المراد في الباطن بجميع ما حرم الله في القرآن أئمة الجور، و بما أحل أئمة الحق، و أنهم أصل كل خير، و من فروعهم كل بر، و اعداؤهم أصل كل شر، و من فروعهم كل قبيح و فاحشة، و أن أعداءهم المراد بالفواحش و المناهي و ما يعبد من دون الله ... اه ص ٢٣٦.

و الفائدة الثالثة: قال فيها «إنه تقدم وجوب الإيمان بظاهر القرآن و باطنه معا، و أن كلا منهما مقصود البارى، و لكن لما كانت التفاسير المتداوله مشتتملة على جل ما يتعلق بالظاهر و كان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة؛ لخلو أكثر التفاسير عنها جميعا، و من أكثرها، جعلنا مدار كلامنا على تبيين هذا الأمر و بيان ما يتعلق بالباطن فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصلا، حذرا من التطويل و الخروج عن المقصود الأصلي. اه ص ٢٣٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٥

و الفائدة الرابعة: بين فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات و الكلمات القرآنية في تفسيره، فمبناه على التجوز في المعنى، أو الإسناد، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات و أمثالها. قال: و مع هذا لا- يجوز ذلك في موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه و في مثله، أو بحسب العموم و الإطلاق الشامل اه.

ص ٢٣٦.

و الفائدة الخامسة: بين فيها أنه اقتصر في نقل الأخبار على موضع الحاجة منها و ما يدل على المراد، مخافة التطويل.

قال: فرمنا مضمون خبر على مواضع، و ربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، و لكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث و لا يتغير منه معناه اه ص ٢٣٦.

و الفائدة السادسة: بين فيها أن كل ما ذكره في تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام ... اه ص ٢٣٦.

و الفائدة السابعة: بين فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعى، و ادعى تواتر الأحاديث المثبتة لها في الجملة و إن كانت مختلفة في تفصيلها و قال:

لقد وقفت على أزيد من مائتى حديث فيها، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك ... اه ص ٢٣٧-٢٣٩.

ثم قال. و ليكن هذا آخر ما أردنا إيراده في مقدمات تفسيرنا، و نشرع بعد هذا في أصل التفسير إن شاء الله تعالى و بحوله و قوته و توفيقه، حامدا و مصليا و مسلما، و الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على خير خلقه محمد و آله الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، حمدا و صلاة و تسليمًا كثيرا كثيرا كثيرا. اه ...

و لكن اين هذا التفسير؟؟ ... قلنا لم نعر عليه في مكتبة من مكاتبنا المصرية. و قلنا: إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يصور لنا معالم التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية ... و لكن؟؟؟ معى فى أن هذه المقدمة التى لخصت لك أهم مباحثها، تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها فى تفسيره،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٦

و عن مقدار تأثيره بعقيدته فى فهمه لكتاب الله؟ أظن أنك معى فى هذا و إليك أسوق أهم القواعد التى سار عليها المولى عبد

اللطيف في تفسيره، و هي قواعد استخلصتها و لخصتها من مقدمة تفسيره، و لا أحسب أنه تخطاها أو شذ عنها بعد ما دافع عنها و قواها بما استطاع من الأدلة. و هذه هي أهم القواعد:

أولاً: القرآن له ظهر و بطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة و سبعون بطناً، و جملة باطن الكتاب في الدعوة إلى الإمامة و الولاية، و جملة ظاهره في الدعوة إلى التوحيد و النبوة و الرسالة، و كل ما ورد من الآيات المشتملة على المدح و الإكرام ففي أئمتهم، و كل ما ورد من الآيات المشتملة على التهديد و الوعيد و التوبيخ و التقريع ففي مخالفينهم و أعدائهم نزلت.

ثانياً: لا تقتصر معاني الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجري في كل أوان و على أهل كل زمان.

ثالثاً: معاني القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة.

رابعاً: المعاني الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها و معظمها على طريق التجوز و نهج الاستعارة و سبيل الكناية و من قبيل المجازات اللغوية و العقلية، و هذا في تقديره أمر لا غرابة فيه و لا استبعاد؛ إذ أن أبواب التجوز في كلام العرب واسعة، و موارد في عبارات الفضحاء سائغة.

خامساً: يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن و باطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن و متشابهه و ناسخه و منسوخه و بسائر ما يعلق بذلك تفصيلاً أو إجمالاً إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت، و من أنكر الظاهر و أقر بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر، بل و يجب على كل إنسان أن يصدق بكل ما نقل عن الأئمة من تفسير و تأويل و إن لم يفهم معناه، و من الجرأة أن ينكر أحد شيئاً من ذلك لخفائه عليه.

سادساً: علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة، و هذا أمر اختصوا به دون

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٧

من عداهم؛ فلهذا لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه و بدون سماع منهم:

لأنه لا شبهة في أن من عداهم نقصر علومهم و تعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلاً عن بواطنه و تأويله.

سابعاً: ما علم الله صدوره من هذه الأمة المحمدية في الأزمنة المستقبلية - أي بعد نزول القرآن - أشار الله إليه و نبه عليه في كتابه الكريم، فكل ما جد و يجد من الحوادث بعد نزول القرآن يستفاد من آياته عن طريق تأويلها، و هذا أبلغ في الإعجاز و أجمل للإيجاز، فقله تعالى (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

ثامناً: القرآن الذي جمعه على عليه السلام و توارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح، و ما عداه وقع فيه التغيير و التبديل، فكل ما ورد صريحاً في مدح أهل البيت و ذم شانئهم أسقط من القرآن أو حرف و بدل، و لعلم الله بما سيكون من التغيير و التبديل لم يكتف الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة و الولاية و فضائل أهل البيت و مثالب أعدائهم بما صرح به القرآن، بل أرشد إلى ذلك أيضاً بحسب ما يدل عليه باطن اللفظ و تأويله؛ لتقوم بذلك الحجة على الناس و إن حرف القرآن و بدل.

تاسعاً: كثيراً ما يريد الله في كتابه بحسب الباطن بالألفاظ و الخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك، كما ورد في تأويل المشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام.

عاشراً: ما ورد من الخطاب للأمم السابقة كثيراً ما يراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه الخطاب من هذه الأمة بحسب الإمامة و الولاية و غيرهما، مع إرادة الظاهر أيضاً مثل «و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون» أراد في الباطن بقوم موسى أهل الإسلام الحادية عشرة: قد يراد بالخطاب في الباطن مخاطباً غير من نفهم من الظاهر

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٨

كون الخطاب له، كما ورد عن أبي عبد الله أنه قال: «نزل القرآن بإياك أعنى و اسمعى يا جارة» فقله تعالى: «وَلَوْ لَا أَنْ نَبْتَشَاكَ لَقَدْ

كِدَتْ تَزَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» عنى به غير النبي، الثانية عشرة: قد يرجع الضمير بحسب التأويل و الباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحا، مثل قوله تعالى: (فَقَالُوا أَتِ بَقْرًا أَنْ يَتَّبِعُنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ) يعنى أو بدل عليا.

الثالثة عشرة: ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ) السر فيه إدخال النبي صلى الله عليه و سلم و الأئمة في مفهومه و هذا مجاز شائع معروف.

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة و ما شاكله و الضمائر الراجعة إلى الله في الظاهر مراد به الإمام باطنا و تأويلا، و هذا مجاز شائع معروف. هذه هي أهم القواعد التي سار عليها المؤلف في تفسيره، و هي كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٧٩

(٢) تفسير الحسن العسكري

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب. الإمام الحادي عشر عند الإمامية الاثني عشرية و المعروف بالحسن العسكري «١». و هو والد المهدي المنتظر.

ولد سنة ٢٣١ هـ إحدى و ثلاثين و مائتين من الهجرة و قيل سنة ٢٣٢ هـ بالمدينة على الراجح، و توفي بسر من رأى سنة ٢٦٠ هـ ستين و مائتين و دفن بها بجانب أبيه «٢».

التعريف بهذا التفسير:

إشارة

عثرنا على هذا التفسير في دار الكتب المصرية فوجدناه منسوباً إلى الإمام أبي محمد الحسن العسكري، و مروياً عنه برواية يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، و أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن سيار، و هما من الشيعة الإمامية، و قد تلقيا هذا التفسير و كتبا عن الحسن العسكري في سبع سنين. و لهما في تلقى هذا التفسير عن الحسن العسكري قصة غريبة في مقدمة الكتاب حدثا بها فقالا ما ملخصه: كنا صغيرين. و كان أبوانا إماميين، و كانت الزيدية هم الغالبين بأسترآباد، و كنا في إمارة الحسن بن زيد العلوي، الملقب بالداعي إلى الحق، إمام الزيدية، و كان كثير الإصغاء إليهم، يقتل الناس لسعائياتهم، فخاف أبوانا (١) العسكري نسبة إلى العسكر و هي سر من رأى؛ لأن المعتصم لما بناها و انتقل إليها بعسكره قيل لها العسكر. و إنما نسب المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه عليا إليها و أقام بها مدة طويلة، فنسب و ولده هذا إليها.

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٩-٢٤٠، و له ترجمة مستفيضة في أعيان الشيعة ج ٤ ص ٢٨٨-٣٢٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٠

الوشاية بهما عنده فخرجا بنا و بأهلينا إلى حضرة الإمام أبي محمد الحسن بن علي ابن محمد أبي القائم، فلما دخلا عليه قال لهما مرحبا بالآوين إلينا، الملتجئين إلى كنفنا، قد تقبل الله سعيكما، و أمن روعكما، و كفا كما أعداء كما، فانصرفا آمنين على أنفسكما و أموالكما، قال: فما ذا تأمر أيها الإمام؟ أن نرجع في طريقنا إلى أن ننتهي إلى بلد خرجنا منه؟ و كيف ندخل ذلك البلد و منه هربنا و طلب سلطان البلد لنا حثيث، و وعيده إيانا شديدا؟ فقال عليه السلام: خلفا على ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذي يشرفهما الله به، ثم لا تحفلا بالسعاة و لا بوعيد المسعى إليه؛ فإن الله عز و جل يقصم السعاة و يلجئهم إلى شفاعتكم فيهم عند من هربتم منه.

قال أبو يعقوب و أبو الحسن: فأترا لما أمرا، و خرجا و خلفانا هناك، فكنا نختلف إليه فيتلقانا ببر الإمام و ذوى الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم إذا أتاكم خبر كفاية الله عز و جل أويكما، و إخزائه أعداءهما، و صدق وعدى أباهما، جعلت من شكر الله عز و جل أن أفيد كما تفسير القرآن مشتملا على بعض أخبار محمد صلى الله عليه و سلم، فيعظم الله بذلك شأنكما، قالوا: ففرحنا و قلنا يا ابن رسول الله .. فإذا نأتى جميع علوم القرآن و معانيه، قال: كلا إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرح بذلك و قال: يا ابن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كلها، قال: قد جمعت خيرا كثيرا، و أوتيت فضلا واسعا، و لكنه مع ذلك أقل قليل أجزاء علم القرآن إن الله عز و جل يقول:

«قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» (١) و يقول: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» (٢). و هذا علم القرآن و معانيه و ما أودع من عجائبه، فكيف ترى مقدار ما أخذته من جميع هذا القرآن؟ و لكن القدر الذي أخذته قد فضلك الله به على كل من لا يعلم كعلمك و لا يفهم كفهكم. (١) الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

(٢) الآية (٢٧) من سورة لقمان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨١

ثم ذكرا ما كان من أمر عدول الحسن بن زيد العلوى عن بطشه و فتكه، و عدم تعرضه للناس فى مذاهبهم، و أمره لأبويهما بملازمة الإمام أبى محمد الحسن العسكرى لما سمع بهذا قال: هذا حين إنجازى ما وعدتكما من تفسير القرآن، ثم قال: قد وظفت لكما كل يوم شيئا منه تكتبانه، فالزمانى و واظبا على توفيق الله تعالى من العبادة حظوظكما، فأول ما أملى علينا أحاديث فى فضل القرآن و أهله، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك فكتبناه فى مدة مقامنا عنده، و ذلك سبع سنين، نكتب فى كل يوم منه مقدار ما نشط له، فكان أول ما أملى علينا و كتبناه قال: حدثنى أبى: على بن محمد، عن أبيه: محمد بن على، عن أبيه:

على بن موسى، عن أبيه: موسى بن جعفر، عن أبيه: جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه: الباقر محمد بن على، عن أبيه: على بن الحسين زين العابدين، عن أبيه: الحسين بن على سيد المستشهدين، عن أبيه: أمير المؤمنين و سيد الوصيين و خليفه رسول الله رب العالمين، فاروق الأمة، و باب مدينة الحكمة، و وصى رسول الرحمة، على بن أبى طالب صلوات الله عليه و عليهم أجمعين، عن رسول رب العالمين، و سيد المرسلين، و قائد الغر المحجلين، و المخصوص بأشرف الشفاعات فى يوم الدين، صلى الله عليه و آله أجمعين .. ثم ذكر شيئا من الأخبار فى فضل القرآن و حملته ... ثم قال: «قال رسول الله: أتدرون من المتمسك الذى يتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذى أخذ القرآن و تأويله عنا أهل البيت، و عن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين و قياس القائسين ...» ثم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فى قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» (١) قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «فضل الله عز و جل القرآن و العلم بتأويله.

و برحمته: توفيقه لموالاة محمد و آله الطيبين، و معاداة أعدائهم ...» ثم ذكر الحسن العسكرى تفسير أعود بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم منسوباً إلى على بن على رضى الله عنه، و فيه يقول على: «ألا- أنبئكم ببعض أخبارنا؟ قالوا: (١) الآيتان (٥٧، ٥٨) من سورة يونس.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٢

بلى يا أمير المؤمنين. قال: إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة و أشرع فيه بابه و أشرع المهاجرون و الأنصار أبوابهم، أراد الله إبانة محمد و آله الأفضلين بالفضيلة، فنزل جبريل عن الله تعالى: بأن سدوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب، فأول من بعث إليه رسول الله يأمره بسد بابه العباس بن عبد المطلب، فقال: سمعا و طاعة لله و لرسوله- و كان الرسول معاذ بن جبل- ثم مر

العباس بفاطمه فرآها قاعدة على بابها و قد أقعدت الحسن و الحسين، فقال لها: ما بالك قاعدة انظروا إليها كأنها لبؤة بين يديها جرواها، أظن أن رسول الله يخرج عمه و يدخل ابن عمه فمر بهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لها: ما بالك قاعدة؟ قالت: انتظر أمر رسول الله بسد الأبواب، فقال لها: إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب و استثنى منهم رسول الله، و إنما أنتم نفس رسول الله. ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال:

أحب النظر إليك يا رسول الله إذا مررت إلى مصلاك، فأذن لي في فرجة أنظر إليك منها، فقال: قد أبى الله عز و جل ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه وجهي، قال: قد أبى الله ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه إحدى عيني، قال: أبى الله ذلك، و لو قلت قد طرف الإبرة لم آذن لك، و الذي نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم و لا أدخلتهم و لكن الله أدخلهم و أخرجكم. ثم قال: لا ينبغي لأحد يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يبيت في هذا المسجد جنباً إلا محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و المنتجبون «١» من آلهم الطيبين من أولادهم. قال:

فأما المؤمنون فقد رضوا و سلموا، و أما المنافقون فاغتاظوا لذلك و أنفوا، و مشى بعضهم يقول إلى بعض فيما بينهم: ألا ترون محمداً لا يزال يخص بالفضائل ابن عمه ليخرجنا منها صفراً، و الله لئن أنفدنا له في حياته لثأتين عليه بعد وفاته، و جعل عبد الله بن أبي يصغى إلى مقالاتهم و يغضب تارة و يسكن أخرى، و يقول لهم: إن محمداً لم تأله، فأياكم و مكاشفته، فإن من كاشف المتأله انقلب خاسئاً حسيراً و ينغض عليه عيشه. و إن الفطن اللبيب من يتجرع على (١) المنتجبون: أى المختارون.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٣

الغصة ليتتهز الفرصة. فبينما هم كذلك إذ طلع رجل من المؤمنين يقال له زيد ابن أرقم فقال لهم: يا أعداء الله أ بالله تكذبون؟ و على رسوله تطعون؟ و لدينه تكيدون؟ و الله لأخبرن رسول الله بكم، فقال عبد الله بن أبي و الجماعة: و الله لئن أخبرته بنا لنكذبنك و لنحلفن له؛ فإنه إذا يصدقنا، ثم و الله لنقيم عليك من يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدك، قال: فأتى زيد رسول الله فأسر إليه ما كان من عبد الله بن أبي و أصحابه، فأنزل الله عز و جل (وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ) «١» المجاهدين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله و الموالاة لك و لأولياك، و المعادة لأعدائك (و المنافقين) الذين يطيعونك في الظاهر و يخالفونك في الباطن (ودع أذاهم) مما يكون منهم من القول السيئ فيك و فى ذويك (و توكل على الله) فى إتمام أمرك و إقامة حجتك، فإن المؤمن هو الظاهر بالحجة و إن غلب فى الدنيا؛ لأن العاقبة له؛ لأن غرض المؤمنين فى كدحهم فى الدنيا إنما هو الوصول إلى نعيم الأبد فى الجنة، و ذلك حاصل لك و لآلك و لأصحابك و شيعتك. ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يلتفت إلى ما بلغه عنهم، و أمر زيدا فقال: إن أردت أن لا يصيبك شرهم و لا ينالك مكرهم فقل إذا أصبحت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فإن الله يعيدك من شرهم؛ فإنهم شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، و إذا أردت أن يؤمنك بعد ذلك من الغرق و الحرق و السرقة فقل إذا أصبحت:

بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، بسم الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، بسم الله ما شاء الله لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم، بسم الله ما شاء الله و صلى الله على محمد و آله الطيبين، فإن من قالها ثلاثاً إذا أصبح أمن من الغرق و الحرق و السرقة حتى يمسي؛ و من قالها ثلاثاً إذا أمسى أمن من الحرق و الغرق حتى يصبح، و إن الخضمر و لباس يلتقيان فى كل موسم، فإذا تفرقا تفرقا عن هذه الكلمات، (١) من قوله تعالى «وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ» إلى قوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» فى الآية (٤٨) من سورة الأحزاب.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٤

و إن ذلك شعار شيعتى، و به يمتاز أعدائى من أوليائى يوم خروج قائمهم ...

ثم ذكر حديثاً آخر طويلاً عن الباقر يتضمن ما كان من المحاوره بين العباس و رسول الله صلى الله عليه و سلم بشأن إغلاق باب

العباس وغيره، و إبقاء باب على وحده، و فيه شهادة رسول الله صلى الله عليه و سلم بالفضل لعلى على غيره، و فى آخره يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم «يا عم رسول الله إن شأن على عظيم.

إن حال على جليل. إن وزن على ثقيل. و ما وضع حب على فى ميزان أحد إلا رجح على سيئاته، و لا وضع بغضه فى ميزان أحد إلا رجح على حسناته ... الخ «١».

هذا، و الكتاب مطبوع فى مجلد صغير يقع فى ٢٨٦ صحيفة. و هو غير شامل للقرآن كله، بل بعد الفراغ من المقدمة و شرح الاستعاذة شرع فى الفاتحة ففسرها، ثم شرع فى سورة البقرة فوصل فيها إلى قوله تعالى فى الآية (١١٤) (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسِعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ. لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) و ذلك يبدأ من أول الكتاب إلى ص ٢٣٦.

و من قوله تعالى فيها (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ .. الآية (١٥٨) إلى قوله:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ. الآية (١٧٩) و ذلك يبدأ من ص ٢٣٦ إلى ص ٢٥٤.

و من قوله تعالى فيها: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ... الآية (١٩٨) إلى قوله (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ... الآية (٢١٠) و ذلك يبدأ من ص ٢٥٤ إلى ص ٢٦٧.

و من قوله تعالى فيها (... أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِيلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَيُئِثِّ بِالْعَدْلِ ... الآية (٢٨٢) إلى قوله (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) فى الآية (٢٨٣) و ذلك يبدأ من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٨٦.

هذا هو كل ما وجد و طبع من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكري رحمه (١) ص ٢-٧

التفسير و المفسرون (للذهبى)، ج ٢، ص: ٨٥

الله تعالى، و أرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه فى التفسير، و تأثره بمذهب الإمامية، و لنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح، أو نسب إليه زورا و بهتاناً.

ولاية على:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة البقرة (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) يقول «قال العالم موسى بن جعفر:

إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: يا عباد الله انسبونى، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: يا أيها الناس أ لست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فنظر إلى السماء و قال: اللهم اشهد بقول هؤلاء- و هو يقول و يقولون ذلك ثلاثاً- ثم قال: ألا فمن كنت مولاه و أولى به فهذا على مولاه و أولى به، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام و بايع له، ثم قال: قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام فبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين و الأنصار فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب فقال: بخ بخ يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة، ثم تفرقوا عند ذلك و قد وكدت عليهم العهود و المواثيق. ثم إن قوما من متمرديهم و جابريتهم تواطؤوا بينهم لئن كانت لمحمد كائنة ليدفعن هذا الأمر من على و لا يتركونه فعرف الله ذلك من قبلهم، و كانوا يأتون رسول الله و يقولون: لقد أقمنا علينا أحب خلق الله إلى الله و إليك و إلينا فكفينا مؤنة الظلمة لنا، و المتجبرين فى سياستنا، و علم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، و لدفع الأمر عن مستحقه مؤثرون؛ فأخبر الله عز و جل محمدا عنهم فقال:

يا محمد (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ) الذى أمرك بنصب على إماما و سائسا لأمتك و مدبرا، (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) بذلك، و

لكنهم يتواطئون على إهلاكك

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٦

و إهلاكه، يوطنون أنفسهم على التمرد على علي إن كانت بك كائنه) اه «١».

و عند قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة البقرة (وَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا- إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لَكِن لَّا يَعْلَمُونَ) يقول «قال موسى بن جعفر: إذ قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة، قال لهم خيار المؤمنين كسلمان و المقداد و أبي ذر و عمار: آمنوا برسول الله و على الذي أوقفه موقفه و أقامه مقامه و أناط مصالح الدين و الدنيا كلها به، و آمنوا بهذا النبي و سلموا لهذا الإمام، و سلموا له في ظاهر الأمر و باطنه كما آمن الناس المؤمنون كسلمان و المقداد و أبي ذر و عمار، قالوا في الجواب لمن يفضون إليه لا لهؤلاء المؤمنين؛ فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب و لكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من أهلهم و الذين يتقون بهم من المنافقين و من المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم: (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) يعنون سلمان و أصحابه لما أعطوا عليا خالص ودهم و محض طاعتهم، و كشفوا رءوسهم بموالاة و أوليائه و معاداة أعدائه حتى أن اضمحل أمر محمد طحطحهم أعداؤه، و أهلكهم سائر الملوك و المخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء، قال الله عز و جل (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ) الأخفاء العقول و الآراء، الذين لم ينظروا في أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته، و يعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين و الدنيا، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين، و صاروا خائفين و جليين من محمد و ذريته و من مخالفهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه. فهم السفهاء حيث لا يسلم لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد و المؤمنين و لا محبة اليهود و سائر الكافرين، لأنهم يظهرون لمحمد من موالاة و موالاة أخيه علي و معاداة أعدائهم اليهود و النصرى، كما يظهرون لهم من معاداة محمد و علي و موالاة أعدائهم، فهم يقدرون فيهم نفاقهم معهم كنفاقهم مع محمد و علي، و لكن لا يعلمون أن الأمر كذلك و أن الله يطلع نبيه علي أسرارهم فيخشاهم و يلعنهم و يسقطهم» (٢) اه (١) ص ٤١-٤٢

(٢) ص ٤٤-٤٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٧

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١٥٩، ١٦٠) من سورة البقرة (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) يقول (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات من صفة محمد و صفة علي و حليته، و الهدى بعد ما بيناه للناس في الكتاب). قال: و الذي أنزلناه هو ما أظهرناه من الآيات على فضلهم و محلهم، كالغمامة التي تظل رسول الله في أسفاره، و المياه الأجاجة التي كانت تعذب في الآبار بريقه، و الأشجار التي كانت تهطل ثمارها بنزوله تحتها، و العاهات التي كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث بريقه فيها، و كالأيات التي طهرت على علي من تسليم الجبال و الصخور و الأشجار قائلة: يا ولي الله و يا خليفة رسول الله، السموم القاتلة التي تناولها من سمي باسمه عليها و لم يصبه بلاؤها ... و سائر ما خصه الله تعالى به من فضائله، فهذا من الهدى الذي بينه الله للناس في كتابه ... الخ «١».

روايات مكذوبة في فضل أهل البيت:

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة البقرة (... الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) يقول «ثم وصف هؤلاء المتقين الذين هذا الكتاب هدى لهم فقال: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) يعني بما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها، كالبعث، و النشور، و الحساب، و الجنة، و النار، و توحيد الله تعالى، و سائر ما لا يعرف بالمشاهدة و إنما يعرف بدلائل قد نصبها الله عز و جل عليها كآدم، و حواء و إدريس، و نوح، و إبراهيم، و الأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بهم بحجج الله تعالى و إن لم يشاهدوهم، و يؤمنون بالغيب و هم

من الساعة مشفقون، و ذلك أن سلمان الفارسي مر يقوم من اليهود فسألوه أن يجلس إليهم و يحدثهم بما سمع من محمد في يومه هذا، فجلس إليهم لحرصه على (١) ص ٢٣٦-٢٣٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٨

إسلامهم فقال. سمعت محمدا يقول: إن الله عز و جل يقول: يا عبادي:

أو ليس من له إليكم حوائج كبار لا- تجودون بها إلا- أن يتجمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامه لشفيعه؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على و أفضلهم لدى محمد و أخوه على، و من بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى، ألا فليدعني من أهمته حاجه يريد نفعها، أو دهنه دهيا يريد كف ضررها بمحمد و آله الأفضلين الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن مما يقضيها من تشفعون إليه بأعز الخلق عليه. قالوا لسلمان- و هم يستهزءون به- يا عبد الله فما بالك لا تقترح على الله و تتوسل بهم أن يجعلك أغنى أهل المدينة؟ فقال سلمان:

قد دعوت الله عز و جل بهم، و سألته ما هو أجل و أفضل و أنفع من ملك الدنيا بأسرها، و سألته بهم أن يهب لي لسانا لتمجيد شأنه ذاكرا، و قلبا لآلائه شاكرا، و على الدواهي الداهية لي صابرا، و هو عز و جل قد أجابني إلى ملتصقي من ذلك، و هو أفضل من ملك الدنيا بحذافيرها و ما يشتمل عليه من خيراتها مائة ألف مرة. قال: فجعلوا يهزءون و يقولون: يا سلمان، لقد ادعيت مرتبه عظيمه يحتاج أن يمتحن صدقك من كذبك فيها و ها نحن إذا قاثمون إليك بسياط عذابنا فضا ربوك، فاسأل ربك أن يكف أيدينا عنك، فجعل سلمان يقول: اللهم اجعلني على البلايا صابرا، و جعلوا يضربونه بسياطهم حتى أعياوا و ملوا، و جعل سلمان لا يزيد على قوله: اللهم اجعلني على البلايا صابرا، فلما ملوا و أعياوا قالوا: يا سلمان، ما ظننا أن روحا تثبت في مقرها على مثل هذا العذاب الوارد عليك، فما بالك لا تسأل ربك أن يكفنا عنك؟ قال:

لأن سؤال ذلك ربي خلاف الصبر، بل سلمت؛ لإمهال الله تعالى لكم، و سألته الصبر، فلما استراحوا قاموا بعد إليه بسياطهم فقالوا: لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهق روحك أو تكفر بمحمد، فقال: ما كنت أفعل ذلك؛ فإن الله قد أنزل على محمد «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» و إن احتمالي لمكارهكم لأدخل في جمله من مدحه الله بذلك سهل على يسير، فجعلوا يضربونه بسياطهم حتى ملوا، ثم قعدوا و قالوا: يا سلمان، لو كان لك عند ربك قدر لإيمانك بمحمد لاستجاب

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٨٩

دعاءك و كفنا عنك، فقال سلمان: ما أجهلكم .. كيف يكون مستجيبا دعاني إذا فعل بي خلاف ما أريد منه، أنا أردت منه الصبر فقد استجاب لي فصبرت، و لم أسأله كفكم عنى فيمنعني حتى يكون ضد دعائي كما تظنون، فقاموا إليه ثالثه بسياطهم فجعلوا يضربونه و سلمان لا يزيد على قوله: اللهم صبرني على البلايا في حب صفيك و خليلك محمد، فقلوا له: يا سلمان، ويحك أو ليس محمد قد رخص لك أن تقول كلمه الكفر به بما تعتقد ضده للتقيه؟ فقال سلمان: إن الله قد رخص لي ذلك و لم يفرضه على، بل أجاز لي ألا أعطيكم ما تريدون و احتمل مكارهكم، و جعله أفضل المنزلتين، و أنا لا أختار غيره ثم قاموا إليه بسياطهم و ضربوه ضربا كثيرا و سيلوا دماءه. و قالوا له و هم ساخرون:

لو لم تسأل الله كفنا عنك و لا تظهر لنا ما نريد منك لنكف به عنك فادع علينا بالهلاك إن كنت من الصادقين في دعواك أن الله لا يرد دعاءك بمحمد و آله الطيبين الطاهرين، فقال سلمان: إنى لأكره أن أدعو الله بهلاككم مخافه أن يكون فيكم من قد علم الله أنه سيؤمن من بعد فأكون قد سألت الله اقتطاعه عن الإيمان، فقالوا: قل: اللهم أهلك من كان في علمك أنه يبقى إلى الموت على تمرده، فإنك لا تصادف بهذا الدعاء ما خفته، قال فانفرج له حائط البيت الذي هو فيه مع القوم و شاهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يقول: يا سلمان ادع عليهم بالهلاك فليس فيهم أحد يرشد، كما دعا نوح على قومه لما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال سلمان، كيف تريدون أن أدعو عليكم بالهلاك؟ فقالوا تدعو الله بأن يقلب سوط كل واحد منا أفعى تعطف رأسها ثم

تمشش عظام سائر بدنه ... فدعا الله بذلك، فما من سياطهم سوط إلا قلبه الله تعالى أفعى لها رأسا تتناول برأس رأسه و برأس آخر يمينه التي كان فيها سوطه ثم رضضتهم و مششتهم و بلعتهم و التقتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو في مجلسه: معاشر المؤمنين، إن الله تعالى قد نصر أحاكم سلمان ساعتكم هذه على عشرين فرقة من اليهود و المنافقين، قبلت سياطهم أفاعى رضضتهم و مششتهم و هشمت عظامهم و التقتهم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٠

فقوموا بنا نظر إلى تلك الأفاعى المبعوثه لنصرة سلمان، فقام رسول الله و أصحابه إلى تلك الدار و قد اجتمع إليها جيرانها من اليهود و المنافقين لما سموا ضجيج القوم بالتقام الأفاعى لهم، فإذا هم خائفون منها، نافرون من قربها، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم خرجت كلها إليه عن البيت إلى شارع المدينة، و كان شارعا ضيقا فوسعه الله تعالى و جعله عشرة أضعافه، ثم نادى الأفاعى: السلام عليك يا محمد يا سيد الأولين و الآخرين، السلام عليك يا على يا سيد الوصيين، السلام على ذريتك الطيبين الطاهرين الذين جعلوا على الخلق قوامين، ها نحن سياط هؤلاء المنافقين الذين قلبنا الله تعالى أفاعى بدعاء هذا المؤمن سلمان قال: رسول الله: الحمد لله الذى جعل من يضاهاى بدعائه عند قبضه و عند انبساطه نوحا نبيه. ثم نادى الأفاعى: يا رسول الله .. قد اشتد غضبنا على هؤلاء الكافرين، و أحكامك و وصيك علينا جائزة فى ممالك رب العالمين، و نحن نسألك أن تسأل الله تعالى أن يجعلنا أفاعى جهنم حتى نكون فيها لهؤلاء معذيين كما كنا لهم فى هذه الدنيا ملتقمين، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: قد أجبتمكم إلى ذلك فالحقوا بالطبق الأسفل من جهنم، بعد أن تقذفوا ما فى أجوافكم من أجزاء أجسام هؤلاء الكافرين ليكون أتم لخزيهم و أبقي للعار عليهم إذا كانوا بين أظهرهم مدفونين، يعتبر بهم المؤمنون المارون بقبورهم، يقولون هؤلاء الملعونون المخزيون بدعاء ولى محمد سلمان الخير من المؤمنين، فقدت الأفاعى ما فى بطونها من أجزاء أبدانهم، فحاء أهلهم فدفنهم، و أسلم كثير من الكافرين، و أخلص كثير من المنافقين، و غلب الشقاء على كثير من الكافرين و المنافقين، فقالوا: هذا سحر مبین. ثم أقبل رسول الله على سلمان فقال: يا عبد الله، أنت من خواص إخواننا المؤمنين، و من أحباب قلوب ملائكة الله المقربين، إنك فى ملكوت السموات و الحجب و الكرسي و العرش و ما دون ذلك إلى الثرى أشهر فى فضلك عندهم من الشمس الطالعة فى يوم لا غيم و لا قتر و لا غبار فى الجو، فانت من أفاضل الممدوحين بقوله (اللَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ «١»). (١) ص ٢٤-٢٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩١

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يقول ما نصه (... قال على بن الحسين: طلب هؤلاء الكفار الآيات و لم يقتنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية و البلاغ، حتى قيل لهم (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ) أى إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضحة الدامغة، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ و ذلك محال، لأن الإتيان على الله لا يجوز، كذلك النواصب اقترحوا على رسول الله فى نصب أمير المؤمنين على إماما، و اقترحوا .. حتى اقترحوا المحال و ذلك أن رسول الله لما نص على على بالفضيلة و الإمامة. و سكن إلى ذلك قلوب المؤمنين و عاند فيه أصناف الجاحدين من المعاندين، و شك فى ذلك ضعفاء من الشاكين، و احتال فى السلم من الفريقين من النبى و خيار أصحابه و من أصناف أعدائه جماعة المنافقين، و فاض فى صدورهم العداوة و البغضاء، و الحسد و الشحنة، حتى قال قائل المنافقين: لقد أسرف محمد فى مدح نفسه، ثم أسرف فى مدح أخيه على، و ما ذاك من عند رب العالمين، و لكنه فى ذلك من المتقولين، يريد أن يثبت لنفسه الرئاسة علينا حيا و لعل بعد موته، قال الله تعالى: يا محمد، قل لهم و أى شىء أنكرتم من ذلك؟ هو عظيم كريم حكيم، ارتضى عبادة من عباده، قد اختصهم بكرامات، لما علم من حسن طاعتهم و لانتقيادهم لأمره، ففوض إليهم أمور عباده، و جعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذى وفقهم له: أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خدمة بعض عبيده و وثق بحسن اصطناعه بما يندب له من أمور ممالكه، جعل ما وراء بابه إليه و أعتمد فى سياسة جيوشه و رعاياه عليه؟ كذلك محمد فى التدبير

الذى رفعه له ربه، و على من بعده الذى جعله وصية و خليفته فى أهله، و قاضى دينه و منجز عداته، و الموازر لأوليائه و المناصب لأعدائه فلم يقنعوا بذلك و لم يسلموا، و قالوا: ليس الذى تسنده إلى ابن أبى طالب أمرا صغيرا انما هو دماء الخلق و نساؤهم، و أولادهم، و أموالهم، و حقوقهم، و أنصباؤهم، و دنياهم و أخراهم، فلتأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية، فقال رسول الله: أما كفاكم نور على المشرق فى الظلمات الذى رأيتموه ليلة خروجه

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٢

من عند رسول الله إلى منزله؟ أما كفاكم أن عليا جاز و الحيطان بين يديه ففتحت له و طرقت ثم عادت و التأمتم؟ أما كفاكم يوم غدیر خم أن عليا لما أقامه رسول الله رأيتم أبواب السماء مفتحة و الملائكة فيها مطلعين تناديكم: هذا ولى الله فاتبعوه و إلا حل بكم عذاب الله فاحذروه؟ أما كفاكم رؤيتكم على ابن أبى طالب و هو يمشى و الجبال تسير من بين يديه لثلا يحتاج إلى انحراف عنها، فلما جاز رجعت الجبال إلى أما كنها؟ ثم قال اللهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيرات لتزيد حجتك عليهم تأكيدا. قال: فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض و منعتهم و نادتهم: حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية على، قالوا. آمنا .. و دخلوا .. ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم و لم يقلوها، و نادتهم: حرام عليكم سهولة نزعنا حتى تقرؤوا بولاية على، فأقروا .. و نزعوها .. ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم و نادتهم: حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية على، فاعترفوا، ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم و ما لم يثقل منها استحجر فى أفواههم و نادهم: حرام عليكم أكلنا حتى تعترفوا بولاية على، فاعترفوا ... ثم ذهبوا يبولون و يتغوطون فتعذبوا و تعذر عليهم و نادتهم بطونهم و مذاكيرهم حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية على بن أبى طالب، فاعترفوا ..

ثم ضجر بعضهم و قال: (اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) قال الله عز و جل (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «١» ... الخ «٢»).

الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها:

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كَلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ..)

يبين المراد من الشجرة و يعلل النهى عنها فيقول (.. لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم، شجرة علم محمد و آل محمد، الذين آثرهم الله عز و جل به دون سائر خلقه، (١) فى الآية (٢٣) من سورة الأنفال.

(٢) ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٣

فقال الله تعالى: لا تقربا هذه الشجرة، شجرة العلم، فإنها لمحمد و آله خاصة دون غيرهم، و لا يتناول منها بأمر الله إلا هم ... و منها ما كان يتناوله النبى، و على، و فاطمة و الحسن، و الحسين، بعد إطعامهم المسكين و اليتيم و الأسير حتى لم يحسوا بعد يجوع و لا عطش و لا تعب و لا نصب، و هى شجرة تميزت من بين أشجار الجنة، إن سائر أشجار الجنة كان كل نوع منها يحمل نوعا من الثمار و المأكول، و كانت هذه الشجرة و جنسها تحمل البر، و العنب و التين و العناب و سائر أنواع التمار و الفواكه و الأطمعة، فذلك اختلف الحاكون لتلك الشجرة، فقال بعضهم: هى برء، و قال آخرون: هى عنبة، و قال آخرون: هى عنابة.

قال الله تعالى: وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ تَلْتَمَسَا نَ بَدَلِكُ دَوْحَهُ مُحَمَّدٌ وَ آلُ مُحَمَّدٍ فِى فَضْلِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّهُمْ بِهَذِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَ هِىَ الشَّجَرَةُ الَّتِى مِنْ يَتَنَاوَلُ مِنْهَا بِإِذْنِ اللَّهِ عِزُّ وَ جَلُّ أَلْهَمِ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ مِنْ غَيْرِ تَعْلَمُ. وَ مِنْ تَنَاوَلُ مِنْهَا بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ خَابَ مِنْ مَرَادِهِ وَ عَصَى رَبَّهُ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) بمعصيتكما و التماسكما درجة قد أوتر بها غير كما كما إذا أردتما بغير حكم الله «١» اه.

توسل الأنبياء و الأمم السابقة بمحمد صلى الله عليه و سلم و بأهل البيت:

و قد جاء فى هذا التفسير من الأخبار ما يدل على أن الأنبياء و الأمم السابقين كانوا إذا حز بهم أمر و أهمهم توسلوا بمحمد صلى الله عليه و سلم و أهل بيته رضوان الله تعالى عليهم.

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة البقرة (... فَأَمَّا يَا تِئْتِكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) نراه يقول (...)

فلما زلت من آدم الخطيئة و اعتذر إلى ربه عز و جل قال: يا رب، تب على و اقبل معذرتى، و أعدنى إلى مرتبتى، و ارفع لديك درجتى فما أشد تبين بعض الخطيئة و ذلها بأعضائى و سائر بدنى، قال الله تعالى: يا آدم، أما تذكر أمرى إياك بأن تدعونى بمحمد و آل الطيبين عند شدائدك و دواهيك و فى النوازل تنزل بك؟ قال (١) ص ٨٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٤

آدم: يا رب بلى، قال الله عز و جل له: فتوسل بمحمد و على و فاطمة و الحسن و الحسين خصوصا، فادعنى أجيبك إلى ملتسكك و أزدك فوق مرادك، فقال آدم: يا رب و قد بلغ عندك من محلهم أنك بالتوسل بهم تقبل توبتى، و تغفر خطيئتى، و أنا الذى أسجدت له ملائكتك، و أبحته جنتك، و زوجه حواء أمتك و أخدمته كرام ملائكتك؟ قال الله: يا آدم .. إنما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسجود إذا كنت وعاء لهذه الأنوار، و لو كنت سألتنى بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها و أن أفضنك لدواعى عدوك إبليس حتى تحذر منها لكنت قد جعلت ذلك، و لكن المعلوم فى سابق علمى يجرى موافقا لعلمى، فالآن بهم فادعنى لأجيبك، فعند ذلك قال آدم: اللهم بجاه محمد و آله الطيبين، بجاه محمد و على و فاطمة و الحسن و الحسين و الطيبين من آلهم لما تفضلت بقبول توبتى، و غفران زلتى. و إعادتى من كراماتك إلى مرتبتى، فقال الله عز و جل: قد قبلت توبتك و أقبلت برضوانى عليك، و رزقت الآئى و نعمائى عليك، و أعدتكم إلى مرتبتكم من كراماتى، و وفرت نصيبكم من رحماتى. فذلك قوله عز و جل (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ «١») اه «٢».

و مثلا عند قوله تعالى فى الآية (٥٠) من سورة البقرة:

(وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) نجده يقول: (قال الله عز و جل و اذكروا إذ جعلنا ماء البحر فرقا ينقطع بعضه من بعض، فأنجيناكم هناك و أغرقنا فرعون و قومه و أنتم تنظرون إليهم و هم يغرقون، و ذلك أن موسى لما انتهى إلى البحر أوحى الله عز و جل إليه: قل لبنى إسرائيل جددوا توحيدى، و أمروا بقلوبكم ذكر محمد سيد عبيدى و إمامى، و أعيدوا على أنفسكم الولاية لعلى أخى محمد و آله الطيبين، و قولوا: اللهم بجاههم جوزنا على متن هذا الماء، فإن يتحول لكم أرضا، فقال لهم موسى ذلك، فقالوا: أتورد علينا ما نكره، و هل فررنا من (١) الآية (٣٧) من سورة البقرة.

(٢) ص ٩٠ - ٩١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٥

آل فرعون إلا من خوف الموت، و أنت تقتحم بنا هذا الماء الغمر بهذه الكلمات، و ما يدرينا ما يحدث من هذه علينا؟ فقال لموسى كالب بن يوحنا و هو على دابة له - و كان ذلك الخليج أربعة فراسخ - يا نبى الله، أمرك الله بهذا أن نقوله و ندخل الماء؟ قال: نعم، قال و أنت تأمرنى به؟ قال: نعم، فوقف و جدد على نفسه من توحيد الله و نبوة محمد و ولاية على و الطيبين من آلهم ما أمر به، ثم قال: اللهم بجاههم جوزنى على متن هذا الماء، و إذا الماء قصته كأرض لينة، حتى بلغ آخر الخليج ثم عاد راكضا، ثم قال لبنى إسرائيل: يا بنى إسرائيل ..

أطيعوا موسى، فما هذا الدعاء إلا مفتاح أبواب الجنان، و مغاليق أبواب النيران، و مستنزل الأرزاق. و جالب على عباد الله و إمامه رضا

المهيمن الخلاق.

فأبوا و قالوا: لا نسير إلا على الأرض، فأوحى الله: يا موسى .. اضرب بعصاك البحر و قل: اللهم بجاه محمد و آله الطيبين لما قتلته، ففعل فانفلق و ظهرت الأرض إلى آخر الخليج، فقال موسى: ادخلوها، قالوا: الأرض و حلة، نخاف أن نرسب فيها، فقالها الله عز و جل: يا موسى .. قل: اللهم بحق محمد و آله الطيبين جففها، فقالها فأرسل الله عليها ريح الصبا فجفت، فقال موسى:

أدخلوها، فقالوا: يا نبي الله .. نحن اثنتا عشرة قبيلة بنو اثني عشر أبا، و إن دخلناها رام كل فريق منا تقدم صاحبه، و لا نأمن من وقوع الشر بيننا، فلو كان لكل فريق منا طريق على حدة لأما ما نخافه، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعددهم اثني عشر ضربة، في اثنتي عشرة موضعا إلى جانب ذلك الموضع و يقول: اللهم بجاه محمد و آله الطيبين بين الأرض لنا، و أقصر الماء عنا فصار فيه تمام اثني عشر طريقا، و جف قرار الأرض بريح الصبا، فقال: ادخلوها، فقالوا: كل فريق منا يدخل سكة من هذه السكك لا يدرى ما يحدث على الآخرين، فقال الله عز و جل: فاضرب كل طود من لماء بين هذه السكك، فاضرب فقال: اللهم بجاه محمد و آله الطيبين لما جعلت في هذا الماء طيقانا واسعاً يرى بعضهم بعضا، فحدث طيقان واسعاً يرى بعضهم بعضا، ثم دخلوها، فلما بلغوا آخرها جاء فرعون و قومه فدخل بعضهم، فلما دخل آخرهم و هم أولهم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٦

بالخروج أمر الله تعالى فانطبق عليهم فغرقوا، و أصحاب موسى ينظرون إليهم.

فذلك قوله عز و جل (وَ أَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) اه «١».

التقية:

و هو يعترف بالتقية و يدين بها، و يروى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أحاديث فيها، فمن ذلك: أنه روى عن الحسن بن علي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال «إن الأنبياء إنما فضلهم الله على الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله، و حسن تقيتهم لأجل إخوانهم في الله» اه «٢».

و روى عن أمير المؤمنين أنه قال «سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: من سئل عن علم فكنمه حيث يجب إظهاره و تزول عنه التقية، جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار» اه «٣».

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٦٣) من سورة البقرة «وَ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» يقول ... الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد، وسع لهم في التقية، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله و معاداة أعدائه إذا قدروا، و يسرونها إذا عجزوا) اه «٤».

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٧٣) من سورة البقرة «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ... الآية» يقول «... نظر الباقر إلى بعض شيعته و قد دخل خلف بعض المنافقين إلى الصلاة، و أحسن الشيعي بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده و قال: أعتذر إليك يا ابن رسول الله عن صلاتي خلف فلان فإنها تقيه، و لو لا ذلك لصليت وحدى، قال له الباقر: يا أخي ..

إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت، يا عبد الله المؤمن .. ما زالت ملائكة السموات السبع و الأرضين السبع تصلى عليك و تلعن إمامك ذاك، و إن الله (١) ص ٩٨-٩٩.

(٢) ص ١٤٢.

(٣) ص ١٦٢.

(٤) ص ٢٣٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٧

تعالى أمر أن تحسب صلاتك خلفه للتقية بسبعمائه صلاة لو صليتها لوحدك.

فعليك بالتقية اه «١».

تأثره بمذهب المعتزلة:

و إنا لنجد في هذا التفسير تأثرا بمذهب المعتزلة و معتقداتهم، فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٧) من سورة البقرة «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً» نجد المؤلف لا يرتضى نسبة الختم إلى الله على ظاهره، و نراه يتأول هذا الختم بما يتفق و رأى المعتزلة فيقول «أى وسمها نسمة يعرفها من يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم الذين لا- يؤمنون، و على سمعهم كذلك بسمات، و على أبصارهم غشاوة، و ذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه، و قصرُوا فيما أريد منهم، جهلوا ما لزمهم من الإيمان به، فصاروا كمن على عينه غطاء لا- يبصر ما أمامه؛ فإن الله عز و جل يتعالى عن العبث و الفساد، و عن مطالبة العباد بما قد منعهم بالقهر منه، فلا يأمرهم بمغالته و لا بالمسير إلى ما قد صداهم بالعجز «٢».

تأثره في تفسيره بآراء الشيعة في الفروع الفقهية.

كذلك نجد المؤلف يجرى في تفسيره على وفق ما يميل إليه من الأحكام الفقهية التي يقول بها الإمامية الاثنا عشرية. فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة البقرة (وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ...) نراه يروى حديثا طويلا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجلين في الوضوء مسحهما لا غسلهما و أن غسلهما لا يجوز إلا للتقية، و هذا الحديث هو: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: إن العبد إذا توضأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه، و إذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه، و إذا مسح رأسه تناثرت ذنوب (١) ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) ص ٣٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٨

رأسه، و إذا مسح رجله، أو غسلها تقية تناثرت ذنوب رجله ... الخ «١».

... و هكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشيعي، سيرا فيه كثير من التطرف و الغلو و الخروج عن دائرة المعقول المقبول. و إذا كان هذا التفسير من عمل الحسن العسكري، الإمام المعصوم، الذي عنده علم القرآن كله، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له و لا علم عنده، و كيف يصدر هذا التلاعب بنصوص القرآن من إمام له قيمته و مكانته.

و إذا كان ما يذكره صاحب أعيان الشيعة من علمه و صلاحه أمرا حقيقيا، فالظن بهذا الكتاب أن يكون منسوباً إلى هذا الإمام زورا و بهتاناً، و هذا ما أرجحه و أختاره، لأنى لم أعر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل و تطرفه في التشيع كما فعل غيره. (١). ٢١٥-

٢١٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٩٩

٣- مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي

ترجمة المؤلف و مكانته العلمية:

مؤلف هذا التفسير في نظر أصحابه هو أبو علي، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي المشهدي «١»، الفاضل العالم، المفسر، الفقيه، المحدث، الجليل، الثقة، الكامل، النبيل. و هو من بيت عرف أهله بالعلم، فهو و ابنه رضى الدين أبو نصر حسن بن الفضل صاحب

مكارم الأخلاق، و سبطه أبو الفضل علي ابن الحسن، و سائر سلسلته و أقربائه، من أكابر العلماء. و يروى عنه جماعة من العلماء منهم: ولده المذكور، و ابن شهر آشوب، و الشيخ منتخب الدين، و القطب الراوندى، و غيرهم. و يروى هو عن الشيخ أبي علي بن الشيخ الطوسى.

قال الشيخ منتخب الدين فى الفهرس «هو ثقة، فاضل، دين، عين، له تصانيف، منها: مجمع البيان فى تفسير القرآن، و الوسيط فى التفسير أربع مجلدات، و الوجيز مجلدة، و إعلام الورى بأعلام الهدى مجلدين، و تاج المواليد و الآداب الدينية للخزانة المعبية» اه. قال صاحب روضات الجنات معقبا على هذا: و قد فرغ من تأليف المجمع فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٣٤ هـ أربع و ثلاثين و خمسمائة و لعل مراده بالوسيط هو تفسير جوامع الجامع المشهور. و بالوجيز، الكاف الشاف عن الكشاف، و يحتمل المغايرة. اه و قال صاحب مجالس المؤمنين ما معناه «إن عمدة المفسرين، أمين الدين، ثقة الإسلام، أبو علي الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، كان من نحارير علماء التفسير، و تفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان، بيان كاف و دليل واف لجامعيته لفنون الفضل و الكمال، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف و استحسنت طريقته، ألف تفسيراً آخر مختصراً، شاملاً لفوائد تفسيره الأول و لطائف الكشاف، و سماه الجوامع، و له تفسير ثالث أيضاً أخصر من الأولين، و تصانيف أخرى فى الفقه و الكلام، و يظهر من كتاب اللعة (١) الطبرسى: نسبة إلى طبرستان: و المشهد نسبة للمشهدى الرضوى المدفون فيه.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٠

الدمشقية فى مبحث الرضاع أن الطبرسى هذا كان داخلاً فى زمرة مجتهدى علمائنا أيضاً، و مقالته فى الرضاع معروفة، و هى قوله بعدم اعتبار اتحاد الفحل فى نشر الحرمة، و كذا قوله بأن المعاصى كلها كبائر، و إنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر. اه و من العجيب أنهم يذكرون قصة فى غاية الطرافة و الغرابة فى سبب تأليفه لتفسيره مجمع البيان الذى نحن بصدده فيقولون «و من عجيب أمر هذا الطبرسى بل من غريب كراماته، ما اشتهر بين الخاص و العام، أنه قد أصابته السكتة فظنوا به الوفاة فغسلوه و كفنوه و دفنوه ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه فى القبر و مسدوداً عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة، فنذر فى تلك الحالة أنه إذا نجى من تلك الداهية ألف كتاباً فى تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفته، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده، فتحير النباش و دهش مما رآه، ثم تكلم معه فزاد به قلقاً، فقال له: لا تخف، أنا حى و قد أصابتنى السكتة ففعلوا بى هذا، و لما لم يقدر على النهوض و المشى من غاية ضعفه، حمله النباش على عاتقه و جاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة و أولاه مالا جزيلاً، و تاب على يده النباش، ثم إنه بعد ذلك و فى بندره الموصوف، و شرع فى تأليفه مجمع البيان). اه و كانت وفاته ليلة النحر سنة ٥٣٨ هـ ثمان و ثلاثين و خمسمائة من الهجرة» (١)

الكلام على هذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

قبل أن أخوض فى الكلام عن هذا التفسير أرى أن أسوق ما جاء فى مقدمة هذا التفسير للمؤلف رحمه الله؛ لما جاء فيها من بيان الحوافر التى دفعت مؤلفه إلى تأليفه، و لما أوضحه لنا من طريقته التى سلكها فى تفسيره، فهو أدرى بها و أعلم. (١) انظر روضات الجنات ٥١٣-٥١٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠١

الدواعى التى حملت الطبرسى على كتابة هذا التفسير:

ذكر الطبرسي هذه الدواعي فقال:

(... وقد خاض العلماء قديما و حديثا في علم تفسير القرآن، و اجتهدوا في إبراز مكنونه و إظهار مضمونه، و ألفوا فيه كتباً جما غاصوا في كثير منها إلى أعماق لججه، و شققوا الشعر في إيضاح حججه، و حققوا في تفتيح أبوابه و تغلغل شعابه، إلا أن أصحابنا- رضى الله عنهم- لم يدونوا في ذلك غير مختصرات نقلوا فيها ما وصل إليهم في ذلك من الأخبار، و لم يعنوا ببسط المعاني فيه و كشف الأسرار، إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي من كتاب التبيان، فإنه الكتاب الذي يقتبس من ضيائه الحق، و يلوح عليه رواء الصدق، و قد تضمن فيه من المعاني الأسرار البديعة، و اختصر من الألفاظ اللغوة الوسيعة، و لم يقنع بتدوينها دون تبيينها، و لا- بتنميقها دون تحقيقها، و هو القدوة و أستاذنا بآثاره، و أطأ مواقع آثاره، غير أنه خلط في أشياء مما ذكره في الإعراب و النحو الغث بالسمين، و الخائر بالزباد. و لم يميز الصلاح مما ذكر فيه و الفساد، و أدى الألفاظ في مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد، و أدخل بحسن الترتيب و جودة التهذيب، فلم يقع له لذلك من القلوب السليمة الموقع المرضي، و لم يعمل من الخواطر الكريمة المكان العلي).

«و قد كنت في ريعان الشباب و حداثة السن، و ريان العيش و نضارة الغصن، كثير النزاع شديد التشوق إلى جمع كتاب في التفسير، ينتظم أسرار النحو اللطيفة، و لمع اللغة الشريفة، و يفى موارد القراءات من متوجهاتها، مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها، و يجمع جوامع البيان في المعاني المستنبطة من معادنها، المستخرجة من كوامنها، إلى غير ذلك من علومه الجممة. مطلعاً من الغلف و الأكمة فيعرض لذلك جوائح الزمان، و عوائق الحدثان، و وارتد الهموم، و هفوات القدر المحتوم، و هلم جرا إلى الآن، و قد زرف سنى على الستين و اشتعل الرأس شيباً، و امتلأت العيبة عيباً، فحداني على تصميم هذه العزيمة ما رأيت من عناية مولانا الأمير السيد الأجل العالم، ولى النعيم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٢

جلال الدين ركن الإسلام ... فخر آل رسول الله صلى الله عليه و آله، أبي منصور محمد بن يحيى بن هبة الله الحسين- أدام الله علاه- بهذا العلم، و صدق رغبته في معرفة هذا الفن، و قصر همه على تحقيق حقائقه، و الاحتواء على جلاله و دقائقه، و الله عز اسمه المسئول أن يحرس للإسلام و المسلمين رفيع حضرته، و يفيض على الفضل و الفضلاء سجال سيادته، و يمد على العلم و العلماء أمداد سعادته ... فأوجبت على نفسي إجابته إلى مطلوبه، و إسعافه بمحبوبه، و استخرت الله تعالى، ثم قصرت و همى و همى على اقتناء هذه الذخيرة الخطيرة، و اكتساب هذه الفضيلة النبيلة، و شممت عن ساق الجد، و بذلت غاية الجهد و الكد، و أسهرت الناظر و أتعبت الخاطر، و أطلت التفكير و أحضرت التفاسير و استمددت من الله التوفيق و التيسير «(١)».

وصف الطبرسي لتفسيره:

ثم وصف الطبرسي تفسيره فقال:

«و ابتدأت في تأليف كتاب هو في غاية التلخيص و التهذيب، و حسن النظم و الترتيب، يجمع أنواع هذا العلم و فنونه، و يحوى فصوصه و عيونه، من علم قراءاته و إعرابه و لغاته، و غوامضه و مشكلاته، و معانيه و جهاته، و نزوله و أخباره، و قصصه و آثاره، و حدوده و أحكامه، و حلاله و حرامه، و الكلام على مطاعن المبطلين فيه، و ذكرنا ما يتفرد به أصحابنا- رضى الله عنهم- من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول و الفروع، و المعقول و المسموع، على وجه الاعتدال و الاختصار، فوق الإيجاز دون الإكثار؛ فإن الخواطر في هذا الزمان لا تحمل أعباء العلوم الكثيرة، و تضعف عن الإجراء في الحلقات الخطيرة إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، و من العلوم إلا الذمء «(٢)». (١) هنا يذكر الشيخ الحوافر التي دفعته إلى تأليف هذا التفسير و هي كما ترى مخالفة للقصة المتقدمة.

(٢) الذماء فى الأصل بقية الروح فى المذبوح.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٣

منهج الطبرسى فى تفسيره:

إشارة

ثم وضح منهجه فقال:

«وقدمت فى مطلع كل سورة ذكر مكيها و مدنيها، ثم ذكر الاختلاف فى عدد آياتها، ثم ذكرت تلاوتها، ثم أقدم فى كل آية الاختلاف فى القراءات، ثم أذكر العلل و الاحتجاجات، ثم أذكر العريية و اللغات، ثم أذكر الإعراب و المشكلات، ثم أذكر الأسباب و النزولات، ثم أذكر المعانى و الأحكام و التأويلات، و القصص و الجهات، ثم أذكر انتظام الآيات على أنى قد جمعت فى عرييته كل غرة لائحته، و فى إعرابه كل حجة واضحة، و فى معانيه كل قول متين، و فى مشكلاته كل برهان مبين، فهو بحمد الله للأديب عمدة، و للنحوى عمدة، و للمقريئ بصيرة، و للناسك ذخيرة، و للمتكلم حجة، و للمحدث محجة، و للفقهاء دلالة، و للواعظ آله و سميته (مجمع البيان لعلوم القرآن).

مقدمات الكتاب:

ثم استطرد إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال: و قبل أن نشرع فى تفسير السور و الآيات، فنحن نصدر الكتاب بذكر مقدمات لا بدّ من معرفتها. لمن أراد الخوض فى علومه تجمعها فنون سبعة:

جعل الفن الأول منها: فى أعداد آى القرآن و الفائدة من معرفتها.

و الفن الثانى: فى ذكر أسامى القراء المشهورين فى الأمصار و روايتهم.

و الفن الثالث: فى ذكر التفسير و التأويل و المعنى، و التوفيق بين ما ورد من الآيات و الآثار من النهى عن التفسير بالرأى و إباحته.

و الفن الرابع: فى ذكر أسامى القرآن و معانيها.

و الفن الخامس: فى أشياء من علوم القرآن يحال فى شرحها و بسط الكلام فيها على المواضع المختصة بها و الكتب المؤلفة فيها كإعجاز القرآن، و الكلام عن زيادة القرآن و نقصانه.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٤

و هنا يقول: فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه، و أما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا و قوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغييرا و نقصانا، و الصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، و هو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه ... الخ «١» ثم ذكر من جملة العلوم التى يحال فى شرحها و بسط الكلام فيها على الكتب المؤلفة فيها الكلام فى النسخ و الناسخ و المنسوخ و غير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن و ليست داخله فى التفسير.

و الفن السادس: فى ذكر بعض ما جاء من الأخبار المشهورة فى فضل القرآن و أهله.

و الفن السابع: فى ذكر ما يستحب للقارئ من تحسين اللفظ و تزيين الصوت بقراءة القرآن «٢».

ثم شرع فى التفسير

فتكلم عن الاستعاذة بالبسملة ففاتحة الكتاب و هكذا إلى آخر القرآن.

و الحق أن تفسير الطبرسي - بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية و آراء اعتزالية - كتاب عظيم في بابه، يدل على تبحر صاحبه في فنون مختلفة من العلم و المعرفة. و الكتاب يجرى على الطريقة التي أوضحها لنا صاحبه، في تناسق تام و ترتيب جميل، و هو جيد في كل ناحية من النواحي التي يتكلم عنها، فإذا تكلم عن القراءات و وجوها أجاد، و إذا تكلم عن المعاني اللغوية للمفردات أجاد، و إذا تكلم عن وجوه الإعراب أجاد، و إذا شرح المعنى الإجمالي أوضح المراد، و إذا تكلم عن أسباب النزول و شرح القصص استوفى الأقوال و أفاض، و إذا تكلم عن الأحكام تعرض لمذاهب الفقهاء، و جهر بمذهبه و نصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، و إذا ربط بين الآيات آخى بين الجمل، و أوضح لنا عن حسن السبك و جمال النظم، و إذا عرض لمشكلات (١) ج ١ ص ٦.

(٢) ج ١ ص ١-٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٥

القرآن أذهب الإشكال و أراح البال. و هو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها، و يرجح و يوجه ما يختار منها. و إذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه و انتصاره له، و حملة لكتاب الله على ما يتفق و عقيدته، و تنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التي خالف فيها هو و من على شاكلته، و روايته لكثير من الأحاديث الموضوعية، غير أنه - و الحق يقال - ليس مغاليا في تشيعه، و لا متطرفا في عقيدته، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الاثني عشرية.

و إليك بعض المثل من هذا التفسير

إشارة

، لترى كيف يميل الطبرسي بالآيات القرآنية إلى المعاني التي تتفق و مذهبه، و كيف يحاول بكل قواه الجدلية العنيفة أن يقيم مذهبه على أسس من القرآن الكريم، و أن يرد ما يصادمه من ظواهر النصوص و يدفع بها في وجه خصمه.

إمامة علي:

لما كان الطبرسي يدين بإمامة علي رضي الله عنه، و يرى أنه خليفة النبي صلى الله عليه و سلم بلا فصل، فإننا نراه يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته و ولايته من القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَثِّقُكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» يبذل مجهودا كبيرا لاستخلاص وجوب إمامة علي رضي الله عنه من هذه الآية، فنجده أولا يتكلم عن المعاني اللغوية لبعض مفردات الآية فيفسر المولى بقوله «المولى هو الذي يلي النصر و المعونة، و المولى هو الذي يلي تدبير الأمر. يقال: فلان ولي أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها. و ولي الدم من كان إليه المطالبة بالقود. و السلطان ولي أمر الرعية. و يقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده ولي عهد المسلمين. قال الكميتم يمدح عليا:

و نعم ولي الأمر بعد وليه و منتجج التقوى و نعم المؤدب التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٦

(و يروي الفتوى). و إنما أراد ولي الأمر و القائم بتدبيره، قال المبرد في كتاب العبادة عن صفات الله (أصل المولى الذي هو أولى أي أحق، و مثله المولى). ثم بعد ذلك فسر الطبرسي (الركوع) و (الحزب)، ثم ذكر الإعراب ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل (... بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟

فكشف العمامة عن وجهه و قال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني و من لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم بهاتين و إلا صمتا، و رأيت بهاتين و إلا عميتا يقول (على قائد البررة، و قاتل الكفرة، و منصور

من نصره، و مخذول من خذله) أما إنى صليت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللهم إنى سألت في مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئاً، و كان على راکعاً فأوى بخصره اليمنى إليه- و كان يتختم فيها- فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خصره، و ذلك بعين رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلما فرغ النبي من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن أخى موسى سألك فقال (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَ اخللْ عُنُقَهُ مِنْ لِسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي* وَ اجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) «١» فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً (سَيَشْدُو عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْعَلُونَ إِلَيْكُمَا «٢»). اللهم و أنا محمد نبيك و صفيك، اللهم فاشرح لي صدري، و يسر لي أمري، و اجعل لي وزيراً من أهلي، عليا اشدد به ظهري. قال أبو ذر:

فو الله ما استتم رسول الله صلى الله عليه و سلم الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند (١) الآيات من ٢٥ إلى ٣٢ من سورة طه.

(٢) في الآية (٣٥) من سورة القصص

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٧

ربه فقال: يا محمد. اقرأ، قال: و ما اقرأ قال اقرأ (إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا) و روى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بهذا الإسناد بعينه.

و روى أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن- على ما حكاه المغربي عنه- و الروماني، و الطبري أنها نزلت في علي حين تصدق بخاتمه و هو راکع، و هو قول مجاهد و السدي. و المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله و جميع علماء أهل البيت» و قال الكليني: نزلت في عبد الله بن سلام و أصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية. و فى رواية عطاء قال عبد الله بن سلام يا رسول الله أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه و هو راکع فنحن نتولاه. و قد رواه السيد أبو الحمد عن أبي القاسم الحسكاني بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبي صالح أبي الصلاح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام و معه نفر من قومه ممن قد آمنوا بالنبي صلى الله عليه و سلم فقالوا: يا رسول الله .. إن منازلنا بعيدة، و ليس لنا مجلس و لا متحدث دون هذا المجلس. و إن قومنا لما رأونا آمنا بالله و رسوله و صدقناه رفضونا و آلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا و لا يناكحونا و لا يكلمونا فشق ذلك علينا، فقال لهم النبي صلى الله عليه و سلم «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ ... الآية» ثم إن النبي خرج إلى المسجد و الناس بين قائم و راکع، فبصر بسائل، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: هل أعطاك أحد شيئاً! فقال:

نعم .. خاتم من فضة، فقال النبي: من أعطاكه! قال: ذلك القائم- و أما بيده إلى علي- فقال النبي صلى الله عليه و سلم: على أى حال أعطاكه! قال:

أعطنى و هو راکع، فكبر النبي ثم قرأ «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» فأنشأ حسان بن ثابت يقول فى ذلك:

أبا حسن تفديك نفسى و مهجتى و كل بطيء فى الهدى و مسارع
أ يذهب مدحيك المحبر ضائعا و ما المدح فى جنب الإله بضائع
فأنت الذى أعطيت إذ كنت راکعاً زكاة فدتك النفس يا خير راکع
فأنزل فيك الله خير ولاية و ثبتها ثبت الكتاب الشرائع

و فى حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير: أن عبد الله بن سلام أتى رسول

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٨

الله صلى الله عليه و سلم مع رهط من قومه يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لقوا من قومهم، فيبناهم يشكون إذ نزلت هذه الآية، و أذن بلال فخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المسجد و إذا بمسكين يسأل، فقال صلى الله عليه و سلم: ما ذا

أعطيت! قال خاتم من فضة. قال: من أعطاكه! قال:

ذلك القائم. فإذا هو علي، قال: علي أي حال أعطاكه! قال: أعطاني و هو راعم، فكبر رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: و من يتول الله و رسوله ...)

ثم شرح المعنى فقال «ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق و القيام بأمرهم، و يجب طاعته عليهم. فقال «إنما وليكم الله و رسوله» أي الذي يتولى مصالحكم يحقق تدبيركم هو الله تعالى، و رسوله يفعل بأمره (و الذين آمنوا) ثم وصف الذين آمنوا فقال (الذين يقيمون الصلاة) بشرائها (و يؤتون) أي و يعطون الزكاة (و هم راعون) أي في حال الركوع. و هذه الآية من أوضح الدالة على صحة إمامة علي بعد النبي صلى الله عليه و سلم بلا فصل. و الوجه فيه:

أنه إذا ثبت أن لفظه وليكم في الآية تفيد من هو أولى بتدبير أموركم و يجب طاعته عليكم، و ثبت أن المراد بالذين آمنوا علي، ثبت النص عليه بالإمامة و وضوح. و الذي يدل على الأول هو الرجوع إلى اللغة، فمن تأملها علم أن القوم نصوا على ذلك، و قد ذكرنا قول أهل اللغة فيه قبل فلا وجه لإعادته. و إن الذي يدل على أنها في الآية تفيد ذلك دون غيره، أن لفظه إنما علي ما تقدم ذكره تفيد التخصيص و نفى الحكم عن عدا المذكور، كما يقولون: إنما الفصاحة للجاهلية، و يعنون نفى الفصاحة عن غيرهم. و إذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظه الوالي على الموالاة في الدين و المحبة لأنه لا تخصيص في هذا المعنى لمؤمن دون مؤمن آخر، و المؤمنون كلهم مشتركون في هذا المعنى، كما قال سبحانه (و الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ «١») و إذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر و هو التحقيق بالأمر، و ما يقتضى فرض الطاعة (١) في الآية (٧١) من سورة التوبة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٠٩

على الجمهور؛ لأنه لا- محتمل للفظ إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر. و الذي يدل على أن المعنى بالذين آمنوا هو علي، الرواية الواردة من طريق العامة و الخاصة بنزول الآية فيه لما تصدق بخاتمه في حال الركوع، و قد تقدم ذكرها، و أيضا فإن كل من قال إن المراد بلفظه ولي ما يرجع إلى فرض الطاعة و الإمامة، ذهب إلى أنه هو المقصود بالآية و المنفرد، و لا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا و يذهب إلى أن المعنى بها سواه. و ليس لأحد أن يقول: إن لفظه الذين آمنوا لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد، و ذلك أن أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التفخيم و التعظيم، و ذلك أشهر في كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. و ليس لهم أن يقولوا: إن المراد بقوله: و هم راعون، أن هذه شيمتهم و عاداتهم و لا- يكون حالا لإيتاء الزكاة؛ و ذلك لأن قوله: يقيمون الصلاة، قد دخل فيه الركوع، فلو لم يحمل قوله و هم راعون على أنه حال من يؤتون الزكاة، و حملناه على من صفتهم الركوع، كان ذلك كالتكرار غير المفيد، و التأويل المفيد أولى من البعيد الذي لا يفيد. و وجه آخر في الدلالة على أن الولاية في الآية مختصة: أنه قال (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ) فخاطب جميع المؤمنين، و دخل في الخطاب النبي صلى الله عليه و سلم و غيره، ثم قال:

(و رسوله) فأخرج النبي صلى الله عليه و سلم من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال (و الَّذِينَ آمَنُوا) فوجب أن يكون الذي خوطب بالآية هو الذي جعلت له الولاية و إلا- أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، و إلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولي نفسه، و ذلك محال. و استيفاء الكلام في هذا الباب يطول به الكتاب و من أراد فليطلبه من مظانه ... «١» اه و لا شك أن هذه محاولة فاشلة؛ فإن حديث تصدق علي بخاتمة في الصلاة- و هو محور الكلام- حديث موضوع لا أصل له، و قد تكفل

العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى في كتابه منهاج السنة (ج ٤ ص ٣-٩). (١) ج ١ ص ٣٣٥-٣٣٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٠

عصمة الأئمة:

و لما كان الطبرسى يدين بعصمة الأئمة فإننا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الأحزاب «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» يحاول محاولة جديده أن يقصر أهل البيت على النبى صلى الله عليه و سلم و على و فاطمة و الحسن و الحسين؛ ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء، فلهذا يقول بعد ما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذى يريده (... و الروايات فى هذا كثيرة من طريق العامة و الخاصة، لو تصدينا لإيرادها لطلال الكلام، و فيما أوردناه كفاية... و استدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة بأن قالوا:

إن لفظه إنما محققه لما أثبت بعدها، نافية لما لم يثبت؛ فإن قول القائل إنما لك عندى درهم، و إنما فى الدار زيد، يقتضى أنه ليس عندى سوى الدرهم، و ليس فى الدار سوى زيد. و إذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة فى الآية أن تكون هى الإرادة المحضة، أو الإرادة التى يتبعها التطهير و إذهاب الرجس، و لا يجوز الوجه الأول؛ لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، و لأن هذا القول يقتضى المدح و التعظيم لهم بغير شك و شبهة، و لا مدح فى الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثانى.

و فى ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح. و قد علمنا أن من عدا من ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم. و متى قيل: إن صدر الآية و ما بعدها فى الأزواج، فالقول فيه: أن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء فى كلامهم؛ فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره و يعودون إليه، و القرآن من ذلك مملوءة و كذلك كلام العرب و أشعارهم (... «١»). اه فأنت ترى أن الطبرسى يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة (١) ج ١ ص ٥٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١١

الأئمة، و هى عقيدة فاسدة يؤمن بها هو و من على شاكلته من الإمامية الاثنى عشرية، و لا شك أن هذا تحكّم فى كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى. و حملة عليه تأثير المذهب.

الرجعة:

و لما كان الطبرسى يقول بالرجعة، فإننا نراه عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» يقول ما نصه: (... و استدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة و قول من قال: إن الرجعة لا تجوز إلا فى زمن النبى لتكون معجزة له و داله على نبوته باطل؛ لأن عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة و الأولياء، و الأدلة على ذلك مذكورة فى كتب الأصول ... «١»). اه.

المهدى:

و الطبرسى يدين بالمهدى، و يعتقد أنه اختفى و سيرجع فى آخر الزمان، و قد تأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» يذكر الأقوال الواردة فى المعنى المراد بالغيب، و ينقل فى جملة ما ينقل من الأقوال:

أن ابن مسعود و جماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد علمه.

ثم يقول: «و هذا أولى لعمومه، و يدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدى و وقت خروجه. «٢»). اه.

التقية:

و لما كان الطبرسي يقول بمبدأ التقيّة، فإننا نجدّه يستطرد إلى الكلام فيها و يؤيد مذهبه عند ما فسر قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران (لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ (١) ج ١ ص ٥٠ (٢) ج ١ ص ١٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٢

مَنْ اللَّهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً... الآية) فيقول: من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله في شيء، أي ليس هو من أولياء الله، و الله برىء منه، و قيل: ليس هو من ولاية الله تعالى في شيء. و قيل: ليس من دين الله في شيء. ثم استثنى فقال: (إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً) و المعنى: إلا- أن يكون الكفار غالبين و المؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم و لم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه، و مداراتهم تقيّة منهم و دفعا عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك. و في هذه الآية دلالة على أن التقيّة جائزة في الدين عند الخوف على النفس، و قال أصحابنا: إنها جائزة في الأحوال كلها عند الضرورة، و ربما وجبت فيها لضرب من اللطف و الاستصلاح و ليس تجوز من الأفعال في قتل المؤمن، و لا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه استفساد في الدين.

قال المفيد: إنها قد تجب أحيانا و تكون فرضا، و تجوز أحيانا من غير وجوب، و تكون في وقت أفضل من تركها، و قد يكون تركها أفضل و إن كان فاعلها معذور أو معفوا عنه متفضلا عليه بترك اللوم عليها. و قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: و ظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس، و قد روى رخصته في جواز الإفصاح بالحق عنده، و روى الحسن: أن مسيلم الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لأحدهما:

أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال:

نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أفتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال:

أفتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم. قالها ثلاثا، كل ذلك يجيبه بمثل الأول، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: أما ذلك المقتول فمضى على صدقه و يقينه، و أخذ بفضله فهيننا له، و أما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعه عليه، فعلى هذا تكون التقيّة رخصة و الإفصاح بالحق فضيلة «١»، اه. (١) ج ١ ص ١٨٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٣

تأثر الطبرسي بفقهاء الشيعة في تفسيره:

إشارة

و نجد الطبرسي في تفسيره يتأثر بفقهاء الإمامية الاثنى عشرية و آرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفه بآيات القرآن على مذاهبهم، و هو في استدلاله، و رده، و دفاعه و جدله، عنيف كل العنف. قوى إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، و الباطل بجانب من يخالفه.

نكاح المتعة:

فمثلا نجد الإمامية الاثنى عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، و لا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين؛ فلماذا حاول الطبرسي - و هو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى فعند ما فسر قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النساء «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ

مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ... الآية» يقول ما نصه (... فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ...) الآية. قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة. عن الحسن ومجاهد وابن زيد. فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن.

وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم ..

عن ابن عباس والسدي وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح؛ لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان في الأصل واقعا على الانتفاع والالتذاذ فقد صار يعرف الشرع مخصوصا بهذا العقد، لا سيما إذا أضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون معناه: فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن، ويدل على ذلك أن الله علق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضى أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به. هذا، وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود: أنهم قرءوا: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن. وفي ذلك

التفسير والمفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٤

تصريح بأن المراد به عقد المتعة. وقد أورد الثعلبي في تفسيره عن حبيب بن أبي ثابت قال: أعطاني ابن عباس مصحفا فقال هذا على قراءة أبي، فرأيت في المصحف: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى. ويأسناده عن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت:

بلى، فقال: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، قلت: لا أقرؤها هكذا.

قال ابن عباس: والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات). ويأسناده عن سعيد بن جبير أنه قرأ: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى. ويأسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال: سألته عن هذه الآية «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» أ منسوخة هي؟ قال: قال الحكم قال: علي بن أبي طالب: لو لا- أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى «١». ويأسناده عن عمران ابن الحصين قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و مات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء. ومما أورده مسلم بن الحجاج في الصحيح قال:

حدثنا الحسن الحلواني، قال حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريج، قال:

قال عطاء: قدم جابر بن عبد الله معتمرا فجنناه في منزله، فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله و أبي بكر و عمر.

ومما يدل أيضا على أن لفظ الاستمتاع في الآية لا يجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شيء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشيء، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزم نصف المهر، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد؛ لأنه قال: (فَاتُّوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أي مهورهن، ولا خلاف في أن ذلك غير واجب، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد في نكاح المتعة.

ومما يمكن التعلق به في هذه المسألة، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالا، أنا أنهى (١) الا شفى بالفاء: أى الا قليل

التفسير والمفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٥

عنهما وأعاقب عليهما، فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله و أضاف النهى عنها إلى نفسه بضرب من الرأى، فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم نسخها أو نهى عنها أو أباحها في وقت مخصوص دون غيره لأضاف التحريم إليه دون نفسه. و أيضا فإنه قرن بين متعة الحج و متعة النساء في النهى، و لا خلاف في أن متعة الحج غير منسوخة و لا محرمة، فوجب أن يكون حكم متعة النساء

حكمها. و قوله (فلا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) من قال إن المراد بالاستمتاع والانتفاع والجماع، قال: المراد به و لا- حرج و لا- إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر و نقصانه، أو حط، أو إبراء، أو تأخير. و قال السدى معناه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب في عقد المتعة، يزيدا الرجل في الأجر و تزيده في المدة، و هذا قول الإمامية و تظاهرت به الروايات عن أئمتهم .. «١» اه.

فرض الرجلين في الوضوء:

كذلك يقول الطبرسي - كغيره من علماء مذهبه - بأن المسح هو فرض الرجلين في الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة، و يدافع عن مذهبه و ينصره بادل إن دلت على شيء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه و كثر اطلاعه، فعند ما فسر قوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ آرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. الآية) يقول ما نصه (... وَ آرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ اختلف في ذلك، فقال جمهور الفقهاء: إن فرضهما الغسل. و قالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره، و به قال عكرمة. و قد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة و التابعين، كابن عباس، و أنس و أبي العالية و الشعبي. و قال الحسن البصري بالتخير بين المسح و الغسل، و إليه ذهب الطبري و الجبائي إلا أنهما قالا: يجب مسح جميع القدمين و لا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم. قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية: يجب الجمع بين المسح و الغسل. و روى عن ابن عباس أنه (١) ج ١ ص ٢٥٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٦

وصف وضوء رسول الله فمسح على رجليه. و روى عنه أنه قال: إن في كتاب الله المسح، و يأبى الناس إلا الغسل. و قال: الوضوء غسلتان و مسحتان. و قال قتادة: فرض الله غسلتين و مسحتين. و روى ابن عليه، عن حميد، عن موسى ابن أنس: أنه قال لأنس و نحن عنده: إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الظهر فقال: اغسلوا و جوهكم و أيديكم و امسحوا برءوسكم، و إنه ليس شيء من بنى آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما و طهورهما و عواقبهما، فقال أنس: صدق الله و كذب الحجاج، قال الله تعالى (وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ آرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) قال: فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما. و قال الشعبي: نزل جبريل عليه السلام بالمسح. و قال: إن في التيمم يمسخ ما كان غسلا، و يلغى ما كان مسحا. و قال يونس: حدثني من صحب عكرمة إلى واسط. قال:

فما رأيته غسل رجليه، إنما كان يمسخ عليهما - و أما ما روى عن سادة أهل البيت في ذلك فأكثر من أن يحصى، فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازي.

عن فضالة، عن حماد بن عثمان، عن غالب بن هذيل قال: سألت أبا جعفر عن المسح على الرجلين فقال: هو الذي نزل به جبريل. و عنه عن أحمد بن محمد قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحها إلى الكعبين؛ فقلت له: لو أن رجلا قال بإصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين؟ قال: لا. إلا بكفه كلها. و أما وجه القراءتين في (أرجلكم) فمن قال بالغسل حمل الجر فيه على أنه عطف على برءوسكم، و قال:

المراد بالمسح هو الغسل. و روى عن أبي زيد أنه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا: تمسحت للصلاة، و قوى ذلك بأن التحديد إنما جاء في المغسول و لم يجيء في الممسوح، فلما وقع التحديد في المسح علم أنه في حكم الغسل لموافق الغسل في التحديد، و هذا قول أبي علي الفارسي.

و قال بعضهم: هو خفض على الجوار، كما قالوا جحر ضب خرب.

و خرب من صفات الجحر لا الضب، و كما قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً في عرانيين و بله كبير أناس بجاد مزمل
و قال الزجاج: إذا قرئ بالجر يكون عطفاً على الرؤوس فيقتضى كونه

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٧

ممسوحاً. و ذكر عن بعض السلف أنه قال: نزل جبريل بالمسح، و السنه فيه الغسل. قال: و الخفض على الجوار لا يجوز في كتاب الله تعالى، و لكن المسح على هذا التحديد في القرآن كالغسل و قال الأخفش: هو معطوف على الرؤوس في اللفظ، مقطوع في المعنى، كقول الشاعر:

«علفتها تبناً و ماء بارداً» المعنى و سقيتها ماء بارداً.

و أما القراءة بالنصب، فقالوا فيه .. إنه معطوف على أيديكم؛ لأننا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح، و لما روى أن النبي صلى الله عليه و سلم رأى قوماً توضئوا و أعقابهم تلوح. فقال: «ويل للعراقيب من النار». ذكره أبو علي الفارسي. و أما من قال بوجوب مسح الرجلين .. حمل الجر و النصب في أرجلكم على ظاهره بدون تعسف، فالجر للعطف على الرؤوس، و النصب للعطف على موضع الجار و المجرور، و أمثال ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى. قالوا: ليس فلان بقائم و لا ذاهباً، و أنشد:

معاوى إننا بشر فأسجح فلنا بالجبال و لا الحديداً

و قال تأبط شراً:

هل أنت باعث ديناراً لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف عبد على موضع دينار فإنه منصوب في المعنى، و من ذلك

قول الشاعر:

جئني بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى جئني هات و أحضر لى مثلهم، عطف بالنصب على المعنى، و أجابوا الأولين عما ذكروه في وجه الجر و النصب بأجوبة نوردتها على وجه الإيجاز: قالوا: ما ذكروه أولاً من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه:

أحدها: أن فائدة اللفظين في اللغة و الشرع مختلفة، و قد فرق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة و بين الأعضاء الممسوحة، فكيف يكون معنى المسح و الغسل واحداً؟

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٨

و ثانيها: أن الأرجل إذا كان معطوفاً على الرؤوس، و كان الفرض في الرؤوس المسح الذي ليس بغسل بلا خلاف، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك؛ لأن حقيقة العطف تقتضى ذلك.

و ثالثها: أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما رووه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه توضأ و غسل رجله، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسموا المسح غسلًا و في هذا ما فيه.

فأما استشهاد أبي زيد بقولهم: تمسحت للصلاة، فالمعنى فيه: أنهم لما أرادوا أن يخبروا عن الطهور بلفظ موجز و لم يجز أن يقولوا تغسلت للصلاة لأن ذلك تشبيه، بالغسل، قالوا بدلاً من ذلك تمسحت؛ لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضاً فتجاوزوا لذلك تعويلاً على أن المراد مفهوم، و هذا لا يقتضى أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل.

و أما ما قالوا في تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى في الجواب عنه:

أن ذلك لا يدل على الغسل، و ذلك لأن المسح فعل قد أوجبه الشريعة كالغسل فلا ينكر تحديده كتحديد الغسل، و لو صرح سبحانه و تعالى فقال: و امسحوا أرجلكم و انتهوا بالمسح إلى الكعبيين لم يكن منكراً. فإن قالوا: إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضى الغسل قلنا: إنا لم نوجب الغسل في اليدين للتحديد بل للتصريح بغسلهما، و ليس كذلك في

الرجلين، و إن قالوا: عطف المحدود على المحدود أولى و أشبه بترتيب الكلام.

قلنا: هذا لا- يصح؛ لأن الأيدي محدودة و هي معطوفة على الوجوه التي ليست في الآية محدودة، فإذا جاز عطف الأرجل و هي محدودة، على الرؤوس التي ليست بمحدودة، و هذا أشبه مما ذكرتموه؛ لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود و هو الوجه، و عطف عضو محدود مغسول عليه، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود، فيجب أن يكون أرجل ممسوحة محدودة معطوفة على الرؤوس دون غيره. ليتقابل الجملتان في عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود، و عطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١١٩

و أما من قال: إنه عطف على الجوار، فقد ذكرنا عن الزجاج أنه لم يجوز ذلك في القرآن، و من أجاز ذلك في الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف، و كل ما استشهد به على الإعراب بالمجاورة فلا- حرف فيه حائل بين هذا و ذاك. و أيضا فإن المجاورة إنما وردت في كلامهم عند ارتفاع اللبس و الأمن من الاشتباه، فإن أحدا لا يشتبه عليه أن خربا لا يكون من صفة الضب، و لفظه مزمل لا يكون من صفة البجاد، و ليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون ممسوحة كالرؤوس. و أيضا فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزا في كلام العرب، و قالوا في جحر ضب خرب: إنهم أرادوا خرب جحره، فحذفوا المضاف الذي هو جحر و أقيم المضاف إليه و هو الضمير المجرور مقامه و إذا ارتفع الضمير استكن في خرب. و كذلك القول في كبير أناس في بجاد مزمل، فتقديره مزمل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة، و هذا واضح لمن تدبره.

و أما من جعله مثل قول الشاعر: علفتها تبا و ماء باردا، كأنه قدر في الآية و اغسلوا أرجلكم، فقله أبعد من الجميع؛ لأن مثل ذلك لو جاز في كتاب الله تعالى على ضعفه و بعده في سائر الكلام، فإنما يجوز إذا استحال حملة على ظاهر، فأما إذا كان الكلام مستقيما و معناه ظاهرا فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد؟.

و أما ما قاله أبو علي في القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدي، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال: جعل التأثير في الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد، فنصب الأرجل عطفا على الموضع أولى من عطفها على الأيدي و الوجوه، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت و بطل حكمها باستئناف الجملة الثانية، و لا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم ضربت زيدا و عمرا و اكرمت خالدا و بكرا، فإن رد بكر إلى خالد في الإي- كرام هو الوجه في الكلام لا يسوغ الذي سواه، و لا يجوز رده إلى الضرب الذي قد انقطع حكمه، و لو جاز ذلك

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٠

أيضا لترجح ما ذكرناه لتطابق معنى القراءتين و لا تتنافيان.

فأما ما روى في الحديث أنه قال: ويل للعراقيب من النار، و غير ذلك من الأخبار التي رووها عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه توضع و غسل رجله، فالكلام في ذلك أنه لا- يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن المعلوم بظاهر الأخبار الذي لا يوجب علما و إنما يقتضى الظن، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم و وجدت في كتبهم، و نقلت عن شيوخهم، مثل ما روى عن أوس بن أبي أوس انه قال: رأيت النبي صلى الله عليه و سلم يتوضأ و مسح على نعليه ثم قام فصلى، و عن حذيفة قال: أتى رسول الله سباطة قوم فبال عليها ثم دعا بماء فتوضأ و مسح على قدميه، و ذكره أبو عبيدة في غريب الحديث، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

و قوله: ويل للعراقيب من النار، فقد روى فيه أن قوما من أجلاف الأعراب كانوا يبولون و هم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم و أرجلهم فلا يغسلونها، و يدخلون المسجد للصلاة، و كان ذلك سببا لهذا الوعيد.

و أما الكعبان فقد اختلف في معناه، فعند الإمامية هما العظامان النابتان في ظهر القدم عند معقد الشراك، و وافقهم في ذلك محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، و إن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع. و قال جمهور المفسرين و الفقهاء: الكعبان هما عظما

الساقين، قالوا: و لو كان كما قالوه لقال سبحانه:

و أرجلكم إلى الكعاب و لم يقل إلى الكعيبين؛ لأن على ذلك القول يكون في كل رجل كعبان) اهـ. «١»

نكاح الكتابيات:

و لما كان مذهب الطبرسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود و النصارى، فإننا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢١) من سورة البقرة (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمِيَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ... الآية) يقول بعد ما نكلم (١) ج ١ ص ٣١٤-٣١٦ التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢١

عن اللغة و الإعراب و سبب النزول (لما تقدم ذكر المخالطة بين تعالى من يجوز مخالطته بالنكاح فقال: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ)، أى لا تزوجوا النساء الكافرات حتى يؤمن أى يصدقن بالله، و هى عامه عندنا فى تحريم مناهجه جميع الكفار من أهل الكتاب و غيرهم. و ليست بمنسوخة و لا مخصوصة، فاختلّفوا فيه، فقال بعضهم: لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب، و قد فصل الله بينهما فقال: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ «١»» و «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ «٢»» و عطف أحدهما على الآخر، فلا نسخ فى الآية و لا تخصيص. و قال بعضهم:

الآية متناولة جميع الكفار، و الشرك يطلق على الكل، و من جحد نبوة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم فقد أنكر معجزته و أضافه إلى غير الله، و هذا هو الشرك بعينه؛ لأن المعجزة شهادة من الله له بالنبوة. ثم اختلف هؤلاء: فمنهم من قال: إن الآية منسوخة فى الكتاب بالآية التى فى المائدة (... وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) «٣». عن ابن عباس و الحسن و مجاهد- و منهم من قال: إنها مخصوصة بغير الكتابيات .. عن قتادة و سعيد بن جبير- و منهم من قال: إنها على ظاهرها فى تحريم نكاح كل كافرة كتابية كانت أو مشركة ..

عن ابن عمر و بعض الزيدية و هو مذهبنا، و سيأتى بيان آية المائدة فى موضعها إن شاء الله «و لأمة مؤمنة خير من مشركة» معناه مملوكة مصدقة مسلمة خير من حرة مشركة (و لو أعجبتمكم) معناه و لو أعجبتمكم بما لها أو حسبها أو جمالها، فظاهر هذا يدل على أنه يجوز نكاح الأمة المؤمنة فى وجود الطول، فأما قول تعالى (وَمَنْ لَمْ يَسِدِّطْغِ مِنْكُمْ طَوْلًا.. الآية «٤») فإنما هى على التنزيه دون التحريم (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا) معناه: و لا تنكحوا النساء المسلمات جميع الكفار من أهل الكتاب و غيرهم حتى يؤمنوا، و هذا يؤيد قول من يقول (١) أول سورة البينة

(٢) فى الآية (١٠٥) من سورة البقرة.

(٣) فى الآية (٥) من سورة المائدة

(٤) فى الآية (٢٥) من سورة النساء.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٢

إن قوله (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) يتناول جميع الكافرات، و قوله (وَلَعَبِيدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ) أى عبد مصدق مسلم خير من حر مشرك و لو أعجبكم ماله أو حاله أو جماله... اهـ) «١» و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ... الآية).

نراه يقول ما نصه (... وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) و هم اليهود و النصارى، و اختلف فى معناه: فقيل هن العائف حرائر كن أو إماء، حريبات كن ذميات ... عن مجاهد و الحسن و الشعبى و غيرهم- و قيل:

هن الحرائر أو ذميات كن أو حرييات- وقال أصحابنا: لا يجوز عقد نكاح الدوام على الكتائية؛ لقوله تعالى (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ) و لقوله (وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ) «٢» و أولوا هذه الآية بأن المراد بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، اللاتي أسلمن منهن. و المراد بالمحصنات من المؤمنات، اللاتي كن فى الأصل مؤمنات بأن ولدن على الإسلام، و ذلك أن قوما كانوا يتخرجون من العقد على من أسلمت عن كفر، فبين سبحانه أنه لا حرج فى ذلك؛ و لهذا أفردهن بالذكر، حكى ذلك أبو القاسم البلخى. قالوا: و يجوز أن يكون مخصوصا أيضا بنكاح المتعة و ملك اليمين، فإن عندنا يجوز وطؤهن بكلا الوجهين، على أنه قد روى أبو الجارود عن أبى جعفر أنه منسوخ بقوله (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ) و بقوله (وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ...) اه «٣» و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة (..) و لَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ... قال ما نصه (أى لا تمسكوا بنكاح الكافرات، و أصل (١) ج ١ ص ١٣٤

(٢) فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة

(٣) ج ١ ص ٣١٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٣

العصمة المنع، و سمي النكاح عصمة، لأن المنكوحه تكون فى حبال الزوج و عصمته، و فى هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت حربية أو ذمية، و على كل حال، الآية عامة فى الكوافر، و ليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لتزولها بسببهن، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بالسبب... «١» اه

الغنائم:

و لما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيوجبون الخمس لمستحقه فى مطلق الغنيمه، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعا سبعة هى: غنائم الحرب، و غنائم الغوص، و الكنز الذى يعثر عليه، و المعدن الذى يستنبط من الأرض، و أرباح المكاسب، و الحلال المختلط بالحرام، و الأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى. و ليس الخمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، و لكنهم يعتبرونه حقا امتيازيا لآل محمد الذين حرمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، و قد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخمس حق سلطانى بإرادة ملكية، هى إرادة مليك الكائنات لمستحقه الذين ذكرهم القرآن «٢».

لما كان هذا فإننا نجد الطبرسى ينزل ما ورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه، و لهذا عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءِ الْآيَةِ) يقول متأثرا بمذهبه «... اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس و من يستحقه على أقوال. أحدها: ما ذهب إليه أصحابنا، و هو أن الخمس يقسم على ستة أسهم، فسهم لله، و سهم للرسول، و هذان السهمان مع سهم ذى القربى للإمام القائم مقام الرسول، و سهم لتمامى آل محمد، و سهم لمساكينهم، و سهم لأبناء سبيلهم، لا يشركهم فى ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقات لكونها (١) ج ٢ ص ٤٩٧

(٢) تعريف الشيعة ص ٣١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٤

أو ساخ الناس و عوضهم من ذلك الخمس، و روى ذلك الطبرى عن على بن الحسين زين العابدين، و محمد بن على الباقر. و روى أيضا عن أبى العالىة و الربيع أنه يقسم على سنة أسهم إلا أنهما قالوا: سهم لله للكعبة، و الباقي لمن ذكره الله. و هذا القسم مما يقتضيه ظاهر الكتاب و يقويه.

الثانى: أن الخمس يقسم على خمسة أسهم، و أن سهم الله و الرسول واحد، و يصرف هذا السهم إلى الكراع و السلاح، و هو المروى

عن ابن عباس، وإبراهيم، و قتادة، و عطاء.

الثالث: أن يقسم على أربعة أسهم: سهم لذى القربى ... لقراءة النبي صلى الله عليه و سلم، و الأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين و هو مذهب الشافعي.

الرابع: أنه يقسم على ثلاثة أسهم، لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته، لأن الأنبياء لا تورث فيما يزعمون، و سهم ذوى القربى قد سقط، لأن أبا بكر و عمر لم يعطيا سهم ذى القربى و لم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما .. و هو مذهب أبي حنيفة و أهل العراق - و منهم من قال: لو أعطى فقراء ذوى القربى سهمها و الآخرون ثلاثة أسهم جاز، و لو جعل ذوى القربى أسوة بالفقراء و لا يفرد لهم سهم جاز - و اختلف في ذى القربى: فقيل: هم بنو هاشم خاصة من ولد عبد المطلب، لأن هاشم لم يعقب إلا - منه .. عن ابن عباس و مجاهد، و إليه ذهب أصحابنا - و قيل هم بنو هاشم بن عبد مناف، و بنو عبد المطلب ابن عبد مناف ... و هو مذهب الشافعي، و روى ذلك عن جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه و سلم - و قال أصحابنا: إن الخمس واجب في كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب، و أرباح التجارات، و فى الكنوز و المعادن، و الغوص، و غير ذلك مما هو مذكور فى الكتب، و يمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن فى عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم و الغنيمه ... اه «١». (١) ج ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٥

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى لله و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل ... الآية) يقول ما نصه (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى أى من أموال كفار أهل القرى (فليله) يأمركم فيه بما أحب (و للرسول) بتمليك الله إياه (و لذى القربى) يعنى أهل بيت رسول الله و قرابته، و هم بنو هاشم (و اليتامى و المساكين و ابن السبيل) منهم، لأن التقدير و لذى قرباه، و يتامى أهل بيته و مساكينهم و ابن السبيل منهم. و روى المنهال بن عمرو عن على بن الحسين قال: قلت قوله (و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل) قال: هم أقرباؤنا و مساكيننا و أبناء سبيلنا. و قال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامه، و كذلك المساكين و أبناء السبيل. و قد روى أيضا ذلك عنهم. و روى محمد بن مسلم عن أبى جعفر أنه قال: كان أبى يقول: لنا سهم رسول الله و سهم ذوى القربى، و نحن شركاء الناس فيما بقى. و الظاهر يقتضى أن ذلك لهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء ... و هو مذهب الشافعي - و قيل:

إن مال الفىء للفقراء من قرابة رسول الله و هم بنو هاشم و بنو المطلب.

و روى عن الصادق أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، و لنا الأنفال، و لنا صفو المال .. يعنى ما كان يصطفى لرسول الله صلى الله عليه و سلم من فريه الدواب، و حسان الجوارى و الدرّة الثمينه و الشىء الذى لا نظير له «١» اه

ميراث الأنبياء:

و الطبرسى يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما يورث سائر الناس، و لهذا نراه يتأثر بمذهبه هذا، فيحمل عليه كلام الله، فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم (وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) يقول ما نصه (.. اختلف فى معناه، فقيل:

معناه يرثنى مالى و يرث من آل يعقوب النبوة .. عن أبى صالح - و قيل معناه (١) ج ٢ - ص ٤٩١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٦

يرث نبوتى و نبوة آل يعقوب .. عن الحسن و مجاهد. و استدلت أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، و أن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم و النبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث فى اللغة و الشريعة لا - يطلق إلا - على ما ينقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، و لا يستعمل فى غير المال إلا على طريق المجاز و التوسع، و لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة. و أيضا

فإن زكريا قال في دعائه (و اجعله رب رضيا) أى اجعل يا رب ذلك المولى الذى يرثى رضيا عندك ممثلا لأمرك، و متى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى، و كان لغوا عبثا، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد. اللهم ابعث لنا نبيا، و اجعله عاقلا رضيا فى أخلاقه، لأنه إذا كان نبيا فقد دخل الرضا و ما هو أعظم من الرضا فى النبوة، و يقوى ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله (و إنى خفت المولى من ورائى) و إنما يطلب وارثا لأجل خوفه، و لا- يلقى خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة و العلم، لأنه كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيا من ليس بأهل النبوة، و أن يورث علمه و حكمته من ليس لهما يأهل، و لأنه إنما بعث لإذاعة العلم و نشره فى الناس، فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض من بعثته. فإن قيل: إن هذا يرجع عليكم فى ورثه المال، لأذ فى ذلك إضافة الضن و البخل إليه، إليه، قلنا: معاذ الله أن يستوى الأمران، فإن المال قد يروق المؤمن و الكافر، و الصالح و الصالح، و لا- يمتنع أن يأسى على بنى عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا- ينبغى، بل فى ذلك غاية الحكمة، فإن تقوية الفساد و إعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين، فمن عد ذلك بخلا و ضنا فهو غير منصف. و قوله: «خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي» يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم و أفعالهم و معان فيهم لا- من أعيانهم، كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه، فالمراد به: خفت تضييع الموالى مالى و إنفاقهم إياه فى معصية الله (١) اه.

و عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (١٤) من سورة النمل (... وَ وَرَثَ سُلَيْمَانَ (١) ج ٢ ص ١١٤، ١١٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٧

داود) نجده يقول ما نصه: فى هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم .. و هو قول الحسن - و قيل معناه أنه ورت علمه و نبوته و ملكه دون سائر أولاده. و معنى الميراث هنا أنه قام مقامه فى ذلك، فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث ... عن الجبائى، و هذا خلاف الظاهر، و الصحيح عند أهل البيت هو الأول .. (١) اه.

الإجماع:

و لما كان الطبرسى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفا عن رأى الإمام أو كان الإمام داخلا فى جملة المجمعين (٢)، فإننا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدلت بها الجمهور على حجية الإجماع و يناقشهم فى فهم هذه الآيات. فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء (... فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) نراه يرد استدلال الجمهور بهذه الآية على حجية الإجماع فيقول ما نصه (... و استدلت بعضهم بقوله «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» على أن إجماع الأمة حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب و السنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع لا يجب الرد، و لا يكون كذلك إلا و الإجماع حجة. و هذا الاستدلال إنما يصح لو فرض أن فى الأمة معصوما حافظا للشرع، فأما إذا لم يفرض ذلك فلا يصح، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عده بخلافه عند أكثر العلماء، فكيف اعتمدوا عليه هاهنا. على أن الأمة لا تجمع على شىء إلا عن كتاب أو سنة. و كيف يقال إنها إذا أجمعت على شىء لا يجب عليها الرد إلى الكتاب و السنة و قد ردت إليهما؟. (٣) اه. (١) ج ٢ ص ٢٢٩.

(٢) تعريف الشيعة ص ١٦.

(٣) ج ١ ص ٢٧٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٨

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٥) من سورة النساء (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ... الآية) يقول ما نصه .. و قد استدلت بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة، لأنه توعد على مخالفته سبيل المؤمنين كما توعد على مشاققة الرسول.

والصحيح أنه لا يدل على ذلك، لأن ظاهر الآية يقتضى إيجاب متابعتها من هو مؤمن على الحقيقة ظاهرا و باطنا، لأن من أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازا، فكيف يحمل ذلك على إيجاب متابعتها من أظهر الإيمان، وليس كل من أظهر الإيمان مؤمنا، ومتى حملوا الآية على بعض الأمة حملها غيرهم على من هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وسلم. على أن ظاهر الآية يقتضى أن الوعيد إنما يتناول من جميع بين مشافهة الرسول و اتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين لهم أن من يفعل أحدهما يتناوله الوعيد؟. ونحن إنما علمنا أن الوعيد إنما يتناول بمشاقفة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية، فيجب أن يسندوا تناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر) (١) اهـ.

تأثير الطبرسى بمذهب المعتزلة في تفسيره.

إشارة

هذا، و إن عقيدة الطبرسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادئ المعتزلة في علم الكلام، ولهذا نراه في تفسيره كثيرا ما يوافق المعتزلة في بعض آرائهم الكلامية، و يرتضى مذهبهم، و يدافع عنه، و يحاول أن يهدم ما عداه. و أحيانا نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة و لا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم. و المعارض لأدلتهم.

الهدى و الضلال:

ففي الآيات التي لها تعلق بهداية العبد و ضلاله، نراه يوافق المعتزلة في عقيدتهم، و يدافع عنها، و يهدم ما عداها. (١) ج ١ ص ٢٩٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٢٩

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٥) من سورة الأنعام (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ... الآية) يقول ما نصه (... قد ذكر في تأويل الآية وجوه:

أحدها: أن معناه من يرد الله أن يهديه إلى الثواب و طريق الجنة يشرح صدره للإسلام في الدنيا؛ بأن يثبت عزمه عليه، و يقوى دواعيه على التمسك به، و يزيل عن قلبه وساوس الشيطان و ما يعرض في القلوب من الخواطر الفاسدة. و إنما يفعل ذلك لطفاه و منا عليه و ثوبا على اهتدائه بهدى الله و قبوله إياه، و نظيره قوله سبحانه «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى» (١) «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى» (٢). «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ» عن ثوابه و كرامته «يَجْعَلْ صَدْرَهُ» في كفره «ضيقا حرجا» عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون سبحانه مانعا له عن الإيمان و سالبا إياه القدرة عليه، بل ربما يكون ذلك سببا داعيا له إلى الإيمان، فإن من ضاق صدره بالشىء كان ذلك داعيا له إلى تركه، و الدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثوبا قوله تعالى «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ...

الآيات (٣)» و معلوم أن وضع الوزر و رفع الذكر يكون ثوبا على تحمل أعباء الرسالة و كلفها، و كذلك ما قرن به من شرح الصدر. و الدليل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب قوله «وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَ يَصْلِحْ بَالَهُمْ» و معلوم أن الهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الثواب؛ فليس بعد الموت تكليف، و قد وردت الرواية الصحيحة: أنه لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر: ما هو؟ فقال: نور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له صدره و ينفسح، قالوا؛ فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟. قال: نعم .. الإنابة إلى دار الخلود، و التجافى عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت. (١) في الآية (١٧) من سورة محمد عليه السلام.

(٢) الآية (٧٦) من سورة مريم

(٣) أول سورة الانشراح

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٠

و ثانيها: أن معنى الآية: فمن يرد الله أن يثبتته على الهدى يشرح صدره من الوجه الذى ذكرنا جزء له على إيمانه و اهتدائه، و قد يطلق لفظ الهدى و المراد به الاستدامة كما قلنا فى قوله «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ» أى يخذله و يخلى بينه و بين ما يريد لاختياره الكفر و تركه الإيمان «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» بأن يمنعه الألفاظ التى ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره. فإن قيل: إننا نجد الكافر غير ضيق الصدر لما هو فيه، و نراه طيب القلب على كفره، فكيف يصح الخلف فى خبره سبحانه؟ قلنا: إنه سبحانه بين أنه يجعل صدره ضيقا و لم يقل فى كل حال، و معلوم من حاله فى أحوال كثيرة أنه يضيق صدره بما هو فيه من ورود الشبه و الشكوك عليه، و عند ما يجازى الله المؤمنين على استعمال الأدلة الموصلة إلى الإيمان، و هذا القدر هو الذى يقتضيه الظاهر.

و ثالثها: أن معنى الآية من يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التى وعداها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة، لأن من حقها أن تزيد المؤمن بصيرة «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ» عن تلك الزيادة بمعنى يذهب عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصلح عليه «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» لمكان فقد تلك الزيادة؛ لأنها إذا اقتضت فى المؤمن ما قلناه أوجب فى الكافر ما يضاده، و يكون الفائدة فى ذلك الترغيب فى الإيمان و الزجر عن الكفر ... و هذا التأويل قريب مما تقدم. و قد روى عن ابن عباس أنه قال: إنما سمي الله قلب الكافر حرجا، لأنه لا يصل الخير إلى قلبه، و فى رواية أخرى: لا تصل الحكمة إلى قلبه.

و لا يجوز أن يكون المراد بالإضلال فى الآية الدعاء إلى الضلال، و لا الأمر به، و لا الإيجاب عليه؛ لإجماع الأمة على أن الله تعالى لا يأمر بالضلال و لا- يدعو إليه، فكيف يجبر عليه، و الدعاء إليه أهون من الإيجاب عليه. و قد ذم الله تعالى فرعون و السامرى على إضلالهما عن دين الهدى فى قوله: «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى «١»» و قوله «وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ «٢»» و لا خلاف فى أن إضلالهما (١) الآية (٧٩) من سورة طه

(٢) الآية رقم (٨٥) من سورة طه

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣١

إضلال أمر و إيجاب و دعاء، و قد ذمهما الله تعالى عليه مطلقا، فكيف يتمدح بما ذم عليه غيره» اه «١».

رؤية الله:

كذلك يقول الطبرسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله و وقوعها فى الآخرة، و لهذا نراه يفسر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢)، (٢٣) من سورة القيامة «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» بما يتفق و مذهبه فيقول «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» اختلف فيه على وجهين: أحدهما: أن معناه نظرة العين.

و الثانى: أنه الانتظار و اختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما: أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة، أى هى ناظرة إلى نعيم الجنة حالا بعد حال، فيزداد بذلك سرورها. و ذكر الوجوه و المراد به أصحاب الوجوه .. روى ذلك عن جماعة من علماء المفسرين من الصحابة و التابعين و غيرهم .. فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه، كما فى قوله تعالى:

«وَ جَاءَ رَبُّكَ «٢»» أمر ربك. و قوله: «وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ «٣»» أى إلى إطاعة العزيز الغفار و توحيدته و قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ «٤»» أى أولياء الله.

و الآخر: أن النظر بمعنى الرؤية. و المعنى تنظر إلى الله معاينة، روى ذلك عن الكلبى و مقاتل و عطاء و غيرهم. و هذا لا يجوز، لأن كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة و اللحاظ، و الله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجلس سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع،

و أيضا فإن الرؤية بالحاسة لا تتم (١) ج ١ ص ٤٠١

(٢) الآية رقم (٢٢) من سورة الفجر

(٣) في الآية (٤٢) من سورة غافر

(٤) في الآية (٥٧) من سورة الأحزاب.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٢

إلا- بالمقابلة و التوجه، و الله يتعالى عن ذلك بالاتفاق. و أيضا فإن رؤية الحاسة لا تتم إلا باتصال الشعاع بالمرئي، و الله منزه عن اتصال الشعاع به. على أن النظر لا يفيد الرؤية في اللغة، فإنه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية. كما أنه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة بدلالة قولهم نظرت إلى الهلال فلم أراه، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطا متناقضا، و قولهم ما زلت أنظر إليه حتى رأيت، و الشيء لا يجعل غاية لنفسه، فلا يقال ما زلت أراه حتى رأيت و لأننا نعلم الناظر ناظرا بالضرورة، و لا نعلمه راثيا بالضرورة، بدلالة أنا نسأله هل رأيت أم لا؟.

و أما من حمل النظر في الآية على الانتظار فإنهم اختلفوا في معناه على أقوال:

أحدها أن المعنى منتظرة لثواب ربها .. روى ذلك عن مجاهد، و الحسن و سعيد بن جبیر، و الضحاك .. و هو المروى عن علي. و من اعترض على هذا بأن قال: إن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى إلى، فلا يقال انتظرت إليه، و إنما يقال انتظرت، فالجواب عنه على وجه:

منها: أنه قد جاء في الشعر بمعنى الانتظار و معدى إلى، كما في البيت الذي

سبق ذكره (... ناظرات إلى الرحمن

«١») و كقول جميل بن معمر:

و إذا نظرت إليك من ملك و البحر دونك زدتنى نعما

«٢») و قول الآخر:

إني إليك لما و عدت لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر

(١) و ذلك حيث فسر النظر لغة فقال (... و النظر تقلب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلبا لرؤيته. و يكون النظر بمعنى الانتظار كما

قال عز شأنه (و إني مرسله إليهم بهديّة فناظرة) أي منتظرة، و قال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن تنظر الفلاحا

ثم يستعمل في الفكر فيقال: نظرت في هذه المسألة أي تفكرت: و منه المناظرة:

و تكون بمعنى المقابلة، يقال: دور بني فلان تناظر أي تتقابل) ج ٢ ص ٥٥٢

(٢) و في رواية جدتنى نعما، أي: جدت علي:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٣

و نظائره كثيرة:

و منها أن تحمل إلى في قوله «إلى ربّها ناظرة»، على أنها اسم، فهو واحد الآلاء التي هي النعم، فإن في واحدتها أربع لغات: إلا و ألا

مثل معى وقفا و ألى و إلى مثل جدى و حسى، و سقط التنوين بالإضافة. و قال الأعشى:

أبيض لا يهرب الهزال و لا يقطع رحما و لا يخون إلى

و ليس لأحد أن يقول: إن هذا من أقوال المتأخرين و قد سبقهم الإجماع، فإننا لا نسلم ذلك؛ لما ذكرناه من أن عليا و مجاهدا و

الحسن و غيرهم قالوا:

المراد بذلك تنتظر الثواب.

و منها: أن لفظ النظر يجوز أن يعدى يالى فى الانتظار على المعنى، كما أن الرؤية عدت يالى فى قوله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ (١)» فأجرى الكلام على المعنى، ولا يقال رأيت إلى فلان. و من إجراء الكلام على المعنى قول الفرزدق:
و لقد عجبت إلى هوازن أن أصبحت منى تلوذ ببطن أم جرير
فعدى عجبت يالى لأن المعنى نظرت.

و ثانيها: أن معناه مؤمله لتجديد الكرامة، كما يقال عيني ممدودة إلى الله تعالى و إلى فلان، و أنا شاخص الطرف إلى فلان .. و لما كانت العيون بعض أجزاء الوجوه أضيف الفعل الذى يقع بالعين إليها .. عن أبى مسلم.
و ثالثها: أن المعنى أنهم قطعوا آمالهم و أطماعهم عن كل شىء سوى الله، و رجوه دون غيره، فكنى سبحانه عن الطمع بالنظر، ألا ترى أن الرعية تتوقع نظر السلطان و تطمع فى أفضاله عليها و إسعافه فى حوائجها، فنظر الناس مختلف:
فناظر إلى السلطان، و ناظر إلى تجارة، و ناظر إلى زراعة، و ناظر إلى ربه يؤمله ..
و هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، و على هذا فإن هذا الانتظار متى يكون؟ فقيل:
إنه بعد الاستقرار فى الجنة، و قيل: إنه قبل استقرار الخلق فى الجنة و النار، فكل فريق ينتظر ما هو له أهل .. و هذا اختيار القاضى عبد الجبار- و ذكر جمهور (١) فى الآية (٤٥) من سورة الفرقان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٤

أهل العدل أن النظر يجوز أن يحمل على المعنيين جميعا، و لا مانع لنا من حمله على الوجهين، فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المعد لهم فى الحال من أنواع النعيم، و ينتظرون أمثالها حالا بعد حال ليم لهم ما يستحقون من الإجلال.
و يسأل على هذا فيقال: إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة و بمعنى الانتظار مجازا فكيف يحمل عليهما؟ و الجواب: أن عند أكثر المتكلمين فى أصول الفقه يجوز أن يراد بلفظ واحد إذ لا تنافى بينهما .. و هو اختيار المرتضى قدس الله روحه، و لم يجوز ذلك أبو هاشم إلا إذا تكلم به مرتين: مرة يريد النظر، و مرة يريد الانتظار. و أما قولهم: المنتظر لا يكون نعيمه خالصا فكيف يوصف أهل الجنة بالانتظار؟ فالجواب عنه: أن من ينتظر شيئا لا يحتاج إليه فى الحال و هو واثق بوصوله إليه عند حاجته فإنه لا يهتم بذلك و لا ينقص سروره به، بل ذلك زائد فى نعيمه، و إنما يلحق بهم المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره فى الحال و يلحقه بفوته مضرة و هو غير واثق بالوصول إليه. و قد قيل فى إضافة النظر إلى الوجوه: إن الغم و السرور و إنما يظهر أن فى الوجوه، فبين الله سبحانه أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة تهلل وجهه، و أن الكافر يخاف مغبة أفعاله القبيحة فيكلح وجهه ... «١» اه.

السحر:

و الطبرسى ينكر حقيقة السحر و لا يقول به، و يخالف جمهور أهل السنة فى ذلك، و يرد أدلتهم، و ينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لهذا نراه فى آخر تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة «وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ... الآية» يقول ما نصه (...)
و اختلف فى ماهية السحر على أقوال:

فقيل: إنه ضرب من التخييل و صنعة لطيفة من الصنائع، و قد أمر الله تعالى بالتعود منه و جل التحرز منه بكتابه و قايه منه، و أنزل فيه سورة الفلق.

و هو قول الشيخ المفيد أبى عبد الله من أصحابنا. (١) ج ٢ ص ٥٥٢-٣٥٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٥

و قيل: إنه خدع و مخاريق و تمويهات لا حقيقة لها، تخيل إلى المسحور لها حقيقة ...

وقيل: إنه يمكن الساحر أن يقلب الإنسان حمارا و يقلبه من صورة إلى صورة، و ينشئ الحيوان على وجه الاختراع. و هو لا يجوز، و من صدق به فهو لا يعرف النبوة، و لا- يأمن من أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع، و لو أن الساحر و المعزم قدرا على نفع أو ضرر، و علما الغيب لقدرا على إزالة الممالك و استخراج الكنوز من معادنها و الغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه و ضرر، فلما رأيناهم أسوأ الناس حالا و أكثرهم مكيدة و احتيالا، علمنا أنهم لا يقدرّون على شيء من ذلك. فأما ما روى من الأخبار أن النبي صلى الله عليه و سلم سحر فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله أو أنه لم يفعل ما فعله فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، و قد قال الله حكاية عن الكفار «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا» (١) فلو كان السحر عمل فيه لكان الكفار صادقين في مقالهم، حاشيا النبي من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله؛ فإنه حجة الله على خلقه و صفوته على بريته ... اه «٢».

الشفاعة:

هذا و لا يلتزم الطبرسي القول بكل معتقدات المعتزلة، بل نراه يخالفهم في كثير من الأحيان، و يرد عليهم معتقداتهم، و يجادلهم فيها جدالا عنيفا قويا.

فمذهب الطبرسي في الشفاعة- مثلا- يخالف مذهب المعتزلة، و لهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة البقرة (وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) يقول ما نصه (... وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء و آباؤنا يشفعون لنا، فأياسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم و المراد به الخصوص، و يدل (١) في الآية (٨) من سورة الفرقان

(٢) ج ١ ص ٧٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٦

على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي شفاعته عقبولة و إن اختلفوا في كيفيةها فعندنا هي مختصة بدفع المضار و إسقاط العقاب عن مستحقه من مذنبى المؤمنين.

و قالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين و التائبين دون العاصين.

و هي ثابتة عندنا للنبي، و لأصحابه المنتخبين، و للأئمة من أهل بيته الطاهرين، و لصالحى المؤمنين، و ينجى بشافتهم كثيرا من الخاطئين، و يؤيده الخبر الذى تلقته الأمة بالقبول و هو قوله: (ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) و ما جاء فى روايات أصحابنا رضى الله عنهم مرفوعا إلى النبي أنه قال (إنى أشفع يوم القيامة فأشفع، و يشفع على فيشفع، و يشفع أهل بيتى فيشفعون، و إن أدنى المؤمنين شفاعته ليشفع فى أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار)، و قوله مخبرا عن الكفار عند حسراتهم على الفاتت لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعة (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) (١) اه «٢».

حقيقة الإيمان:

و هو أيضا يخالف المعتزلة فى حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة (.. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) قال ما نصه: (.. و قالت المعتزلة بأجمعها: الإيمان هو فعل الطاعة، ثم اختلفوا فمنهم من اعتبر الفرائض و النوافل. و منهم من اعتبر الفرائض فحسب. و اعتبروا الاجتناب من الكبائر كلها، و قد روى العام و الخاص عن على بن موسى الرضى: أن الإيمان هو التصديق بالقلب و الإقرار باللسان و العمل بالأركان و قد روى ذلك على لفظ آخر منه أيضا: الإيمان قول مقول، و عمل معمول، و عرفان بالعقول، و اتباع الرسول.

(و أقول أنا): أصل الإيمان هو المعرفة بالله و برسله و بجميع ما جاءت به رسله. و كل عارف بشيء فهو مصدق به، يدل عليه هذه

الآية، فإنه تعالى لما ذكر الإيمان علقه بالغيب، ليعلم أنه تصديق للمخبر فيما أخبر به من الغيب على (١) الآيتان (١٠٠، ١٠١) من سورة الشعراء

(٢) ج ١ ص ٤٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٧

معرفة و ثقته، ثم أفردته بالذكر عن سائر الطاعات البدنية و المالية و عطفها عليه فقال: (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) و الشيء لا- يعطف على نفسه و إنما يعطف على غيره، و يدل عليه أيضا أنه تعالى حيث ذكر الإيمان أضافه إلى القلب فقال «وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (١) و قال «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» (٢) و قال النبي صلى الله عليه و سلم: الإيمان سر- و أشار إلى صدره- و الإسلام علانية) و قد يسمى الإقرار إيمانا كما يسمى تصديقا إلا أنه متى صدر عن شك أو جهل كان إيمانا لفظيا لا حقيقيا، و قد تسمى أعمال الجوارح أيضا إيمانا استعارة و تلويحا كما يسمى تصديقا كذلك، فيقال: فلان تصدق أفعاله مقاله، و لا خير في قول لا يصدقه الفعل. و الفعل ليس بتصديق حقيقى باتفاق أهل اللغة، و إنما استعير هذا الاسم على الوجه الذى ذكرناه. فقد آل الأمر مع تسليم صحة الخبر و قبوله إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب و التصديق به على نحو ما تقتضيه اللغة، و لا يطلق لفظه إلا على ذلك، إلا أنه يستعمل فى الإقرار باللسان و العمل بالأركان مجازا و اتساعا، و بالله التوفيق ... «(٣)» اه.

روايته للأحاديث الموضوعه:

هذا، و لا يفوتنا أن نقول: إن الطبرسى رحمه الله لم يكن صادقا فى وصفه لكتابه هذا بأنه محجج للمحدث، ذلك لأننا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث فى تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصا ما وضعه الشيعة و نسبوه إلى النبي صلى الله عليه و سلم أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم و يدل على تشيعهم. و إذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث فى فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث فى فضائل السور مسندا إلى أبى و غيره، و مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هى أحاديث موضوعه باتفاق أهل العلم. (١) فى الآية (١٠٦) من سورة النحل

(٢) فى الآية (٢٢) من سورة المجادلة.

(٣) ج ١ ص ١٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٨

كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى فى تفسيره من الأحاديث ما يشهد لمذهبه أو يتصل به، و هى أخبار نقرؤها و لا نكاد نرى عليها صبغة الصدق و رواء الحق.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الرعد (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منه، مما يدل على أنه يصدقها و يقول بها. فهو بعد أن ذكر أقوالا أربعة فى معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال «لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أنا المنذر و على الهادى من بعدى، يا على .. بك يهتدى المهتدون». و نقل بسنده إلى أبى بردة الأسلمى أنه قال «دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم بالطهور و عنده على بن أبى طالب، فأخذ رسول الله يبيد على بعد ما تطهر فألزمها بصدرة ثم قال: إنما أنت منذر، ثم ردها إلى صدره، ثم قال: و لكل قوم هاد، ثم قال: إنك منارة الأنام، و غاية الهدى، و أمير القرى و أشهد على ذلك أنك كذلك» (١) اه.

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) نجد أنه يذكر أقوالا ثلاثة فى معنى هذه الآية:

أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة و تعليم الشريعة اجرا إلا التوادد و التحاب فيما يقرب إلى الله تعالى من العمل الصالح.

و ثانيها: أن معناه: إلا أن تودوني في قرابتي منكم و تحفظوني لها.

و ثالثها: إلا- أن تودوا قرابتي و تحفظوني فيهم ... و هنا يسوق من الروايات عن أهل البيت و غيرهم ما يصرح بأن الذين أمر الله بمودتهم: على و فاطمة و ولدهما، و يروى فيما يروى هذا الحديث الغريب الذى نقله من كتاب (شواهد) (١) ج ٢ ص ٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٣٩

التزليل لقواعد التفضيل) مرفوعا إلى أبى أمامة الباهلى .. قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى، و خلقت أنا و على من شجرة واحدة، فأنا أصلها، و على فرعها، و فاطمة لقاحها، و الحسن و الحسين ثمارها، و أشياعنا أوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، و من زاع عنها هوى، و لو أن عبدا عبد الله بين الصفا و المروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالى، ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخره في النار، ثم تلا «قُلْ لَا أَشْتُمُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» (١) اه.

موقفه من الإسرائيليات.

و كثيرا ما يروى الطبرسى في تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائلها و نلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها .. اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، و يبين ما فيها من مجافاتها للحق و بعدها عن الصواب، فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٢١) و ما بعدها من سورة (ص): «وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ... الْآيَات) نجده يقول «و اختلف في استغفار داود من أى شىء كان، فقيل: إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى و الخضوع و التذلل بالعبادة و السجود، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله «وَالَّذِي أطمعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (٢). و أما قوله (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) فالمعنى أنا قبلناه منه و أثبتناه، فأخرجه على لفظ الجزاء مثل قوله (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ) (٣) و قوله (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) (٤) فلما كان المقصود من الاستغفار و التوبة القبول قيل في جوابه: غفرنا. و هذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية و غيرهم. و من جوز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا في ذلك على وجوه: (١) ج ٢ ص ٣٨٧-

٣٨٩

(٢) الآية (٨٢) من سورة الشعراء.

(٣) في الآية (١٤٢) من سورة النساء.

(٤) في الآية (١٥) من سورة البقرة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٠

أحدها: أن أوريا بن حيان خطب امرأة و كان أهلها أرادوا أن يزوجوها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضا فزوجها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا .. عن الجبائى.

و ثانيها: أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

و ثالثها: أنه كان في شريعته أن الرجل إذا مات و خلف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج، فلما قتل أوريا خطب داود امرأته و منعت هيبه داود و جلالته أولياءه أن يخطبها فعوتب على ذلك.

و رابعها: أن داود كان متشاغلا بالعبادة فأتاه رجل و امرأه متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها و ذلك مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما و عاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر في أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

و خامسها: أنه عوتب على عجلته في الحكم قبل التثبت، و كان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما

عنده فيها و يحكم عليه قبل ذلك، و إنما أنساه التثب في الحكم فرعه من دخولهما عليه في غير وقت العادة.

و أما ذكر في القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت على إبراهيم فاتخذته خليلا، و فضلت على موسى فكلمته تكليما. فقال يا داود:

إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليت، فقال: نعم يا رب فابتلني، فينا هو في محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهاها و هم بتزوجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه و أمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك و قتل، فلما انقضت عدتها تزوجها و بنى بها فولد له منها سليمان، فينا هو ذات يوم في محرابه يقرأ إذ دخل عليه

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤١

رجلان ففزع منهما، فقالا: لا تخف «خصمان بغى بعضنا على بعض» إلى قوله:

«و قليل ما هم» فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبتلاه على خطيئته فتاب و بكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، فمما لا شبهه في فساد؛ فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه و سفراؤه بينه و بين خلقه بصفه من لا تقبل شهادته و على حاله تنفر عن الاستماع إليه و القبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك. و قد روى عن أمير المؤمنين أنه قال: لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين حدا للنبوة و حدا للاسلام ..) «١».

التفسير الرمزي:

إشارة

و الطبرسي مع أنه في كتابه هذا يفسر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن إلا أنا نلاحظ عليه أحيانا أنه يذكر المعاني الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزي الذي يقول به الشيعة، و هو و إن كان ناقلا لهذه الأقوال إلا أنه يرتضيها و لا يرد عليها، كثيرا ما يؤيدها بأدلة من عنده.

مثال ذلك أنه عند ما فسر قوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النور (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... الآية) نجده يقول بعد كلام طويل (و اختلف في هذا المشبه و المشبه به على أقوال ...

ثم ذكر هذه الأقوال، فكان من جملة ما ذكره هذه الروايات التي لا تعدو أن تكون من وضع الشيعة، و هي ما روى عن الرضا أنه قال (نحن المشكاة فيها المصباح محمد صلى الله عليه و سلم يهدي الله لولايتنا من أحب). و ما نقله من كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى بن راشد عن أبي جعفر الباقر في قوله (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) قال: نور العلم في صدر النبي (١) ج ٢ ص ٣٤٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٢

المصباح (في زجاجة) الزجاجه صدر على، صار علم النبي إلى صدر على، علم النبي عليا (يوقد من شجرة مباركة) نور العلم (لا شرقية و لا غربية) لا يهودية و لا نصرانية (يكاد زيتها يضيء و لو لم تمسه نار) قال: يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل (نور على نور) أي إمام مؤيد بنور العلم و الحكمة في إثر إمام من آل محمد صلى الله عليه و سلم، ذلك من النبي آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء في أرضه، و حججه على خلقه، لا تخل الأرض في كل عصر من واحد منهم، و يدل عليه قول أبي طالب:

أنت الأمير محمد قرم أغر مسود
لمسودين أظاهر كرموا و طاب المولد
أنت السعيد من السعد تكتفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل فينا وصى مرشد
و لقد عرفتك صادقاً و القول لا يتفند
ما زلت تنطق بالصواب و أنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضى أن الشجرة المباركة المذكورة فى الآية هى دوحه التقى و الرضوان و عتره الهدى و الإيمان، شجرة أصلها النبوة، و فرعها الإمامة، و أغصانها التنزيل، و أوراقها التأويل، و خدمها جبريل و ميكائيل (... «١» اه).

اعتداله فى تشيعه:

و الطبرى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الاثنى عشرية، و لقد قرأنا فى تفسيره فلم نلمس عليه تعصبا كبيرا، و لم نأخذ عليه أنه كفر أحدا من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم و دينهم.
كما أنه لم يغال فى شأن على بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء و إن كان يقول بالعصمة. و لقد وجدناه يروى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم (١) ج ٢ ص ١٨٩٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٣

حديثا فى شأن من والى عليا و من عاداه، و هو يصرف النظر عن درجته من الصحة يدل على أن الرجل وقف موقفا وسطا أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلى رضى الله عنه، هذا الحديث هو ما رواه فى الوجه الرابع من الوجوه التى قيلت فى سبب نزول قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة الزخرف (لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ) حيث قال (.. و رابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن على عليهم أفضل الصلوات أنه قال: جئت إلى رسول الله يوما فوجدته فى ملاء من قريش فنظر إلى ثم قال: يا على إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم أحبه قوم فأفراطوا فى حبه فهلكوا، و أبغضه قوم و أفراطوا فى بغضه فهلكوا، و اقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا و قالوا: يشبهه بالأنبياء و الرسل فنزلت الآية ... اه «١».

و كل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه و عقائد أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين فى آية من الآيات و نقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه و يؤيده بما يظهر له من الدليل.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... الآية) يقول (قيل فى المعنى بهذه الآية أقوال ... ثم يذكر الأقوال، و يذكر ما رواه أصحابه عن أبى جعفر الباقر و أبى عبد الله الصادق من أنهما قالا (أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده) ثم قال مؤيدا لهذا القول (و يعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة و لاه الأمر. و روى عنهم أنهم قالوا: آيتان إحداهما لنا و الأخرى لكم قال الله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) و قال (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ... الآية) «٢» اه. (١). ج ٢ ص ٣٩٩.

(٢) ج ١ ص ٢٦٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٤

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ... الآية) نجد بعد أن يذكر ما جاء عن بعض السلف من أن المراد بأولى الأمر الأمراء، و ما جاء عن بعضهم من أن المراد بهم العلماء يقول (و أما أصحابنا فإنهم روى عن الباقر و الصادق أن أولى الأمر هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب

طاعته و طاعة رسوله، و لا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبت عصمته، و علم أن باطنه كظاهره، و أمن منه الغلط و الأمر بالقيح، و ليس ذلك بحاصل في الأمراء و لا العلماء سواهم، جل الله أن بطاعة من يعصيه، أو بالانقياد للمختلفين في القول و الفعل؛ لأنه محال أن يطاع المختلفون، كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه. و مما يدل على ذلك أيضا أن الله لم يقرن طاعة أولى الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته، إلا و أن أولى الأمر فوق الخلق جميعا، كما أن الرسل فوق أولى الأمر و فوق سائر الخلق، و هذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم و عصمتهم، و اتفقت الأمة على علو رتبهم و عدالتهم ..» (١) اه.

و بعد ... أفلا ترى معنى أن هذا التفسير يجمع بين حسن الترتيب، و جمال التهذيب، و دقة التعليل، و قوة الحجج؟ أظن أنك معنى في هذا، و أظن أنك معنى أيضا في أن الطبرسي و إن دافع عن عقده و نافح عنها لم يغل غلو غيره و لم يبلغ به الأمر إلى الدرجة التي كان عليها المولى الكازراني و أمثاله من غلاة الإمامية الاثني عشرية. (١) ج ١ ص ٢٦٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٥

٤- المصافي في تفسير القرآن الكريم لملا محسن الكاشي

التعريف بصاحب هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المعروف بملا محسن و بالفيز الكاشي، و أحد غلاة الإمامية الاثني عشرية. قال صاحب روضات الجنات في ترجمته ما ملخصه (و أمره في الفضل و الفهم و النبالة في الفروع و الأصول، و الإحاطة بمراتب المعقول و المنقول، و كثرة التأليف و التصنيف، مع جودة التعبير و الترصيف، أشهر من أن يخفى في هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد. و عمره كما استفيد لنا من تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين. و وفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين. و أبوه مرتضى المذكور أيضا كان من العلماء، و كذا أخوه محمد المعروف بنور الدين، و كذا أخوه الآخر المشهور بالمولى عبد الغفور، و بالجملة، فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلى ذروة الأفلاك، من كبار بيوتات العلم و العمل و الفضل و الإدراك. و أما نفس الرجل فقد بلغ فضله إلى حيث لم يعرف بين هذه الطائفة مثله، و خصوصا في مراتب المعرفة و الأخلاق، و تطبيق الظواهر بالبواطن بحسن المذاق، و جودة الإشراق، و كان يشبه مشروبه مشرب أبي حامد الغزالي، و قد نسب إليه الشيخ على المشهدي العامل في ذيل رسالته في تحريم الغناء و غيرها، كثيرا من الأقاويل الفاسدة، و الآراء الباطلة العاطلة، التي تفوح منها رائحة الكفر و المضارة بضروريات هذا الدين المتين، و المضادة لما هو من قطعات علم هذا الشرع المتين، و لو أردنا تأويل جملة منها بمحامل و جبهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما تدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة ... من منافيات أصول هذه الشريعة و فروع مذهب الشيعة. مثل قوله بوحدة الوجود، و بعدم خلود الكفار في عذاب النار،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٦

و عدم نجاه أهل الاجتهاد و إن كانوا من جملة أجلتنا الكبار، و في قوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس ... و بالجملة فقد كان رحمه الله دائما في طرف النقيض من الشيخ على المذكور ... و من جملة من كان ينكر عليه أيضا كثيرا من علماء زمانه الفاضل المحدث المولى محمد طاهر القمي صاحب كتاب حجة الإسلام و غيره، و إن قيل إنه رجع في أواخر عمره عن اعتقاده السوء في حقه، فخرج من قم المباركة إلى بلدة كاشان للاعتراف عنده بالخلاف، و الاعتذار لديه بحسن الإنصاف، ماشيا على قدميه إلى أن وصل إلى باب داره. فنأدى.

يا محسن قد أتاك المسيء، فخرج إليه مولانا المحسن و جعلنا يتصافحان و يتعانقان و يستحل كل منهما من صاحبه ثم رحل من فوره إلى بلدة و قال: لم أرد من هذه الحركة إلا هضم النفس و تدارك الذنب و طلب رضوان الله العزيز الوهاب.

و يقال أيضا: إن بعض من اعتقد في حقه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه في المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى بعض ما

كتبه في أواخر عمره و هو في مكان كذا و كذا، فلما استيقظ و طلبه وجده كما نسبه، و كان فيه تبرئة نفسه من جميع ما ينسب إليه من أقوال الضلال ... و قد ذكره صاحب أمل الآمل فقال:

المولى الجليل، محمد بن مرتضى، المدعى بمحسن الكاشي، كان فاضلا عالما، حكيما متكلمًا، محدثا فقيها، شاعرا أدبيا، أحسن التصنيف، من المعاصرين، و له كتب: منها كتاب الوافي في جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشككة، و هو حسن إلا أن فيه ميلا إلى بعض طريقة الصوفية، و كذا جملة من كتبه، و كتاب سفينة النجاة في طريقة العمل. و تفاسير ثلاثة كبير و صغير و متوسط، و كتاب عين اليقين، و كتاب علم اليقين، و كتاب حق اليقين ... و قال صاحب لؤلؤة البحرين (و هذا الشيخ كان فاضلا، محدثا، إخباريا، صلبا، كثير الطعن على المجتهدين، و لا سيما في رسالة سفينة النجاة، حتى إنه يفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلا عن الفسق، مثل إيراده لآية «يا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» (١) و هو تفریط و غلو بحت، مع أن له أدلة من المقالات التي جرى (١) في الآية (٤٢) من سورة هود

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٧

فيها على مذهب الصوفية و الفلاسفة مما يكاد يوجب الكفر و العياذ بالله، مثل ما يدل في كلامه على القول بوحدة الوجود، و قد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة في القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن عربي الزنديق، و أكثر فيها من النقل عنه و إن عبر عنه ببعض العارفين. ثم قال: و قد تتلمذ في الحديث على السيد ماجد البحراني، و في الحكمة و الأصول على صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، كان صهره على ابنته؛ و لذا ترى أن كتبه في الأصول كلها على قواعد الصوفية و الفلاسفة و لاشتهار مذهب التصوف في بلاد العجم و ميلهم إليه، بل و غلوهم فيه صارت إليه المرتبة العليا في زمانه، و الغاية القصوى في أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه. حتى جاء شيخنا المجلسي فسعى غاية السعي في سد تلك الشقاشق الفاغرة، و إطفاء نائرة تلك البدع البائرة. و له تصانيف كثيرة أفرد لها فهرسا على حدة و نحن ننقل عنه ملخصا: كتاب الصافي في تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت فرغ من تأليفه في سنة ١٠٧٥ هـ خمس و سبعين بعد الألف من الهجرة. و كتاب الأصفى ... منتخب منه .. أحد و عشرين ألف بيت تقريبا. ثم عدد كتبه التي ألفها و هي كثيرة. و حكى السيد السعيد السيد نعمه الله الجزائري التستري قال: كان أستاذنا المحقق المولى محمد محسن الكاشاني صاحب مؤلفات و فيرة مما يقرب من مائتي كتاب و رساله، و كان نشوه في بلدة قم، فسمع بقدم السيد الأجل المحقق الإمام الهمام السيد ماجد البحراني الصادقي إلى شيراز، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردد والده في الرخصة إليه، ثم بنوا الرخصة و عدمها على الاستخارة، فلما فتح القرآن جاءت الآية «.. فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. الآية (١)» ثم بعده تفاعل بالديوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين فجاءت الأبيات هكذا.

تغرب عن الأوطان في طلب العلا و سافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم، و اكتساب معيشة و علم، و آداب، و صحبة ماجد

(١) في الآية (١٢٢) من سورة التوبة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٨

هذه ترجمة المؤلف و فيها ما يشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه في العلم، كما أن الأقوال التي قيلت عن عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة، و إن كان صاحب روضات الجنات يحاول تبرئته من هذه التهمة و يقول إنها فرية بلا مريء ... أما أنا فلم ألاحظ عليه في تفسيره أثرا للقول بوحدة الوجود، و لا ما يشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار في عذاب النار.

و لم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفي الفلسفي، و لعل الكتاب من أواخر مؤلفاته و بعد رجوعه عما نسب إليه و اتهم به «(١)».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

الصافي في تفسير القرآن الكريم، كتاب فسر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادئ الإمامية الاثني عشرية. و هو تفسير وسط يقع في جزئين كبيرين و متناول لشرح الآيات القرآنية شرحا مختصرا جدا و لا يطيل إلا إذا وجد في الآية ما يمكن أن يأخذ منه شاهدا على مبدأ من مبادئه، أو دليلا على عقيدة من عقائده، أو دفعا يدفع به رأيا من آراء مخالفيه. كذلك يطيل عند ما يعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه و سلم. و الكتاب يعتمد أولا و قبل كل شيء على ما ورد من التفسير عن الأئمة و علماء أهل البيت، شأنه في هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الاثني عشرية، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن و أعلمهم بمعانيه. و الكتاب في جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه و غلوه في تشييعه، فهو يجادل و يدافع عن مبادئ حزبه، و يطعن في صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و يرميهم بالنفاق و الكفر... إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى هذا و قد قدم ملا محسن الكاشي لتفسيره باثنتي عشرة مقدمة، أرى أنه لا داعي لذكرها جميعا، و لكن حسبي و حسب القارئ أن أذكر أهم الآراء التي يقول بها المؤلف و يشرحها لنا في (١) انظر ترجمته في روضات الجنات ص ٥٤٢-

٥٤٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٤٩

هذه المقدمات، ثم أذكر طريقته التي سار عليها في تفسيره كما أوضحها هو، ثم أعرض على القارئ بعد ذلك بعض مواقف المؤلف في تفسيره؛ و منها يتبين جليا قيمة هذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه، و مسلكه الذي سلكه في شرحه لكتاب الله تعالى بما يتفق مع مذهبه و يتمشى مع عقيدته، و إليك أهم هذه الآراء التي قالها المؤلف:

آل البيت هم تراجمة القرآن؛ لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم:

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله و أحاطوا بمعانيه و أسرارها، و وقفوا على رموزها و إشارات؛ ذلك لأن القرآن نزل في بيتهم - بيت النبوة- و رب البيت أدرى بما فيه، و هو في هذه العقيدة لا يشذ وحده بل ذلك هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل و متطرف.

يرى المؤلف هذا الرأى و يصرح به في مقدمة تفسيره فيقول (... و إن العترة تراجمة القرآن فمن الكشاف عن وجوه عرايس أسراه و دقائقه و هم خوطبوا به؟ و من لتبيان مشكلاته و لديه مجمع بيان معضلاته و منبع بحر حقائقه و هم أبو حسنه؟ و من يشرح آيات الله و ييسر تفسيرها بالرموز و الصراح إلا من شرح الله صدره بنوره و مثله بالمشكاة و المصباح؟ و من عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل و التأويل، و في بيوتهم كان ينزل جبريل؟ ... و هي البيوت التي أذن الله أن ترفع، فعنهم يؤخذ و منهم يسمع. إذا أهل البيت بما في البيت أدرى، و المخاطبون بما خوطبوا به أوعى، فأين نذهب عن بابهم و إلى من نصير؟؟ (...). «١».

ثم يمضى صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها- فيما نعقد و كما يظهر من أسلوبها- من وضع الشيعة و أخلاقهم، فمن ذلك ما نقله عن الكافي بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين (١) ج ١ ص ٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٠

عليه السلام يقول .. و ساق الحديث إلى أن قال: ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه و آله إلا أقرأنيها و أملاها على فأكتبها بخطي، و علمني تأويلها و تفسيرها، و ناسخها و منسوخها، و محكمها و متشابها، و دعا الله أن يعلمني فهمها و حفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، و لا علما أملاه على فكتبته منذ دعا لي بما دعا، و ما ترك شيئا علمه الله من حلال و حرام، و لا أمر و لا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علمني و حفظته فلم أنس منه حرفا واحدا، ثم وضع يده صدري و دعا الله أن يملأ قلبي علما و فهما و

حكمة و نورا، فقلت:

يا رسول الله ... يا أبى أنت و أمى منذ دعوت الله لى بما دعوت لم أنس شيئا و لم يفتنى شيء لم أكتبه .. أو تتخوف على النسيان فيما بعد؟. فقال:

لست أتخوف عليك نسيانا و لا جهلا) قال: و رواه العياشى فى تفسيره و الصدوق فى إكمال الدين. بتفاوت يسير فى ألفاظه، و زيد فى آخره «و قد أخبرنى ربى أنه قد استجاب لى فيك و فى شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله .. و من شركائى من بعدى؟ قال الذين قرنهم الله بنفسه و بى، فقال «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فقلت: و من هم؟ قال الأوصياء منى إلى أن يردوا على الحوض كلهم هادين مهتدين لا يضرهم من خذلهم، هم مع القرآن و القرآن معهم، لا يفارقهم و لا يفارقونه، بهم تنصر أمتى و بهم نمطر، و بهم يدفع عنهم البلاء، و بهم يستجاب دعاؤهم. فقلت: يا رسول الله .. سمهم لى .. فقال: ابنى هذا .. و وضع يده على رأس الحسن، ثم ابنى هذا .. و وضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له: على و سيولد فى حياتك فأقرئه منى السلام، ثم تكلمة اثنى عشر من من ولد محمد. فقلت له. بأبى و أمى أنت فسمهم لى، فسماهم رجلا رجلا، فقال: منهم و الله يا أبا بنى هلال مهدى أمه محمد، الذى يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا، و الله إنى لأعرف من يبايعه بين الركن و المقام و أعرف أسماء آبائهم و قبائلهم «١» اه. (١) ج ١ ص ٥. ٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥١

و منها ما نقله عن الكافى بإسناده إلى زيد الشحام .. قال: دخل قتادة بن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال:

هكذا يزعمون. فقال أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسيره أم بجهل؟ قال لا ..

بل بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت و أنا أسألك. قال قتادة: سل. قال: أخبرنى عن قول الله تعالى فى سبأ: «وَقَدْزْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّاماً آمِنِينَ «١» فقال قتادة: من خرج من بيته يزداد و راحله و كرى حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله. فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك بالله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته يزداد و راحله و كرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته و يضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم. فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة ... إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت و أهلكت، و إن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت و أهلكت، ويحك يا قتادة .. ذلك من خرج من بيته يزداد و راحله و كرى حلال يؤم هذا البيت عارفا بحقنا، يهوانا قلبه، كما قال الله تعالى «فَأَجْعَلْ أَعْيُنَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» (٢) و لم يعين البيت فقيل إليه. نحن و الله دعوة إبراهيم عليه السلام التى من هوانا قلبه قبلت حجته و إلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة. قال قتادة: لا جرم و الله لا أفسرها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة ... إنما يعرف القرآن من خوطب به (٣) اه.

من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه:

و لكن هل معنى ذلك أن ملا محسن يرى أن فهم معانى القرآن و معرفة أسرارها أصبح أمرا مقصورا على أهل البيت و حدهم فيكون بذلك قد حجر (١) فى الآية (١٨) من سورة سبأ.

(٢) فى الآية (٣٧) من سورة إبراهيم

(٣) المرجع السابق.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٢

واسعا و جحد فضل من عداهم من العلماء؟ أو يرى أن القرآن فى فهمه قدر مشترك بين العلماء جميعا لا فرق بين أهل البيت و

غيرهم؟. الحق أن صاحبنا يرى أن في معانى القرآن لأرباب الفهم متسعا بالغا و مجالا رحبا، و لكن من هم أولوا الفهم الذين يجوز لهم أن يعملوا عقولهم فى فهم معانى القرآن و استنباط أحكامه؟. نرى المؤلف يحدد لنا أولى الفهم بحدود، و يقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعى، و ذلك حيث يقول (... فالصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله و لرسوله و لأهل البيت عليهم السلام، و أخذ علمه منهم، و تتبع آثارهم، و اطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ فى العلم، و الطمأنينة فى المعرفة، و انفتح عينا قلبه، و هجم به العلم على حقائق الأمور، و باشر روح اليقين، و استلان ما استوعره المترفون، و أنس بما استوحش منه الجاهلون، و صحب الدنيا ببدن روحه معلقه بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، و يستنبط منه نبذا من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله بغريب، و لا من جوده بعجيب، فليست السعادة وفقا على قوم دون آخرين، و قد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته فلا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل «١» اه.

المؤلف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن أهل البيت هو التفسير المثالى و يطعن فى بقية الصحابة و فى تفسيرهم.

و لما كان المؤلف رحمه الله- قد جعل جل اعتماده فى تفسيره، بل كله، على ما وصل إليه من التفسير عن آل البيت؛ لاعتقاده أنهم أدرى به من غيرهم، فإننا نراه يرى- مع شىء من التواضع التقليدى- أن تفسيره هو التفسير المثالى الذى يجب أن يحتذى، كما نراه لا يعترف بتفسير غيره ممن تقدم عصره بل و يبالغ فى عدم الاعتراف فيطعن على من عدا أهل البيت من الصحابة (١) ج ١ ص ١٠ التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٣

و يرميهم بالنفاق و غيره، و لا يرضى ما جاء عنهم من تفسير، كأن عقول الصحابة جميعا قد عقت و ضلت إلا عقول أهل البيت و من والا هم ...

يقدر المؤلف هذا بكل صراحة و جراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذلك حيث يقول (... هذا يا إخوانى ما سألتمنى من تفسير القرآن، بما وصل إلينا من أئمتنا المعصومين من البيان، أتيتكم به مع قلة البضاعة، و قصور يدي عن هذه الصناعة، على قدر مقدور، فإن المأمور معذور، و الميسور لا يترك بالمعسور، و لا سيما أنى كنت أراه أمرا مهما؛ و بدونه أوى الخطب مدلهما، فإن المفسرين و إن أكثروا القول فى معانى القرآن، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسطان؛ و ذلك لأن فى القرآن ناسخا و منسوخا، و محكما و متشابها، و خاصا و عاما، و مبينا و مبهما، و مقطوعا و موصولا، و فرائض و أحكاما، و سننا و آدابا، و حلالا- و حراما، و عزيمة و رخصة، و ظاهرا و باطنا، و حدا و مطلعا. و لا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل فى بيته، و ذلك هو النبى صلى الله عليه و آله و أهل بيته، فكل ما لا- يخرج من بيتهم فلا- تعويل عليه، و لهذا ورد عن النبى صلى الله عليه و سلم: من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ، و قد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم فى تفسير القرآن و تأويله أخبار كثيرة، إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين، و على أقدار أفهام المخاطبين، و بموجب إرشادهم إلى مناهج الذين، و بقيت بعد خبايا فى زوايا، خوفا من الأعداء و تقيء من البعداء، و لعله مما برز و ظهر لم يصل إلينا الأكثر؛ لأن رواته كانوا فى محنة من التقيء، و شدة من الخطر، و ذلك أنه لما جرى فى الصحابة ما جرى، و ضل بهم عامة الورى، أعرض الناس عن الثقلين «١»، و تاهوا فى بيداء ضلالاتهم عن النجدين إلا شردمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين، و عمهوا فى غمرتهم حتى حين فآل الحال إلى أن نبذ الكتاب حملته، و تناساه حفظته، فكان الكتاب (١) أراد بالثقلين كتاب الله و العتره كما أفصح عن ذلك فى أول المقدمة ص ٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٤

أهله فى الناس و ليسا فى الناس، و معهم و ليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى و إن اجتماعا. و كان العلم مكتوما، و أهله مظلوما، لا- سبيل لهم بإبرازه إلا- بتعميته و إلغازه، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين و لا ناصبين، لم يدروا ما صنعوا بالقرآن، و عمن

أخذوا التفسير والبيان. فعمدوا إلى طائفة يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا يفسرون لهم بالآراء، ويروون تفسيره عن يحسبونه من كبرائهم؛ مثل أبي هريرة وأنس وابن عمرو نظرهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس، وكان خير من يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس، ممن ليس على قوله كثير تعويل، ولا- له إلى لباب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله، وربما يسندونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ومن الآخذين عنهم من لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم، لما تقرر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عزة وشقاق، وهكذا كان حال الناس قرنا بعد قرن، فكان لهم في كل قرن رؤساء ضلالة، عنهم يأخذون، وإليهم يرجعون، وهم بآرائهم يجيئون، أو إلى كبرائهم يستندون، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام في جملة ما يروون عن رجالهم، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتباليهم ولأدب الرواية، إذ ما رعوها حق الرعاية، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب، وراموا غير باب الله أبوابا، واتخذوا من دون الله أربابا، وفيهم أهل بيت نبهم، وهم أئمة الحق، وسنة الصدق، وشجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، وعيبة العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا، خزائن أسرار الوحي والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والأمناء على الحقائق، والخلفاء على الخلائق. أولو الأمر الذين أمروا بطاعتهم، وأهل الذكر الذين أمروا بمسألتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، والراسخون في العلم الذين عندهم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٥

القرآن كله تأويلا وتفسيرا، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون، إنا لله وإنا إليه راجعون. ولما أصبح الأمر كذلك وبقي العلم سخريا هنالك صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم وحملوه على أهوائهم في تفاسيرهم وكلامهم والتفاسير التي صنفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل وكذلك التي صنفها متأخرو أصحابنا فإنها أيضا مستندة إلى رؤساء العامة وشد ما نقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام، وذلك لأنهم إنما نسجوا على منوالهم، واقتصروا في الأ-كثر على أقوالهم، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء- هؤلاء- فإنما تكلموا في النحو، والصرف، والاشتقاق، واللغة، والقراءة، وأمثالها- مما يدور على القشور دون اللباب، فأين هم والمقصود من الكتاب؟

وإنما ورد على طائفة منهم ما قويت فيه منته، وترك ما لا معرفة له به مما قصرت عنه همته، ومنهم من أدخل في التفسير ما لا يليق به، فبسط الكلام في فروع الفقه وأصوله، وطول القول في اختلاف الفقهاء، أو صرف همته في المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء وأما ما وصل إلينا مما ألفه قداماؤنا من أهل الحديث فغير تام، لأنه إما غير منته إلى آخر القرآن؛ وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان، مع أن منه ما لم يثبت صحته عن المعصوم، لضعف روايته أو جهالة حالهم، ونكارة بعض مقالهم... إلى أن قال:

و بالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافي، لصفاته عن كدورات آراء العامة والممل والمحير والمتنافي.. (١) اه

جل القرآن نازل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم:

و يعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم، فما كان من آية مدح فهي في آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهي في مخالفهم، ثم يقوى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة في هذا المعنى، فمن ذلك ما نقله (١) ج ١ ص ٢-٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٦

عن الكافي و تفسير العياشى بالإسناد إلى أبي جعفر عليه السلام قال: «انزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، و ربع في أعدائنا، و ربع

سنن و أمثال و ربع فرائض و أحكام» و زاد العياشى «و لنا كرائم القرآن» ... ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية و أمثالها فقال: «و قد وردت أخبار جمعة عن أهل البيت عليهم السلام، فى تأويل كثير من آيات القرآن بهم و بأوليائهم و بأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً فى تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام فى تأويل آية آية إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم، على ترتيب القرآن. و قد رأيت منها كتاباً يقرب من عشرين ألف بيت .. ثم قال:

و ذلك مثل لما رواه الكافى عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١)» قال هى الولاية لأمر المؤمنين عليه السلام. و فى تفسير العياشى عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد ... إذا سمعت الله ذكر قوما من هذه الأمة بخير فنحن هم، و إذا سمعت الله ذكر قوما بسوء ممن مضى فهم عدونا و فيه عن عمير بن حنظلة عن أبى عبد الله عليه السلام: سأله عن قوله تعالى:

«قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٢)» قال: فلما رآنى أتبع هذا و أشباهه من الكتاب قال: حسك ... كل شىء فى الكتاب من فاتحته إلى خاتمته مثل هذا فهو فى الأئمة عنوانه (٣) اه

رأى المصنف فى تحريف القرآن و تبديله:

يدين ملا- محسن بأن علياً رضى الله عنه هو أول من جمع القرآن، و أن القرآن الذى جمعه هو القرآن الكامل الذى لم يتطرق إليه تحريف و لا تبديل، و يروى لنا أحاديث عن آل البيت كمستند له فى رأيه هذا، فمن ذلك: ما نقله عن القمى فى تفسيره بإسناده عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال: إن النبى (١) الآيات (١٩٣؛ ١٩٤؛ ١٩٥) من سورة الشعراء:

(٢) فى الآية (٤٣) من سورة الرعد

(٣) ج ١ ص ٦-٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٧

صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام. يا على ... إن القرآن خلف فراشى فى الصحف و الحرير و القراطيس، فخذوه و اجمعوه و لا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق عليه السلام فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه فى بيته و قال: لا أرتدى حتى أجمعه. قال: كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه).

و منها ما رواه القمى بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبى عبد الله - و أنا أستمع - حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله: كيف عن هذه القراءة، اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة. و أخرج المصحف الذى كتبه على عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه و كتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد صلى الله عليه و سلم، و قد جمعته بين اللوحين. فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما و الله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان على أن أخبركم حين جمعته لقراءته.

و من ذلك ما روى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه: أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم جمع على عليه السلام القرآن و جاء به إلى المهاجرين و الأنصار و عرضه عليهم؛ لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. فلما فتحه أبو بكر خرج فى أول صفحة فتحتها فضائح القوم، فوثب عمر و قال: يا على اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه على عليه السلام و انصرف، ثم حضر زيد بن ثابت - و كان قارئاً للقرآن - فقال له عمر: إن علياً جاءنا بالقرآن و فيه فضائح المهاجرين و الأنصار، و قد أردنا أن نؤلف لنا القرآن و تسقط منه ما كان فيه فضيحة و هتك للمهاجرين و الأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتكم و أظهر على القرآن الذى ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟. ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله و نستريح منه، فدبر فى قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك .. فلما استخلف عمر سأل علياً عليه

السلام

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٨

أن يدفع إليه القرآن فيحرقوه فيما بينهم فقال: يا أبا الحسن. إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأت به إلينا حتى نجتمع عليه، فقال على عليه السلام: هيهات ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به لأبي بكر لتقوم به الحجّة عليكم و لا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا: ما جئنا به. إن القرآن الذي عندى لا يمسه إلا المطهرون و الأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال على عليه السلام: نعم. إذا قام القائم من ولدى فيظهره و يحمل الناس عليه فتجرى السنّة به «(١)» اه.

و لكننا نجد صاحبنا بعد ما ساق هذه الروايات و كثيرا غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول «و يرد على هذا كله إشكال. و هو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شىء من القرآن؛ إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرفا و مغيرا، أو يكون على خلاف ما أنزل الله، فلم يبق لنا فى القرآن حجة أصلا، فتنتفى فائدة الأمر باتباعه و الوصية بالتمسك به إلى غير ذلك. و أيضا قال الله عز و جل «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ «(٢)» و قال «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ «(٣)» فكيف يتطرق إليه التحريف و التغيير؟. و أيضا قد استفاض عن النبى و الأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على كتاب الله ليعلم صحته بموافقته له، و فساده بمخالفته «(٤)»، فإذا كان القرآن الذى بأيدينا محرفا فما فائدة العرض؟

مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذب له، فيجب رده و الحكم بفساده أو تأويله).

و هنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين:

أولهما: أن هذه الأخبار إن صحت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود (١) ج ١ ص ١٠-١١.

(٢) فى الآيتين (٤١؛ ٤٢) من سورة فصلت.

(٣) الآية (٥) من سورة الحجر

(٤) هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٥٩

كثير إخلال، كحذف اسم على و آل محمد، و حذف أسماء المنافقين؛ فإن انتفاء التعبير باق لعموم اللفظ.

و ثانيهما: أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير و البيان و لم يكن من أجزاء القرآن، فيكون التبديل من حيث المعنى، أى حرفه و غيرهه فى تفسيره و تأويله، بأن حملوه على خلاف ما يراد منه «(١)» اه.

ثم ذكر بعد هذا أقوال من تقدمه من شيوخه و علماء مذهبه و هم ما بين مجيز للتحريف و النقصان و مانع لذلك، و لكل أدلته و حجته، و لا نطيل بذكرها و من أرادها فليرجع إليها فى المقدمة السادسة (ص ١٤ و ١٥).

طريقه المؤلف فى تفسيره.

إشارة

بين المؤلف فى المقدمة الثانية عشرة من مقدمات تفسيره طريقته و اصطلاحاته التى جرى عليها فى كتابه فقال «كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان و تفسير لفهم المقصود من معانيه. أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه، أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه فهمه و تعاطيه، أو إلى تعرف نسخ أو تخصيص أو صفة أخرى فيه، و بالجملة ما يزيد على شرح اللفظ و المفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم، فإن وجدنا شاهدا من محكمات القرآن يدل عليه آتينا به فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، و قد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، و إلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام فى الكتب المعتمدة من

طرق أصحابنا رضوان الله عليهم أوردناه، و إلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة ...

... نظائره في الأحكام ما روى عن الصادق:

إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا، فانظروا إلى ما رووه عن علي عليه السلام فاعملوا به .. رواه الشيخ الطوسي في العدة. و ما لم نظفر (١) ج ١ ص ١٠-١٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٠

فيه بحديث عنهم عليهم السلام أوردنا ما وصل إلينا من غيرهم من علماء التفسير إذا وافق القرآن و فحواه. و أشبه حديثهم في معناه، فإن لم نعلم عليه من جهة الاستناد، اعتمدنا عليه من جهة الموافقة و الشبه و السداد، قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «إن على كل حق حقيقة، و على كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه» و قال الصادق «ما جاءك في رواية من راو فاجر يوافق القرآن فخذ به، و ما جاءك في رواية من راو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به» و قال الكاظم «إذا جاءك الحديثان المختلفان فقسهما على كتاب الله و على أحاديثنا.

فإن أشبههما فهو حق، و إن لم يشبههما فهو باطل» و ما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها، و تركنا سايرها مما في معناه روما للاختصار، و صونا عن الإكثار، و ربما أشرنا إلى تعددها و تكثرها إذا أهمنا الاعتماد. و إن كانت مختلفات نقلنا أصحها و أحسنها و أعمها فائدة، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا. و ما لا يحتاج إلا إلى شرح اللفظ و المفهوم، و النكات المتعلقة لعلوم الرسوم، مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم، أوردنا فيه ما ذكره المفسرون الظاهريون، من كان تفسيره أحسن، و بيانه أوجز و أتقن، كائنا من كان ... ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكري و غيره، و ذكر اصطلاحاته في العزو إلى الكتب التي استقى منها، و في نسبة الأقوال إلى قائلها و لا نطيل بذكرها «١».

هذه هي أهم الآراء التي يقول بها ملا محسن، و التي استخلصناها من مقدماته التي قدم بها تفسيره. و هذه هي طريقته التي سار عليها في كتابه الذي نحن بصددده. و الكتاب- كما أشرنا آنفا- مذهبي إلى حد التطرف و الغلو؛ فهو لا يكاد يمر بآية من القرآن إلا و يحاول صاحبه أن يأخذ منها شاهدا لمذهبه أو دفعا لمذهب مخالفه! ... و لقد قرأت في هذا الكتاب، فلمست فيه روح التحيز (١) ج ١ ص ١٩-٣٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦١

المزرى، و التعصب الممقوت. و لأجل أن يكون القارئ على بينة من الأمر أسوق إليه نماذج من نواح شتى و في موضوعات مختلفة ليلمس كما لمست مقدار هذا التعصب الذي يريد صاحبه من وراثته أن يحجب نور الحق و يطمس معالمه.

القرآن و أهل البيت:

فمثلا نجد كثيرا من آيات القرآن لها معان خاصة، و لا صلة لها بأهل البيت، و لا بما لهم من مناقب و شمائل، و لكننا نجد أصحابنا يتأثر بمذهبه الشيعي، فيحاول أن يلوى هذه الآيات إلى معان لا صلة لها باللفظ .. معان تحمل في طياتها طابع التعصب المذهبي بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة البقرة «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ .. الآية» يقول ما نصه «و ذلك لما كان في صلبه من أنوار نبينا و أهل بيته المعصومين، و كانوا قد فضلوا على الملائكة باحتمالهم الأذى في جنب الله، فكان السجود لهم تعظيما و إكراما، و لله سبحانه عبودية، و لآدم طاعة». قال علي بن الحسين: حدثني أبي، عن أبيه، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: يا عباد الله .. آدم لما رأى النور ساطعا من صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره، رأى النور و لم يتبين الأشباح، فقال: يا رب ما هذه الأنوار؟ فقال الله عز و جل: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشى إلى ظهرك؛ و لذلك أمرت

الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح، فقال آدم: يا رب .. لو بينتها لى، فقال الله عز وجل: «أنظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم عليه السلام و وقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره، كما ينطبع وجه الإنسان في المرأة الصافية، فرأى أشباحنا فقال: ما هذه الأشباح يا رب. قال الله: يا آدم .. هذه أشباح أفضل خلقتي و برياتي، هذا محمد، و أنا الحميد المحمود في فعالى، شققت له اسما من اسمى.

و هذا على، و أنا العالى، شققت له اسما من اسمى. و هذه فاطمة، و أنا فاطر

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٢

السموات و الأرض، فاطم أعدائى من رحمتى يوم فصل قضائى، و فاطم أوليائى عما يعيرهم و يشينهم، فشققت لها اسما من اسمى. و هذا الحسن، و هذا الحسين، و أنا المحسن المجمل، شققت اسميهما من اسمى. هؤلاء خيار خليقتى، و كرام بريتى، بهم آخذ، و بهم أعطى، و بهم أعاقب، و بهم أتيب، فتوسل بهم إلى يا آدم، و إذا دهتك داهية فاجعلهم إلى شفعاءك؛ فإنى آليت على نفسى قسما حقا لا أخيب بهم أملا، و لا أرد بهم سائلا؛ فلذلك حين زلت به الخطيئة دعا الله عز وجل بهم، فتاب عليه و غفر له «(١)» اه.

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (١، ٢، ٣) من سورة البلد (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَالِدٌ وَمَا وُلْدٌ) يقول ما نصه (فى المجمع عن الصادق. يعنى آدم و ما ولد من الأنبياء و الأوصياء و أتباعهم ... «(٢)» اه.

فأنت ترى من كل هذا أن المؤلف يجد فى إخضاع آيات القرآن لمذهبه، و تنزيلها على وفق هواه و عقيدته، و هذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه!! ..

طعن المؤلف على الصحابة:

كذلك نجد ملا محسن فى تفسيره هذا، يطعن على أبى بكر، و عمر، و عثمان، و غيرهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و يرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلا عن صحابى جاهد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و بذل فى سبيل نصرته دمه و ماله، كما يطعن فى بنى أمية و يرميهم بكل نقيصة، و هو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية و النزعة الشيعية.

طعنه على عثمان رضى الله عنه:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٤، ٨٥) من سورة البقرة (١) ج ١ ص ٢٩.

(٢) ج ١ ص ٣٥٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٣

«وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَـ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَـ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحْرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» نجده يفسر الآية تفسيراً مختصراً مقبولاً، ثم يروى عن القمى «أنها نزلت فى أبى ذر- رحمة

الله عليه- و فيما فعل به عثمان بن عفان و كان سبب ذلك: أنه لما امر عثمان بنفى أبى ذر- رحمة الله عليه- إلى الربذة، دخل عليه أبو ذر و كان عليلاً و هو متكئ على عصاه، و بين يدى عثمان مائة ألف درهم أتته من بعض النواحي، و اصحابه حوله ينظرون إليه و يطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟

فقال: حمل إلينا من بعض الأعمال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأبى ... قال أبو ذر: يا عثمان .. أيما أكثر؟ مائة ألف درهم أم أربعة دنانير؟ قال عثمان: بل مائة ألف درهم، فقال: أما تذكر إذ أنا و أنت دخلنا على رسول الله صلى الله عليه و

آله عشاء فوجدناه كئيبا حزينا فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكا مستبشرا، فقلت له: بأبي أنت و أمي .. دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيبا حزينا، و عدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكا مستبشرا، فقال: نعم .. قد بقي عندى من فء المسلمين أربعة دنائير لم أكن قسمتها، و خفت أن يدركنى الموت و هى عندى، و قد قسمتها اليوم فاسترحت. فنظر عثمان إلى كعب الأبحار فقال له:

يا أبا إسحاق .. ما تقول فى رجل أدى زكاة ماله المفروضة .. هل يجب عليه فيها بعد ذلك شىء؟ فقال: لا و لو اتخذنا لنبه من ذهب و لينه من فضة ما وجب عليه شىء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب، فقال: يا ابن اليهودية المشركة، ما أنت و النظر فى أحكام المسلمين؟ قول الله عز و جل أصدق من قولك حيث قال: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٤

فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* (إلى قوله) .. فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ «(١)». قال عثمان:

يا أبا ذر .. إنك شيخ قد خرفت و ذهب عقلك، و لو لا صحبتك لرسول الله صلى الله عليه و سلم لقتلتك، فقال: كذبت يا عثمان .. ويلك .. أخبرنى حبيبي رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: لا يفتنونك يا أبا ذر و لا يقتلونك .. أما عقلى فقد بقى منه ما أذكرنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم قاله فيك و فى قومك، قال: و ما سمعت من رسول الله فى و فى قومي؟ قال: سمعته يقول- و هو قوله صلى الله عليه و سلم- إذا بلغ إلى أبى العاص ثلاثون رجلا- صيروا مال الله دولا، و كتاب الله دغلا، و عباد الله خولا، و الصالحين حربا، و الفاسقين حربا قال عثمان: يا معشر أصحاب محمد. هل سمع أحد منكم هذا الحديث من رسول الله؟ قالوا: لا ما سمعنا هذا من رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال عثمان: ادعوا عليا .. فجاء أمير المؤمنين فقال له عثمان: يا أبا الحسن اسمع ما يقول هذا الشيخ الكذاب، فقال أمير المؤمنين: يا عثمان. لا تقل كذابا، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ما أظلت الخضراء و لا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر. قال أصحاب رسول الله: صدق على سمعنا هذا من رسول الله، فعند ذلك بكى أبو ذر و قال: ويلكم .. كلكم قد مد عنقه إلى هذا المال، ظننتم أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا أنت تقول إنك خيرنا، قال: نعم .. خلفت حبيبي رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو على بعيره، و أنتم قد أحدثتم أحداثا كثيرة، و الله سائلكم عن ذلك و لا يسألنى، فقال عثمان: يا أبا ذر ... أسألك بحق رسول الله إلا ما أخبرتنى عما أنا سائلك عنه. فقال أبو ذر: و الله لو لم تسألنى بحق رسول الله صلى الله عليه و سلم لأخبرتكم، فقال: أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فقال: مكة حرم الله و حرم رسوله، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فقال: لا و لا كرامة لك، قال المدينة حرم رسول الله، فقال: لا- و لا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر. فقال: و أى البلاد أبغض إليك أن تكون بها؟ قال (١) فى الآيتين (٣٤، ٣٥) من سورة التوبة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٥

الريضة التى كنت بها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قد سألتنى فصدقتك، و أنا أسألك فاصدقنى، قال: نعم، قال: أخبرنى لو أنك بعثتنى فيمن بعثت من أصحابك إلى المشركين فأسرونى و قالوا لا نفديه إلا بثلاث ما تملك ..؟ قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بكل ما تملك، قال: كنت أفديك، فقال أبو ذر: الله أكبر .. قال لى حبيبي رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما: يا أبا ذر كيف أنت إذا قيل لك أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقول مكة حرم الله و حرم رسوله .. أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فيقال: لا و لا كرامة لك، فتقول المدينة حرم رسول الله، فيقال لا و لا كرامة لك، ثم يقال لك فأى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟

فتقول: الريضة التى كنت بها على غير دين الإسلام، فيقال لك: سر إليها، فقلت:

و إن هذا الكائن يا رسول الله؟ فقال: و الذى نفسى بيده إنه لكائن، فقلت:

يا رسول الله أفلا أضع سيفي على عاتقي فأضرب به قدما قدما؟ قال: لا ..

اسمع و اسكت و لو لعبد حبشى، و قد أنزل الله فيك و فى عثمان خصمك آية، فقلت: و ما هى يا رسول الله؟ فقال: قول الله ... و تلا الآية) اه «١»

طعنه على أبى بكر:

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة (... ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ... الآية) نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبى بكر، رضى الله عنه، بل و يحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمزا و طعنا على أبى بكر، و ذلك حيث يقول ما نصه «.. (إذ يقول لصاحبه) و هو أبو بكر (لا تحزن) لا تخف (إن الله معنا) بالعصمة و المعونة.

فى الكافى عن الباقر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقبل يقول لأبى بكر فى الغار: اسكن فإن الله معنا، و قد أخذته الرعدة و هو لا يسكن، فلما رأى رسول الله حاله قال له: تريد أن أريك أصحابى من الانصار فى مجالسهم (١) ج ١ ص ٤٢-٤٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٦

يتحدثون؟ و أريك جعفر و أصحابه فى البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده على وجهه فنظر الى الأنصار يتحدثون، و إلى جعفر و أصحابه فى البحر يغوصون، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر (فأنزل الله سكينته) أمنتته التى تسكن إليها القلوب (عليه) فى الكافى عن الرضا:

أنه قرأها (على رسوله) قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نقرؤها، و هكذا تنزيلها.

و العياشى عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى «ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» و ما لهم فى ذلك من حجة، فو الله لقد قال الله «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ و ما ذكره فيها يخبر، قيل: هكذا تقرءونها؟ قال هكذا قراءتها (... «١»

طعنه على أبى بكر و عمر و عائشة و حفصة:

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ... الآيات إلى قوله فلما نبأها به قالت من أنباك هذا قال نبأنى العليم الخبير» نراه ينقل عن القمى فى سبب نزول هذه الآية «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان فى بعض بيوت نساءه، و كانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، و كانت ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها، فتناول رسول الله مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، و أقبلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت: يا رسول الله .. فى يومى؟ و فى دارى و على فراشى؟ فاستحى رسول الله منها فقال: كفى فقد حرمت مارية على نفسى، و لا أطؤها بعد هذا أبدا، و أنا أفضى إليك سرا إن أخبرت به فعليك لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، فقالت: نعم .. ما هو؟ فقال:

إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنباك هذا؟

قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، و أخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى عن حفصة بشيء و لا أثق بقولها فأسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها:

ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة، فأنكرت ذلك و قالت: ما قلت لها من (١) ج ١ ص ٢٥٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٧

ذلك شيئا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت:

نعم .. قد قاله رسول الله صلى الله عليه و سلم، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة، قال (و أظهره الله عليه) يعنى أظهره الله على ما أخبرت به و ما هموا به من قتله (عرف بعضه) أخبرها و قال: لم أخبرت بما أخبرتك؟

(و أعرض عن بعض) قال: لم يخبرهم بما يعلم مما هموا به من قتله) «١» اه.

صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:

و مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة عبس (عَبَسَ وَ تَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ... الآيات) إلى آخر القصة، نجده يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف بين المفسرين جميعاً، و يجعل العتاب موجهاً إلى عثمان رضى الله عنه، أو إلى رجل آخر من بنى أمية. و الذى حملة على ذلك هو ما يراه من أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجهاً إلى النبي صلى الله عليه و سلم أو إلى أحد من الأئمة المعصومين. كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منهم، أما توجه العتاب إلى عثمان و صدور سببه منه فهذا أمر جائز و واقع فى نظره؛ لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة فلماذا تراه يروى عن القمى «أنها نزلت فى عثمان و ابن أم مكتوم، و كان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و كان أعمى، و جاء إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و عنده أصحابه و عثمان عنده، فقدمه رسول الله صلى الله عليه و سلم على عثمان فعبس عثمان وجهه و تولى عنه، فأنزل الله (عَبَسَ وَ تَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى و نقل عن مجمع البيان أنها نزلت فى رجل من بنى أمية كان عند النبي فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه و جمع نفسه و عبس و أعرض بوجهه عنه، فحكى الله ذلك و أنكره عليه .. ثم قال: أقول: «و أما ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات فى النبي صلى الله عليه و سلم دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير (١) ج ٢ ص ٣٢٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٨

اللائقة بمنصبه، و كذا ما ذكره بعدها إلى آخر السورة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، و يمكن أن يكون من مختلفات أهل النفاق خذلهم الله «١» اه

دفاع المؤلف عن أصول مذهبه:

إشارة

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، و نراه ينتصر لمذهبه و يتعصب له، و يؤيد أصوله بكل ما يستطيع من الأدلة، و يدفع الشبه عنها، و يرد على الخصوم بما يستطيع من أوجه الرد؛ فلماذا نجده إذا مر بآية من آيات القرآن التى يستطيع أن يستند إليها و يعتمد عليها فى نظره، أخذ فى تأويلها على وفق مذهبه و هواه، و إن كان فى ذلك خروج عن ظاهر النظم القرآنى

ولاية على:

فمثلاً عند تفسيره لقوله، تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» نراه يستند إلى هذه الآية استناداً قوياً فى أن علياً رضى الله عنه هو وصى النبي صلى الله عليه و سلم و خليفته من بعده، فيقول ما نصه «فى الكافى عن الصادق فى تفسير هذه الآية: أولى بكم: أى أحق بكم و بأموالكم من أنفسكم و أموالكم الله و رسوله و الذين آمنوا- يعنى علياً و أولاده الأئمة إلى يوم القيامة- ثم وصفهم الله فقال «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» و كان أمير المؤمنين فى صلاة الظهر- و قد صلى ركعتين- و هو راکع، عليه حلة قيمتها ألف دينار، و كان النبي أعطاه إياها، و كان النجاشى أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولى الله و أولى بالمؤمنين من أنفسهم ...

تصدق على مسكين، فطرح الحالة إليه، و أوماً بيده إليه أن احمليها، فأنزل الله عز و جل فيه هذه الآية، و صير نعمة أولاده بنعمته «فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدقون و هم راکعون. و السائل الذى سأل أمير المؤمنين من الملائكة، و

الذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون (١) ج ٢ ص ٣٤٨ - ٣٤٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٦٩

من الملائكة. و عنه عن أبيه عن جده في قوله عز و جل «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا» (١) قال: لما نزلت «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ... الآية» اجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم في مسجد المدينة فقال بعضهم:

إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرهما، وإن آمننا فإن هذا ذل حين يسلط علينا على بن أبي طالب، فقالوا قد علمنا أن محمدا صادق فيما يقول، و لكننا نتولاها و لا- نطيع عليا فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا» يعنى ولاية علي «و أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» بالولاية و عنه أنه سئل:

الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: نعم هم الذين قال الله «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» و هم الذين قال الله «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية» و روى المؤلف غير ذلك من الروايات، و كلها يدور حول هذا الشأن .. ثم ادعى إجماع الأئمة على أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم و هو راع غير رجل واحد هو علي .. ثم علل عدم ذكره باسمه في الكتاب بأنه لو ذكر باسمه في الكتاب لأسقط مع ما أسقط ... ثم وفق بين الروايات القائلة بأنه تصدق بحلته و بين الروايات القائلة بأنه تصدق بخاتمته فقال: «لعله تصدق مرة في ركوعه بالحلة، و مرة بالخاتم ... و الآية نزلت بعد الثانية. و قوله تعالى «و يؤتون» إشعار بذلك؛ لتضمنه التكرار و التجدد، كما أن فيه إشعارا بفعل أولاده أيضا) اه (٢)».

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة المائدة (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ .. الآية) نراه يحمل التبليغ الأمور به عليه السلام على تبليغه للناس إمامة علي و ولايته .. و يروى هنا قصة طويلة جدا. و يروى خطبة النبي لأصحابه عند غدیر خم، و هى خطبة طويلة كذلك، و فى هذه الخطبة يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم مبينا سبب نزول الآية «و أنا مبين لكم سبب هذه الآية: إن جبريل هبط إلى مرارا (١) فى الآية (٨٣) من سورة النحل

(٢) ج ١ ص ١٦٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٠

ثلاثة، يأمرنى عن السلام ربي و هو السلام: أن أقوم فى هذا المشهد و أعلم كل أبيض و أسود أن علي بن أبي طالب أخى، و وصيى و خليفتى، و الإمام من بعدى، الذى محله منى محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى و هو وليكم بعد الله و رسوله، و قد أنزل الله على بذلك آية من كتابه «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» و علي بن أبي طالب أقام الصلاة و أتى الزكاة و هو راع، يريد لله عز و جل فى كل حال؛ و سألت جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعلمى بقله المتقين، و كثرة المنافقين، و إدغال الآثمين، و حيل المستهزين بالإسلام، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، و يحسبونهم هينا و هو عند الله عظيم، و كثرة أذاهم لى غير مرة حتى سمونى أذنا، و زعموا أنى كذلك لكثرة ملازمته إياى و إقبالى عليه، حتى أنزل الله عز و جل فى ذلك «وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ .. الآية» (١) و لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لسميت، و أن أومئ إليهم لأعيانهم لأومات، و أن أدل عليهم لدلت، و لكنى - و الله - فى أمورهم قد تكرمت، و كل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أبلغ ما أنزل إلى .. ثم تلا: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك فى على و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس ... (٢) الخ) اه.

أولو الأمر الذين تجب طاعتهم:

و مثلا- عند قوله تعالى فى (٥٩) من سورة النساء (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ... الآية) نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما من عداهم فليسوا أولى الأمر، و ليس يجب

على أحد أن يقوم بطاعتهم، و لهذا يقول عند تفسيره لهذه الآية ما نصه «في الكافي و العياشي عن الباقر: إيانا عنى خاصة .. (١) في الآية (٦١) من سورة التوبة

(٢) ج ١ ص ١٦٥-١٧١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧١

أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا. و في الكافي عن الصادق: أنه سئل عن الأوصياء ... طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: أطيعوا الله الآية و قال الله: «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ .. الآية و فيه و العياشي عنه في هذه الآية قال: نزلت في علي بن أبي طالب و الحسن و الحسين، فقال: إن الناس يقولون فما له لم يسم عليا و أهل بيته في كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة و لم يسم الله لهم ثلاثا و لا أربعا حتى كان رسول الله صلى الله عليه و سلم فسر ذلك لهم، و نزلت (أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) و نزلت في علي و الحسن و الحسين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم في علي: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، و قال: أوصيكم بكتاب الله و أهل بيتي، فإني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما على الحوض، فأعطاني ذلك. و قال: لا تعلموهم، فإنهم اعلم منكم، و قال: إنهم لم يخرجوكم من باب هدى و لم يدخلوكم في باب ضلالة، فلو سكت رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم يبين من أهل بيته لادعاهما آل فلان و آل فلان، و لكن الله أنزل في كتابه تصديقا لنبيه «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» فكان علي و الحسن و الحسين و فاطمة، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه و سلم تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال اللهم إن لكل نبي أهلا و ثقلا، و هؤلاء أهل بيتي و ثقلتي، فقالت أم سلمة: أ لست من أهلكت؟ فقال: إنك إلى خير، و لكن هؤلاء أهل بيتي و ثقلتي ... الحديث و زاد العياشي آل عباس، و آل عقيل، قبل قوله و آل فلان. عن الصادق أنه سئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التي إذا أخذ بها زكى العمل و لم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، و الإقرار بما جاء به من عند الله، و حق في الأموال الزكاة، و الولاية التي أمر الله بها، و ولاية آل محمد، فإن رسول الله قال: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية ..

قال الله تعالى «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فكان علي، ثم صار من بعده الحسن، ثم بعده الحسين، ثم من بعده علي بن الحسين، ثم من بعده محمد بن علي، ثم هكذا يكون الأمر .. إن الأرض لا تصلح إلا بإمام ... الحديث. و في المعاني عن سليم بن قيس الهلالي عن

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٢

أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدنى ما يكون، به الرجل ضالاً، فقال: أن لا يعرف من أمر الله بطاعته و فرض ولايته، و جعله حجته في أرضه، و شاهده على خلقه .. قال: فمن هم يا أمير المؤمنين، قال: الذين قرنهم الله بنفسه و نبيه فقال «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» قال فقبلت رأسه و قلت: أوضحت لي، و فرجت عني، و أذهبت كل شيء كان في قلبي. و في الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله .. عرفنا الله و رسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك، فقال: هم خلفائي يا جابر و أئمة المسلمين من بعدى، أولهم علي ابن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر .. و ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سمي محمد، و كنيته حجة الله في أرضه، و بقيته في عبادته، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح على يديه مشارق الأرض و مغاربها؛ ذاك الذي يغيب عن شيعته و أوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان. قال جابر: فقلت: يا رسول الله .. فهل لشيعته الانتفاع به في غيبته، فقال: أي .. و الذي بعثني بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره، و يتتبعون بولايته، كانتفاع الناس بالشمس و إن تجللتها سحب. يا جابر .. هذا من مكنون سر الله و مخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله ... و الأخبار في هذا المعنى في الكتب المتداولة

المعتبرة لا- تحصى كثرة. و في التوحيد عن أمير المؤمنين: اعرفوا الله بالله، و الرسول بالرسول و أولى الأمر بالمعروف و العدل و الإحسان. و في العلل عنه، لا- طاعة لمن عصى الله، و إنما الطاعة لله و لرسوله و لولاة الأمر إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصية، و إنما أمر بطاعة أولى الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرن بمعصية) اه «١». (١) ج ١ ص ١٣٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٣

الإمام يوصى لمن بعده:

و لما كان مذهب المؤلف أن كل إمام يوصى بالإمامة لمن بعده، و ليس ذلك لأحد من المسلمين غيره، فإننا نجده يتأثر بهذه العقيدة و يفسر قوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة النساء «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... الآية على وفق هذه العقيدة فيقول (في الكافي و غيره في عدة روايات: إن الخطاب إلى الأئمة .. أمر كلا منهم أن يؤدي إلى الإمام الذي بعده و يوصى إليه، ثم هي جارية في سائر الأمانات. و فيه و في العياشي عن الباقر. إيانا عنى أن يؤدي الإمام الأول إلى الذي بعده العلم و الكتب و السلاح ... الخ) «١»

استدلاله على الرجعة.

و لما كان المؤلف يدين بالرجعة فإننا نجده يستدل على جوازها بقوله تعالى في الآيتين (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة «وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» و ذلك حيث يقول (... أقول، قيد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء و نوم، و فيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التي قال بها أصحابنا نقلا عن أئمتهم، و احتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها كما رواه عنه الإصبع بن نباته، و القمي، هذا دليل على الرجعة في أمة محمد صلى الله عليه و سلم، فإنه قال، لم يكن في بني إسرائيل شيء إلا و في أمته مثله- يعني دليلا على وقوعها) اه «٢»

الإيمان بالرجعة و قيام القائم من الإيمان بالغيب،

و لكون المؤلف يعتقد بالرجعة و يرى ضرورة الإيمان بها لكل مؤمن، فإننا نراه يعد الإيمان بها من ضمن الإيمان بالغيب الذي مدح الله به عباده المتقين و ذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة «... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...» (الذين يؤمنون بالغيب) (١) ج ١ ص ١٣٢.

(٢) ج ١ ص ٣٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٤

بما غاب عن حواسهم من توحيد الله، و نبوة الأنبياء، و قيام القائم، و الرجعة، و البعث، و الحساب، و الجنة، و النار، و سائر الأمور التي يلزمهم الإيمان بها مما لا يعرف بالمشاهدة و إنما يعرف بدلائل نصبها الله عز و جل) «١» اه

التقية:

و لما كان ملا محسن يقول بالتقية، و يراها ضرورة من ضروريات قيام مذهب و صون أصحابه من الاضطهاد، فإننا نراه يفيض فيها عند ما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً... الآية» فيقول (إلا- أن تتقوا منهم تقاء) إلا أن تخافوا من جهتهم خوفا و أمرا يجب أن

يخاف منه، و قرئ (تقية) منع عن موالاتهم ظاهرا باطنا في الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فان إظهار الموالاته حينئذ جائز بالمخالفة كما قيل، كن وسطا و امش جانبا ... ثم قال «و في العياشى عن الصادق قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول، لا إيمان لمن لا تقيه له، و يقول، قال الله (إلا أن تتقوا منهم تقاة). و في الكافي عنه قال، التقيه ترس الله بينه و بين خلقه. و عن الباقر قال: التقيه في كل شيء يضطر إليه ابن آدم، و قد أحل الله له. و الأخبار في ذلك مما لا يحصى) اه «٢».

تأثره في تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية،

إشارة

و لما كان المؤلف كغيره من علماء مذهبه له في بعض المسائل الاجتهادية الفقهية رأى يخالف آراء مجتهدى المذاهب الأخرى، فإننا نراه ينتصر لمذهبه و يعمل على تأييده بما يظهر له من آيات القرآن .. و المتبع لتفسيره لآيات الأحكام يجد أثر هذا كله ظاهرا جليا، فهو يحاول محاولة جديده أن يأخذ رأيه من النص القرآنى أو يدفع رأى مخالفه بما يظهر له منه، و إليك بعض المثل لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبه الفقهى، (١) ج ١ ص ٢٣

(٢) ج ١ ص ٩٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٥

المتع.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النساء «فَمَا اسِيْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ..» نراه يتأثر بما يراه من حل نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا و يجعلها دليلا- على صحة مذهبه و ذلك حيث يقول ما نصه «فَمَا اسِيْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ» مهورهن، سمي أجرا لأنه في مقابلة الاستمتاع (فريضة) مصدر مؤكد، في الكافي عن الصادق، إنما أنزلت (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة) و العياشى عن الباقر. أنه كان يقرأها كذلك، و روته العامة أيضا عن جماعة من الصحابة «و لا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة» من زيادة في المهر أو الأجل، أو نقصان فيهما، أو غير ذلك مما لا يخالف الشرع. في الكافي مقطوعا و العياشى عن الباقر «لا بأس بأن تزيدا و تزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول، استحللتك بأجل آخر يرضى منها، و لا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها، و عدتها حيضتان «إن الله كان عليما» بالمصالح «فيما شرع من الأحكام. في الكافي عن الصادق، المتعة نزل بها القرآن، و جرت بها السنة من رسول الله صلى الله عليه و آله، و عن الباقر كان على يقول، لو لا ما سبقني به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى بالفاء- يعنى إلا قليل- أراد أنه لو لا ما سبقني به عمر من نهيه عن المتعة و تمكن نهيه من قلوب الناس، لندبت الناس عليها، و رغبتهم فيها، فاستغنوا بها عن الزنى، فما زنى منهم إلا قليل، و كان نهيه عنها تارة بقوله، متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم أنا محرهما و معاقب عليهما، متعة الحج، و متعة النساء. و أخرى بقوله، ثلاث كن على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم أنا محرهن و معاقب عليهن، متعة الحج و متعة النساء و حى على خير العمل فى الأذان. و فيه جاء عبد الله بن عمر الليثى إلى أبى جعفر فقال له، ما تقول فى متعة النساء، فقال: أحلها الله فى كتابه و على لسان نبيه، فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر .. مثلك يقول هذا و قد حرمها عمر و نهى عنها، فقال، و إن كان فعل، قال، فإنى اعيدك بالله من ذلك أن تحل

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٦

شيئا حرمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك و أنا على قول رسول الله صلى الله عليه و سلم، فهلم ألا عنك أن القول ما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم و أن الباطل ما قال صاحبك، و قال: فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك، و بناتك، و

أخواتك، و بنات عمك، يفعلن ذلك، فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه و بنات عمه. وفيه: سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد ابن النعمان صاحب الطاق فقال: يا أبا جعفر: ما تقول في المتعة؟ أ تزعم أنها حلال؟ قال: نعم. قال: فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن و يكسبن عليك فقال أبو جعفر: ليست كل الصناعات يرغب فيها و إن كانت حلالا، و للناس أقدار و مراتب يرفعون أقدارهم، و لكن ما تقول يا أبا حنيفة في النيذ أ تزعم أنه حلال قال: نعم؛ قال: فما يمنعك أن تقعد نساءك في الحوانيت نباذات فيكسبن عليك فقال أبو حنيفة: واحدة بواحدة، و سهمك أنفذ، ثم قال:

يا أبا جعفر. إن الآية التي في سأل سائل تنطق بتحريم المتعة «١» و الرواية عن النبي قد جاءت بنسخها، فقال أبو جعفر: يا أبا حنيفة.. إن سورة سأل سائل مكية و آية المتعة مدنية، و روايتك شاذة رديئة، فقال أبو حنيفة: و آية الميراث أيضا تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة من أين قلت ذلك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلا من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفي عنها. ما تقول فيها قال. لا ترث منه، فقال. قد ثبت النكاح بغير ميراث.. ثم افترقا. و عن الصادق أنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال. عن أي المتعتين تسأل فقال. سألتك عن متعة الحج فابشئني عن متعة النساء أحق هي؟ فقال: سبحان الله.. أما تقرأ كتاب الله «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» فقال أبو حنيفة. و الله لكأنها آية لم أقرأها قط. و في الفقه عنه. ليس منا من لم يؤمن بكرتنا و يستحل متعتنا (أقول) الكرة. الرجعة، و هي إشارة إلى ما ثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم في (١) يريد قوله تعالى في الآيتين (٢٩، ٣٠) «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ». التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٧

زمن القائم لينصروه، و قد مضت الإشارة إليه فيما سلف، و يأتي أخبار آخر فيها إن شاء الله. اه (١)

نكاح الكتابيات:

و ملا محسن. لا يميل إلى حرمة نكاح الكتابيات من اليهود و النصارى، بل نراه يذكر لنا في تفسيره للآيات التي تتصل بهذا الموضوع أقوال العلماء، و يفيض في سرده لأقوال المجيزين منهم، و يعقب على أقوال المجيزين بما يدل على أنه مؤيد لعدم الحرمة، و مرتض لقول من يقول بالحل؛ و لهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢١) من سورة البقرة «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ... الآية» يقول ما نصه: («و لا تنكحوا المشركات» لا تزوجوا الكافرات «حتى يؤمن» «و لأمة» مملوكة «مؤمنة خير من مشركة» حرة «و لو أعجبكم» المشركه بجمالها أو مالها أو حسبها «و لا تنكحوا المشركين» لا تزوجوا منهم المؤمنات «حتى يؤمنوا و لعبد مؤمن» مملوك «خير من مشرك» حر «و لو أعجبكم» جماله أو ماله أو حاله «أولئك» إشارة إلى المشركين و المشركات «يدعون إلى النار» إلى الكفر المؤدى إلى النار، فحقهم أن لا يوالوا و لا يصاهروا «و الله يدعوا إلى الجنة و المغفرة» إلى فعل ما يوجب الجنة و المغفرة من الإيمان و الطاعة «بإذنه بأمره» و توفيقه «و يبين آياته» أو امره و نواهيته «للناس لعلهم يتذكرون» و يتعظون. القمى: هي منسوخة بقوله تعالى في الآية (٥) من سورة المائدة «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» إلى قوله «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» قال: فنسخ هذه الآية «و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» و ترك قوله (و لا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) على حاله لم ينسخ؛ لأنه لا يحل للمسلم أن ينكح المشرك، و يحل له أن يتزوج المشركه من اليهود و النصارى، و كذلك قال النعمان في كتابه، و كلاهما عد قوله تعالى «و لا تنكحوا المشركات» من منسوخ النصف من الآيات، و يأتي تمام الكلام فيه في سورة المائدة إن شاء الله تعالى) اه (٢) «٢» (١) ج ١ ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) ج ١ ص ٧٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٨

و عند ما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٥) من سورة المائدة «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ

حَلَّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ...

الآية» يقول ما نصه: «... وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فى الفقيه عن الصادق: هن العفاف، و العياشى عن الكاظم أنه سئل ما معنى إحصانهن؟ قال: هن العفاف من نسائهم. و فى الكافى، و المجمع، و العياشى، عن الباقر: أنها منسوخة بقوله «وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ» و زاد فى المجمع و بقوله (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ). القمى. أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ» قال:

و إنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية، و غيرهم لم تحل مناكحتهم (أقول) يؤيد هذا، الحديث النبوى إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا- فأحلوا حلالها و حرموا حرامها. و فى الكافى عن الحسن بن الجهم قال: قال لى أبو الحسن الرضا: يا أبا محمد ما تقول فى رجل يتزوج نصرانية على مسلمة؟

قلت. جعلت فداك. و ما قولى بين يديك؟ قال لتقولن .. فإن ذلك تعلم به قولى. قلت: لا يجوز تزوج نصرانية على مسلمة و لا على غير مسلمة، قال: و لم؟

قلت: لقوله تعالى «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ» قال: فما تقول فى هذه الآية «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»؟

قلت: فقوله «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ» نسخت هذه الآية، فتبسم ثم سكت.

و فيه و فى الفقيه عن الصادق فى الرجل المؤمن يتزوج النصرانية و اليهودية قال:

إذا اصاب المسلمة فماذا يصنع باليهودية و النصرانية؟ فقيل: يكون له فيها الهوى، فقال: إن فعل فيمنعها من شرب الخمر و أكل لحم الخنزير، و اعلم أن عليه فى دينه غضاضة. و عن الباقر: لا ينبغي للمسلم أن يتزوج يهودية و لا نصرانية و هو يجد مسلمة حرة أو أمه، و عنه: إنما يحل منهم نكاح البله. و فى الفقيه عنه أنه سئل عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية قال: لا .. و لكن إن كانت له أمه مجوسية فلا بأس أن يطأها و يعزل عنها و لا يطلب ولدها، و فى رواية: لا يتزوج الرجل اليهودية و لا النصرانية على المسلمة، و يتزوج المسلمة على اليهودية و النصرانية

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٧٩

و فى التهذيب عن الصادق: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية و النصرانية و عنده حرة. و فيه فى جواز التمتع بهما و بالمجوسية أحبار آخر (... ه (١)).

و فى سورة الممتحنة عند قوله تعالى فى الآية (١٠) «وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ» قال ما نصه: «و لا تمسكوا بعصم الكوفير» بما يعتصم به الكافرات من عقد و نسب .. جمع عصمه، و المراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات. القمى عن الباقر فى هذه الآية قال: يقول: من كانت عنده امرأة كافرة- يعنى على غير مله الإسلام- و هو على مله الإسلام فليعرض عليها الإسلام، فإن قبلت فهى امرأته، و إلا- فهى بريئة منه، فهى الله أن يمسك بعصمتها. و فى الكافى عنه قال: لا ينبغي نكاح أهل الكتاب، قيل: و أين تحريمه؟ قال قوله «وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ» (أقول) قد مضى فى سورة المائدة ما يخالف ذلك اه (٢).

فرض الرجلين فى الوضوء و حكم المسح على الخفين:

و يرى صاحبنا أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحها لا غسلها، كما يرى عدم جواز المسح على الخفين، و لهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. الآية» نراه يقول بوجود وصول الماء إلى بشره سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل و المسح، و عليه فلا- يجزئ المسح على القلنسوة و لا على الخفين، ثم يروى ما جاء فى التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم على فقال: ما تقولون في المسح على الخفين، فقام المغيرة بن شعبه فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسخ على الخفين فقال علي: قبل المائدة أو بعد المائدة؟ قال: لا أدري، فقال علي: سبق الكتاب الخفين؛ إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض بشهرين أو ثلاثة. و هنا يعقب ملا محسن علي هذه الرواية فيقول: (أقول) المغيرة بن شعبه هذا هو أحد رؤساء المنافقين من (١) ج ١ ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) ج ٢ ص ٣١٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٠

أصحاب العقبة و السقيفة لعنهم الله .. ثم يقول: و في الفقيه روت عائشة عن النبي أنه قال: أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره.

و روى عنها أنها قالت: لأذن أمسح على ظهر غير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على خفي. و لم يعرف للنبي خوف إلا خوف أهده النجاشي و كان موضع ظهر القدمين منه مشقوقا، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم على رجله و عليه خفاه، فقال الناس: إنه مسح على خفيه، على أن الحديث في ذلك غير صحيح الإسناد. اه كلام الفقيه اه «١».

و بعد هذا انتقل المؤلف إلى الكلام على فرض الرجلين في الوضوء، فقال بعد ما بين أولا أن قراءة نصب الأرجل مردودة عندهم: (... ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس في رابعة النهار، و خصوصا على قراءة الجبر، و لذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل، و في التهذيب عن الباقر أنه سئل عن قول الله عز و جل «وَأَمْسِجُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَارْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» على الخفض هي أم على النصب؟ قال: «بل هي على الخفض» ثم قال:

(أقول) و على تقدير القراءة على النصب أيضا تدل على المسح، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرؤوس، كما تقول: مررت بزيد و عمرا؛ إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة، بل عن أسلوب العربية .. ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه .. «٢» اه.

الغنائم:

و هو يرى في الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه من أن الخمس يقسم إلى ستة سهام: سهم لله. و سهم للرسول، و سهم للإمام، و سهم ليتامى آل الرسول، و سهم لمساكينهم، و سهم لأبناء سبيلهم. و سهم لله و سهم الرسول يرثهما الإمام، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة .. ثم يعلل اختصاص الإمام من الخمس بالأسهم الثلاثة، بأن الله تعالى قد ألزم الإمام بما ألزم به النبي (١) ج ١ ص ١٥٤

(٢) ج ١ ص ١٥٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨١

من تربية الأمة، و مؤمن المسلمين و قضاء ديونهم، و حملهم في الحج و الجهاد، و ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أنزل عليه «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب لهم» فلما جعله الله أبا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد، فقال عند ذلك: من ترك مالا فلورثته، و من ترك ديناً أو ضياعاً فعلى و إلتى، فلزم الإمام ما لزم الرسول. فلذلك صار له من الخمس ثلاثة أسهم.

و المؤلف يرى أن الله تعالى عوض يتامى آل البيت و مساكينهم و أبناء سبيلهم بما خصوا به من هذه السهام عن الصدقات التي حرمت عليهم و منعوا من أخذها لكونها أوساخ الناس، و يروى في ذلك أخبارا كثيرة عن علماء آل البيت «١».

و عند ما فسر المؤلف قوله تعالى في الآية (٧) من سورة الحشر «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى .. الْآيَةَ» نقل من الكافي عن أمير المؤمنين أنه قال:

(نحن و الله الذين عنى الله بذي القربى الذين قرنهم الله بنفسه و نبيه فقال: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ

لِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ» منا خاصة و لم يجعل لنا سهما في الصدقة .. أكرم الله نبيه و أكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما في أيدي الناس (٢) اه.

الاستنباط:

و يرى ملا- محسن أن الاستنباط لا- يجوز لأحد من الأمة إلا للأئمة؛ لأنهم هم المعصومون عن الخطأ، أما من عداهم فليس له هذه العصمة؛ ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٣) من سورة النساء «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... الآية» يقول ما نصه: و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف مما يوجب الأمن و الخوف «أدَّعَوْا بِهِ» فشوه. قيل: كان قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله (١) ج ٢ ص ٢٤٤ (٢) ج ٢ ص ٣٠٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٢

صلى الله عليه و سلم أو أخبرهم الرسول بما أوحى اليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أدَّعَوْا، و كانت إذاعتهم مفسدة «و لو ردوه» ردوا ذلك الأمر «إلى الرسول و إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، قيل: أى يستخرجون تدبيره بتجاربههم و أنظارهم. فى الجوامع عن الباقر: هم الأئمة المعصومون. و العياشى عن الرضا: يعنى آل محمد صلى الله عليه و سلم و هم الذين يستنبطون من القرآن، و يعرفون الحلال و الحرام، و هم حجة الله على خلقه.

و فى الإكمال عن الباقر: من وضع ولاية الله و أهل استنباط علم الله فى غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله عز و جل، و جعل الجهال ولاة أمر الله، و المتكلفين بغير هدى زعموا أنهم أهل استنباط علم الله فكذبوا على الله و زاغوا عن وصية الله و طاعته، فلم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك و تعالى، فضلوا و أضلوا أتباعهم، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة «١» اه.

موقف المؤلف من مسائل علم الكلام:

إشارة

و المؤلف كغيره من الشيعة متأثر إلى حد ما بتعاليم المعتزلة و آرائهم الكلامية، فهو يوافقهم فى بعض المسائل، و يخالفهم فى بعض آخر منها.

و إنا لنلاحظ هذا التأثير فى تفسيره للآيات التى لها ارتباط بالمسائل الكلامية، و إليك بعض المثل التى وافق فيها المعتزلة، و بعض المثل التى خالفهم فيها:

أفعال العباد:

يرى صاحبنا أن العبد يخلق أفعال نفسه و يوافق برأيه هذا رأى المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم. و لهذا نراه يتأثر بهذه العقيدة فى تفسيره.

فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا .. الآية» نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول: «... و المعنى خليناهم و شأنهم ليمكروا و لم نكفهم عن المكر ...» (٢) اه. (١) ج ١ ص ١٣٧

(٢) ج ١ ص ١٩٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٣

رؤية الله:

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة في أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة؛ ولهذا نراه يتأول آيات الرؤية كما تأولها المعتزلة. فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» يقول ما نصه (وجوه يومئذ ناضرة) القمي: أي مشرقة (إلى ربها ناظرة) قال: ينظرون إلى وجه الله أي إلى رحمته ونعمته، وفي العيون عن الرضا قال: يعني مشرقة تنتظر ثواب ربها. وفي التوحيد والاحتجاج عن أمير المؤمنين في حديث قال: ينتهي أولياء الله بعد ما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقا، فيذهب عنهم كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم، قال: فذلك قوله تعالى «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» وإنما نعى بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى. و زاد في الاحتجاج: و الناظرة في بعض اللغات هي المنتظرة ألم تسمع إلى قوله «فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجَعُ الْمُرْسَلُونَ» (١) «أى منتظرة» (٢) اه. الشفاعة.

و يخالف المؤلف المعتزلة في القول بالشفاعة فهو يرى أنها جائزة و واقعة يوم القيامة، و أن أهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم، و لهذا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة البقرة «وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عِدْلٌ .. الآية» نراه ينقل من تفسيره الإمام عن الصادق أنه قال: (هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغني عنه، فأما القيامة فإننا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزء، ليكون على الأعراف بين الجنة والنار محمد، و علي، و فاطمة، و الحسن، و الحسين، (١) في الآية (٣٥) من سورة النمل

(٢) ج ٢ ص ٢٤١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٤

و الطييون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات، فمن كان منهم مقصرا و في بعض شذائدها فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان و المقداد و أبي ذر، و عمار، و نظرائهم في العصر الذي يليهم، ثم في كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزاة و الصقور، و يتناولونهم كما تتناول البزاة و الصقور صيدها، فيزفونهم إلى الجنة زفا، و إنا لنبعث على آخرين من محبيننا خيار شيعتنا كالحمام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب و ينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا، و سيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا في أعماله بعد أن حان الولاية و النقية و حقوق إخوانه و يوقف بإزائه مائة أو أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصاب «١» فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة و أولئك النصاب النار، و ذلك ما قال الله عز و جل في الآية (٣) من سورة الحجر «رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني بالولاية (لو كانوا مسلمين) في الدنيا، منقادين للأئمة، ليجعل مخالفوهم من النار فداؤهم) اه «٢».

السحر:

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة في القول بالسحر؛ فهو يعترف بحقيقته و لا ينكر أن النبي صلى الله عليه و سلم سحر، و لهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول ما نصه (... و من شر النفاثات في العقد) و من شر النفوس أو النساء السواحر اللواتي يعقدن عقدا في خيوط و ينفثن عليها، و النفث:

النفخ مع ريق ... ثم ذكر الحديث الذي فيه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سحر بفعل لبيد بن الأعصم اه «٣». (١) النصاب جمع ناصب و الناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يقدم الأول و الثاني يعني أبا بكر و عمر - على علي، أو يعتقد إمامة الأول و الثاني. اه من الوشيعة ص ٢٤.

(٢) ج ١ ص ٢٣.

(٣) ج ٢ ص ٣٧٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٥

روايته للأحاديث الموضوعية:

ثم لا يفوتنا أن ننبه على أن هذه الأحاديث التي يرويها المؤلف في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول، هي في الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها، و قد مر بك الكثير من هذه الروايات، و هي ناطقة على نفسها بالوضع، فلست في حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة؛ إذ نحن في غنى عن هذا بعد ما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه في ثانيا ألفاظه و معانيه. و المصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر في نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، و ما أعد الله لقارئها من الأجر و الثواب، و في اعتقادي أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أبي و ابن عباس في فضائل السور، و ليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة في تفسيره بعد ما سود كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعية على رسول الله صلى الله عليه و سلم و على آل بيته عليهم رضوان الله.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٦

٥- تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو السيد عبد الله بن محمد رضا، العلوي، الحسيني، الشهير بشبر. ولد بأرض النجف سنة ١١٨٨ هـ ثمان و ثمانين و مائة بعد الألف من الهجرة النبوية ... ثم ارتحل مع والده إلى الكاظمية و مكث بها إلى أن مات سنة ١٢٤٢ هـ اثنتين و أربعين و مائتين بعد الألف من الهجرة. كان في نظر أصحابه من أعيان الشيعة و فضلائهم، فقيهاً، محدثاً، مفسراً متبحراً، جامعاً لعلوم كثيرة، آية في الأخلاق. تلقى العلم على والده، و على الإمام الكبير السيد محسن الأعرجي. و قد تتلمذ عليه خلق كثير، لأنهم كانوا يعتبرونه علماً من أعلام الشيعة، و شخصيه علميه بارزة لها مكانها و مقدارها. و لقد عكف مدة حياته العلمية على التأليف و التصنيف حتى أخرج للناس مع سنة الذي لم يتجاوز الأربع و الخمسين سنة كتباً كثيرة و مصنفات عديدة نذكر منها (١) الدرر المنتورة في المواعظ المأثورة عن الله تعالى و النبي و الأئمة الطاهرين عليهم السلام و الحكماء (٢) رساله في حجية خبر الواحد (٣) أعمال السنة. كتاب على نمط زاد المعاد للمجلسي (٤) رساله في حجية العقل و الحسن و القبح العقليين (٥) مصباح الظلام في شرح مفاتيح شرائع الإسلام (٦) قصص الأنبياء (٧) البرهان المبين في فتح أبواب علوم الأئمة المعصومين (٨) كتاب شرح نهج البلاغة (٩) صفوة التفاسير في ستين ألف بيت (١٠) الجوهر الثمين في تفسير القرآن المبين ... في مجلدين في ثلاثين ألف بيت (١١) التفسير الوجيز مجلد واحد في ثمانية عشر ألف بيت. و لعل هذا التفسير هو الذي في أيدينا و هناك مؤلفات أخرى كثيرة مذكورة في ترجمته لا نطيل بذكرها «١»). (١) انظر ترجمته في روضات الجنات ص ٣٧٤، و ترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٧

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

تعصب المؤلف لأصول مذهبه و أثر ذلك في تفسيره:

إشارة

هذا، و إن المؤلف بحكم عقيدته و هواه يتأثر فى تفسيره بتعاليم الإمامية الاثنى عشرية و أصول مذهبهم، فلا يكاد يمر بآية يلح منها حجة لمذهبه أو دفعا لمذهب مخالفه إلا فسرهما كما يحب و يهوى.

الإمامة:

فمثلا نراه يتأثر بعقيدته فى الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» فيذكر أنها (نزلت فى على عليه السلام حين سأل سائل و هو راعى فى صلاته فأوما إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها) و يدعى إطباق أكثر المفسرين على ذلك و استفاضة الروايات فيه من الجانيين - جانب الموافقين و جانب المخالفين - ثم يقول بعد ذلك (و تدل - يعنى الآية - على إمامته دون من سواه؛ للحصر و عدم اتصاف غيره بهذه الصفات، و عبر عنه بصيغة الجمع تعظيما، أو لدخول أولاده الطاهرين) اه «٢» و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة أيضا «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ... الآية» يروى عن أهل البيت و ابن عباس و جابر: (أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف (١) ص ٢

(٢) ص ٢٦٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٨٩

عليا، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال أ لست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى .. قال: من كنت مولاه فعلى مولاه) اه «١».

كل إمام يوصى لمن بعده:

و يدين المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولا لأحد من الناس، بل كل إمام يوصى لمن بعده، و لهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة النساء «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... الآية» يعترف بأن الأمر يعم كل مكلف و كل أمانة .. ثم يقول (و عنهم عليهم السلام أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده) «٢» اه. و فى سورة الأحزاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ... الآية» يقول (و فيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار) «٣» اه.

وجود الأئمة فى كل زمان و عصمتهم، و وجوب الرجوع إليهم عند الاختلاف دون غيرهم:

و لما كان المؤلف يرى أنه لا- يخلو كل زمان من إمام، و أن الأئمة لهم من الله العصمة كالأنبياء و ليس هذا لغيرهم، فإنه يوجب الرجوع إليهم عند الاختلاف و عدم وجود نص من الكتاب أو السنة، أما من عداهم من الناس فلا- يصح الرجوع إليه بحال من الأحوال، لأن غير المعصوم لا يرجع إليه، و لا يؤخذ برأيه فى مسائل الخلاف:

يقول المؤلف هذا و يدين به فنجده يتأثر به فى تفسيره، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ... الآية» يقول (دل على وجود أولى (١) ص ٢٤٨:

(٢) ص ٢٠٣.

(٣). ٨٧٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٠

الأمر في كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم و فضلهم، و عصمتهم، و لا ينطبق إلا على مذهب الإمامية ... و عنهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة ..

أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا. «فإن تنازعتهم» أيها المأمورون «في شيء» من أمور الدين «فردوه» فراجعوا فيه «إلى الله» إلى محكم كتابه «و الرسول» بالأخذ لسنته، و المراجعة إلى من أمر بالمراجعة إليه، فإنها رد إليه. و قرئ فإن خفتم تنازعا في شيء فردوه إلى الله و إلى الرسول و إلى أولى الأمر منكم ... اه «١».

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٣) من سورة النساء أيضا «وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..» يقول («و لو ردوه إلى الرسول و إلى أولى الأمر منهم» هم آل محمد عليهم السلام «لعلمه الذين يستنبطون منهم» يستخرجون تدبيره بأفكارهم و هم آل محمد عليهم السلام ..) «٢» اه.

الرجعة:

و المؤلف يدين بالرجعة و يتأثر بها فمثلا في تفسيره لقوله تعالى في الآية «٣» من سورة البقرة «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» نجده يفسر الغيب (بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع، و صفاته، و النبوة، و قيام القائم، و الرجعة، و البعث، و الحساب، و الجنة، و النار) اه «٤».

و مثلا في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة البقرة أيضا «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» يقول (... و فيه حجة على صحة البعث و الرجعة) اه

التقية:

و لتأثر المؤلف بعقيدته في التقية نجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

مِنْ دُونِ (١) ص ٢٠٤

(٢) ص ٢١٠ - ٢١١

(٣) ص ٧

(٤) ص ٢٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩١

الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً ...

الآية» يقول (... رخص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عداوتهم و هى التقية التى تدين بها الإمامية، و دلت عليها الأخبار المتواترة و قوله: «إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان) اه «١».

تحريف القرآن:

كذلك نجد شبيرا يعتقد بأن القرآن بدل و حرف، و لما اصطدم بقوله تعالى في الآية (٩) من سورة الحجر «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول («و إنا له لحافظون» عند أهل الذكر واحدا بعد واحد إلى القائم، أو فى اللوح ..

و قيل الضمير للنبي) اه «٢»

آيات العتاب:

و المؤلف يكبر عليه معاتبه الله لنبيه محمد صلى الله عليه و سلم على أمر من الأمور، فيحاول بكل ما يستطيع أن يحول العتاب إلى غير النبي صلى الله عليه و سلم فمثلا عتاب الله لنبيه صلى الله عليه و سلم في شأن ابن أم مكتوم يشق على شبر أن يكون مقصودا به النبي، فنراه يقتصر على ما روى عن أهل البيت من أن آيات العتاب (نزلت في رجل من بنى أمية، كان عند النبي صلى الله عليه و سلم ف جاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقدر منه و جمع نفسه و عبس و أعرض بوجهه عنه «٣»).

طعنه على الصحابة:

و إنا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة و يرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، و يجردهم من كل فضل نسب إليهم في القرآن تنقيصا لهم، و حطا من قدرهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة التوبة «... ثاني (١) ص ١٢٩.

(٢) ص ٥٤٦.

(٣) ص ١١٩١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٢

اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و آيدته بجنود لم تروها ... الآية» نجده يعرض عن تعيين هذا الذي صحب النبي صلى الله عليه و سلم في هجرته، و هو أبو بكر، ثم يصرح أو يلمح بما ينقص من قدره، أو يذهب بفضله المنسوب إليه و المنوه به في القرآن الكريم فيقول:

«ثاني اثنين» حال أى معه واحد لا غير «إذ هما في الغار» نقب في ثور، و هو جبل بقرب مكة «إذ» بدل ثان «يقول لصاحبه» و لا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال «قال له صاحبه و هو يحاوره «١» «لا- تحزن» فإنه خاف على نفسه و قبض و اضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاء عن ذلك «إن الله معنا» عالم بنا «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... إلى قوله ...

إلا هو معهم «٢» أى عالم بهم «فأنزل الله سكينته» طمأنينته «عليه» على الرسول ... و فى إفراده صلى الله عليه و سلم هاهنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت ما لا يخفى، و جعل الهاء لصاحبه ينفية كونها للرسول قبل و بعد ... الخ «٣»

تعصبه لآل البيت:

إشارة

و لقد مر بنا عند قراءة تنا في هذا التفسير، الكثير مما يدل على تعصب المؤلف لآل البيت تعصبا ممقوتا مردولا، فتارة نجده يصرف اللفظ العام إلى علي رضي الله عنه، كما فعل في الآية (٤) من سورة التحريم عند قوله تعالى «... فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاةُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» فإنه صرف لفظ صالح المؤمنين عن عمومهم و ادعى أنه خاص بأمر المؤمنين على عليه السلام، كما ادعى رواية العامة و الخاصة لذلك «٤» اه.

كما نجده يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن آل البيت كانوا معروفين لدى الأمم السابقة و أنبيائهم يتوسلون إلى الله، فيكشف عنهم الغمة، و يزحزح عنهم الكربة. (١) فى الآية (٣٧) من سورة الكهف

(٢) فى الآية (٧) من سورة المجادلة

(٣) ص ٤١٧ - ٤١٨

(٤) ص ١١٣٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٣

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) و ما بعدها من سورة البقرة «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ... إلى آخر القصة» نجده يدعى أن السجود لآدم إنما كان (لما فى صلبه من نور محمد صلى الله عليه و سلم و أهل بيته) و يدعى أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه هى (التوسل فى دعائه بمحمد صلى الله عليه و سلم و آله الطيبين «١»).

و مثل هذا التعصب كثير فى مواضع من هذا التفسير.

علم القرآن كله عند آل البيت:

و المؤلف يدعى - كغيره من الإمامية الاثنى عشرية- أن علم القرآن كله عند أهل البيت دون غيرهم، و إنا لنجد أثر هذا واضحا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران «... وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ... الآية» و ذلك حيث يقول («... و ما يعلم تأويله» تاويل القرآن كله الذى يجب أن يحمل عليه «إلا الله و الراسخون فى العلم» الثابتون فيه و من لا يختلف فى علمه ... عن الصادق عليه السلام: نحن الراسخون فى العلم، و نحن نعلم تأويله. و من وقف من الجمهور على الله؛ فسر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه كوقت قيام الساعة و نحوه) «٢» اه.

تأثر المؤلف فى تفسيره بفروع الإمامية الفقهية:

إشارة

ثم إن المؤلف يجرى فى تفسيره لآيات الأحكام على وفق ما يأخذ به و يميل إليه من اجتهادات فقهاء الإمامية.

نكاح المتعة:

فمثلا نجده يتأثر برأيه الذى يقول بجواز نكاح المتعة و عدم نسخه.

فراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء «... وَ أَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُّحَصَّنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ... الآية» يقول (... و المراد به نكاح المتعة بإجماع (١) ص ١٩ - ٢٠

(٢) ص ١٩ - ٢٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٤

أهل البيت، و يدل عليه قراءة أبى و ابن عباس و ابن مسعود «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى». «فآتوهن أجورهن» مهورهن «فريضة» من الله «و لا جناح عليكم فيما تراضيتنم به من بعيد الفريضة» من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة فى الأجر و المدة) اه «١».

فرض الرجلين فى الوضوء:

و لما كان المؤلف يرى أن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح لا الغسل، فأنا نراه يشير إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ

إِلَى الْكَاذِبِينَ ... الآية» فيقول («و أرجلكم إلى الكعبيين» بالجر كما عن حمزة و ابن كثير و أبي عمرو .. و نصبه الباقر عطفًا على رءوسكم محلاً) اه «٢».

الغنائم:

كذلك يقول المؤلف بما يقول به علماء مذهبه في تفسير خمس الغنائم، و يجري على مذهبه في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤١) من سورة الأنفال «و اَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ .. الآية» فيقول: («فإن لله خمسه خبر محذوف، أو مبتدأ، أى فالحكم أو فواجب أن لله خمسه «و للرسول و لذى القربى» الإمام «و اليتامى» يتامى الرسول «و المساكين» منهم «و ابن السبيل» منهم ... اه «٣».

و فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل ... الآية» يقول مثل ما قاله فى الآية السابقة و ينه على أنه مر فى الأنفال نحوه إه «٤». (١) ص ١٢٢

(٢) ص ٢٤٦

(٣) ص ٣٩٥

(٤) ص ١١٠٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٥

ميراث الأنبياء:

و نجد شيرا يقول بأن الأنبياء يورثون المال كسائر الناس، و لهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» يقول ما نصه: («و إنى خفت الموالى» الذين يلونى فى النسب، و هم بنو عمه «من ورائى» بعد موتى أن يرثوا مالى فيصرفوه فيما لا ينبغى، إذ كانوا أشرا «و كانت امرأتى عاقرا لا تلد «فهب لى من لدنك وليا» ابنا «يرثنى و يرث من آل يعقوب» ... الخ) «١».

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل «و وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ... الآية» يقول ما نصه (و ورث سليمان داود ماله و هلكه، و قيل: نبوته و علمه، بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه و هم تسعة عشر، و الأول مروى) «٢» اه.

نكاح الكتابيات:

و لكن نرى المؤلف فى مسألة نكاح الكتابيات يميل إلى القول بالحل و عدم الحرمة؛ ففى قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... الآية» يقول («و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» ظاهره حل نكاح كل كتابية ذميه أو حرييه، دائما، أو منقطعاً، أو ملكاً، فيخص آية و لا تنكحوا المشركات إن شملت الكتابية. و عن الباقر عليه السلام أنه منسوخ بتلك «٣» اه و عند قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة «وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكُوفِرِ» نراه يمر عليها بدون أن يتعرض لهذا الموضوع أصلاً.

(١) ص ٦٣٤

(٢) ص ٧٨٨

(٣) ص ٢٤٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٦

تأثره بمذهب المعتزلة في تفسيره:

إشارة

و المؤلف كغيره من علماء الإمامية الاثنى عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها، و يقول بما يقولون به في كثير من أمور العقائد، كما يخالف أهل الاعتزال في بعض منها و يقول بما يقول به أهل السنة، و إننا لنلمس أثر ذلك واضحاً جلياً في تفسيره لكتاب الله تعالى.

حرية الإرادة و خلق الأفعال:

فمثلاً نجد المؤلف يوافق المعتزلة في أن العبد حر في إرادته. خالق لأفعاله كلها، و لهذا نراه كلما اصطدم بآية من الآيات التي تدل على أن الله هو الذي يخلق أفعال العباد، لجأ إلى التاويل الذي يتفق مع عقيدته هذه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة البقرة «.. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً» نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى و يقول: «ختم الله على قلوبهم و على سمعهم» و سمها بسمه يعرفها من يشاء من ملائكته و أوليائه، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لا يؤمنون، و عن الرضا عليه السلام: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم، كما قال تعالى «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ» (١) «و على أبصارهم غشاوة» غطاء.

أقول: و يمكن أن يكون تهكما حكاية لقولهم «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنَكَ حِجَابٌ» (٢). أو في الآخرة. و التعبير بالماضي لتحقيقه، و يشهد له قوله «وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا» (٣) اه «٤».

و مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠٨) من سورة الأنعام «كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ... الآية» نراه يفر من نسبة التزيين إلى الله فيقول: (١) في الآية (١٥٥) من سورة النساء

(٢) في الآية (٥) من سورة فصلت

(٣) في الآية (٩٧) من سورة الاسراء

(٤) ص ٨ - ٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٧

«كذلك زيننا لكل أمة عملهم» أى لم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم اه «١».

و مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١١٢) من السورة نفسها «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عِدَدًا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ ... الآية» يتخلص من نسبة الجعل هنا إلى الله تعالى بتأويله بالتخليه فيقول (أسند الجعل إليه تعالى لأنه بمعنى التخليه، أى لم يمنعهم من العداوة اه «٢»).

و مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٥) من السورة نفسها «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ... الآية» نراه يخرج من هذه الورطة بإرادة معنى اللطف و الخذلان فيقول: «فمن يرد الله أن يهديه» أى يلطف به «يشرح صدره للإسلام» بأن يفسح فيه و ينور قلبه (و من يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً» أى يمنعه أطفاه حتى ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان ... «٣» اه).

رؤية الله:

و لقد تأثر المؤلف أيضا في تفسيره باعتقاده بعدم رؤية الله و عدم وقوعها و لهذا لما فسر قوله تعالى في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف «... قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ... الآية» قال ما نصه («قال رب أرني أنظر إليك» روى لما كرر سؤال الرؤية أوحى الله إليه يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤخذك بجهلهم .. قال «لن تراني و لكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني» علق على المحال «فلما تجلى ربه للجبل» أى أظهر له أمره و اقتداره أو نوره و عظمته ... «فلما أفاق قال سبحانه» تنزيها لك عما لا يليق بك من الرؤية و غيرها «تبت إليك» من طلب الرؤية، (١) ص ٣١٧

(٢) ص ٣١٨

(٣) ص ٣٢٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٨

أو السؤال بلا إذن «و أنا أول المؤمنين» بأنك لا ترى (١) اه.

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة وُجُوهٌ يُؤْمِنُونَ نَاصِرَةً إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ*، يقول (ناظرة إلى رحمته و إنعامه (٢) اه.

غفران الذنوب:

و لما كان المؤلف يخالف المعتزلة في بعض معتقداتهم، فإننا نراه يفسر الآيات التي يستندون إليها في بعض عقائدهم بخلاف تفسيرهم لها، فمثلا يرى المؤلف أنه يجوز في حق الله تعالى أن يغفر الذنوب- إلا الشرك- بدون توبة من العبد تفضلا منه و رحمة، و هذا ما لا يقول به المعتزلة؛ فلماذا نجده يجرى على هذه العقيدة في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة النساء «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» فيقول: («إن الله لا يغفر أن يشرك به) أى الشرك (به) بدون توبة للاجماع على غفر أنها بها (و يغفر ما دون ذلك) ما سواه من الذنوب بدون توبة (لمن يشاء) تفضلا. و مقتضاه الوقوف بين الخوف و الرجاء (٣) اه.

و هكذا نجد هذا الكتاب يجمع بين الاختصار و سهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعي، و الدفاع عن أصوله و فروعها.

(١) ص ٣٦٧

(٢) ص ١١٧٤

(٣) ص ٣٠٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ١٩٩

٦- بيان السعادة في مقامات العبادة لسلطان محمد الخراساني

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو سلطان محمد بن حيدر الجنازدي الخراساني أحد متطرفي الإمامية الاثني عشرية في القرن الرابع عشر الهجري (١) اه.

قيمة هذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

يعطينا هذا التفسير لونا آخر من ألوان التفسير عند الإمامية الاثني عشرية، و ذلك لأن كل ما تقدم لنا من كتبهم في التفسير يكاد يكون

متفقا على لون واحد، و هو نقل ما جاء فى التفسير عن الأئمة و آل البيت، و ما كان من تفاوت بينها فهو لا يعدو أن يكون تفاوتاً بمقدار ما بين مؤلفيها من اعتدال فى التشيع أو غلو فيه، و بمقدار ما بينهم من تفاوت فى القدرة على تأييد مذهبهم و تدعيم أصوله بالأدلة و البراهين.

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد سلك مؤلفه فيه مسلكاً غير هذا المسلك، مما جعل له لونا مخالفاً للون تلك الكتب السابقة؛ ذلك أن المؤلف و إن كان يعتقد كغيره من علماء مذهب أن علم القرآن كله عند الأئمة، إلا أنه لم يعتمد فى تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد، بل نراه يمزج بها التفسير الصوفى الذى يقوم على الرموز و الإشارات، كما يخلط بالتفسير كثيراً من البحوث الفلسفية الدقيقة. و الذى يقرأ هذا الكتاب و يتتبع ما فيه من الشطحات الصوفية العميقة فى إدراكها، الغربية فى لفظها و أسلوبها، لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق فى إدراك معانيه، عسير فى مهم مراده و مراميه.

و أنا إذا أحكم على الكتاب هذا الحكم لا أكون مغالياً و لا متجنياً فيما حكمت، (١) لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٠

فكثيراً ما قرأت فيه العبارة المرة بعد المرة، و لا أخرج منها إلا بالمعنى القاصر المبتور، بعد أن يرتد إلى البصر خاسئاً و هو حسير، و يرجع الذهن عاجزاً عن الفهم و هو كليل ... و ربما أكون واهماً فى هذا الحكم؛ لقصور معرفتى باصطلاحات القوم، و عدم وقوفى على أصول مذهبهم و مرامى رموزهم التى يرمزون بها .. و لو تيسر لى ذلك لجاز أن يكون لى حكم على هذا التفسير مغاير لهذا الحكم، و رأى فيه مخالف لهذا رأى ..

و الذى نلاحظه فى هذا التفسير بعد ذلك: أنه يدافع عن أصول مذهب و يطيل فى دفاعه، مع تعصب كبير، و تطرف بالغ إلى درجة الغلو و العناد. أما فروع المذهب و مسائله الاجتهادية الفقهية، فيمر عليها مراراً سريعاً بدون تفصيل للأدلة و بيان لوجه النظر، كما نلاحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير أهل السنة أيضاً كالبيضاوى و غيره، و كثيراً ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول.

و بالجملة، فالكتاب يكاد فى جملة تفسيره جارياً على النمط الذى يجرى عليه الصوفية فى تفاسيرهم، و يظهر أن مؤلفه كان يقصد هذا اللون الصوفى فى تفسيره أولاً و بالذات؛ يدلنا على ذلك هذه العبارة التى نقتطفها من مقدمة تفسيره و هى قوله: (... و قد كنت نشيطاً منذ أوان اكتسابى للعلوم و عنفوان شبابى بمطالعة كتب التفاسير و الأخبار و مدارسها، و وفقنى الله تعالى لذلك، و قد كان يظهر لى بعض الأحيان من إشارات الكتب و تلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها فى كتاب و لا أسمعها من خطاب، فأرادت أن أثبتها فى وريقات، و أجعلها نحو تفسير للكتاب، لتكون تذكرة لى و لإخوانى المؤمنين، و تنبيهاً لى نفسى و لجملة الغافلين، راجياً من الله أن يجعلها لى ذخيرة ليوم الدين، و لسان صدق فى الآخرين و هو جدير بأن يسمى (بيان السعادة فى مقامات العبادة ..) اه «١».

فأنت ترى أن المؤلف يقرر هذه العبارة أن تفسيره هذا عبارة عن مجموعة (١) ج ١ ص ٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠١

تلك الإشارات و التلويحات التى فتح الله بها عليه و لم يسبق إليها فلو أنا جعلناه ضمن تفسير الصوفية لما كنا بعيدين عن وجهه الحق و الصواب، و لكننا آثرنا أن نجعله ضمن تفاسير الإمامية الاثني عشرية؛ لما فيه من اللون المذهبي و الأثر الشيعى البالغ حد التطرف و الغلو حتى فى ناحيته الصوفية و الفلسفية. و الكتاب مطبوع فى جزئين، و موجود بدار الكتب المصرية، آخره ما يدل على أن مؤلفه فرغ منه سنة ١٣١١ هـ.

و أرى قبل كل شىء أن أسوق للقارئ الكريم أهم الآراء التى بقول بها المصنف و يجهر بها فى مقدمة تفسيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بما أذكره ضمن النماذج المختلفة. و إليك أهم هذه الآراء:

الإمامية الاثنا عشرية و المهدي المنتظر:

يدين صاحبنا بأن علياً أول العترة، و وارث علم محمد صلى الله عليه و سلم، و بعده الأحد عشر من ولده، و أن الحادي عشر منهم غائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج و يملأ الأرض قسطاً و عدلاً، كما ملئت ظلماً و جوراً، و أن هؤلاء الاثني عشر أئمة و شفعاؤه يوم القيامة ...» (١) اه

القرآن و العترة:

و يعتقد المؤلف أن القرآن دليل العترة، و أن العترة مبيون للقرآن، و يقول:

إن القرآن إمام صامت، و العترة إمام ناطق، كما يقول: «إن محبة العالم من العترة و تعظيمه، و النظر إليه، و الجلوس عنده، و استماع قوله و سماعه، و التدبر في أفعاله و أحواله و أخلاقه، و التفكير في شئونه و التسليم له و لمتشابهات ما منه، و تخليئة بيت القلب لنزوله بملكوته فيه، بملاحظة أنه جبل الله الممدود إلى الناس من غير عناد منه من أعظم العبادات. كذلك تعظيم القرآن، و النظر في سطور، (١) ج ١ ص ٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٢

و استماع كلماته و سماعها، و التدبر في عباراته، و التفكير في إشاراته و لطائفه، و تخليئة بيت القلب لتجلي حقائقه، و اتباع أحكامه و تسليم متشابهاته من أعظم العبادات إذا كان بلحاظ كونه جبلاً ممدوداً من الله اه (١).

علم القرآن جميعه عند محمد و الأوصياء:

و يعتقد المؤلف أن علم القرآن جميعه عند النبي صلى الله عليه و سلم و الأئمة، أما من عداهم فعلمهم بمعاني القرآن قاصر لا يبلغ المبلغ الذي خص به النبي و الأئمة، و ذلك في نظره راجع إلى تفاوت المقامات التي يتفاوت العلم بتفاوتها. و نظرية تفاوت المقامات التي يتفاوت من أجلها العلم بمعاني القرآن. نظرية فلسفية صوفية شيعية، و إليك نص عبارة المؤلف في الفصل العاشر من مقدمة كتابه لتكون على بصيرة بها:

يقول المؤلف ما نصه: (الفصل العاشر أن علم القرآن بتمام مراتبه منحصر في محمد صلى الله عليه و سلم و أوصيائه الاثني عشر و ليس لغيرهم إلا بقدر مقامه، قد مضى أن بطون القرآن و حقائقه كثيرة متعددة، و أن بطنه الأعلى و حقيقته العليا هو محمدية محمد، و علوية علي، و هو مقام المشيئة التي هي فوق الإمكان، و كل نبي و وصي كان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد صلى الله عليه و سلم و أوصيائه، و من و لم يبلغ إلى مقام المشيئة لا يعلم ما فيه مؤولاً يتبين من ذلك المقام شيئاً، لأن المفسر لا يتجاوز في تفسيره حد نفسه، فكل من علم من القرآن شيئاً أو فسر منه شيئاً و إن بلغ من المقامات لا يكون علمه و تفسيره بالنسبة إلى علم القرآن إلا كقطرة من بحر محيط؛ فإن حقيقة القرآن التي هي حقيقة محمد و علي هي مقام الإطلاق الذي لا نهاية له، و الممكن و إن كان أشرف الممكنات الذي هو العقل الكلي يكون محدوداً، و لا يتصور النسبة بين المحدود و غير المتناهي الغير محدود، فعلم كل عالم و مفسر القرآن بالنسبة إلى علم القرآن كقطرة إلى البحار. و لما كان مقام محمد صلى الله عليه و سلم و علي و أولاده (١) ج ١ ص ٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٣

المعصومين مقام المشيئة كان علم القرآن كله عندهم، و كان علي هو من عنده علم الكتاب كما في الآية بإضافة العلم إلى الكتاب المفيد للاستغراق. و كان آصف هو الذي عنده علم من الكتاب. و كان إبراهيم ابتلاه ربه بكلمات معدودة لا بجملته الكلمات، مع أنه كان أكمل الأنبياء بعد نبينا. و كان محمد صلى الله عليه و سلم يؤمن بالله و كلماته جميعاً في قوله تعالى «فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ

الْأُمَّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ «١» فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ جَمْعُ مِضْفٍ مَفِيدٍ لِلِاسْتِغْرَاقِ، وَ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِيمَانَ الْإِجْمَالِيَّ وَ إِلَّا لِشَارِكِهِ غَيْرِهِ فِيهِ، بَلِ الْإِيمَانُ التَّفْصِيلِيُّ، وَ الْإِيمَانُ التَّفْصِيلِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِدْرَاكِ الْمَوْمِنِ بِهِ شَهُودًا وَ عِيَانًا اه (٢)»

تحريف القرآن و تبديله:

و المؤلف يذكر لنا رأيه بوضوح في تحريف القرآن و تبديله فيقول ما نصه:
(اعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة و النقيصة و التحريف و التغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك في صدور بعضها منهم و تأويل الجميع بأن الزيادة و النقيصة و التغيير إنما هي في مدركاتهم من القرآن لا- في لفظ القرآن كلفه، و لا يليق بالكاملين في مخاطباتهم العامة؛ لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام و الخواص، و صرف اللفظ عن ظاهره من غير صارف، و ما توهموه صارفاً من كونه مجموعاً عندهم في زمن النبي، و كانوا يحفظونه و يدرسونه، و كانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير و التبديل، حتى ضبطوا قراءات القراء و كفيات قراءاتهم.

فالجواب عنه: أن كونه مجموعاً غير مسلم، فإن القرآن نزل في مدة رسالته إلى آخر عمره نجوماً، و قد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور و بعض الآيات في العام الآخر، و ما ورد من أنهم جمعوه بعد رحلته، و أن علياً جلس في بيته مشغولاً بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره، و كونهم يحفظونه و يدرسونه (١) في الآية (١٥٨) من سور الاعراف.

(٢) ج ١ ص ١٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٤

مسلم، لكن كان الحفظ و المدرس فيما كان بأيديهم، و اهتمام الأصحاب بحفظه و حفظ قراءات القراء و كفيات قراءاتهم كان بعد جمعه و ترتيبه، و كما كانت الدواعي متوفرة في حفظه، كذلك كانت متوفرة من المنافقين في تغييره. و أما ما قيل: إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه، و الحال أنا مأمورون بالاعتماد عليه، و اتباع أحكامه، و التدبر في آياته، و امتثال أوامره و نواهيه و إقامة حدوده، و عرض الأخبار عليه، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير و التحريف عن ظواهرها؛ لأن الاعتماد على هذا المكتوب و وجوب اتباعه، و امتثال أوامره و نواهيه، و إقامة حدوده و أحكامه، إنما هي للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذكر، للقطع بأن ما بين اللفظين هو الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه و سلم من غير نقيصة و زيادة و تحريف فيه. و يستفاد من هذه الأخبار: أن الزيادة و النقيصة و التغيير إن وقعت في القرآن لم تكن مخللة بمقصود الباقي منه، بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة و التوسل بهم، و في الباقي منه حجتهم أهل البيت، و بعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حجة قطعاً لنا و لو كان مغيراً تغييراً مخللاً بمقصوده، و إن لم نتوسل بهم أو لم يأمرنا باتباعه، و كان التوسل به، و اتباع أحكامه. و استنباط أوامره و نواهيه، و حدوده، و أحكامه، من قبل أنفسنا كان من قبيل التفسير بالرأى الذي منعوا منه، و لو لم يكن مغيراً) «١» اه

نزول القرآن في شأن الأئمة و أشياعهم و أعدائهم:

و يرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه في الأئمة الاثني عشر بوجه، و نزل فيهم و في أعدائهم بوجه و نزل اثلاثاً: ثلث فيهم و في أعدائهم و ثلث سنن و أمثال، و ثلث فرائض و أحكام .. بوجه. أو ثلث فيهم و في أحبائهم، و ثلث في أعدائهم، و ثلث سنن و أمثال .. بوجه. و نزل أربعاً: ربع فيهم، و ربع في عدوهم، و ربع سنن و أمثال، و ربع فرائض و أحكام .. بوجه ... و يرى أن (١) ج ١ ص ١٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٥

كل هذا قد أشعرت به الأخبار الواردة عن أهل البيت، و يوجه ذلك فيقول (لما كان جميع الشرائع الإلهية و الكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية، و توجيه الخلق إلى الولاية، و كان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية و الولاية و المتحقق بالولاية المطلقة محمداً

صلى الله عليه وسلم و عليا و أولادهما، صح أن يقال: جملة الشرائع الإلهية و جميع الكتب السماوية نزلت فيهم و في توجيه الخلق إليهم، و هو أيضا وصف و تجليل لهم. و لما كان كثير من آيات القرآن نزلت فيهم تصريحاً أو تعريضا أو تورية، و ما كان في أعدائهم لم يكن المقصود منه إلا- الاعتبار بمخالفيتهم و الانزجار عن مخالفتهم ليكون سببا للتوجه إليهم و لمعرفة قدرهم و عظمتهم شأنهم، و كان سائر آيات الأمر و النهي و القصص و الأخبار لتؤكد السير على الطريق الإنسانية إلى الولاية، صح أن يقال: جميع القرآن نزل فيهم و لما كان القرآن مفصلا يكون بعض آياته فيهم و في محبيهم، و بعضها في أعدائهم و مخالفيتهم، و بعضها سننا و امثالا، و بعضها فرائض و أحكاما، صح أن يقال: نزل القرآن فيهم و في أعدائهم، أو نزل أثلاثا أو أرباعا و الآية الدالة على أخبار الأخيار و الأشرار الماضين، كلها تعريض بالأئمة و أخيار هذه الأمة و أشرارهم، مع قطع النظر عن رجوعها إليهم و إلى أعدائهم بسبب كونهم أصلا في الخير و كون أعدائهم أصلا في الشر. بل نقول: كل آية ذكر فيها خير كان المراد بها أخيار الأمة «و كل آية ذكر فيها شر كان المراد بها أشرار الأمة؛ لكون الآية فيهم أو تعريضا بهم، أو لكونهم و كون أعدائهم أصلا في الخير و الشر» (١) اهـ.

[بعض النماذج التي توضح لك الطريقة التي جرى عليها المصنف في تفسيره]

إشارة

هذه أهم آراء المصنف التي يراها في القرآن و تفسيره و مفسريه. و إليك بعض النماذج التي توضح لك الطريقة التي جرى عليها المصنف في تفسيره، و مقدار تأثيره بنزعتة الصوفية، و هواه الشيعي.

من التفسير الصوفي:

قلنا: إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفي لكثرة ما فيه من التأويلات (١) ج ١ ص ١٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٦

الإشارية، و الشطحات الصوفية، و المواجيد التي نقرأها للمؤلف في تفسيره للآيات القرآنية، و إليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقى النواحي في هذا التفسير.

فمثلا عند ما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٧٥) من سورة النساء «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا» يقول عند تفسيره لقوله تعالى «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ... الآية» (إن كان النزول في ضعفاء قلة فلا اختصاص لها بهم كما في الخبر، فالقرية مكة و كل قرية لا يجد الشيعة فيها وليا من الإمام و مشايخهم، و كل قرية وقع بها الأئمة بين منافق الأئمة، و قرية النفس الحيوانية التي لا يجد الجنود الإنسانية فيها وليا و يطلبون الخروج منها إلى قرية الصدر و مدينة القلب، و يسألون الحضور عند إمامهم أو مشايخهم في بيت القلب خاليا عن مزاحمة الأغيار بقولهم «و اجعل لنا من لدنك وليا و اجعل لنا من لدنك نصيرا» تكرر اجعل، لأن مقام التضرع و الابتهاج يناسبه التطويل و الإلحاح في السؤال، و لأن المسئول ليس شخصا واحدا؛ و لو كان واحدا لم يكن مسئولا من جهة واحدة، بل المسئول محمد صلى الله عليه وسلم و علي، أو المسئول محمد من جهة هدايته و من جهة نصرته، أو علي كذلك).

(و قد بقى بين الصوفية أن يكون التعليم و التلقين بتعاقد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هاديا و الآخر دليلا، و الشيخ الهادي له الهداية و تولى أمور السالك فيما ينفعه و يجذبه، و الشيخ الدليل ينصره لمداغمة الأعداء، و يخرج عن الجهل و الردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى، و في الآية إشارة إلى أن السالك ينبغي له أن يطلب دائما حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته و مقام صدره، و هو معنى انتظار ظهور الشيخ في عالم الصغير، و أما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك، فلا

يصدق عليه أنه من لدن الله، و إذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان وليا من لدن الله و نصيرا من لدنه) «١» اه (١) ج ١ ص ٢١١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٧

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٧) من سورة المائدة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» يقول (... اعلم أن الإنسان ذو مراتب عديدة بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له، و التكليف الإلهية الواردة عليه ليست لمرتبة خاصة منه بل - كما عرفت سابقا- للمفاهيم الواردة في التكليف مصاديق متعددة بتعدد مراتب الإنسان، بعضها فوق بعض، فكل ما ورد في الشريعة المطهرة من الألفاظ فهي مقصودة من حيث مفاهيمها العامة باعتبار جميع مصاديقها بحيث لا يشذ عنها مصاديق من المصاديق، فالإنسان بحسب مرتبته النباتية له محلات إلهية، و بحسب مرتبته الحيوانية أخرى، و بحسب الصدر أخرى، و بحسب القلب أخرى، و بحسب الروح أخرى، و التحريم الإلهي في كل مرتبة بحسبه، و كذا تحريم الإنسان على نفسه. فالمحلات بحسب مرتبته الحيوانية و النباتية:

ما أباح الله له من المأكول، و المشروب، و الملبوس، و المركوب، و المنكوح و المسكن، و المنظور. و بحسب الصدر: ما أباح الله له من الأفعال الإرادية، و الأعمال الشرعية، و التدبيرات المعادية و المعاشية، و الأخلاق الجميلة، و المكاشفات الصورية. و بحسب القلب: ما أباح الله له من الأعمال القلبية، و الواردات الإلهية، و العلوم الدنيوية، و المشاهدات المعنوية الكلية ... و هكذا في سائر المراتب. و الطيبات من ذلك في كل مرتبة: ما تستلذه المدارك المختصة بتلك المرتبة، و مطلق المباح في كل مرتبة طيب بالنسبة إلى مباح المرتبة الدانية منه، و أن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، و لا يحب الشره و الاعتداء في رخصه بحيث يؤدي إلى الانتقال إلى ما هو حرام محظور بأصل الشرع، أو بحيث يؤدي إلى صيرورة المباح حراما بفرض التجاوز عن حد الترخيص بالإكثار فيه، كما لا يجب الامتناع عن رخصه، فمعنى الآية: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَمْتَنُوا مِنَ الرِّحْلِ، و لا تحرموا بقسم و شبهة، و لا بكسل و نحوه، على أنفسكم ما تستلذه المدارك بحسب كل مرتبة و قوة مما أباحه الله لكم؛ لأن الله يحب أن يرى عبده مستلذا بما أباحه له، كما يحب

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٨

أن يراه مستلذا بعباداته و مناجاته، و لا تمتنعوا بالاكتفاء بمستلذات المرتبة الدانية عن مستلذات المرتبة العالية، فإنه يحب أن يرى عبده مصرا على طلب مستلذات المرتبة العالية، كما يحب أن يراه في هذه الحالة معرضا عن مباحات المرتبة الدانية، مكتفيا بضرورياتها و راجحاتها. و لا- تعتدوا عما أباح الله إلى ما حظره، و في المباح إلى حد الحظر. و الآية إشارة إلى التوسط بين التفريط و الإفراط في كل الأمور من الأفعال و الطاعات و الأخلاق و العقائد و السير إلى الله، فإن المطلوب من السائر إلى الله يكون واقعا بين إفراط الجذب و تفريط السلوك (...)

ثم بعد ذلك فسر قوله تعالى «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» بما يشبه التفسير السابق ... ثم بعد ذلك ذكر أن الآية نزلت في علي و بلال و عثمان بن مظعون، فأما علي فحلف أن لا ينام بالليل، و أما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبدا، و أما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدا، فلما علم بذلك رسول الله خرج على الناس و نادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ إنى أنام الليل و أنكح و أفطر بالنهار، فمن رغب عن سنتي فليس مني، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله ... فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله آيات الحلف ... ثم استشكل المؤلف على هذه الرواية إشكالين أولهما: أن مثال هذه المعاتبات و نسبة التحريم و الاعتداء و التقوى و لغو الإيمان غير مناسبة لمقام علي. و ثانيهما: أن عليا إما كان عالما بأن تحريم الحلال إن كان بالاستبداد و الرأي كان من البدع و الضلال، و إن كان بالنذر و شبهه كما دل عليه الخبر، كان مرجوحا غير مرضى لله تعالى، و مع ذلك حرمه على نفسه، أو كان جاهلا بذلك، و كلا الوجهين غير لائق بمقامه ... ثم أجاب عن هذين الإشكالين بجواب كله من قبيل النظرات الصوفية فقال (و الجواب الجلي لطالبي الآخرة و السالكين إلى

اللّه، الذين بايعوا عليا بالولاية، و تابعوه بقدوم صدق، و استشهدوا نفحات نشأته حال سلوكه أن يقال: إن السالك إلى الله يتم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٠٩

سلوكه باستجماعه بين نشأته الجذب و السلوك، بمعنى توسطة بين تفریط السلوك الصرف، و إفراط الجذب الصرف، فإنه إن كان في نشأة السلوك فقد جمد طبعه ببرودة السلوك حتى يقف عن السير، و إن كان في نشأة الجذب فقط، فنى بحرارة الجذب عن أفعاله و صفاته و ذاته، بحيث لا يبقى منه أثر و لا خبر، و هو و إن كان في روح و راحة، لكنه ناقص كمال النقص من حيث أن المطلوب منه حضوره بالعودة لدى ربه مع جنوده، و خدمه: و أتباعه، و حشمه، و هو طرح الكل، و تسارع بوحدته، فالسالك إلى الله تكميله مربوط بأن يكون في الجذب و السلوك منكسرا برودة سلوكه بحرارة جذبه» فالجذب و السلوك كالليل و النهار و كالصيف و الشتاء، من حيث أنهما يريان المواليد بتضادهما، فهما- مع كونهما متنازعين- متآلفان متوافقان.

إذا علمت ذلك، فاعلم أن السالك إذا وقع في نشأة الجذب، و شرب من شراب الشوق الزنجبيلي، سكر و طرب و وجد، بحيث لا يبقى في نظره سوى الخدمة للمحسوب، و كل ما رآه منافيا للخدمة رآه ثقلا و وبالا على نفسه و مكروها لمولاه، فيصمم في طرحه، و يعزم على ترك الاشتغال به، و هو من كمال الطاعة لا أنه ترك الطاعة كما يظن، فلا ضير أن يكون أمير المؤمنين حال سلوكه وقع في تلك النشأة، و حرم على نفسه كل ما يشغله عن الخدمة؛ لكمال الاهتمام بالطاعة، و لما لم يكن تحصيل الكمال التام إلا بالجمع بين النشأتين، أسقاه محمد صلى الله عليه و سلم من شراب السلوك، لأنه كان مكملا مرييا له و لغيره، و لذا قالوا: لأن يكون للسالك شيخ و إلا- فيوشك أن يقع في الورطات المهلكة، و لا- منقصة في أمثال هذه المعاتبات على الأحباب، بل فيها من اللطف و الترغيب في الخدمة ما لا يخفى، و على كان عالما بأن الكمال لا يحصل إلا بالنشأتين، لكنه يرى حين الجذب أن كل ما يشغله عن الخدمة فهو مكروه المحبوب، و مرجوح عنده، فحلف على ترك المرجوح. أو يقال: إن عليا لما كان شريكا للرسول صلى الله عليه و سلم في تكميل السالك لقوله. «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» و كان له شأن الدلالة، و لمحمد شأن الإرشاد، و المرشد بنشأته النبوية

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٠

شأنه تكميل السالك بحسب نشأة السلوك، و إن كان بنشأته الولوية و شأن الإرشاد شأنه التكميل بحسب الجذب، و الدليل بنشأته الولوية شأنه التكميل بحسب نشأة الجذب، و إن كان بنشأته النبوية و شأن الدلالة شأنه التكميل بحسب السلوك فالدليل بولايته يقرب السالك إلى الحضور، و يعلمه آداب الحضور، و طريق العبودية من عدم الالتفات إلى ما سوى المعبود، و طرح جميع العوائق من طريقه، و المرشد بنبوته يبعده عن الحضور، و يقربه إلى السلوك، و يرغب فيه، فهما في فعلهما كالنشأتين: متضادان متوافقان، فأمر المؤمنين لما رأى بلالا و عثمان مستعدين لنشأة الجذب؛ رغبهما إلى تلك النشأة بطرح المستلذات و ترك المألوفات، و شاركهما في ذلك ليستكمل بذلك شوقهما و يتم جذبهما، و لما مضى مدة و رأى الرسول أن عودهما إلى السلوك أوفق و أنفع لهما، ردهما إلى نشأة السلوك، و عاتبهما بألطف عتاب، و لا يرد نقص على أمير المؤمنين.

و لما قالوا بعد عتابه: قد حلفنا .. نزل «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» (١) و هو الذى يؤتى به للتأكيد فى الكلام كما هو عادة العوام ... الخ (٢)، فأنت ترى من هذين المثالين السابقين، أن المؤلف يفيض فى الناحية الصوفية فى تفسيره للآيات، كما أنه لم يخل تفسيره الصوفى من التشيع لعلى و ذريته بل و من اتخاذ مخرجا يخرج به من الإشكالات التى ترد عليه.

من التفسير الفلسفى:

كذلك نجد المؤلف فى كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية، فمثلا فى أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسده و روحه عليه السلام، و يرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك، و يقدم لبحثه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام على رضى الله عنه، و ذلك حيث يقول: (١) فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة، و فى الآية

(١٩) من سورة المائدة.

(٢) ج ١ ص ٢٤٩-٢٥١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١١

(العالم ليس منحصرًا في هذا العالم المحسوس المعبر عنه بعالم الطبع بمساواته و أرضيه، بل فوقه البرزخ، و هو عالم بين عالم الطبع و عالم المثال، و له الحكومة على عالم الطبع و التصرف فيه أى تصرف شاء، من الإحياء، و الإماتة، و إيجاد المعدوم، و إعدام الموجود، و ستر المحسوس، و إظهار غير المحسوس بصورة المحسوس. و منه طى الأرض، و السير على الماء و الهواء، و الدخول فى النار سالما، و قلب الماهيات. و منه طى الزمان، كما ورد فى الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق: اخسأ فصار كلبا. و قال لآخر: أنت امرأة بين الرجال فصار امرأة و أنكروا قلب الماهيات عند المعصوم، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء و ارتمس «١» فخرج و رأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة، فدخلت القرية و تزوجت و عاشت مدة و ولدت لها أولاد ... ثم خرجت لتغتسل فى البحر فدخلت الماء و ارتمست فخرجت على ساحل النهر المعهود و هو رجل و إذا بشيابه موضوعه كما وضعها. فلبسها و دخل بيته و أهله غير شاعرين بغيته لقصر الزمان و أمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق، و هذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه فى عالم الملك، كما نقل أن امرأة وقع لها ذلك فأخبرت و أنكرها جماعة فأتيت بأولادها بعد ذلك من بلدة بعيدة، مع أنه لم يمض فى بلدها قدر ساعة «أو من قبيل البسط فى الدهر من غير تصرف فى الزمان إن كان وقوعه فى الملكوت. و فوق البرزخ عالم المثال، و له التصرف فى البرزخ و الطبع.

و فوقه عالم النفوس الكليات المعبر عنها بالمدرات أمرا. و فوقه الأرواح المعبر عنها بالصفات صفا؛ و يعبر عنها فى لسان الإشرافيين بارباب الأنواع و أرباب الطلسمات. و فوقها العقول المعبر عنها بالمقربين. و فوقها الكرسى. و فوقه العرش، و هو سرير الملك المتعال، و هما بين الوجوب و الإمكان لا واجبان و لا ممكنان، بل فوق الإمكان و تحت الوجوب. و كل من تلك العوالم له الإحاطة و التصرف و الحكومة على جميع ما دونه، (١) ارتمس من الارتماس و هو الانغماس.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٢

فإذا غلب واحد من تلك العوالم على ما دونه صار ما دونه بحكمة، و ذهب عنه حكم نفسه.

ثم اعلم أن الإنسان مختصر من تلك العوالم، و له مراتب بإزاء تلك العوالم، و كل مرتبة عالية لها الحكومة على ما دونها من غير فرق، كما نشاهده من حكومة النفس على البدن و القوى، لكن تلك المراتب فى أكثر الناس بالقوة، و ما بالفعل من النفس المجردة التى هى بإزاء عالم النفوس ضعيفة غاية الضعف، بحيث لا يمكنها التصرف فى بدنها زائدا على ما جعله الله فى جبلتها، فكيف بغير بدنها؟ فإذا صار بعض تلك المراتب بالفعل كما فى أكثر الأنبياء و الأولياء، أو جميعها كما فى خاتم الأنبياء و صاحبى الولاية الكلية، كان لهم التصرف فى أبدانهم باى نحو شاءوا، و فى سائر أجزاء العالم، كما روى عن الأنبياء و الأولياء من طى المكان و الزمان، و السير على الماء و الهواء، و دخول النار، و إحياء الموتى، و إماتة الأحياء، و قلب الماهيات، و غير ذلك مما لا ينكر تمامها لكثرتها، و تواتر الأخبار بمجموعها و إن كان آحادها غير متواترة. و أما التصرف فى البدن الطبيعى بحيث يخرج من حكم الإمكان و يدخله فى عالم العرش الذى هو فوق الإمكان و فوق عالم العقول و الملائكة المقربين، كما روى أن جبريل تخلف عن الرسول صلى الله عليه و سلم فى المعراج، و قال: لو دنوت أنملة لاحتقرت، مع أنه من عالم العقول المقربين، فهو من خواص خاتم الكل فى الرسالة و النبوة و الولاية، و هو من خواص نبينا صلى الله عليه و سلم لا- يشاركه فيه غيره لا- نبى مرسل و لا- خاتم الأولياء. و لذلك جعلوا المعراج الجسمانى بالكيفية المخصوصة من خواصه صلى الله عليه و سلم. و لما كان المعراج بتلك الكيفية أمرا لا- يتصور أمر فوقه من الممكن، و كان لا يتيسر إلا إذا غلب العالم الذى فوق الإمكان على البدن الطبيعى، و لا تتيسر تلك الغلبة بسهولة و لكل أحد و فى كل زمان، قالوا: إن المعراج للنبي صلى الله عليه و سلم كان مرتين؛ مع أنه نسب إلى بعض العرفاء أنه قال: إنى أعرج كل ليلة سبعين

مرة، و المعراج بالروح أمر يقع لكثير من الرياضيين، بل ورد أن الصلاة معراج المؤمن.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٣

إذا تقرر ذلك نقول: إنه عرج ببدنه الطبيعي و عليه عباءة و نعلاه إلى بيت المقدس، و منه إلى السموات، و منها إلى الملكوت، و منها إلى الجبروت، و منها إلى العرش الذي هو فوق الإمكان، و في هذا السير تخلف جبريل عنه صلى الله عليه و سلم؛ لأنه كان من عالم الإمكان، و لم يكن له طريق إلى ما فوق الإمكان؛ لأن الملائكة كل له مقام معلوم لا يتجاوزه، بخلاف الإنسان. و لم يكن منه ذلك المعراج إلا- مرتين كما في الأخبار، و لا يلزم منه خرق السماوات؛ لارتفاع حكم الملك عن بدنه بغلبة الملكوت- و لا استغراب في عروج البدن الطبيعي إلى الملكوت و الجبروت- و لسقوط حكم الملك بل حل الإمكان عنه مع بقاء عينه، و لا غرو في كثرة وقائعه في المعراج؛ فإنه من بسط الدهر مع قصر الزمان كما قال: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (١) و قال أيضا: «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (٢) فقدر ساعة من الدهر بإزاء ساعة من الزمان تكون كألف ساعة من الزمان أو خمسين ألف ساعة (٣) ... اهـ.

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢١) من سورة الحجر: «وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» يقول ما نصه: (اعلم أنه قد يطلق الشيء و يراد به ما يساوق الموجود، فيشمل الحق الأول تعالى شأنه. و قد يطلق و يراد به الشيء وجوده، فلا يشمل الحق الأول، و لا حضره الأسماء و لا حضرة الفعل الذي هو مبدأ إضافاته، و يشمل الممكنات كلها من حضرة العقول المعبر عنها بالأفلام العالية و الملائكة المقربين، و حضرة الأرواح المعبر عنها بأرباب الأنواع و الصفات صفا، و حضرة النفوس الكلية المعبر عنها بالأرواح الكلية المحفوظة و المدبرات أمرا، و حضرة النفوس الجزئية المعبر عنها بالوالمح و الإثبات و بعالم المثال باعتبارين، و يشمل موجودات عالم الطبع تماما، و كل ما في تلك الحضرات له حقيقة في حضرة الأسماء، و حقيقة في حضرة الفعل و الإضافة الإلهية الإشراقية. (١) في الآية (٤٧) من سورة الحج.

(٢) في الآية (٤) من سورة المعارج.

(٣) ج ١ ص ٤١٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٤

و كل ما في حضرة الفعل له حقيقة أيضا في حضرة الأسماء، و كل ما في حضرة الأرواح له حقيقة في حضرة الأفلام، و حقيقة في حضرة الفعل، و حقيقة في حضرة الأسماء، و هكذا حضرة النفوس الكلية و ما فيها، و حضرة النفوس الجزئية و ما فيها، و عالم الطبع و ما فيه، و بعبارة أخرى: كل دان له صورة بالاستقلال في العالي، و صورة بالاستقلال في عالي العالي، و صورة بتبع العالي في عالي العالي، فلكل شيء من الممكنات حقائق في حضرة الأسماء استقلالا و تبعا، و هكذا في حضرة الفعل، و هكذا في حضرة الأفلام إلى عالم المثال، و كل تلك الحضرات من حيث أنها عوالم مجردة عن المادة و أغشيتها، تسمى عند الله، و لدن الله؛ لحضورها في محضره، و لما كانت تلك الحقائق محفوظة عن التغير و التبديل كالأشياء النفيسة المخزونة المحفوظة، سماها تعالى بالخزائن، فكل ما في عالم الملك له حقيقة في عالم المثال، ينزله- تعالى شأنه- من عالم المثال إلى عالم الملك بقدر استعداد المادة لقبوله و حين استعدادها، و هكذا من النفوس الكلية إلى عالم المثال، و هكذا الأمر في العالي و الأعلى إلى حضرة الأسماء.

و لما كان موجودات عالم الملك متجددة بالتحديد الذاتي: بمعنى؛ أنها كل آن فانية عن ذاتها، و موجودة بموجودها كما حقق في محله، فما من شيء مما في عالم الملك إلا و يفنى آنا فآنا، و ينزله تعالى من خزائنه آنا فآنا، فلذلك قال: «و ما ننزله إلا بقدر معلوم» (١) اهـ.

آل البيت و الأمم السابقة:

و مما نلاحظه على المؤلف أنه يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمدا صلى الله عليه و سلم و آل بيته كانوا معروفين عند الأمم السابقة، و كان لهم أشياع و أتباع يوالونهم، و يتوسلون بهم، و ينالهم الخير و البركة بسبب حبهم.

و هذه الروايات لا نعتقد إلا- أنها من قبيل الخرافات التي تسلطت على عقول أولئك القوم، و من هذه الروايات- مثلا- ما ذكره المؤلف فى قصة (١) ج ١ ص ٤٠٢-٤٠٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٥

قتيل بنى إسرائيل المذكورة فى قوله تعالى فى الآية (٦٧) و ما بعدها من سورة البقرة «وَ إِذِ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً... الآيات» إلى آخر القصة من أن موسى جمع أمائل القبيلة التي وجد القتل فيها، و أزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القوى الشديد إله بنى إسرائيل بفضل محمد و آله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه و لا علمنا له قاتلا (١)».

و بعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذه البقرة المذكورة بأوصافها فى القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بنى إسرائيل أراه الله فى منامه محمدا و عليا و طيبى ذريتهما فقالا: إنك كنت لنا محبا مفضلا، و نحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك فى الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا- تبعها إلا- بأمر أمك، فإن الله يلقتها ما يغنيك و عقبك، و جاء القوم يطلبون بقرته؛ فقالوا: بكم تباع بقرتك هذه؟ قال:

بدينارين، و الخيار لأمى قالوا: رضينا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا: نعطيك دينارين، فأخبر أمه، فقالت: ثمانية... فما زالوا يطلبون على النصف مما تقول أمه، و يرجع إلى أمه فتضعف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر ما يكون دنائير، فأوجب لهم البيع فذبحوها و ما كادوا يفعلون. (٢)» اه.

و بعد ذلك بقليل يقول: (و فى تفسير الإمام أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى و قالوا: افتقرت القبيلة، و انسلخنا بلجاجنا عن قليلنا و كثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا صلى الله عليه و سلم، فأوحى الله إليه: ليذهب رؤساهم إلى خربة بنى فلان و يكشفوا عن موضع كذا و يستخرجوا ما هناك، فإنه عشرة آلاف ألف دينار، و ليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة ما دفع، لتعود أحوالهم على ما كانت، ثم ليتقاسموا بعد ذلك ما يفضل و هو خمسة آلاف ألف دينار على قدر ما دفع كل واحد منهم، لتضعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد و آله، و اعتقادهم لتفضيلهم (٣)» اه: (١) ج ١ ص ٥٧

(٢) ج ١ ص ٥٨.

(٣) ج ١ ص ٥٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٦

كما يروى أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبي محمد و آله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يحييه لهم فاستجاب. و أن القتل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد و آله أن يقيه فى الدنيا متمتا بآبنة عمه، و يجزى عنه أعداءه، و يرزقه رزقا كثيرا طيبا، فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التي عاشها قبل ذلك، و عاش فى الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتا بحلال الدنيا، و عاش معها لم يفارقها و لم تفارقه، و ماتا جميعا معا، و صارا إلى الجنة و كانا فيها زوجين ناعمين (١)» اه.

قصص القرآن:

و إنا لنجد المؤلف يقرر فى غير موضع من كتابه: أن القصص القرآنى و ما ورد فى شروحه من الروايات على اختلافها و تضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذى يتبادر إلى الذهن، بل هى من قبيل الرموزات التي رمزوا بها لأشياء يعلمونها و يريدونها، كما يقرر أن من يريد حملها على الظاهر فلا بد و أن يتحير فيها، و ليس يمكن له أن يصل إلى حقيقتها، و المقصود منها بمجرد قوته البشرية: فعند ما تكلم على قصة آدم فى أول البقرة وجدناه يقول: (و لما كان قصة آدم و خلخته، و أمر الملائكة بسجدة، و أباه إبليس عن السجود،

وهبوطه من الجنة، و بكائه في فراق الجنة و فراق حواء، و خلقته حواء من ضلع الجنب الأيسر، و غروره بقول الشيطان و حواء، و كثرة نسله، و حمل حواء في كل بطن ذكرا و أنثى، و تزويج كل بطن لذكر البطن الآخر من مرموزات الأوائل، و قد كثر ذكره في كتب السلف خصوصا كتب اليهود و تواريخهم، و ردت أخبارنا مختلفة في هذا الباب اختلافا كثيرا، مرموزا بها إلى ما رمزوه، و من أراد أن يحملها على ظاهرها تحير فيها، و من رام أن يدرك المقصود بقوته البشرية و المدارك الشيطانية منها طرد عنها، و لم يدرك منها إلا خلاف مدلولها) «٢» اهـ. (١) ج ١ ص ٥٨

(٢) ج ١ ص ٤٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٧

و بعد أن يقرر المؤلف هذا نراه يكشف لنا عن تلك الأمور المرموز إليها في القصة، لا بقوته البشرية؛ فإنها عاجزة عن إدراكها كما يقول، بل بقوته الروحية التي تستلهم المعارف من الله، و ذلك حيث يقول في أثناء تفسيره للقصة نفسها: (اعلم أن قصة خلق آدم و حواء من الطين و من ضلعه الأيسر.

و أمر الملائكة بالسجود لآدم، و إباء إبليس عن السجدة، و إسكان آدم و حواء الجنة، و نهيهما عن أكل شجرة من أشجارها، و وسوسة إبليس لهما، و أكلهما من الشجرة المنهية، و هبوطهما، من المرموزات المذكورة في كتب الأمم السالفة و تواريخهم كما ذكرنا سابقا فالمراد بآدم في العالم الصغير: اللطيفة العاقلة الآدمية، الخليفة على الملائكة الأرضيين، و على الجنة و الشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس و الطبع، المسجودة للملائكة، المخلوقة من الطين، الساكنة في جنه النفس الإنسانية، و هي أعلى من مقام النفس الحيوانية، المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذي يلي النفس الحيوانية زوجته المسماء بحواء، لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية. و المراد بالشجرة المنهية: مرتبة النفس الإنسانية التي هي جامعة لمقام الحيوانية و المرتبة الآدمية. و المراد بالحيه و اختفاء إبليس بين لحيها: القوة الواهمة؛ فإنها لكونها مظهرا لإبليس، تسمى بإبليس في العالم الصغير، و وسوسته تزيينها ما لا حقيقة له للجنب الأيسر من آدم المعبر عنه بحواء. و هبوط آدم و حواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية. و هبوط الحيه و ذريتهما: عبارة عن تنزيلهما عن مقام التبعية لآدم؛ فإن إبليس لما كان الواهمة أحد مظاهره كان رفعتها رفعتة، و شرافتها باستخدام آدم لها شرافته، و هبوط الواهمة كان هبوطا له، و إذا أريد بالشجرة: النفس الإنسانية ارتفع الاختلاف من الأخبار؛ فإن النفس الإنسانية شجرة لها أنواع الثمار و الحبوب، و أصناف الأوصاف و الخصال؛ لأن الحبوب و الثمار و إن لم تكن بوجوداتها العينية الدانية الموجودة فيها لكن الكل بحقائقها موجودة فيها، فتعيين تلك الشجرة بشيء من الحبوب و الثمار، و العلوم و الأصناف بيان لبعض شئونها. روى في تفسير الإمام: أنها شجرة علم محمد و آل محمد الذين آثرهم الله تعالى دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: «لا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. شجرة العلم؛

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٨

فإنها لمحمد و آله دون غيرهم، و لا يتناول منها بأمر الله إلا هم، و منها ما كان يتناوله النبي صلى الله عليه و سلم، و على، و فاطمة، و الحسن، و الحسين بعد إطعامهم المسكين، و اليتيم، و الأسير، حتى لم يحسوا بجموع، و لا عطش و لا تعب، و لا نصب و هي شجرة تميزت من بين سائر الأشجار بأن كلا منها إنما يحمل نوعا من الثمار، و كانت هذه الشجرة و جنسها تحمل البر، و العنب، و التين، و العناب، و سائر أنواع الثمار و الفواكه و الأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون .. فقال بعضهم بره، و قال آخرون: هي الشجرة التي من تناول منها بإذن الله ألهم علم الأولين و الآخرين من غير تعلم، و من تناول بغير إذن الله خاب مراده و عصي ربه. (أقول) آخر الحديث يدل على ما قالته الصوفية من أن السالك ما لم يتم سلوكه، و لم ينته إلى مقام الفناء، و لم يرجع إلى الصحو بعد المحو باذن الله، لم يجز له الاشتغال بالكثرات و مقتضيات النفس زائدا على قدر الضرورة. و شجرة علم محمد و آل محمد إشارة إلى مقام النفس الجامع لكمالات الكثرة و الواحدة «١» اهـ.

و في سورة البقرة أيضا عند ما تكلم عن قصة هاروت و ماروت يقول:

(اعلم أن أكثر قصص سليمان كان من مرموزات الأوائل، و أخذها المتأخرون بطريق الأسمار، و أخذوا منها ظاهرها الذي لا يليق بشأن الأنبياء، و ورد عن المعصومين تقرير ما أخذوه أسمارا نظرا إلى ما رمزها الأقدمون، و أمثال هذه ورد عنهم تكذيبها نظرا إلى ظاهر ما أخذها العوام، و تصديقها نظرا إلى ما رمزوا إليه ... «٢» اه.

و في أول سورة النساء عند قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... الآية» يقول: (لما كان تلك الحكاية و أمثالها من مرموزات الأوائل من الأنبياء و الأولياء و الحكماء التابعين لهم، و حملها العوام من الناس على ظاهرها، اختلفت الأخبار في تصديقها و تقريرها و تكذيبها و توهينها فإن في كيفية خلقه آدم و تناسلها و تناكحها و تناكح أولادها، (١) ج ١ ص ٤٥-٤٦

(٢) ج ١ ص ٦٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢١٩

و كذا في قصة هاروت و ماروت، و قصة داود، و غير ذلك، اختلفا كثيرا في الأخبار، و اضطرابا شديدا، بحيث يورث التحير و الاضطرابات لمن لا خبرة له، حتى يكاد يخرج من الدين، و لكن الراسخين في العلم يعلمون أن كلا من معادن النبوة و محال الوحي صدر، و لا اختلاف فيها و لا اضطراب، جعلنا الله منهم، و الله ولي التوفيق «١» اه.

و في سورة (ص) عند قوله تعالى «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ... الآيات من (٣٤) إلى تمام القصة» يقول بعد ما ذكر قصة الفتنة: (و أمثال هذه، و أمثال روايات سلب ملك سليمان، و جلوس الشيطان على كرسيه، و كون ملكه منوطا بخاتم، ليس إلا- من الرموز التي رمزها الأقدمون، ثم أخذها العامة بصورها الظاهرة، و مفاهيمها العامية، و نسبوا إلى الأنبياء ما لا يليق أن ينسب إلى مؤمن، فكيف بكامل أو نبى؟) «٢» اه.

الإمامة:

و المؤلف يقرر في تفسيره إمامة علي رضي الله عنه، و خلافته للنبي صلى الله عليه و سلم بدون فصل، فمثلا في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَثِقْتُكُمْ بِاللَّهِ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» نجده يؤكد أن الآية نازلة في حق علي رضي الله عنه، و أن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة، و يرد على من يخالف ذلك بما يظهر له من الدليل، كما بين السر الذي من أجله ذكر علي بوصفه دون اسمه. و ذلك حيث يقول: (قد ورد من طريق العامة و الخاصة أن الولاية نازلة في علي حين تصدق في المسجد في ركوع الصلاة بخاتمة أو بخلته التي كان قيمتها ألف دينار. و مفسر و العامة لا ينكرون الأخبار في كونها نازلة في أمير المؤمنين و قد نقلوا بطرق عديدة من روايتهم أنها نزلت في علي، و مع ذلك يقولون في تفسيرها: إن الآية نزلت بعد النهي عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء، (١) ج ١ ص ١٩٠.

(٢) ج ٢ ص ١٧٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٠

و لا شك أن المراد بالأولياء هناك أولياء المعاشرة، بقرينة المقابلة، و بقرينة جمع المؤمنين، و لو كان المراد أمير المؤمنين و بالولاية ولاية التصرف لصرح باسمه، أو لقال: و الذي آمن بالإفراد، و هم غافلون عن أنه لو صرح باسمه، أو أفرد المؤمن- مع الاتفاق في أنها نازلة في أمير المؤمنين- لأسقطوه تمويها على عابدي عجلهم، فنقول: نسبة الولاية أولا إلى الله، ثم إلى رسول صلى الله عليه و سلم و آله، ثم إلى الذين آمنوا، تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التي في قوله تعالى «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» «١» لأن ولاية الله ليست ولاية المعاشرة و لا ولاية الرسول؛ بقرينة العطف، و بما هو معلوم من الخارج، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقرينة العطف، و بقرينة عدم تكرار الولي، فإن المراد أن الولاية هاهنا أمر واحد مترتب في الظهور، فإن ولاية الرسول ليست شيئا سوى ولاية

الله، و ولاية الله تتحقق بولاية الرسول، فهكذا ولاية الذين آمنوا، فإنها ولاية الرسول صلى الله عليه و آله تظهر في ولاية الذين آمنوا على ما قاله الشيعة، و لو كان المراد ولاية المعاشرة كان أولياؤكم بلفظ الجمع أولى، و تقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة في حال الركوع يدل على أنها ليست ولاية المعاشرة، و إلا لكان جملة المؤمنين فيها سواء، و ليس كل المؤمنين متصفين بالصفات المذكورة، على أنه لا- خلاف معتدا في أنها نزلت في على و صورة الأوصاف خاصة به، و قوله: «الذين يقيمون الصلاة» بالمضارع إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم، يعنى حالهم استمرار إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة في حال الخضوع لله، لا في حال بهجة النفس، لأنهم «يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (٢) بخلاف الفاعل من قبل النفس فإن شأنه الارتضاء بفعله، و توقع المدح من الغير على فعله؛ لأن كل حزب من أحزاب النفس بما لديهم فرحون، و يحبون أن يحمدا على ما لم يفعلوا، فضلا عما فعلوا. و استمرار الصفات بحسب المعنى: لعلى و أولاده المعصومين بشهادة أعدائهم، و بحسب الصورة: (١) الآية (٦) من سورة الاحزاب

(٢) في الآية (٦٠) من سورة المؤمنون

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢١

ما كان أحد مصداقها إلا على نقلا عن طريق العامة و الخاصة. و وقع صدور الزكاة في الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة. و في نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب و الإتيان بأداة الحصر دلالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف، فإنها ثابتة لله ذاتا و لرسوله و لخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله، و ليس لأحد شركة فيها، و ليس المراد بها ولاية المعاشرة التي تكون بالمواضعه و الاتخاذ، و إلا لم يكن للحصر وجه، و كان اقتضاء المقابلة أن يقول:

بل أتم أولياء الله الخ، أو بل اتخذوا الله و رسوله و المؤمنين أولياء، و لأن المراد بها ولاية التصرف التي كانت بالذات لله قال في عكسه «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» إشعارا بأن الولاية السابقة هي ولاية التصرف و ليست لغير الله إلا قبولها، و من قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطا بالله و خلفائه، و من صار مرتبطا بالله صار من حزب الله، و من صار من حزب الله كان غالبا «فإن حزب الله هم الغالبون» و لو كان المراد بها المعاشرة لكان الأولى أن يقول: و من يتخذ الله، أو و من صار وليا لله، و الحاصل: أن في لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف، و أنها بعد الرسول ليست لجملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائنا من كان، متعدد أو منفردا، سواء قلنا نزلت في على أو لم نقل، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه، و نزلت الآية في حقه، و المراد بالذين آمنوا هاهنا، هم الموصوفون في الآية السابقة، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عين الأولى) (١)».

و في سورة المائدة أيضا عند قوله تعالى في الآية (٦٧) «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ .. الآية» نجده يدعى - كغيره من الإمامية- أن القراءة الصحيحة كانت «بلغ ما أنزل إليك من ربك في على» و يحمل التبليغ المأمور به النبي على ذلك فحسب، و يمنع

إرادة العموم، و يقيم الأدلة (١) ج ١ ص ١٢٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٢

على ذلك ردا على من يدعى العموم، و غرضه من ذلك كله إثبات إمامه على رضى الله عنه بنص القرآن الكريم) (١) اه.

الرجعة:

و المؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة، فلماذا نراه عند ما فسر قوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة البقرة «.. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول: (و هذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها و صارت كالضرورة في هذه الأمة. و قد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بها على ابن الكواء في إنكاره الرجعة) اه «٢».

تحريف القرآن:

و لما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف و التبديل فى القرآن، فإننا نجده عند ما يصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» يحاول أن يتخلص من هذا النص الذى يجب عليه فيقول: (و لا ينافى حفظه تعالى للذكر بحسب حقيقته التحريف فى صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع وقع فى الصورة المماثلة له كما قال: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (٣) و كما قال: «يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب و ما هو من الكتاب و يقولون هو من عند الله و ما هو من عند الله» (٤) اه «٥». (١) ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٧ و راجع ما كتبه على قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ج ١ ص ٢٠٦-٢٠٨.

(٢) ج ١ ص ٥٤.

(٣) فى الآية (٨٩) من سورة البقرة.

(٤) فى الآية (٨٧) من سورة آل عمران. و فى الأصل تحريف و حذف و خلط بين الآيتين.

(٥) ج ١ ص ٤٠١-٤٠٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٣

موقف المؤلف من الصحابة:

لم نلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا ما يدل صراحة على أنه يكفر أحدا من الصحابة، كما لاحظنا على ملا محسن فى تفسيره، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحيانا يقف من الآيات التى وردت فى شأن بعض الصحابة و ما لهم من الفضل موقفا يراد منه سلب هذا الفضل عنهم أو تقليل أهميته، و أحيانا ينسب إلى بعض الصحابة ما يكاد يكون تصريحاً منه بفسقهم أو كفرهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٤) من سورة آل عمران «... وَمِنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهَ الشَّاكِرِينَ» نراه يصرف لفظ الشاكرين عن عمومهم و يريد منه خصوص على و نفر معه فيقول: (و المراد بالشاكرين هاهنا: على و نفر يسير بقوا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم حين انهزم المسلمون) و هنا يروى رواية عليها دليل الوضع و سمته فيقول:

(روى عن الصادق: أنه لما انهزم المسلمون يوم أحد عن النبي صلى الله عليه و سلم انصرف إليها بوجهه و هو يقول: أنا محمد رسول الله؛ لم أقتل و لم أمت، فالتفت إليه فلان و فلان فقالا: الآن يسخر بنا أيضا و قد هزمنا، و بقى معه على و أبو دجانه رحمه الله، فدعاه النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا أبا دجانه انصرف و أنت فى حل من بيعتك، فأما على فهو أنا، و أنا هو. فتحول و جلس بين يدي النبي و بكى و قال: لا- و الله، و رفع رأسه إلى السماء و قال: لا- و الله، لا- جعلت نفسى فى حل من بيعتك، إنى بايعتك فألى من أنصرف يا رسول الله؟ إلى زوجة تموت؟ أو ولد يموت؟ أو دار تخرب و مال يفنى و أجل قد اقترب؟ فرق له النبي صلى الله عليه و سلم، فلم يزل يقاتل حتى قتل، فجاء به على إلى النبي فقال يا رسول الله .. أوفيت ببيعتى؟ فقال: نعم، و قال له النبي خيرا. و كان الناس يحملون على النبي صلى الله عليه و سلم الميمنة فيكشفهم على، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبي فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع، فجاء إلى النبي فطرحه بين يديه و قال: سيفى قد تقطع، فيومئذ أعطاه النبي ذا الفقار، و لما رأى النبي صلى الله عليه و سلم اختلاج ساقيه

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٤

من كثرة القتال، رفع رأسه إلى السماء و هو يبكى و قال: يا رب وعدتني أن تظهر رينك و إن شئت لم يعيك، فأقبل على إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال:

يا رسول الله. أسمع دويًا شديدًا، و أسمع: أقدم يا حيزوم، و ما أهم أضرب أحدا إلا سقط ميتا قبل أن أضربه، فقال: هذا جبريل و ميكائيل و إسرافيل و الملائكة، ثم جاء جبريل فوقف إلى جنب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا محمد ... إن هذه لهي المواساة، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: إن عليا مني و أنا منه، فقال جبريل: و أنا منكم .. الخ الحديث. و نزل «و سنجزى الشاكرين» (١) اه.

و مثلا نجد أن المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٤) و ما بعدها إلى آخر سورة الليل «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصِيلاها إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى * وَ سَيَجْزِيها الْآتِقَى * الَّذِي يُؤْتِي مالهٗ يَتَرَكَى * وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهٗ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهٗ الْأَعْلَى وَ لَسَوْفَ يَرْضَى يصعب عليه أن يعترف اعترافا جازما بأن الأتقى مراد به الصديق رضى الله عنه كما يقول المفسرون من أهل السنة، كما نراه حريصا على أن يكون على هو أولى الناس بهذا الشرف، و هذا التنويه الإلهي، فلهذا نراه يقول ما نصه: (إن كانت الآيات نزلت في رجل خاص فالمعنى عام، و الأصل فيمن أعطى و اتقى: على، و فيمن بخل و استغنى هو الثاني: و قيل المراد بمن أعطى: أبو بكر حيث اشترى بلالا في جماعة من المشركين و كانوا يؤذون فأعتقه، و المراد بالأشقى: أبو جهل و أمية ابن خلف «٢» اه. و في سورة النور عند قوله تعالى في الآية (١١) «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ... الآية» يقول: (قد نقل في تفاسير الخاصة و العامة أن الآيات نزلت في عائشة)، ثم يروى السبب المعروف لنا .. ثم يقول: (و نقل عن الخاصة أنها نزلت في مارية القبطية و ما رمتها به عائشة. روى عن الباقر أنه قال: (١) ج ١ ص ١٦٦.

(٢) ص ٣١٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٥

لما هلك إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه و سلم حزن عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم حزنا شديدا، فقالت له عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريح، فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا و أمره بقتله، فذهب على و معه السيف، و كان جريح القبطى فى حائط، فضرب على باب البستان، فأقبل إليه جريح ليفتح له الباب، فلما رأى عليا عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعا و لم يفتح باب البستان، فوثب على على الحائط، و نزل إلى البستان و اتبعه، و ولى جريح مدبرا، فلما خشى أن يرهقه صعده فى نخلة و صعده على فى أثره، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، و لا له ما للنساء، فانصرف على إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله إذا بعثتنى فى أمر أكون فيه كالمسماز المحمى فى الوبر أمضى على ذلك أم أتثبت؟ قال: لا بل تتثبت، قال: و الذى بعثك بالحق ما له ما للرجال و ما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذى صرف عنا سوء أهل البيت) «١» اه.

و فى سورة التحريم عند تفسيره لقوله تعالى فى أولها: «يا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ... الآيات» إلى آخر القصة. نراه يذكر سبب نزولها فيقول: (قال القمى و غيره: سبب نزول الآيات أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان فى بيت عائشة أو فى بيت حفصة، فتناول رسول الله صلى الله عليه و سلم مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، و أقبلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت: يا رسول الله فى يومى؟ و فى دارى؟ و على فراشى؟

فاستحى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسى، و أنا أفضى إليك سرا إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، فقالت: نعم ... ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنباك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، و أخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني بشيء عن حفصة و لا أثق بقولها، فاسأل (١) ج ٢ ص ٦٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٦

أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟

فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم..: قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السورة «وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ» يعني أظهره الله على ما أخبرت به و ما هموا من قتله و «عرف بعضه» أى خبرها و قال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ «و أعرض عن بعض» يعنى لم يخبرهم بما يعلمه مما هموا به من قتله اه «١»

عتاب النبي صلى الله عليه وسلم:

و يرى المؤلف- كغيره من الشيعة- أن ما ورد من الآيات مشتتاً على عتاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ أو على التهديد و الوعيد للنبي صلى الله عليه وسلم على فرض وقوع المعصية منه إنما هو من قبيل (إياك أعنى و اسمعى يا جارة) و الذى دفعه إلى ذلك، هو ارتفاعه بمقام النبوة عن أن يوجه إليه عتاب من الله، أو لوم و تهديد على فرض صدور المعصية.

فمثلاً- عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٧٤؛ ٧٥) من سورة الإسراء «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتِنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَوَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا* إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا». نجده يقول: .. و قد ورد فى الأخبار أن هذه الآية من قبيل إياك أعنى و اسمعى يا جارة و ورد أنها من فريه الملحدين، و لو كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم من غير كونه عن طريق إياك أعنى و اسمعى يا جارة، و لم تكن فريه لم يكن فيها ازدراء به صلى الله عليه وسلم بل يكون صدر الآية ازدراء بالملاحدين، لإشعاره بأنهم بالغوا فى فتنته، يعنى أنهم ما أهملوا شيئاً مما يفتن به، و لو كان المفتون غيرك و لم يكن الشيت (١) ج ٢ ص ٣٧٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٧

من الله لفتن، و ذيلها بيان امتنانه عليه بأن ثبته فى مثل هذا المقام) «١» اه.

و مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الكهف «وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. الآية) يقول ما نصه: (و هذا على إياك أعنى و اسمعى يا جارة) «٢» اه.

و مثلاً- عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس «عَبَسَ وَ تَوَلَّى* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ... الآيات إلى قوله «فأنت عنه تلهى» يقول ما نصه: (و قد استبعد بعض العلماء كون الآيات فى رسول الله، لبعده مقامه عن العبوس و التولى عن الأعمى، و علو مرتبته عن أن يصير معاتباً بمثل هذا العتاب. (أقول) لو كانت الآيات فيه و العتاب له لم يكن فيه نقص لشأنه، و لم يكن منافياً لما قاله تعالى فى حقه من قوله: (و إنك لعلى خلق عظيم «٣») فإن إقباله و إدباره، و عبوسه، و استبشاره، كان لله، فإن عبوسه إن كان لمنع الأعمى عن نشر دين الله، و إسماع كلماته لأعداء الله و أعداء دينه و تقريبتهم إلى دينه، لم يكن فيه نقص فيه و فى خلقه. و أما أمثال العتاب له صلى الله عليه وسلم فإنها تدل على تفخيمه و الاعتداد به، فإن كلها كانت بإياك أعنى و اسمعى يا جارة، فالخطاب و العتاب يكون لغيره لا له، و كذا نسبة الله زرية عيب العبوس و القول له يكون متوجهاً إلى غيره فى الحقيقة) اه.

الناحية الفقهية فى هذا التفسير:

إشارة

أما الناحية الفقهية فى هذا التفسير: فإنها تظهر فيه بمظهر التأثير بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التى يخالفون فيها من عداهم، غير أن المؤلف يطوى الكلام طياً، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية، و لا يشغل نفسه بكثرة (١) ج ١ ص ٤٢٩.

(٢) ج ١ ص ٤٢٧

(٣) الآية (٤) من سورة القلم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٢٨

الأدلة و البراهين، و لا بالدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفه، كما يفعل الطبرسى مثلا:

نكاح الكتابيات:

فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة (وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ .. الآية) يقول ما نصه: (قد اختلفت الأخبار و الأقوال فى نكاح النساء من أهل الكتاب، و كذا فى أن هذه الآية منسوخة بآية حرمة نكاح المشركات، و حرمة الأخذ بعصم الكوافر، أو ناسخه، و كذا فى الدوام و التمتع بهن. و قول النبى صلى الله عليه و آله: إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا، فأحلوا حلالتها و حرموا حرامها، ينفى كونها منسوخة) «١» اه.

المتعة:

و عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٤ من سورة النساء) «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» نجده يقول: (و فى لفظ الاستمتاع، و ذكر الأجور، و ذكر الأجل - على قراءة إلى أجل - دلالة واضحة على تحليل المتعة .. (و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به) من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئا من الفريضة (من بعد الفريضة) و فيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به. و عن الباقر: لا بأس بأن تزيدا و تزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجر آخر يرضى منها و لا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها .. و عدتها حيضتان (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) فحلل المتعة عن علم، و لغايات منوطة بالمصالح و الحكم) «٢» اه.

فرض الرجلين فى الوضوء:

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ مَسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ... الآية) يقول: («و أرجلكم» بالحر عطف على رءوسكم، و بالنصب على محل رءوسكم، و عطفه على وجوهكم مع جواز العطف على رءوسكم فى غاية البعد، غاية الأمر أنها فى هذا العطف محتملة مجملة كسائر أجزاء الآية محتاجة إلى البيان، و لم يكن رأينا مبينا للقرآن لاستلزامه الترجيح بلا مرجح، بل المبين: من نص الله و رسوله عليه، لا من نصبه لبيانه، فإن نصب شخص إنسانى لبيان القرآن و خلافة الرحمن ليس بأقل من نصب الأصنام لعبادة الأنام، أو العجل المصنوع للعوام، و تفصيل الوضوء و كفيته قد وصل إلينا مفصلا مبينا عن أئمتنا المعصومين من الله و رسوله، و قد فصله الفقهاء رضوان الله عليهم، فلا حاجة إلى التفصيل هاهنا) اه «١».

ميراث الأنبياء:

و المؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يورثون كما يورث سائر الناس، و لكننا نلاحظ عليه أنه لم يقف من الآيات التى استدلت بها علماء مذهبه على أن الانبياء يورثون المال موقفا فيه تلك المغالاة و هذا التطرف كالذى وقفه الطبرسى منها، بل نجده عند

رؤية الله:

فهو ينكر جوازها و وقوعها، و يجرى تفسيره لآيات الرؤية على هذه العقيدة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة البقرة «وَ إِذِ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» نجده يقول ما نصه: (و ورد أنه سئل الرضا كيف يجوز أن يكون كلم الله موسى بن عمران لا- يعلم أن الله لا- يجوز عليه الرؤية حتى يسأل هذا السؤال؟ فقال إن كلم الله علم أن الله منزه عن أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه و قربه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله كلمه و قربه و ناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته و كان القوم سبعمائة ألف، فاختار منهم سبعين ألفا، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلا لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل، و صعد موسى إلى الطور و سأل ربه أن يكلمه و يسمعهم كلامه «و كلمه الله و سمعوا كلامه من فوق و أسفل و يمين و شمال و وراء و أمام- لا أن الله أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثا منها- حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم و استكبروا و عتوا، بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فماتوا، فقال موسى: ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم و قالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم؛ لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم و بعثهم. فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو و نعرفه حق معرفته، فقال موسى: يا قوم ...

إن الله لا يرى بالأبصار و لا كيفية له، و إنما يعرف بآياته و يعلم بأعلامه،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٢

فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بنى إسرائيل، و أنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن آخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» (١) قال «لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ» و هو يهوى «فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» بآية «جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَيْعَقًا فَلَمَّا أَبْصَرَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ» يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي «و أنا أول المؤمنين» منهم بأنك لا ترى (٢) اه.

و في سورة القيامة عند قوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَازِرَةٌ» يقول: «إلى ربها ناظرة» أي إلى ربها المضاف لظهور الولاية و صاحبها في ذلك اليوم، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره، أي إلى آثاره ناظرة، أو منتظرة إلى ثواب ربها. روى عن أمير المؤمنين في حديث «ينتهي أولياء الله بعد ما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه و يشربون منه فتبيض وجوههم إشراقا، فيذهب كل قذى و وعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يشبههم قال: فذلك قوله تعالى «إلى ربها ناظرة» و إنما يعنى بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه تبارك و تعالى. و في الخبر: و الناظرة في بعض اللغات هي المنتظرة، أ لم تسمع إلى قوله «فناظرة بم يرجع المرسلون» ... أي منتظرة (٣) اه

و من المسائل التي يخالف فيها المعتزلة: السحر:

فهو يقول به و يعترف بحقيقته و يوضح لنا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠٢) من سورة البقرة «وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ... الآية» (١) هي و ما بعدها في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

(٢) ج ١ ص ٥٤:

(٣) ج ٢ ص ٢٩٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٣

حقيقه السحر و كيفيه تأثيره في المسحور و ذلك حيث يقول (... و السحر اسم لقول أو فعل أو نقش في صفحه يؤثر في عالم الطبع تأثيرا خارجا عن الأسباب و المعتاد، و ذلك التأثير يكون بسبب مزج القوى الروحانية مع القوى الطبيعية، أو بتسخير القوى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسخر الساحر، و هذا أمر واقع في نفس الأمر ليس محض تخيل كما قيل ... و تحقيقه أن يقال: إن عالم الطبع واقع بين الملكوت السفلى و الملكوت العلوى كما مر، و أن لأهل العالمين تصرفا بإذن الله عالم الطبع بأنفسهم، أو بأسباب من قبل النفوس البشرية، و أن النفوس البشرية إذا تجردت من علائقها، و صفت من كدورتها بالرياضات الشرعية أو غير الشرعية، و ناسبت المجردات العلوية أو السفلية، تؤثر بالأسباب أو بغير الأسباب في أهل العالمين بتسخيرها إياهم، و جذبها لهم إلى عالمها، و توجيههم في مرادتها شرعية كانت أو غير شرعية. و إذا كان التأثير كان من أهل العالم السفلى تسمى أسبابه سحرا، و قد يسمى ذلك التأثير الأثر الحاصل به سحرا، و إذا كان من أهل العالم العلوى يسمى ذلك التأثير و الأثر الحاصل به معجزة و كرامه، و قد تتقوى في الجهة السفلية أو العلوية فتؤثر بنفسها من دون حاجة إلى التأثير في الأرواح، و يسمى ذلك التأثير و الأثر أيضا سحرا و معجزة. فالسحر هو السبب المؤثر في الأرواح الخبيثة الذى خفى سببته، أو تأثير تلك الأرواح و آثارها في عالم الطبع بحيث خفى مدركها، ثم أطلق على كل علم و بيان دقيق فلما يدرك مدركه، و يطلق على العالم بذلك العلم اسم الساحر، و منه «يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ» على وجه .. فيستعمل على هذا فى المدح و الذم) اه «١».

و فى الآية (٤) من سورة الفلق نجده يعترف أيضا بالسحر و يروى أن الرسول سحر بيد لبيد بن الأعصم و ذلك حيث يقول: («و من شر النفاثات فى العقد» أى من شر النفوس اللاتى يعقدن على الشعور و الخيوط، و ينفثن (١) ج ١ ص ٦٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٤

فيها، و يسحرن الناس بها. أو النساء اللاتى يفعلن ذلك ... ثم ساق حديث سحر الرسول صلى الله عليه و سلم). اه «١».

و هناك مسائل أخرى يوافق فيها المعتزلة، و مسائل أخرى يخالفهم فيها و يوافق أهل السنة، و لا أطيل بذكرها بعد أن ذكرت نموذجا من كل طائفة، و من أراد الرجوع إليها فليرجع إلى تفسيره للآيات التى تتعلق بهذه المسائل.

هذا .. و لا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيرا ما يهتم فى بعض المواضع بالمسائل النحوية، فتراه يذكر الأعراب التى فى الآية، كما يهتم فى بعض النواحي بالقراءات و إن كان يعتمد فى كثير من الأحيان ما نسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها، كما نراه يذكر بعض النكات التى ترجع إلى نظم القرآن و أسلوبه ...

و بالجملة، فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، و تأثيره بعقيدته الشيعية، و نزعته الصوفية الفلسفية فى فهمه لكتاب الله تعالى ...

و الكتاب مطبوع فى جزئين كبيرين، و موجود بدار الكتب المصرية. (١) ج ٢ ص ٣٣٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٥

٢- الإمامية الإسماعيلية (الباطنية) و موقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الإسماعيلية و عقائدهم و أعراضهم:

إشارة

قلنا: إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، و قلنا: إنهم يلقبون بالباطنية أيضا لقولهم باطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخله في عداد طوائف المسلمين. وإنما هي في الأصل جماعة من المجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لا تقهر، وأبصروا عزة المسلمين فتية لا تغلب ولا تكسر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلام والمسلمين، و رأوا أنه لا سبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة الحديد والنار، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرار، فسلكوا طريق الاحتيال الذي يوصلهم إلى مآربهم وأهوائهم؛ ليطفئوا نور الله بأفواههم، و خفى على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره و لو كره الكافرون.

مؤسسو هذه الطائفة:

ظهرت بوادر هذه الفتنة، و نبتت نواة هذه الطائفة: زمن المأمون، و بيد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القداح، و كان مولى جعفر بن محمد الصادق. و محمد بن الحسين المعروف بذيذان، و جماعة كانوا يدعون (الجهار بجة «١»). اجتمع هؤلاء النفر، فوضعوا مذهب الباطنية و أسسوا تواعده، فلما (١) أى العلماء الأربعة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٦

خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، و استطار خطرها إلى كثير من بلاد المسلمين. و ما زالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام «١».

احتياهم على الوصول إلى أغراضهم:

رأى المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف في وجه المسلمين صراحة و جهارا، فاحتالوا- كما قلنا- على الوصول إلى مآربهم بشتى الحيل، فاندسوا بين المسلمين باسم الحذب على الإسلام، و تلفعوا بالتشيع و الموالات لأهل البيت، و تظاهروا بالورع الكاذب، و جعلوا ذلك كله ستارا لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد و الاضطراب في العقيدة و السياسة. و من المحزن أن يدعى هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، و يصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء و أئمة مستورين، فيلقى هذا الادعاء رواجاً و قبولاً من أناس ضعفاء أغمار، غرهم التباكي على آل البيت و التحزن عليهم، فتحررت أحقاد دفينه، و ثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها و خطرها.

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم و هدم مذهب المسلمين، و رسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر و الخديعة، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتيال على الطعام بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة و الإلحاد، و تدرجوا في وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب و هي ما يأتي:

مراتب الدعوة عند الباطنية:

أولاً- الذوق: و هو تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة أولاً؟

و لذلك منعوا من إلقاء البذر في السبخة. أى دعوى من ليس قابلاً لها، و منعوا التكلم في بيت فيه سراج .. أى في موضع فيه فقيه أو متعلم.

ثانياً- التأنيس: باستمالة كل أحد من المدعويين بما يميل إليه بهواه و طبعه، (١) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ و التبصير في الدين ص ٨٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٧

من زهد، و خلاعة، و غيرهما، فإن كان يميل إلى زهد زينه في عينه و قبح نقيضه، و إن كان يميل إلى الخلاعة زينها و قبح نقيضها، و

من رآه الداعي مائلا إلى أبي بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ في تأويل الشريعة، ولهذا استصحب النبي أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه في الغار تأويل الشريعة... وهكذا حتى يحصل له الأئمة به ثالثا- التشكيك في أصول الدين وأركان الشريعة: كأن يقول للمدعو:

ما معنى الحروف المقطعة في أوائل السور؟ ولم تقضى الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولم يجب الغسل من المنى دون البول؟ ولم تختلف الصلوات في عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثا، وبعضها أربعا؟... وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم.

رابعا- الرباط: وهو أمران: أحدهما: أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشى لهم سرا، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» (١) وقوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» (٢) و ثانيهما: حوالته على الإمام في حل ما أشكل عليه من الأمور التي ألقيت إليه؛ فإنها لا تعلم إلا من قبل الإمام.

خامسا- التديس: وهو دعوى موافقة أكابر الدين و الدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم.

سادسا- التأسيس: وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه.

سابعا- الخلع: وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية. (١) في الآية (٩١) من سورة النحل.

(٢) الآية (٧) من سورة الأحزاب.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٨

ثامنا- السلخ: وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون في تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم (١).

فأنت ترى أن الباطنية توسلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين في عقائدهم، و كأنهم رأوا أن القرآن ما دام موجودا بين المسلمين و محفوظا عندهم يرجعون إليه في أمور الدين، و يهتدون بهديه كلما نزلت بهم نازلة، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله، و صرف ألفاظه و آياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يجدون في تأويل نصوص القرآن كما يحبون.

و على أي وجه يروونه هدمًا لتعاليم الإسلام، الذي أصبح قذى في أعينهم.

و شجى في حلو قههم!!

و حرصا منهم على أن تكون دعواهم في تأويل القرآن مقبولة لدى من يستخفونه .. قالوا: (إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون، و دينه المخزون، و كشف لهم بواطن هذه الظواهر، و أسرار هذه الأمثلة، و إن الرشد و النجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن و أهل البيت؛ و لذلك قال عليه السلام- لما قيل: و من أين يعرف الحق بعدك؟- «ألم أترك فيكم القرآن و عترتي؟» .. و أراد به أعقابه، فهم الذين يطلعون على معاني القرآن (٢).

و لكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجًا عند عقلاء المسلمين، و لم يجد غباوة في عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين... و كيف يمكن أن يجد رواجًا عند هؤلاء أو غباوة من أولئك و قد علموا و تيقنوا بأن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه ينقل عن صاحب الشريعة، و من غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، و سقط به منفعة كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق (١) راجع المواقف ج ٨ ص ٣٨٩-٣٩٠، و الفرق بين الفرق ص ٢٨٢ و ما بعدها.

(٢) فضائح الباطنية ص ٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٣٩

به، و الباطن لا ضبط له. بل تتعارض فيه الخواطر، و؟؟؟ تنزله على وجوه شتى.

إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم:

و مع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن بابا للوصول إلى أغراضهم، فإننا لم نقف لهم على كتب مستقلة في تفسير كتاب الله تعالى، و لم نسمع أن واحدا منهم كتب تفسيراً جامعاً للقرآن كله، سورة سورة، و آية آية، و لعل السر في ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية، و لو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات و صعاب لا يستطيعون تذليلها، و لا يقدرّون على التخلص منها:

و كل الذي وجدناه لهم في تفسير القرآن أو تأويله على الأصح: إنما هو نصوص متفرقة في بطون الكتب، تعطينا إلى حد ما صورة واضحة، و فكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم، و مبلغ تهجمهم على القول فيه بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير. و أرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين اثنين:

الأول: موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم:

و الثاني: موقف الباطنية المتأخرين منه أيضا:

و نريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية و من قاربهم في الزمن، و بالتأخرين: الباطنية و البهائية. و سنوضح عند الكلام عن الباطنية و البهائية السبب الذي من أجله عددناهم من قبيل الباطنية.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٠

موقف متقدمي الباطنية من تفسير القرآن الكريم

إشارة

علمت أن الغرض الأول الذي تقوم عليه دعوة الباطنية و تتركز فيه: هو العمل على هدم الشرائع عموماً، و شريعة الإسلام على الخصوص؟ فكان لزاماً عليهم و قد قاموا يحاربون الإسلام - أن يعملوا معاول الهدم في ركن الإسلام المكين، و هو القرآن الكريم، و قد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معولاً أصلب و لا أقوى على تنفيذ غرضهم من معول التأويل و الميل بالآيات القرآنية إلى غير ما أراد الله.

كتب عبيد الله بن الحسن القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجناني رسالة طويلة جاء فيها (... و إنني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن و التوراة و الزبور و الإنجيل، و تدعوهم إلى إبطال الشرائع، و إلى إبطال المعاد و النشور من القبور، و إبطال الملائكة في السماء، و إبطال الجن في الأرض، و أوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدوم العالم) «١» اه.

رأى هذا الزعيم الباطني أن التشكيك في القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، و رأى أنه أهل الباطن جميعاً فقالوا: (للقرآن ظاهر و باطن، و المراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، و نسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، و المتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب، و باطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره، و تمسكوا في ذلك بقوله تعالى في الآية (١٣) من سورة الحديد «فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُبُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» «٢». (١) الفرق بين الفرق ص ١٨٠، و بمثل و هذه العبارة يستدل أبو منصور البغدادي على أنهم دهيون

(٢) المواقف ج ٨ ص ٣٨٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤١

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم، ثم اعجب ما شاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية

الكريمة على قاعدتهم التي قعدوها؟؛ والست أدري ما صلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية الواردة في شأن من شئون الآخرة ينساق إلى فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء.

من تأويلات الباطنية القدامى:

إشارة

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم في شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتي:

(الوضوء) عبارة عن موالة الإمام: و (التيمم) هو الأخذ من المأذون عند عيبة الإمام الذي هو الحجبة: و (الصلاة) عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بديل قوله تعالى في الآية (٤٥) من سورة العنكبوت «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» و (الغسل) تجديد العهد ممن أفشى سرا من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى (الاحتلام) و (الزكاة) عبارة عن تركية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين. و (الكعبة) النبي.

و (الباب) على و (الصفا) هو النبي: و (المروءة) على. و (الميقات) الإيناس.

و (التلبية) إجابة الدعوة. و (الطواف بالبيت سبعا) موالة الأئمة السبعة.

و (الجنة) راحة الأبدان من التكاليف. و (النار) مشقتها بمزاولة التكاليف «١».

و تأولوا أنهار الجنة فقالوا (أنهار من لبن) أى معادن العلم ... اللبن العلم الباطن، يرتفع به أهلها، ويتغذون به تغذيا تدوم به حياتهم اللطيفة؛ فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم. (و أنهار من خمر) هو العلم الظاهر. (و أنهار من عسل مصفى) هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة «٢».

كذلك تحد الباطنية يرفضون المعجزات، و لا يعترفون بها للرسول، (١) الموافق ج ٨ ص ٣٩٠:

(٢) فضائح الباطنية للغزالي ص ١٣:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٢

و ينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحى من الله، بل و زادوا على ذلك فأنكروا أن يكون فى السماء ملك و فى الأرض شيطان، و أنكروا آدم و الدجال، و يأجوج و مأجوج، و لكنهم وجدوا أنفسهم امام آيات من القرآن تكذب دعواهم هذه، فتخلصوا منها بمبدئهم الذى ساروا عليه فى تفسيرهم و هو إنكار الظاهر و الأخذ بالباطن، و أولوا هذه الآيات بما يتفق و مذهبهم، فتأولوا (الملائكة) على دعواتهم الذين يدعون إلى بدعتهم. و تأولوا (الشياطين) على مخالفيتهم. و تأولوا كل ما جاء فى القرآن من معجزات الأنبياء عليهم السلام، فقالوا: (الطوفان) معناه طوفان العلم ... أغرق به المتمسكون بالسنة.

و (السفينة) حزره الذى تحصن به من استجاب لدعوته. و (نار إبراهيم) عبارة عن غضب نمرود عليه لا النار الحقيقية. و (ذبح إسحاق) معناه أخذ العهد عليه. و (عصا موسى) حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب (و انفلاق البحر) افتراق علم موسى فيهم عن أقسام. و (البحر) هو العلم و (الغمام الذى أظلمهم) معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم و إفاضة العلم عليهم. و (الجراد و القمل و الضفادع) هى سؤالات موسى و التزاماته التى سلطت عليهم. (و المن و السلوى) علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى. و (تسييح الجبال) معناه تسييح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين. و (الجن الذين ملكهم سليمان بن داود) باطنية ذلك الزمان. و (الشياطين) هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة. و (عيسى) له أب من حيث الظاهر، و إنما أراد بالأب المنفى: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، و زعموا- لعنهم الله- أن أباه يوسف النجار. و (كلامه فى المهد) اطلاعه فى مهد القالب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة و الخلاص من القالب. و (إحياء الموتى من عيسى) معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن. و (إبراهة الأعمى) عن عمى الضلالة. و (الأبرص) عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين. و

(إبليس و آدم) عبارة عن أبي بكر و علي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلی و الطاعة له فأبى و أستكبر. و (الدجال) أبو بكر،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٣

و كان أعورا، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن و (يأجوج و مأجوج) هم أهل الظاهر) «١».

بل بالغوا فقالوا: (إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس و الحيل، طلبا للزعامة بدعوى النبوة و الإمامة) «٢».

هذا .. و إن مما زعمته الباطنية: أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها و تأولوا في ذلك قوله تعالى في الآية (٩٩) من سورة

الحجر: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» و حملوا اليقين على معرفة التأويل.

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات و الأخوات و جميع المحارم، بحجة أن الأخ أحق بأخته، و الأب أولى بابنته ... و هكذا: و لست

أدرى على أى وجه تأولوا آية النساء التي حرمت ذلك، و منعه منعاً باتاً.

و يقول القيرواني في رسالته التي أرسلها إلى سليمان بن الحسن:

(... و ينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء و مناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى ابن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعته موسى؛ ثم رفعها

بتحريم الأحد بدلا من السبت، و أباح العمل في السبت، و أبدل قبله موسى بخلاف جهتها ..

و بذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، و لا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سأله عن الروح فقال: «الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» «٣» لما

لم يحضره جواب المسألة، و لا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن عليها برهان سوى المخرفة بحسن الحيلة و الشعوذة، و لما لم

يجد المحق في زمانه عنده برهانا قال له. «لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» «٤» و قال لقومه: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» «٥»

لأنه كان صاحب الزمان في وقته (...). (١) فضائح الباطنية ص ١٣

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٩

(٣) في الآية (٨٥) من سورة الإسراء

(٤) الآية (٢٩) من سورة الشعراء

(٥) في الآية (٢٤) من سورة النازعات

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٤

ثم قال في آخر هذه الرسالة: (... و ما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء و ليس له

زوجه في حسننها، فيحرمها على نفسه و ينكحها من أجنبي، و لو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته، و بنته من الأجنبي، ما وجه ذلك إلا

أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات و خوفهم بغائب لا يعقل، و هو الإله الذي يزعمونه، و أخبرهم بكون ما لا يروونه أبدا من البعث من

القبور، و الحساب، و الجنة، و النار، حتى استعدهم بذلك عاجلا و جعلهم له في حياته، و لذريته بعد وفاته خولا، و استباح بذلك

أموالهم بقوله «لا- أَشَيْئُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» «١» فكان أمره معهم نقدا و أمرهم معه نسيئة، و قد استعجل منهم بذل

أرواحهم و أموالهم على انتظار موعود لا يكون، و هل الجنة إلا هذه الدنيا و نعيمها؟ و هل النار و عذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع

من التعب و النصب في الصلاة و الصيام و الجهاد و الحج).

ثم قال لسليمان بن الحسن في هذه الرسالة: (... و أنت و إخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، و في هذه الدنيا ورثتم نعيمها

و لذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئا لكم ما نلتهم من الراحة عن أمرهم اه «٢»).

و من جملة تأويلاتهم الباطلة التي يتوصلون بها إلى هواهم النفسى، و مآربهم الشخصى، أنهم بعد أن يلقوا على المدعو ما يشككونه

به، و تتطلع إلى معرفته من جهتهم نفسه، يقولون له: لا- نظهره إلا- بتقديم خير عليه، فيطلبون مائة و تسعة عشر درهما من السيكة

الخالصة. و يقولون: هذا تأويل قوله تعالى:

«وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» «٣» فالحاء و السين و النون و الألف إذا جمع عددها بحساب الجمل يكون مبلغه مائة و تسعة عشر «٤»).

(١) فى الآيه (٣٧) من سورة الشورى:

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٨١-٢٨٢

(٣) فى الآيه (٢٠) من سورة المزمل

(٤) التبصير فى الدين ص ٨٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٥

و من ذا الذى قال إن القرآن يخضع فى تفسيره و فهم معانيه إلى حساب الجمل؟ .. اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرف أو زنديق يريد أن يضل الناس و يحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله!! ..

كذلك نجد الباطنية يحرضون على نفى وجود الإله الحق، و النبى المرسل محمد صلى الله عليه و سلم؛ ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكاليف، فنراهم يقولون للمبتدئ: (إن الله خلق الناس و اختار منهم محمدا صلى الله عليه و سلم، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أ تدرى من محمد؟ فيقول نعم ... محمد رسول الله، خرج من مكة، و ادعى النبوة، و أظهر الرسالة، و عرض المعجزة. فيقول له: ليس هذا الذى تقول إلا- كقول هؤلاء الحمير- يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام- إنما محمد أنت، فيستعبد السامع و يقول: لست أنا محمدا.

فيقول له: الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (١) و هؤلاء الحمير يقولون: من مكة .. فيقول له الغر الغمر: على أى معنى تقول أنا محمد؟

فيقول، خلقك و صورك خلقه محمد، فالرأس بمنزلة الميم، و اليدان بمنزلة الحاء، و السرء بمنزلة الميم، و الرجلان بمنزلة الدال، و كذلك أنت على أيضا، عينك هى العين، و الألف اللام هى، و الفم الياء (٢).

و بهذا يوهمه أنه هو محمد الذى جاء ذكره فى القرآن، أما ما يدعى من وجود رسول اسمه محمد، فهذا ظاهره غير مراد، و لأجل أن يوهمه أيضا بأنه لا إله موجود على الحقيقة، و ما جاء فى القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة، نجده يقول للمبتدئ: إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك، و يؤولون عليه قوله تعالى: «فَلْيَتَّبِعُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ» (٣).

و يقولون: الرب هو الروح و البيت هو البدن. (١) الآيه (١٢٨) من سورة التوبة

(٢) التبصير فى الدين ص ٨٧-٨٨

(٣) الآيه (٣) من سورة قريش.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٦

و لقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق، و أنه هو الذى كلم موسى بقوله «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» (١) و فى هذا يروى لنا البغدادي صاحب الفرق بين الفرق قصة رجل دخل فى دعوة الباطنية، ثم وقفه الله لتركها و الرجوع لرشده .. يحكى هذا الرجل قصته للبغدادي فيقول: (إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد و كل من ادعى النبوة: كانوا أصحاب نواه ميس و مخاريق، أحبوا الزعامة على العامة، فخدعواهم بنيران، و استعبدوهم بشرائعهم- قال الحاكي للبغدادي .. ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال: ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» ثم قال: فقلت: سخرت عينك: تدعونى إلى الكفر برب قديم خالق للعالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبيه إنسان مخلوق، و تزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذبا، فالذى زعمت أنه أرسله أكذب، فقال: إنك لا تفلح أبدا، و ندم على إفشاء أسرارها إلى و تبت من بدعتهم (٢) اه.

فانظر إليهم- لعنهم الله- كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، و يدعون أنه كلام إليهم المزعوم محمد بن

إسماعيل!! .. أليس هذا غلوا في الإلحاد؟ وإغراقا في الكفر والعناد؟.

و بين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، و هو يكشف لنا عن نواياهم، و يفضح أسرارهم و خباياهم. و هو لمحمد بن مالك اليماني أحد علماء القرن الخامس الهجري، و لا أريد أن أطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازي القوم «و لكن اكتفى بذكر نبذة من الكتاب. ضمنها المصنف ما شهدته بنفسه من ضلالهم و إضلالهم، و ذلك حين اندس بينهم متظاهرا بدخوله في زميرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه (١) في الآية (١٢) من سورة طه

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٨٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٧

عنهم من أباطيل و أضاليل، و إنما اخترت هذه النبذة بالذات؛ لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل، و عن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل!! ...

مقالة محمد بن مالك اليماني في الباطنية:

يقول محمد بن مالك اليماني: (أول ما أشهد به و أشرحه، و أبينه للمسلمين و أوضحه، أن له- يريد على بن محمد الصليحي زعيم باطنية اليمن في وقته- نوابا يسميهم الدعاة المأذونين، و آخرين يلقبهم المكليين، تشبيها لهم بكلاب الصيد؛ لأنهم ينصبون للناس الحبال، و يكيدونهم بالغوائل، و ينقبضون عن كل عاقل، و يلبسون على كل جاهل، بكلمة حق يراد بها الباطل، و يحضونه على شرائع الإسلام، من الصلاة و الزكاة و الصيام، كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه، فيقيم أكثر من سنه يمعنون به، و ينظرون صبره، و يتصفحون أمره، و يخدعونه بروايات عن النبي صلى الله عليه و سلم محرفة، و أقوال مزخرفة، و يتلون عليه القرآن على غير وجهه، و يحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك و الركون و القبول و الإعجاب بجميع ما يعلمونه، و الانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر و لا ترض لنفسك و لا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، و تدبر القرآن و رموزه، و اعرف مثله و ممثوله، و اعرف معاني الصلاة و الطهارة، و ما روى عن النبي صلى الله عليه و سلم بالرموز و الإشارة، دون التصريح في ذلك و العبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لممثولات محجوبة، فاعرف الصلاة و ما فيها، وقف على باطنها و معانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه. فيقول: عم أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» (١) فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، و كذلك الصلاة، من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، و أيضا فالصلاة و الزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان، و الزكاة زكاتان، و الصوم صومان، و الحج حجان، و ما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا و له باطن، يدل على ذلك: (١) في الآية (٤٣) من سورة البقرة و في مواضع أخرى من القرآن.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٨

«وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْبَاطِنِ وَ بَاطِنَهُ» (١) و «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ» (٢) ألا- ترى أن البيضة لها ظاهر و باطن؟ فالظاهر ما تساوى به الناس، و عرفه الخاص و العام، و أما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (٣) و قوله «وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» (٤) و قوله «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ» (٥) فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

و (الصلاة) و (الزكاة) سبعة «٦» أحرف دليل على محمد و على صلى الله عليهما، لأنهما سبعة أحرف، فالمعنى بالصلاة و الزكاة ولاية محمد و على، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة و آتى الزكاة، فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة و القرآن و سنن النبي صلى الله عليه و سلم، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق و الموافقة؛ لأن مذهب الراحة و الإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، و يبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قرب قربانا يكون لك سلما و نجوى، و نسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، و يضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثني عشر دينارا، فيقول ذلك الداعي: يا مولانا .. إن عبدك فلانا قد

عرف الصلاة و معانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، و هذا نجواه اثنا عشر دينارا، فيقول: اشهدوا أنى قد وضعت عنه الصلاة و يقرأ له: «و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم» (٧) فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة و يهتفون و يقولون: الحمد لله الذى وضع عنك «وزرك الذى أنقض ظهرك» (٨) .. (١) فى الآية (١٢٠) من سورة الأنعام.

(٢) فى الآية (٣٣) من سورة الأعراف.

(٣) فى الآية (٤٠) من سورة هود

(٤) فى الآية (٢٤) من سورة ص

(٥) فى الآية (١٣) من سورة سبأ

(٦) لعله عددهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين.

(٧) فى الآية (١٥٧) من سورة الأعراف

(٨) فى الآية (٣) من سورة الانشراح

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٤٩

ثم يقول له ذلك الداعى - الملعون - بعد مدة: قد عرفت الصلاة و هى أول درجة، و أنا أرجو أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات، فاسأل و ابحث، فيقول: عم أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر و الميسر الذين نهى الله تعالى عنهما أبا بكر و عمر لمخالفتهم على على، و أخذهما الخلافة دونه، فأما ما يعمل من العنب و الزبيب و الحنطة و غير ذلك فليس بحرام؛ لأنه مما أنبت الأرض، و يتلو عليه «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» (١) إلى آخر الآية. و يتلو عليه: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا» (٢) إلى آخر الآية، و الصوم: الكتمان، فيتلو عليه «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» (٣) يريد كتمان الأئمة فى وقت استتارهم خوفا من الظالمين، و يتلو عليه: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» (٤) فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام لقال: فلن أطعم اليوم شيئا، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغيانا و كفرا، و ينهمك إلى قول ذلك الداعى الملعون؛ لأنه أتاه بما يوافق هواه، و النفس أمارة بالسوء .. ثم يقول له:

ادفع النجوى تكن لك سلما و وسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثنى عشر دينارا، فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا عبدك فلان، قد عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل فى رمضان، فيقول له: قد وثقت و أمنتته على سرائرنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعت عنه ذلك، ثم يقيم بعد ذلك مدة، فيأتيه ذلك الداعى الملعون فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات، فاعرف الطهارة ما هى، و معنى الجنابة ما هى فى التأويل، فيقول له: فسر لى ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب. و أن المؤمن طاهر بذاته، و الكافر نجس لا يطهره الماء و لا غيره، و أن الجنابة هى موالاة الأضداد أضداد الأنبياء و الأئمة، فأما المنى فليس بنجس؛ منه خلق الله الأنبياء، (١) فى الآية (٣٢) من سورة الأعراف.

(٢) فى الآية (٩٣) من سورة المائدة.

(٣) فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٤) فى الآية (٢٦) من سورة مريم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٠

و الأولياء، و أهل طاعته، و كيف يكون نجسا و هو مبدأ خلق الإنسان، و عليه يكون أساس البنيان؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط و البول أوجب؛ لأنهما نجسان، و إنما معنى «وَ إِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا» (١) معناه: و إن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا و اعرفوا العلم الذى هو حياة الأرواح، كالماء الذى هو حياة الأبدان، قال تعالى: «وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» (٢) و قوله: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ» (٣) فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، و يوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره

ذلك الداعي أن يدفع اثني عشر ديناراً، و يقول: يا مولانا عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقته و هذا قربانه إليك، فيقول: اشهدوا أني قد حلت له ترك الغسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعي الملعون:

قد عرف ربع درجات، و بقي عليك الخامسة، فاكشف عنها؛ فإنها منتهى أمرك و غاية سعادتك، و يتلو عليه فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين «٤» فيقول له: اللهم إياها و دلتى عليها، فيتلو عليه «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصيرك اليوم حديد» «٥» ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا؟ فيقول: و كيف لي ذلك؟ فيتلو عليه «و إن لنا للآخرة والأولى» «٦» و يتلو عليه «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» «٧» و الزينة هاهنا: ما خفى على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون (١) في الآية (٦) من سورة المائدة

(٢) في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء

(٣) الآيتان (٥، ٦) من سورة الطارق

(٤) في الآية (١٧) من سورة السجدة

(٥) الآية (٢٢) من سورة ق.

(٦) الآية (١٢) من سورة الليل

(٧) في الآية (٣٢). من سورة الأعراف

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥١

بذلك، و ذلك قوله «و لا يُبَدِّينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ» «١» و الزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه «و حور عِين كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ» «٢» فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة؛ لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب، و أهل العقول دون الجهال؛ لأن المستحسن من الأشياء ما خفى؛ و لذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة، و سميت الجن جناً لاختفائهم عن الناس، و المجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، و الترس المجن لأنه يستتر به، فالجنة هاهنا: ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم و لا عقول، فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكاً، و يقول لذلك الداعي الملعون. تلتطف في حالي، و بلغني إلى ما شوقنتي إليه، فيقول: ادفع النجوى اثني عشر ديناراً تكون لك قرباناً و سلماً، فيمضى به فيقول: يا مولانا ... إن عبدك فلان قد صحت سريرته، و صفت خبرته و هو يريد أن تدخله الجنة، و تبلغه حد الأحكام، و تزوجه الحور العين، فيقول له:

قد وثقت و أمنت؟ فيقول: يا مولانا قد وثقت و أمنت و خبرته فوجدته على الحق صابراً، و لأنعمك شاكراً، فيقول: علمنا صعب مستصعب لا- يحمله إلا نبي مرسل، أو ملك مقرب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فإذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه و بينها، فيقول: سمعا و طاعة لله و لمولانا، فيمضى به إلى بيته، فيبيت مع زوجته، حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب و قال:

قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع و يدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعي الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا، فادفع قربانك، فيدفع اثني عشر ديناراً و يصل به و يقول: يا مولانا .. إن عبدك فلان يريد أن يشهد المشهد الأعظم، و هذا قربانه، حتى إذا جن الليل، و دارت الكؤوس و حميت الرؤوس، و طابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوى الملعونة (١) في الآية (٣١) من سورة النور.

(٢) الآيتان (٢٢، ٢٣) من سورة الواقعة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٢

حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، و أطفئوا السراج و الشموع، و أخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده، ثم يأمر المقتدى زوجته

أن تفعل كفعل الداعي الملعون و جميع المسيحيين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه و لا- تكفروه على ما أطلق من وثاقتكم، و وضع عنكم أوزاركم، و حط عنكم آصاركم، و وضع عنكم أثقالكم، و أحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالككم. «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (١).

قال محمد بن مالك- رحمه الله تعالى- هذا ما اطلعت عليه من كفرهم و ضلالتهم، و الله تعالى لهم بالمرصاد، و الله تعالى على شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعت عليه من فعلهم و كفرهم و جهلهم، و الله يشهد على بجميع ما ذكرته عالم به، و من تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله، و لعنة اللاعنين، و الملائكة، و الناس أجمعين، و أخزى الله من كذب عليهم، و أعد له جهنم و ساءت مصيرا، و من حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرج من حول الله و قوته إلى حول الشيطان و قوته ... «٢» اه.

و بعد ... أ لست ترى معنى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس و لا يستند إلى برهان، و إنما هي أوهام و أباطيل، غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين، و ليدخلوهم فى زمرة الملحدين و حزب الشياطين؟

أعتقد ذلك، و أظن أن سؤال- يدور بخلد القارئ هو: كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض و الاختلاف بين بعض المعانى التى نقلت عنهم للفظ الواحد؟ أ ليس هذا دليلا- على عدم صحة كل ما ينسب إليهم؟ .. و الحق أن السؤال وارد، و لكنه مدفوع بما ذكره الغزالي من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتاع و الاحتيال، فذلك تختلف كلمتهم، و يتفاوت نقل المذهب عنهم «٣». (١) الآية (٣٥) من سورة فصلت.

(٢) كشف أسرار الباطنية ص ١١-١٦.

(٣) فضائح الباطنية ص ٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٣

موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

تمهيد: فى بيان انتشار الباطنية فى البلاد الآن و تعدد ألقابهم:

قلنا إن الباطنية يعرفون بأسماء عدة، و قلنا إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا فى كثير من بلاد المسلمين، و الآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، و يعرفون بالبهرة أو الإسماعيلية، و زعيمهم آقاخان الزعيم الإسماعيلي المعروف. و يوجدون فى بلاد الأكراد و يعرفون (بالعلوية) حيث يقولون:

على هو الله. و يوجدون فى تركيا و يعرفون (بالبكداشية) و فى مصر جماعة من البكداشية من أصل ألبانى يقيمون فى الجبل المعروف بالمغاورى «١». و يوجدون فى بلاد العجم و يعرفون (بالبايية). و يوجدون فى فلسطين و يعرفون (بالبهائية) و منهم جماعات فى بلاد متفرقة «٢»، و توجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى القاديانية، و هى أحدث فرقهم عهدا، و أقربها ظهورا. هذه الفرق التى تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا- بد أن يكون لكل منها رأى فى التأويل الباطنى للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها و مشربها.

و لا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم و عقائدهم.

غير أننا لم نقف على شىء من ذلك، اللهم إلا شيئا يسيرا للبايية و البهائية .. (١) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر و ذلك لما ظهر من فساد حالهم و سوء فعالهم.

(٢) و من محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ٥٢، طرد البهائيين من مصر، و الاستيلاء على مركزهم العام، و تحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، و قد تم ذلك فى حفل عام سنة ١٩٦١ م.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٤

لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة «١» و موقفها من كتاب الله تعالى، لأن ما وصلنا عنها- وإن قل- فهو يعطينا فكرة و لو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

و اعتمادنا في كل ما نكتب: على بعض الكتب التي وصلتنا عنهم، و على ما نشر في المجلات العلمية من البحوث التي تدور حولهم، فنقول و بالله التوفيق: (١) البائية و البهائية في واقع الأمر طائفة واحدة، نسبت إلى الباب زعيمها الأول فقيل لها بائية، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثاني، فقيل لها بهائية كما هو موضح بعد.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٥

البائية و البهائية

كلمة إجمالية عن نشأة البائية و البهائية:

البائية:

نسبة إلى الباب، و هو لقب ميرزا علي محمد، الذي ابتدع هذه النحلة، و إليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الأول لها.

و البهائية:

نسبة إلى بهاء الله، و هو لقب ميرزا حسين علي، الزعيم الثاني للبائية، و إليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الثاني لها. و أصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا علي محمد، الملقب بالباب، و المولود في سنة ١٢٣٥ هجرية، توفي عنه والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه، فربى في حجر خاله ميرزا سيد علي، و نشأ معه في مدينة شيراز بجنوب إيران، و اشتغل معه بالتجارة، و لما بلغ سنة الخامسة و العشرين ادعى أنه الباب- و الباب عند الشيعة معناه نائب المهدي المنتظر- و كان ادعاؤه هذا في سنة ١٢٦٠ هجرية، و ما لبث أن وصلت هذه الدعوة إلى طائفة من الجاهلين فصدقوا بها، و تابعوا عليها، و كان عدد من صدقه في أول الأمر ثمانية عشر رجلاً، فسامهم بكلمة (حي) لأن عدد حرفيها بحساب الجمل ثمانية عشر، ثم أمر أتباعه هؤلاء بالانتشار في إيران و بلاد العراق؛ يبشرون به و بدعوته، و أوصاهم بكتمان اسمه حتى يظهره هو بنفسه. و لما حج و فرغ من أعمال الحج أعلن دعوته في المجمع الكبير فاشتهر اسمه، و ذاعت دعوته، فثارت عليه طوائف المسلمين، و قاموا في سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

و قد عقد بعض الولاة بين العلماء و بين الباب مناظرات أظهرت ما في دعوته من غواية و ضلال، فكفره بعض العلماء، و رماه بعض آخر منهم بالجنون، فاعتقله والي في سجن شيراز، ثم في سجن أصفهان، ثم في طهران، ثم في أذربيجان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٦

و في عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابين و مخالفهم، و قامت بينهم حرب طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فعلق في ميدان مدينة تبريز، و قتل رمياً بالرصاص، و ذلك في سنة ١٢٦٥ هجرية.

و بعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم في شأن من ينوب عنه، و ظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة، من قبيل النبوة، و الوصاية، و الولاية. و أمثالها.

و ظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨ هجرية انتقاماً لزعيمهم الباب، و لما خاب سعيهم و فشلوا في هذه المؤامرة، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابين، و تسوقهم إلى التحقيق، فقتل من قتل، و نفى من نفى، و كان من بين زعمائهم في هذا الوقت- وقت الاضطهاد- ميرزا حسين علي الملقب فيما بعد ب (بهاء الله).

(بهاء الله)

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هجرية، و كان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة في وقته، فلما قام الباب و اشتهر أمره صدقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابين و كثرت جماعتهم، و لما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هجرية، و هي محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قبض على بهاء الله و سجن نحو أربعة أشهر، ثم أفرج عنه و أبعده إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هجرية، و مكث بها اثني عشر عاما، يدعو الناس إلى نفسه، و يزعم أنه هو الموعود به الذي أخبر عنه الباب، و كان يشير إليه بلفظ (من يظهره الله) و هناك تجمع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابين، و تسموا حينئذ بالبهايين، و وقعت بينهم و بين شيعة العراق فتنة كادت تفضي إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية في ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة، فأرسل إليها و مكث بها نحو من أربعة أشهر، ثم نفى إلى أدرنة «١» و مكث بها نحو من خمس سنوات، ثم نفى (١) وقع بين أتباع البهاء و أتباع أخيه يحيى الملقب بصيح أزل- و كان ممن رفض دعوى أخيه. و أتباعه يعرفون بالأزلية- فتنة في أدرنة، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة فنفت البهاء و أتباعه إلى عكا، و نفت يحيى و أتباعه إلى قبرص.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٧

منها إلى عكة من بلاد الشام سنة ١٢٨٥ هجرية، و بقي بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هجرية، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس المولود سنة ١٨٤٤ م و المتوفى سنة ١٩٢١ م و الملقب، (عبد البهاء) فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، و يتصرف فيه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتباع البهاء فانشقوا عليه، و التف فريق منهم حول أخيه الميرزا علي، و ألفوا كتبا في الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء. «١»

الصلة بين عقائد البائية و عقائد الباطنية القدامى:

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريبا، فإننا نجد لها ليست بالفرقة المحدثه في عقائدها و تعاليمها، بل هي في الحقيقة و نفس الأمر وليدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمة، و آراء فلسفية، و نزعات سياسية. ثم درجت تحذو حذو الباطنية الأول، و ترسم خطاهم في كل شيء، و تهذى في كتاب الله، فتأولته بمثل ما تأولوه: لتصرف عنه قلوبا تعلقت به و نفوسا اطمأنت إليه. و الذي يقرأ تاريخ الباطنية الأول، و يطلع على ما في كتبهم من خرافات و أباطيل، ثم يقرأ تاريخ البائية و البهائية، و يطلع على ما في كتبهم من خرافات و أباطيل، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح الباطنية حلت في جسم ميرزا علي، و ميرزا حسين علي، فخرجت للناس أخيرا باسم البائية و البهائية.

تقوم دعوة قداماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، و ينفذون إلى عقول العامة بإظهارهم الحب و التشيع، بل و الانتساب إلى آل البيت، ثم يصلون إلى أهوائهم و مآربهم بصرفهم القرآن إلى معان باطنية لا يقبلها العقل، و لا تمت إلى الدين بسبب، و على هذا الأساس قامت دعوة البائية و البهائية، و بمثل هذه الوسيلة وصلوا إلى أغراضهم و أهوائهم، و إليك ما يوضح ذلك: (١) لخصنا هذا البحث التاريخي من مقال لأبي الفضائل الإيراني منشور بمجلة المقتطف الجزء التاسع، السنة العشرين. و من مقال السيد محمد الخضر حسين منشور بمجلة نور الاسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) العدد الخامس من السنة الأولى.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٨

أولا: في الباطنية من يدعى النبوة لنفسه أو يدعيها لغيره، و ميرزا علي الملقب بالباب يدعى أنه رسول للناس من قبل الله تعالى، و له كتاب اسمه (البيان) ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى. و قد جاء في رسالته بعث بها الباب إلى العلامة الآلوسي صاحب التفسير المعروف، يدعو فيه إلى الإيمان به، (إنني أنا عبد الله، قد بعثني بالهدى من عنده) و سمي في هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال: (و

من لم يدخل في دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا في الإسلام) «١».

ولا نعلم ما إذا أجاب به الآلوسى على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم رأيه في هذه الطائفة عند ما تعرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة الأحزاب «ما كان مُحَمَّدٌ أباً أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» وذلك حيث يقول: (وقد ظهر في هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبايئة، لهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم في سلك ذوى العقول، وقد كان يتمكن عرقهم من العراق لو لا هممة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق، حيث خذلهم - نصره الله - وشتت شملهم، و غضب عليهم - رضى الله تعالى عنه - و أفسد عملهم. فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيرا، و دفع عنه في الدارين ضيما و ضيرا «٢».

و كذلك ادعى زعيمهم الثانى الملقب ببهاء الله: أنه رسول من عند الله، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، و بين أيدينا كتاب بهاء الله، و يطلق عليه اسم (الكتاب) قرأنا فيه فوجدناه يقول:

(لعمري إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذى أنطق الأشياء بذكره و ثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتر المختار «٣»).

(لعمري ما أظهرت نفسى، بل الله أظهرنى كيف أراد، إنى كنت كأحد من العباد، و راقدا على المهاد، مرت على نسائم السبحان، و علمنى علم ما كان. (١) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ٩٨

(٢) روح المعاني ج ٢٢ ص ٣٩

(٣) الكتاب ص ٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٥٩

ليس هذا من عندى بل من لدن عزيز عليم. و أمرنى بالنداء بين الأرض و السماء، بذلك ورد على ما ذرفت به دموع العارفين. ما قرأت ما عند الناس من العلم، و ما دخلت المدارس، فاسأل المدينة التى كنت فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين «١».

(قل قد أنى المختار، فى ظل الأنوار، ليحيى الأكوان، من نفحات اسمه الرحمن، و يتحد العالم، و يجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء «٢»).

و يرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكاما خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل الصوم تسعة عشر يوما من شروق الشمس إلى غروبها، و عين لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى. بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم (النيروز) على الدوام، و فى كتاب البيان (...)

أيام معدودات. و قد جعلنا النيروز عبدا لكم بعد إكمالها «٣».

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، و يقرر ذلك فى كتابه فيقول (لو كان القديم هو المختار عندكم، لما تركتم ما شرع فى الإنجيل؟

بينوا يا قوم .. لعمري ليس لكم اليوم من محيص. إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله، و من قبله الروح، و من قبله الكليم. و إن كان ذنبى إعلاء كلمة الله و إظهار أمره، فأنا أول المذنبين. لا أبدل هذا الدين بملكوت السموات و الأرضين «٤»).

و قرر البهاء أن الدين قسمان. عملى و روحانى، فالقسم الروحانى و هو مظاهر الألوهية و النبوة، غير قابل للتبديل. و القسم العملى، و هو المتعلق بالصور و الأشكال الخارجية، قابل للتغيير. و على هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات فى اليوم و الليلة، و جعل قبلتهم فى الصلاة أين يكون هو!! و فى هذا (١) المرجع السابق ص ٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥.

(٣) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ٩٩.

(٤) كتاب بهاء الله ص ٣٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٠

يقول: (إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطرى الأقدس «١») و سوى بين الرجل و المرأة فى الحقوق الشرعية و السياسية، و قرر عقوبات مالية للزنى و السرقة و غيرهما، و منع الترسى، و حرم الزواج بأكثر من واحدة، و قيد لهم الطلاق و صعبه. و حجته فى هذا كله: أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالم. فلا بد من دين جديد يوافق هذا العصر .. عصر التقدم المادى العظيم. و هذا الدين الذى جاء به هو الذى يصلح فى نظره لمسايرة هذا العصر دون غيره «٢».

ثانيا: منع الحسن بن الصباح و غيره من زعماء الباطنية، العوام من دراسة العلوم، و الخواص من النظر فى الكتب المتقدمة. و فعل الباب مثل ذلك فحرم فى كتابه (البيان) التعليم و قراءة كتب غير كتبه، فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم، و ما فى أيديهم من كتب العلم ... و لكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته، ففسخ ذلك التحجير، و ذلك حيث يقول فى كتابه المسمى ب (الأقدس) (قد عفا الله عنكم ما نزل فى البيان من محو الكتب، و آذنا بكم بأن تقرأوا من العلوم ما ينفعكم «٣»).

ثالثا: من الباطنية من يدعى حلول الإله فى بعض الأشخاص، كالقراطة الذين يدعون حلول الإله فى إمامهم محمد بن إسماعيل. و نجد مثل هذه الدعوى متجلية فى بعض مقالات البائية، فهذا بهاء الله يقول فى الكتاب (لنا مع الله حالات نحن فيها هو، و هو نحن، و نحن نحن «٤») و هذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: (و قد أخبرنا بهاء الله بأن مجيء رب الجنود و الأب الأزلى، و مخلص العالم الذى لا بد منه فى آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه فى (١) رسائل الإصلاح ج ٣ ص ٩٩ (٢) انظر مقال أبى الفضائل فى المقتطف العدد التاسع من السنة العشرين، و انظر المحاضرة التى ألقاها عبد العزيز نصحى عن البهائيين بدار جمعية الهدايا الاسلامية.

(٣) رسائل الإصلاح ج ٣ ص ١٠٠.

(٤) الكتاب ص ٣٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦١

الهيكل البشرى، كما تجلى فى هيكل عيسى الناصرى، إلا أن تجليه فى هذه المرة أتم و أكمل و أبهى، فعيسى و غيره من الأنبياء هيئوا الأفتدة و القلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم) «١» يريد بهذا: أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على ما يزعم. و هذا أبو الفضل الإيرانى أحد دعواتهم يقول: (.....

فكل ما توصف به ذات الله و يضاف و يسند إلى الله من العزة، و العظمة، و القدرة و العلم، و الحكمة، و الإرادة، و المشيئة، و غيرها من الأوصاف، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره، و مطالع نوره، و مهابط و حيه، و مواقع ظهوره «٢») و مثل هذا كثير فى كلام زعمائهم و دعواتهم.

رابعا: يدعى الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، و يحصرون مدارك الحق فى أقواله. و البهائية يقولون هذا القول و يشبونه فى كتبهم.

يقول بهاء الله فى الكتاب (يسند القائم ظهره إلى الحرم، و يمد يده المباركة، فترى بيضاء من غير سوء، و يقول: هذه يد الله، و يمين الله، و عين الله، و بأمر الله. أنا الذى لا يقع عليه اسم و لا صفة، ظاهرى إمامة، و باطنى غيب لا يدرك «٣»).

و قد عرفت أن البائية و البهائية يعبرون عن الإمام المعصوم بمن سيظهره الله، و يزعمون أنه هو الذى يعرف تأويل ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

خامسا: من مبادئ قدماء الباطنية التفرس، و على هذا المبدأ منعوا التكلم بآرائهم فى بيت فيه سراج أى فقيه أو متعلم. و البهائية يسرون على هذا المبدأ و إليك ما يثبت ذلك.

أرسل إلى أبي الفضائل الإيراني بعض إخوانه كتابا يرجوه فيه أن يرد على مقال كتبه جرجس صال الإنجليزي بإمضاء هاشم الشامي، و المقال يتضمن (١) رسائل الاصلاح ج ٢ ص ١٠٠.

(٢) المرجع نفسه

(٣) الكتاب ص ٨٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٢

توجيه الاعتراضات على فصاحة القرآن الكريم، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك في رسالته أرسل بها إلى صاحبه يقول فيها: (... إن هناك موانع جمّة، أعظمها وأشدّها مانع كبير لا يستسهل العاقل تذليل صعوباته، ولا يتسّم النبيه متن صهواته، حيث إن قلوب الذين اكتفوا من الإسلام باسمه، و من القرآن برسّمه، تغذت في مدة مديدة، و أزمّنه غير وجيزة بقشور المطالب، و ألفت سفاسف المسائل حتى بعدت عن لباب الكتاب، و جهلت حقيقة معاني الخطاب، فلو كشفنا عن حقائق الإشارات، و أظهرنا المعاني المقصودة من ظواهر العبارات، فطلعت صور الحقائق المقصورة في قصر الآيات، و تهللت وجوه المعاني المستورة في خدور الاستعارات، لندفع تلك الردود و الاعتراضات، و نظهر بطلان تلك الإيرادات و الانتقادات، تثور أولا أحقاد جهلائنا، و يرتفع نعيب سفهائنا، و ينادون بالويل و الثبور، و يثيرون الأحقاد الكامنة في الصدور...) ثم يقول لصاحبه في آخر الرسالة (... لتعلم حق العلم أنني ما نسيت و لم أكره صفة من صفاتك، و لا- خلة من خلالك، و لكن- و الحق يقال- إنك نسيت وصية روح الله الواردة في سفر متى «لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنازير» حيث تجاهر بجواهر الأسرار و معالي المعاني، عند من لا يستحق أن تخاطبه و تلاففه، و تجالسه و تؤانسه، فكيف أنه يكون مستودع الحكمة الإلهية، و الأسرار الربانية، فتمسك بالحكمة، و كن على جانب عظيم من الفطنة «١»).

و يقول في رسالته أرسلها إلى الشيخ فرح الله زكي الكردي أحد أتباعهم في مصر (... و اعلم يا حبيبي أنه سيدخل عليكم كثيرون، و يتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث، و يظهرن السلم و الوفاق، و هم أهل النفاق و أصل الشقاق، و مقصودهم معرفة أهل الإيمان، و اضطهاد أصحاب الإيقان، كما تصرح و تنادي آي الفرقان: منها قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ (١) رسائل أبي الفضائل ص ١٢٦-١٢٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٣

بَيِّنْهُمْ سُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ... إلى آخر الآيات «١» فتحكم الآية المباركة أنه لا بد من دخول أهل النفاق على أصحاب الوفاق، للاستطلاع و الاستراق، فلا يغرنك تحببهم و ترفقهم، و لا يخدعنك ملاينتهم و تملقهم، فإن التهور و التعجيل يوجب الندم و الافتضاح، و التروى يكفل النجاح و الفلاح. و من الحكم الماثورة (العجلة من الشيطان، و التأني من الرحمن «٢»).

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح: أن البائية و البهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة في تعاليمها و معتقداتها، و إنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الديني، و سيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن- علاوة على ما سبق- أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول، و يترسمون خطاهم في تحريفهم لكتاب الله، و العبث بآياته!! (١) الآيات (١٣، ١٤، ١٥) من سورة الحديد.

(٢) رسائل أبي الفضائل ص ١٣٨-١٣٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٤

موقف البائية و البهائية من تفسير القرآن الكريم

إشارة

لم تحل عقائد البائية و البهائية بينهم و بين الاعتراف بالقرآن الكريم، و لم يمنعمهم موقفهم الشاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد

على دعاوهم الباطلة، و مذاهبهم الفاسدة؛ تمويها على العامة، و تغريرا بعقول الأعمار الجهلة.

أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السنة:

و لم يكن في وجوههم قطرة من الحياة تمنعهم من التنديد بتفاسير علماء أهل السنة و تحقيرها، فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيراني، نجده في رسالته أرسلها لصديق له، يعيب على تفاسير أهل السنة فيقول: (... و لقد يدهش الإنسان و يتحير يا حبيبي من تعاليمهم الباطلة، و تفاسيرهم المضحكة، فإن أجبنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود على الأرض المقدسة في هذه الأيام الأخيرة، قابلناهم في بيروت، و سافرنا، معهم إلى الأرض الفيحاء مدينة حيفا، أخبرونا بما يتحير منه الأريب و يدهش منه اللبيب، كيف تقدمت كلمة الله في تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة، من النفوس الجاهلة الخادعة؟

أليس ذلك من عظيم قدرة الله و شديد قوته؟ و سطوع آياته و ظهور بيناته؟ ... «١»

يعيب أبو الفضائل تفسير أهل السنة؛ لأنه يرى في زعمه أنه و أهل نحلته خير من يفهم القرآن، و يعلم ما فيه من أسرار و رموز، و يرى أنه و من شاكلة هم الراسخون في العلم، الذين يقفون على عجائب القرآن التي لا يدل عليها إلا باطنه، أما ما يعني به مفسرو أهل السنة من الظواهر فليس في زعمه من المعاني التي يرمى إليها القرآن، و في هذا يقول ما نصه: (... لو كان معاني آيات القرآن ما هو ظاهر يعرفه كل من يعرف اللغة العربية، و يتلذذ منه كل من له إلمام بالعلوم الأديبة، كيف يتم هذا القول- يريد قول رسول الله صلى الله

عليه (١) رسائل أبي الفضائل ص ٦٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٥

و سلم في شأن القرآن إنه لا تنقصى عجائبه- و كيف يصدق قول الله في الآية (٧) من سورة آل عمران «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» (١).

إنتاج الباطية و البهائية في التفسير، و مثل من تأويلاتهم الفاسدة:

و لكن هل وصل إلى أيدينا شيء من كتب هذه الطائفة في تفسير القرآن؟

لم نسمع و لم نقرأ أنهم ألفوا تفسيراً متناولاً للقرآن آية آية، و إنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسر سورة البقرة، و سورة يوسف، و سورة الكوثر، و لكن لم يصل إلى أيدينا شيء من ذلك، و كل ما وصل إلينا هو نبذ من تفسيره، و تفسير بعض أشياعه و دعواته، قرأناها في كتبهم أنفسهم، و في الكتب و المقالات التي كتبت عنهم، و هذه النبذ مع قلتها تصور لنا مقدار تهجمهم على تحريف القرآن الكريم، و الميل بنصومه إلى ما يرضى أهواءهم، و يشبع أطماعهم. و إليك بعض هذه التأويلات، لتقف بنفسك على مقدار هذيان القوم، و تلاعبهم بالقرآن و بالعقول!!

من تأويلات الباب:

فسر الباب سورة يوسف، فمشى فيها على طريقة التأويل الذي لا يقره الشرع و لا يقبله العقل، و لا يمكن أن يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين «٢» كما قبل.

و إليك بعض ما قاله الباب في تفسيره لسورة يوسف، لتقف على مقدار هذيانه، و تلاعبه بالنصوص القرآنية.

عند قوله تعالى في الآية (٤) «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» يقول ما نصه: (و قد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول، و ثمرة البتول، حسين بن علي بن أبي طالب مشهودا ... إذ قال حسين لأبيه يوماً: إني رأيت أحد عشر كوكبا (١) رسائل أبي الفضائل ص ٧٦.

(٢) البرسام بكسر الباء: علة يصحبها هذيان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٦

و الشمس و القمر رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سجادا ... و إن الله قد أراد بالشمس فاطمة، و بالقمر محمدا، و بالنجوم أئمة الحق في أم الكتاب معروفا، فهم الذين سيكون على يوسف بإذن الله سجدا و قياما «(١)».

و في قوله تعالى في الآية (٥) «قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصِبْ صُ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» يقول ما نصه: (إذ قال علي يا بني لا تخبر مما أراك الله من أمرك إخوتك ترحما على إلفهم، و صبرا لله العلي، و هو الله كان عزيزا حميدا. إن كنت تخبر من أمرك في بعض مما قضى الله فيك، فيكيدوا لك كيدا، بأن يقتلوا أنفسهم في محبة الله من دون نفسك الحق شهيدا، و إن الله لوجهك بدمك محمرا على الأرض بالحق على الحق صبيغا و إن الله قد شاء كما شاء أن يراك مخضبا شعرك من دمك، و نفسك على الأرض على غير الحق لدى الحق قتيلا. و جسمك على الأرض عريا. و إن الله شاء كما شاء بأن يرى بناتك و حريمك في أيدي الكافرين أسيرا ... «(٢)»).

و عند قوله تعالى في الآية (٨) «إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» يقول ما نصه: (... إذ قالوا حروف لا- إله إلا- الله. و إن يوسف أحب إلي أينا منا بما قد سبق من علم الله حرفا مستسرا بالسر مقنعا على السر محتجبا في سطر، غائبا في سر السر مرتفعا عما في الدنيا و أيدي العالمين جميعا. و إنا نحن عصبه فيما أراد الله في شأن يوسف النبي محمد العربي حول السطر مسطورا. و إن الله قد فضل أبانا بفضل نفسه و قدر الله سر المستسر من سر أمره بما في أيدي العالمين بالكشف المبين على أهل النار من سر (الباء) ضلالا ... إلخ «(٣)» اه. (١) مفتاح باب الأبواب ص ٣٠٩.

(٢) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٠.

(٣) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٧

من تأويلات بهاء الله:

و يرى بهاء الله أن ما ورد في القرآن من الصراط، و الزكاة، و الصيام، و الحج، و الكعبة، و البلد الحرام، و ما إلى ذلك، كله لا يراد به ظاهره و إنما يراد به الأئمة. و في هذا يقول في الكتاب: (قال أبو جعفر الطوسي: قلت لأبي عبد الله: أنتم الصراط في كتاب الله، و أنتم الزكاة، و أنتم الحج؟ قال:

يا فلان .. نحن الصراط في كتاب الله عز و جل، و نحن الزكاة، و نحن الصيام، و نحن الحج، و نحن الشهر الحرام، و نحن البلد الحرام، و نحن كعبة الله، و نحن قبلة الله، و نحن وجه الله «(١)»).

و في كتاب بهاء الله و العصر الجديد، ما يدل على أن البهائيين لا يعترفون بالبعث، و لا بالجنة و النار؛ حيث يفسرون يوم الجزاء و يوم القيامة بمجىء ميرزا حسين الملقب ببهاء الله قال في كتاب بهاء الله و العصر الجديد (و طبقا لتفسير البهائية، يكون مجىء كل مظهر إلهي عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجىء المظهر الأعظم بهاء الله: هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التي نعيش فيها) و قال: (ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية، بل هو يوم يتبدى بظهور المظهر؛ و يبقى بقاء الدورة العالمية «(٢)» و يقسر البهائية الجنة بالحياة الروحانية، و النار بالموت الروحاني، فقد جاء في كتاب بهاء الله و العصر الجديد (أن الجنة و النار في الكتب المقدسة حقائق مرموزة) فالجنة ترمز إلى حياة الكمال، و النار ترمز إلى حياة النقص، و لما كانت الحياة الروحية في نظر البهاء هي الإيمان به، و الموت الروحي هو تكذيب دعوته. فإنا نراه يقرر ذلك فيقول: (... منهم من قال: هل الآيات نزلت؟ قل: أي و رب السموات. قال: أين الجنة و النار؟ قل: الأولى لقائي، و الأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب «(٣)».) (١) الكتاب ص ٨٣.

(٢) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ١٠٣

(٣) كتاب بهاء الله ص ٩٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٨

من تأويلات عيد البهاء عباس:

كذلك نجد عبد البهاء، يتكلم عن النبوة و الوحي بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلدوا الفلاسفة فيقول: (الأنبياء مرايا تنبئ عن الفيض الإلهي، و التجلي الروحاني. و انطبعت فيها أشعة ساطعة من شمس الحقيقة، و ارتسمت فيها الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحسنی. ما ينطق عن الهوى إن هو إلا- وحي يوحى، فهم معادن الرحمة، و مهابط الوحي، و مشارق الأنوار، و مصادر الإرسال. و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين «١»).

و نجد قرّة العيون إحدى أتباع الباب، تدعى أنها الصور الذي ينفخ فيه يوم القيامة، و تقول: (إن الصور الذي ينتظرون في اليوم الأخير هو أنا «٢») و بين أيدينا رسائل أبي الفضائل، محمد بن رضا الجرفادقاني، المعروف بفضل الله الإيراني، أحد دعاة الباطنية المتعصبين، و كتاب الحجج البهية له أيضا، و فيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية، بما يتفق و مذهبه الباطل.

فمن ذلك مثلا- أنه يفسر الروح الأمين الذي ورد في القرآن بأنه الحقيقة المقدسة، ثم يعرفها فيقول: (هي غيب في ذاتها، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات، فلا توصف بأوصاف الماديات، و لا تذكر بخصائصها، و لا يطلق عليها الخروج و الدخول، و لا توصف بالتحيز و الحلول، و إنما هي حقيقة تنجلي في مظاهر أمر الله تعالى، عرشها قلوب الأصفياء، و مرآة تجليها صدور الأولياء، و إنما مثل طلوعها و إشراقها في النفوس القدسية كمثل انطباع الشمس في المرايا، فلا يقال: إن الشمس حلت في المرآة، و لا إنها دخلت فيها، بل و لا يقال: إنها عرضت عليها، بل يقال: إن الشمس تجلت في المرآة، و ظهرت منها و أشرقت، و انطبعت بها «٣») اه ... و هذا بعينه مذهب قدماء الباطنية و الفلاسفة. (١) خطابات و محادثات عبد البهاء.

(٢) المبادئ البهائية ص ٢١.

(٣) رسائل أبي الفضائل ص ٣٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٦٩

و من ذلك أيضا أنه فسر قوله تعالى في الآيتين (١٤٢، ١٤٣) من سورة الأعراف «وَإِعْيَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمِّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. الآية» تفسيراً باطنياً فقال: (المراد بالليل- كما سمعته مني مرارا- هو عبارة عن أيام غيبه شمس الحقيقة، و اليوم على حسب ما نزل في التوراة المقدس يحسب كل يوم واحد بسنة واحدة، و كان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر، و فر من فرعون و ملته إلى مدين، كان ابن ثلاثين، و أقام في مدين عشر سنوات يشتغل فيها برعى أغنام شعيب النبي عليه السلام، و كان في طي هذه المدة التي كانت كالليالي المظلمة، و الدياتجي الكالحة من ظلم الفراعنة، و أوهم الصابئة، مشتغلا بتهديب أخلاقه، و تطيب أعراقه، و تنقية فؤاده، و المناجاة مع ربه في وحدته و انفراده، فلما طاب خلقه، و تم خلقه، بعثه الله نبيا لهداية بني إسرائيل، و إنقاذهم من ذلك الويل. فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة، أقام موسى عليه السلام في أثنائها في مصر و مدين، و لا تنافي كلمة واعدنا هذا التفسير، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته، فإن أمثال هذه الكلمة كثيرا ما أطلقت على ما ألقى في الروح، و ألهم في القلب، حتى على الحيوانات، كما يدل عليه قوله تعالى: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا «١»». «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» ظاهر الآية المباركة يدل على أن موسى عليه السلام أخلف أخاه هارون حينما كان مع الشعب في البرية، كما هو مذكور في التواريخ، إلا أن التواريخ القديمة مظلمة جدا، حيث أن المؤرخين اعتمدوا في هذه المسائل على ما جاء في التوراة و سائر الكتب العتيقة، و لكننا أثبتنا في كتاب الدرر البهية ضعف هذا

المستند من حيث العلم، فيجوز أن يكون هارون مستخلفا عن موسى عليهما السلام؛ لحفظ الشعب أيام غياب موسى في مدين، و قد كان بنو إسرائيل يحافظون على التوحيد من لدن جدهم إبراهيم عليه السلام، فلما غاب موسى وضع بنو إسرائيل رسم عجل أبيس أحد معبودات المصريين (١) في الآية (٦٨) من سورة النحل.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٠

تزلفا إلى فرعون و قومه، فكأنهم تجنسوا بالجنسية المصرية، و اعتنقوا الديانة الوثنية، فلما رجع موسى عليه السلام و رآهم على تلك الحال السيئة و العبادة الباطلة، أنكر ذلك على هارون، كما ذكره المؤرخون، إذ لا يعقل أن بنى إسرائيل على ما عرفوا بصلابه الرأى يتركون ديانتهم الموروثة بسبب تأخير موسى عن الرجوع إليهم عشر ليال ...

ثم قال تعالى «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَيْعَقًا فَلَمَّا أَبْصَرَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» اعلم- حفظك الله- أن علماءنا- سامحهم الله- اختلفوا في رؤية الله تعالى و عدم جواز رؤيته، فالشيعة و المعتزلة أنكروا جواز رؤيته، حيث تقتضى الجهة و المقابلة، و هى من مقتضيات الجسد و التحين و التحدد و أمثال ذلك، و هو منزه عن تلك الأوصاف، إذ لم يفهموا من لفظه الله سوى الذات، و لا شك أن الذات منزهة عن تلك الصفات. و أهل السنة و الجماعة جوزوا رؤية الله تعالى اعتمادا على صريح الآيات، و استنادا على صريح الأحاديث و الروايات، و كانوا على هذه العقيدة الصالحة إلى أواسط القرون الهجرية، فمزجوها بالعقائد الوهمية، حيث شاعت فى تلك القرون بينهم المسائل الكلامية، و المعارف الناقصة العقلية، فإنهم قالوا: إن رؤية الله تعالى جائزة و واقعة فى القيامة، إلا أنها ليست من قبيل الإحاطة بالنظر، فترى ذات الله تعالى من غير مواجهة، و مقابلة، و كيفية و إحاطة، مما يرجع إلى الوهم الصريح، و انكار الرؤية حقيقة. و أهل البهاء المستظليين بظلال الفرع الكريم المتشعب من الدوحة المباركة العليا، لما عرفوا- على حسب ما يعلمون من القلم الأعلى- أن ذات الله بسبب تجردها و تقديسها الذاتى لا تدرك، و لا توصف و لا تسمى باسم، و لا- تشارك بإشارة، و لا- يارجاع ضمير. و الأسماء و الأوصاف و كل ما يسند و يضاف إليها راجعة فى الحقيقة إلى مظاهرها و مطالعها و لذلك سهل عليهم فهم معنى أمثال تلك الألفاظ التى نزلت فى الكتب المقدسة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧١

و الصحف المطهرة؛ من قبيل رؤية الله تعالى، و لقاء الله و ظهور الله و مجيء الله و غيرها مما ليس بخاف على أهل التحقيق .. ثم اعلم أيها الحبيب اللبيب أن أهل البيان كثيرا ما أطلقوا فى عباراتهم لفظ (جل) على أكابر الرجال استعارة، سواء كانوا من صناديد الدولة و الملك؛ أو من قروم أهل العلم و الفضل كما أطلق أمير المؤمنين عليه السلام على مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر، لما اشتهر ذكر وفاته، و أخبر بمماته، و مقامه عليه السلام معلوم لديك فى الفصاحة و البراعة، و رسائله و خطبه مستغنية عن المدح و الإطراء بالطلاوة و الصناعة، و عبارته هذه مذكورة فى نهج البلاغة. و هذه استعارة فى غاية المناسبة و اللطافة حيث أن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد، لاستقرار أرض المعارف و الديانة، أو الأمة و الدولة، و كثيرا ما أطلقه داود عليه السلام فى مزاميره، و سائر الأنبياء من بنى إسرائيل فى كتبهم على الرب تعالى، كما جاء فى زمور (٤٢) (أقول لله صخرتى لما ذا نسيتنى) و جاء فى زمور (٧١) (كن لى صخرة و ملجأ أدخله دائما. أمرت بخلصى لأنك صخرتى و حصنى) إلى كثير من أمثالها، فإذا عرفت هذا، فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤيا الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله، كما يدل لك عليه قوله تعالى «أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً» إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم و الإيمان فى مكانهم من الإذعان و اليقين و لكنهم بسبب عدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين من العلم و المعرفة و اليقين فلا بد و أن تندك جبال وجودهم؛ و يتزعزع بنيان إذعانهم لمعبودهم حين لقائه فيتبدل إيمانهم بالكفر، و يقينهم بالشك، و إقبالهم بالإعراض، حيث لم تكمل بعد مراتب عرفانهم، و لم يبلغ إلى الدرجة العليا بنيان إيمانهم؛ فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقال الرؤية و اللقاء و لم يصعدوا إلى درجة الاستقرار و البقاء؛ فلا بد من ظهور الأنبياء، و قيام

الأصفياء، لتربية أشجار الوجودات البشرية، و تكمل معارفهم بالإيمان على ممر الدهور و طى العصور. حتى يبلغوا إلى درجة التمكّن و الاستقرار، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٢

و السماء، و يتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة و اللقاء. فخلاصة تفسير الآية الكريمة: أن موسى عليه السلام قال: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ؛ حيث أن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى فأجابهم الله تعالى بأنك لن تراني، لان بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد إلى درجة كمال وجودهم، و لم يستعدوا للقاء معبودهم، فانظر إلى جبال الوجودات، و مقادير استقرار الإيقان، فإن استقرار جبل الوجود في مقام إيمانه و إيقانه حين تجلى المعبود و لم يتزلزل و لم يتزعزع من مقامه حين الشهود، حينئذ استعد للقاء الله، و استحق للوقوف بين يدي الله، و التشرف برؤية الله. ثم تجلى الرب لأحد من تلك الأمة ممن كان من رؤساء الشعب، و من جبال الإيمان و الإيقان، فاندك وجوده، و تضعضع إيمانه، و اضطرب إيقانه فانصعق موسى من ذلك الامتحان، و عرف مقدار صعوبة مقام الاقتان، فندم على ما سأل الرؤية للظالمين، و رجع في الحين. و قال (سبحانك إنى تبت إليك و أنا أول المؤمنين «١»).

فانظر إليه كيف أول الأربعين ليلة بأنها أربعين سنة، و هى التى يبعث الأنبياء على رأسها، و كيف علل التعبير بلفظ ليلة بأن مدة الأربعين سنة كانت مظلمة كالليالي بظلم فرعون و ملئه، و كيف تخلص من منافاة لفظ واعدنا للمعنى الذى يهذى به و كيف اتهم التوراة و سائر الكتب العتيقة- بما فيها القرآن طبعاً كما سيأتى بعد- بأنها لا يعول عليها فى الروايات التاريخية، و كيف رمى المعتزلة و أهل السنة بعدم إصابة المعنى الحقيقى للرؤية الواردة فى الآية، و كيف ادعى أنه و من على شاكلته من البهائيين هم الذين أصابوا المعنى الحقيقى للآية، و كيف صرف لفظ الجبل عن معناه المراد إلى معنى لا يفهم من لفظ القرآن و سياق الآية!! .. و لست فى حاجة الى أن أبين ما فى هذا التفسير من خطأ و ضلال، فإن الحق بين واضح. «٢»

و فى كتاب الدرر البهية، صرح أبو الفضائل بأن قصص القرآن غير واقعة، و أنها فى الحقيقة رموز إلى معان خفية فقال (لا يمكن للمؤرخ أن يستمد معارفه (١) رسائل أبى الفضائل ص ٩٦-١٠٣ (٢) رسائل الإصلاح ج ٣ ص ٩٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٣

التاريخية من آيات القرآن «١» و قال: (إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأمم فى معارفهم التاريخية، و أقاصيصهم القومية، و مبادئهم العلمية؛ فتكلموا بما عندهم، و ستروا الحقائق تحت أستار الإشارات، و سدلوها عليها ستائر بليغ الاستعارات «١»).

و لا- شك أن هذه دعوى كاذبة يراد بها إدخال الشك فى قلوب المؤمنين، و إيهامهم بأن القرآن لا يعتمد على ظاهره، و إنما يعتمد على باطنه الذى عندهم علمه دون من عداهم من الناس. و إلى يومنا هذا، و إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، لم و لن يقوم دليل تاريخى أو عقلى على عدم صحة قصة من قصص القرآن، و هو الذى «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» «٣».

كذلك نجد أبا الفضائل يعرض فى كتابه المسمى (الدرر البهية) لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة يونس «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» و لقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الأعراف «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ» فيقول:

(ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية و مفاهيمها اللغوية، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة و التشبيه و الكناية) ... ثم قال بعد هذا: (قرر الله تنزيل تلك الآيات على السنة الأنبياء و بيان معانيها و كشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء) و قال: (إنما بعثوا عليهم السلام لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة، و اكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله؛ و ينتهى سير الأفتدة إلى رتبة البلوغ فيظهر روح الله الموعود و يكشف لهم الحقائق

المكنونة في اليوم المشهود) و قال: (و في نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها (١) رسائل الإصلاح ج ٣ ص ٩٦.

(٣) الآية (٤٢) من سورة فصلت.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٤

الأصلية المقصودة لا تظهر إلا في اليوم الآخر، يعنى يوم القيامة، و مجيء مظهر أمر الله و إشراق آفاق الأرض ببهاء وجه الله). ثم قال: (و لذلك جاءت من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعده محرفة مفسدة «١»). و معلوم أن لفظ التأويل في الآيتين عبارة عن وقوع المخبر به و لكن يأبى هذا المخرف المنحرف إلا أن يحمل التأويل على تأويل الآيات إلى المعاني الخفية و عجيب بعد هذا أن يتهم الرسل بأنهم لا يعرفون تأويل الآيات، لأن وظيفتهم البلاغ فحسب، و أما كشف الستر عن المعاني الخفية فإلى روح الله حين نزوله.

و روح الله في نظره و نظر أشياعه: هو البهاء الذي يعبر عنه بالنقطة، و يدعى أن الرسل أرسلوا لسوق الخلق إليه، و يدعى أيضا أن ظهوره يكون يوم القيامة، و لا شك أن هذا تفسير بارد عقيم، و جامد مضل، و لكنه لا يريد أن يعترف بهذا، بل نجده يتعسف فيرمى كل التفاسير من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان بأنها تافهة باردة، عقيمة جامدة، مضلة مبعده، محرفة مفسدة، لأن أصحابها خاضوا فيما لا علم لهم به، و العلم في نظره عند البهاء وحده.

كذلك نجد أبا الفضائل يفسر قوله تعالى في الآية (٣١) من سورة المدثر «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا» بما لا يقره شرع، أو يرضى به عقل فيقول: (إن لفظ الملك واحد الملائكة، و الملائكة في اللغة العربية توافق لفظا و معنى ما في اللغة العبرانية، حيث أنها مأخوذة من الأصل السامي، الذي اشتقت منه اللغات السريانية، و العبرانية و العربية، و الآشورية، و الكلدانية، و هو يفيد معنى المالكية و الاستيلاء على شيء فكما أنه أطلق لفظ الملك و الملائكة في الكلمات النبوية المحفوظة في الكتب السماوية على النفوس القدسية، و الأئمة الهداة، لخلعهم ثياب البشرية و تخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية، فملكو زمام الهداية، و صاروا ملوك ممالك (١) رسائل الإصلاح ج ٣ ص ٩٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٥

الولاية، كأنهم أعطوا سلطة مطلقة في سعادة الناس و شقاوتهم، و هدايتهم و ضلالهم، و هذا هو معنى الولاية المطلقة التي جاءت في الأخبار: و لذا سمى سيد الأبرار و أمير الأبرار، بقسيم الجنة و النار. كذلك أطلق هذا اللفظ في الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار، و أئمة الضلال، حيث إنهم قادة الفجار يقودونهم إلى النار و لذا أطلق عليهم لفظ الملائكة، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة في قوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ»... ثم استدلل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور و الضلال ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنه الله و رضوانه؛ كما أنها أبواب للدخول في جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلا. ثم استطرده من هذا إلى أن الباب كما يطلق على الديانات، يطلق أيضا على الأنبياء و كبار الأولياء، و استدلل على هذا بعبارة نقلها عن الجامعة وردت في شأن الأئمة و هي (أنتم باب المؤتى و المأخوذ عنه) قال: و إليه أشير في الآية الكريمة «فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» (٢) بعد أن قرر هذا، ادعى (أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر، و هي ثمانية عشر حروف (الحى) و النقطة الفردانية «٣» و بهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا، و دخلوا الجنة... ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعين تسعة عشر إنسانا من رؤساء أصحابه و دهاة أحابيه؛ لإضلال أهل الإيمان، و معارضة جمال الرحمن) ثم قال: (فالمراد بملائكة النار في الآية المباركة هو هذه الرجال من أصحاب الدجال و أئمة الضلال)... ثم ذكر بعد ذلك أن عدد أبواب النار صار في هذا الدور الحميد «٤»، و الكون المجيد ثلاثة فقط و هي أيضا ملائكة الجحيم، و قادة أصحاب الشمال إلى العذاب الأليم).

- و استدل على ذلك بقوله تعالى «انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ* لَا ظَلِيلٍ (١) فِي الْآيَةِ (٤١) مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ.
 (٢) فِي الْآيَةِ (١٣) مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ.
 (٣) يَرِيدُ الْبَابَ نَفْسَهُ وَ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ أَوْلًا.
 (٤) لَعَلَّهُ يَرِيدُ زَمَانَ بَهَاءِ اللَّهِ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٦

و لا- يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (١)» ثم قال: (و في كل دور و زمان تجد لكلمات الله تعالى مصاديق يعرفها أهل الإيمان، و حملة القرآن، و مخازن الحكمة، و مطالع البيان ...) اه «٢».

و في الحجج البهية يقرر أبو الفضائل: أن جميع الديانات السماوية، و غير السماوية واحدة من ناحية الاتفاق على العقائد الأصلية، و إن اختلفت في الأحكام الفرعية، و ذلك حيث يقول في تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٣) من سورة الشورى «سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (...)

فانظروا- وفقكم الله- كيف اعتبر في الآية الكريمة ديانات الصابئة و الزردشتية و الموسوية، و النصرانية و الإسلامية دينا واحدا، كما اعتبر مؤسسها و شارعها إلهها واحدا، على اختلافها في الأحكام و الحدود و الآداب «٣» و هذا منه كفر صريح، لأن الآية لا تدل على أكثر من اتحاد جميع الشرائع السماوية في أصول العقائد؛ أما الديانة الصابئية، و الديانة الزردشتية، فلم يقل أحد أنها من الشرائع الله، حتى يسوى بينها و بين سائر الشرائع السماوية.

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة، و يريد بها: رجوع الحقيقة المقدسة التي هي الوحي، على معنى أن الوحي بعد انقطاعه بموت محمد صلى الله عليه و سلم يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البهاء، و يفسر القيامة: بأنها قيام مظهر الحقيقة المقدسة، و الساعة: بساعة طلوعها و إشراقها بعد الغيبة و يقول (و أما الرجعة و القيامة بالمعنى الذي تعتقد و تنتظره الأمم فهي أمر غير معقول؛ إذ هو مخالف للنواميس الطبيعية، و مبين للسنن الإلهية «٤»).

و يقول: (إن جميع ما نزل في الكتب المقدسة من بشارات يوم الله، و يوم (١) الآياتان (٣٠، ٣١) من سورة المرسلات

(٢) رسائل أبي الفضائل ص ١٠٤-١٠٩

(٣) الحجج البهية ص ٢٨.

(٤) الحجج البهية ص ٣٠-٣١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٧

القيامة، و ظهور الرب، و ورود الساعة و أشراطها ... لا- بد أن تكون لتلك الألفاظ مقاصد معقولة، و مفاهيم ممكنة، و معان غير المعاني الظاهرية، و مدلولات غير المدلولات الأولية) اه «١».

و كأني بأبي الفضائل- و قد قال بنبوته الباب و البهاء- نظر في كتاب البيان و كتاب بهاء الله، فلم يجدهما في رصانه القرآن و فصاحته، فأراد أن ينزل بالقرآن عن مستواه في البلاغة، و يسلب عنه إعجازه حتى يكون في درجة البيان و الكتاب فقال: (و لا يعرف و لا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته، و بلاغته، و رصف كلماته، و تسجيح عباراته، و ترصيع جملة، و لطيف استعاراته، كما يدعيه قوم «٢») كما أعتقد أنه- و قد ادعى نبوة الباب و البهاء- راح يفتش لهما عن معجزة تصدق دعواهما النبوة، فلم يعثر و لا على جزء معجزة فجره ذلك أن ينكر معجزات الرسل، و يتأول ما ورد في القرآن منها بأنها من قبيل الاستعارات عن الأمور المعقولة، و الحقائق الممكنة، مما يجوزه العقل السليم، كما جره إلى القول بأنه لا صلة بين دعوى الرسالة، و بين القدرة على الإتيان بالخوارق فقال: (لا نسبة بين القدرة على إتيان المعجزات و العجائب، و بين ادعاء النبوة و الرسالة، فإن الرسالة و النبوة ليست إلا بعث إنسان من قبل الله تعالى لهداية الخلق، فما هو ارتباط هذا المعنى بالقدرة على شق البحار، و جفاف الأنهار، و إنطاق الأحجار و الأشجار مثلا «٣»).

و لا يشك عاقل في أن هذا الزنديق يريد من وراء هذا أن يفتح باب شر عظيم؛ ليدخل منه كل من يدعى النبوة و الرسالة، كما دخل منه أنبياء البابية البهائية من قبل.

و كما تأول متعصبو الشيعة الشجرة المباركة، الشجرة الملعونة، فحملوا الأولى على آل البيت، و الثانية على أعدائهم من بنى أمية، كذلك تأولهما أبو الفضائل، (١) الحجج البهية ص ٥٨

(٢) الحجج البهية ص ٣٧

(٣) الحجج البهية ص ٧٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٨

فقال في شرحه لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النور «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ... الآية».

(أطلق لفظ شجرة مباركة زيتونه على مظهر أمر الله، و مطلع شمس حقيقته و ذاته. و مشرق أنوار أسمائه و صفاته، فإن من هذه السدرة المباركة وحدها تتألق و تضيء الأنوار الإلهية، و تشرق و تلمع أشعة العلم و القوة، و القدرة الملكوتية السماوية، و هذه استعاره في غاية الرقة و اللطافة، و تجوز في نهاية اللطافة و البراعة، لم يوجد مثلها إلا في الكلمات النبوية، و لم يسمع شبيهاها إلا من نعمات طيور القدس في الحدائق القدسية) ... قال (و كذلك في الآية «٦٠») من سورة بنى اسرائيل، أطلق لفظ الشجرة الملعونة: استعاره على أعداء الله و محاربي رسول الله، من السلالة الأموية، و السلطة العضوية السفينية، حيث قال جل و علا «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ...» اه «١») هذه نبذ من تأويلات البابية للقرآن الكريم، تعطينا دليلا قويا، و برهانا صادقا على أن المذهب البابي، أو البهائي يقوم على أطلال الباطنية، و يحمل في سريرته القصد إلى هدم شريعة الإسلام بمعول التأويل في آيات القرآن، و دعوى النبوة و الرسالة، بعد أن ختمها الله برسالة محمد صلى الله عليه و سلم.

و إذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهي. أن البابية و البهائية و أسلافهم من الباطنية، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنصوص الشريعة على هذه الصورة التي تأتي على بنیان الدين من قواعده، و إنما هو صنيع قلدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم، فهذا هو (فيلون) الفيلسوف اليهودي المولود ما بين عشرين و ثلاثين سنة قبل الميلاد، نجده ألف كتابا في تأويل التوراة، ذاهبا إلى أن كثيرا مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، و يقول الكاتبون في تاريخ الفلسفة: (١) الحجج البهية ص ١٧٥-١٧٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٧٩

إن هذا التأويل الرمزي كان موجودا و معروفا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن (فيلون) و يذكرون أمثلة من تأويلهم: أنهم فسروا آدم بالعقل، و الجنة برياسة النفس، و إبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، و إسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، و يعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين. إلى أمثال هذا من التأويل الذي لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، و لا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة و دلائل الحق غافلون «١») و بعد أن انتهينا من موقف الباطنية- قديمهم و حديثهم- من القرآن الكريم، نتكلم عن موقف الزيدية منه فنقول و بالله التوفيق: (١) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ٩٧-٩٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٠

٣- الزيدية و موقفهم من تفسير و القرآن الكريم

تمهيد:

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، و بين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية و جمهور أهل السنة، و الذي يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة، و ما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكاد يذكر.

يرى الزيدية: أن عليا أفضل من سائر الصحابة، و أولى بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و يقولون: إن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج للإمامة صحت إمامته، و وجبت طاعته، سواء أ كان من أولاد الحسن، أم من أولاد الحسين، و مع ذلك فهم لا- يتبرءون من الشيخين، و لا- يكفرونها، بل يجوزون إمامتهما؛ لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقيء، و العصمة للأئمة، و اختفائهم ثم رجوعهم في آخر الزمان. و غير ذلك من خرافات الإمامية و من على شاكلتهم.

و كل الذي نلاحظه على الزيدية، أنهم يشترطون الاجتهاد في أئمتهم؛ و لهذا كثر فيهم الاجتهاد. و أنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت. و الذي يقرأ كتاب المجموع للزيدية يرى أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد بن علي زين العابدين، عن آباءه من الأئمة، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ليس فيه بعد ذلك حديث يروى عن صحابي آخر من غير أهل البيت رضى الله عنهم.

كما نلاحظ على الزيدية أيضا أنهم تأثروا إلى حد كبير بآراء المعتزلة و معتقداتهم، و يرجع السر في هذا إلى أن إمامهم زيد بن علي، تعلمذ على واصل ابن عطاء، كما قلنا ذلك فيما سبق.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨١

إذا فلا نطمع بعد ذلك أن نرى للزيدية أثرا مميزا، و طابعا خاصا في التفسير كما رأينا للإمامية؛ لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسره، و يتخذ له طابعا خاصا، و اتجاهها معيناً، حينما يكون لصاحبه طابع خاص و اتجاه معين، و ليست الزيدية- بصرف النظر عن ميولهم الاعتزالية- بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السنة و عقائدهم، حتى يكون لهم في التفسير خلاف كبير.

أهم كتب التفسير عند الزيدية:

إشارة

و إذا نحن ذهبنا نفتش عن تفاسير الزيدية في المكتبات التي تحت أبصارنا، و في متناول أيدينا، فإننا لا نكاد نظفر منها إلا بتفسير الشوكاني المسمى (فتح القدير) و هو تفسير متناول للقرآن كله، و جامع بين الرواية و الدراية. و تفسير آخر في شرح آيات الأحكام اسمه (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف ابن أحمد: من علماء القرآن التاسع الهجري. هذا هو كل ما عثرنا عليه للزيدية من كتب في التفسير.

و لكن هل هذا هو كل ما أنتجته هذه الطائفة؟ أو أن هناك كتبا أخرى ألفت في التفسير ثم درست؟ أو ألفت و بقيت إلى اليوم غير أنه لم يكتب لها الذبوع و الانتشار، و لذا لم تصل إلى أيدينا؟

الحق أنى وجهت هذا السؤال إلى نفسى. فرجحت أن تكون هناك كتب كثيرة في التفسير لهذه الطائفة، منها ما درس، و منها ما بقى إلى اليوم مطمورا في بعض المكاتب الخاصة؛ إذ ليس من المعقول أن لا- يكون لطائفة إسلامية قامت من قديم الزمان، و بقيت محتفظة بتعاليمها و مقوماتها إلى اليوم إلا هذا الأثر الضئيل في التفسير، رجحت هذا الرأي، فذهبت أفتش و أبحث في بعض الكتب التي لها عناية بهذا الشأن؛ على أعتري على أسماء لبعض كتب في التفسير لبعض من علماء الزيدية ... و أخيرا وجدت في الفهرست لابن النديم: أن مقاتل بن سليمان

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٢

- و عده من الزيدية- له من الكتب، كتاب التفسير الكبير، و كتاب نوادر التفسير «١».

و وجدت في الفهرست أيضا: أن أبا جعفر محمد بن منصور المرادى الزيدى، له كتابان في التفسير، أحدهما: كتاب التفسير الكبير، و الآخر: كتاب التفسير الصغير «٢».

و قرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية في الفقه، و هي مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة في شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجنداري، فخرجت منها بما يأتي:

١- تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي، جمعه بإسناده محمد ابن منصور بن يزيد الكوفي، أحد أئمة الزيدية، المتوفى سنة نيف و تسعين و مائتين «٣».

٢- تفسير إسماعيل بن علي البستي الزيدى، المتوفى في حدود العشرين و أربعمئة، قال: و هو في مجلد واحد «٤».

٣- التهذيب، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلى ثم الزيدى، المقتول سنة ٤٩٤ هـ أربع و تسعين و أربعمئة. قال: و هذا التفسير مشهور، و يمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق؛ فإنه يورد الآية كاملة، ثم يقول القراءة و يذكرها، و يميز السبع من غيرها، ثم يقول اللغة و يذكرها، ثم يقول الإعراب و يذكره، ثم يقول النظم و يذكره، ثم يقول المعنى و يذكره، و يذكر أقوالاً متعددة، و ينسب كل قول إلى قائله من المفسرين، ثم يقول النزول و يذكر سببه، ثم يقول الأحكام و يستنبط أحكاماً كثيرة من الآية «٥». (١) الفهرست ص ٢٥٤.

(٢) الفهرست ص ٢٧٤.

(٣) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٦.

(٤) ص ٧ من المرجع السابق.

(٥) ص ٣٢ من المرجع السابق.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٣

٤- تفسير عطية بن محمد النجواني الزيدى، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ خمس و ستين و ستمئة. قال: و قد قيل إنه تفسير جليل، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية «١».

٥- التيسير في التفسير، للحسن بن محمد النحوى الزيدى الصنعاني، المتوفى سنة ٧٩١ هـ إحدى و تسعين و سبعمئة «٢».

هذا هو كل ما قرأت عنه من كتب الزيدية في التفسير. لكن هل بقيت هذه الكتب إلى اليوم؟ أو درست بتقادم العهد عليها؟ سألت نفسى هذا السؤال، و حاولت أن أقف على جوابه، و أخيراً انتهزت فرصة وجود الوفد اليمنى في مصر «٣»- و فيه الكثير من علماء الزيدية الظاهرين- فاتصلت بأحد أعضائه البارزين، و هو القاضي محمد بن عبد الله العامرى الزيدى، فسألته عن أهم مؤلفات الزيدية في التفسير، و عن الموجود منها إلى اليوم، فأخبرنى بأن للزيدية كتباً كثيرة في تفسير القرآن الكريم، منها ما بقى، و منها ما اندثر، و ما بقى منها إلى اليوم لا يزال مخطوطاً، و موجوداً في مكاتبهم، و ذكر لى من تلك المخطوطات الموجودة عندهم ما يأتي:

١- تفسير ابن الأقطم .. أحد قدماء الزيدية.

٢- شرح الخمسمئة آية (تفسير آيات الأحكام) لحسين بن أحمد النجوى، من علماء الزيدية في القرن الثامن الهجرى.

٣- الثمرات اليا نعة (تفسير آيات الأحكام) للشيخ شمس الدين يوسف ابن أحمد بن محمد بن عثمان، من علماء الزيدية في القرن التاسع الهجرى، ٤- منتهى المرام، شرح آيات الأحكام، لمحمد بن الحسين بن القاسم، من علماء الزيدية في القرن الحادى عشر الهجرى. (١) ص ٢٣ من المرجع السابق.

(٢) ص ١١ من المرجع السابق.

(٣) كان ذلك في سنة ١٩٤٥ م

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٤

٥- تفسير القاضي بن عبد الرحمن المجاهد، أحد علماء الزيدية في القرن الثالث عشر الهجرى.

قال: و هناك كتب أخرى لا يحضرنى اسمها، و لا اسم مؤلفيها، فسألته عن السر الذى من أجله بقيت هذه الكتب مخطوطة إلى اليوم؟

و أى شىء يحول بينكم و بين طبعها، حتى تصبح متداولة بين أهل العلم، و عشاق التفسير؟ فأجبنى بأن السر فى هذا أمران: أحدهما: عدم تقدم فن الطباعة عندهم. و ثانيهما: أن كل اعتمادهم فى التفسير على كتاب الكشاف للزمخشري؛ نظرا للصلة التى بين الزيدية و المعتزلة، مما جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ما عداه من كتب التفسير، و رجا و رجوت معه أن يهئ الله لهذا التراث العلمى فى التفسير من الأسباب ما يجعله متداولاً بين أهل العلم. و رجال التفسير.

و بعد ... فما دامت أيدينا لم تصل إلى شىء من كتب التفسير عند الزيدية سوى كتاب (فتح القدير) للشوكانى، و (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف بن أحمد؛ فإنى سأقتصر على هذين الكتابين فى دراستى و بحثى، و سأبدأ بتفسير الشوكانى، و إن كان لا يمثل لنا تفسير الزيدية تمثيلاً وافياً شافياً و أرجئ الكلام عن (الثمرات اليانعة) إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله: التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٥

فتح القدير للشوكانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

و مؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن على بن عبد الله الشوكانى، ولد فى سنة ١١٧٣ هـ ثلاث و سبعين و مائة بعد الألف من الهجرة النبوية، فى بلدة هجرة شوكان. و نشأ - رحمه الله تعالى - بصنعاء، و تربى فى حجر أبيه على العفاف و الطهارة، و أخذ فى طلب العلم و السماع من العلماء الأعلام، و وجد فى طلب العلم، و اشتغل كثيرا بمطالعة كتب التاريخ و مجاميع الأدب، و سار على هذه الطريقة ما بين مطالعة و حفظ، و ما بين سماع و تلق، إلى أن صار إماما يعول عليه، و رأسا يرحل إليه «فريدا فى عصره، و نادرة لدهره، و قدوة لغيره، بحرا فى العلم لا يجارى، و مفسرا للقرآن لا يبارى، و محدثا لا يشق له غبار، و مجتهدا لا يثبت أحد معه فى مضمار».

و لقد خلف رحمه الله كتباً فى العلم نافعة و كثيرة، أهمها: كتاب فتح القدير فى التفسير، و هو الكتاب الذى نحن بصدد الكلام عنه، و كتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار فى الحديث، و كتاب إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد و الميعاد و النبوات .. رد به على موسى بن ميمون الأندلسى اليهودى، و غير هذا كثير من مؤلفاته.

تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية، و برع فيه، و ألف و أفتى، ثم خلع ربقه التقليدى، و تحلى بمنصب الاجتهاد، و ألف رسالة (سماها القول المفيد فى أدلة الاجتهاد و التقليد)، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء، و أرسل إليه أهل جهته سهام اللوم و المقت، و ثارت من أجل ذلك فتنة فى صنعاء اليمن بين من هو مقلد و من هو مجتهد.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٦

و عقيدة الشوكانى عقيدة السلف، من حمل صفات الله تعالى الواردة فى القرآن و السنة على ظاهرها من غير تأويل و لا تحريف. و قد ألف رسالة فى ذلك سماها (التحفة بمذهب السلف).

هذا و قد توفى الشوكانى رحمه الله سنة ١٢٥٠ هـ فرحمه الله و أرضاه «١».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أصول التفسير، و مرجعاً مهماً من مراجعه، لأنه جمع بين التفسير بالدراية، و التفسير بالرواية، فأجاد فى باب الدراية، و توسع فى باب الرواية، و قد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه شرع فيه فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث و عشرين بعد المائتين و الألف من الهجرة النبوية، و فرغ منه فى شهر رجب سنة تسع و عشرين بعد المائتين و الألف من الهجرة النبوية على صاحبها

أفضل السلام و أزكى التحية. كما ذكر أنه اعتمد فى تفسيره هذا على أبى جعفر النحاس، و ابن عطية الدمشقى، و ابن عطية الأندلسى، و القرطبى، و الزمخشرى، و غيرهم.

طريقة الشوكانى فى تفسيره:

إشارة

و طريقة الشوكانى التى سلكها فى تفسيره يكفينا فى بيانها عبارته التى ذكرها فى مقدمة هذا التفسير مبينا بها منهجه فيه. قال رحمه الله: (... و وطنت النفس على سلوكك طريقه هى بالقبول عند الفحول حقيقة، و ها أنا أوضح لك منارها، و أبين لك إيرادها و إصدارها فأقول: إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، و سلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، و قنعوا برفع هذه الرأيه، و الفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربيه، و ما تفيده العلوم الآليه، و لم يرفعوا إلى الرواية رأسا، و إن جاءوا به لم يصحوا لها أساسا. و كلا (١) أنظر ترجمه المؤلف فى أول فتح القدير، و فى أول نيل الأوطار.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٧

الفريقين قد أصاب، و أطال و أطاب، و إن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، و ترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب) ... ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا: (و بهذا يعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، و عدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، و هذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه، و المسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن و اتضح لى وجهه، و أخذى من بيان المعنى العربى و الإعرابى و البيانى بأوفر نصيب، و الحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو الصحابه، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين و قد أذكر ما فى إسناده ضعف؛ إما لأن فى المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى. و قد أذكر الحديث معزوا إلى روايه من غير بيان حال الإسناد؛ لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك، كما يقع فى تفسير ابن جرير و القرطبى و ابن كثير و السيوطى، و غيرهم، و يبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفا و لا يبينوه، و لا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته:

فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفوا عنه فثبت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة أو الحسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها، و يعززون ما فى تفاسيرهم إليها. فليُنظر إلى أسانيدنا موقفا إن شاء الله.

و اعلم أن تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه و سلم، و تفاسير الصحابه و من بعدهم، و ما فاته إلا القليل النادر. و قد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجه منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظا و اتحد معنى بقولى: و مثله و نحوه؛ و ضمنت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، و جدتها فى غيره من تفاسير علماء الروايه، أو من الفوائد التى لاحت لى، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح فهذا التفسير و إن كبر حجمه فقد كثر علمه، و توفر من التحقيق قسمه، و أصاب غرض الحق

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٨

سهمه، و اشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد، و قواعد شرائد، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الدرايه، ثم أنظر فى هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، و يتبين لك أن هذا الكتاب هو اللباب، و عجب العجاب، و ذخيره الطلاب، و نهايه مآرب أولى الألباب .. و قد سميت (فتح القدير، الجامع بين فنى الروايه و الدرايه من علم التفسير ...

«١» اه مما تقدم يتضح لك جليا طريقة المؤلف التي سلكها في تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسير و قرأت فيه كثيرا. فوجدته يذكر الآيات، ثم يفسرها تفسيراً معقولا و مقبولا، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السلف، و هو ينقل كثيرا عن ذكر من أصحاب كتب التفسير.

و وجدته بذكر المناسبات بين الآيات، و يحتكم إلى اللغة كثيرا. و يتفل عن أئمتها كالمبرد و أبي عبيدة و الفراء، كما أنه يتعرض أحيانا للقراءات السبع، و لا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقيهية في كل مناسبة، و يذكر اختلافاتهم و أدلتهم، و يدلي بدلوه بين الدلاء، فيرجح، و يستظهر، و يستنبط، و يعطى نفسه حرية واسعة في الاستنباط؛ لأنه يرى نفسه مجتهدا لا يقل عن غيره من المجتهدين. نقله للروايات الموضوعه و الضعيفة:

غير أنى آخذ عليه - كرجل من أهل الحديث - أنه يذكر كثيرا من الروايات الموضوعه، أو الضعيفة، و يمر عليها بدون أن ينبه عليها. فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... الآية» و قوله في الآية (٦٧) منها «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... الآية» يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، و لا ينبه على أنها موضوعه، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامه على، ففي الآية الأولى يقول «...» (و هم (١) مقدمة الكتاب ص ١-٤ التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٨٩

راكون» جملة حالية من فاعل الفعلين الذين قبله، و المراد بالركوع: الخشوع و الخضوع، أى يقيمون الصلاة، و يؤتون الزكاة، و هم خاشعون لا- يتكبرون و قيل: هو حال من فاعل الزكاة، و المراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة في مواضعها غير مستكبرين على الفقراء، و لا مترفعين عليهم، و قيل المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع الصلاة و يدفعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال «١» اه ثم نراه يذكر في ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال تصدق على بخاتم و هو راع، فقال النبى صلى الله عليه و سلم للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... الآية «٢» ثم يمر على هذه الرواية الموضوعه باتفاق أهل العلم و لا ينبه على ما فيها و فى الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: (نزلت هذه الآية «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ..» على رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم غدیر خم، فى على بن أبى طالب رضى الله عنه) و يروى عن ابن مسعود أنه قال: (كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، أن عليا مولى المؤمنين، و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس «٣»)- ثم يمر على هاتين الروايتين أيضا بدون أن يتعقبهما بشيء أصلا.

ذمه للتقليد و المقلدين:

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا و يطبقها على مقلدى أئمة المذاهب الفقيهية، و يرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، معرضون عن سنة رسوله صلى الله عليه و سلم. و نحن و إن كنا لا نمنع من الاجتهاد من له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه و إمامه بشروطه (١) ج ٢ ص ٤٨

(٢) ج ٢ ص ٥٠

(٣) ج ٢ ص ٥٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٠

إلا- أنا لا- ننكر أن فى الناس من ليس أهلا- للاجتهاد، و هؤلاء لا بد لهم من التقليد و لست فى شك من أن الشوكانى مخطئ فى حملاته على المقلده، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات فى حق الكفرة على مقلدى الأئمة و أتباعهم. و إليك

بعض ما قاله في تفسيره:

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة الأعراف «وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» قال: ما نصه: (... و إن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، و أبلغ واعظ للمقلدة، الذي يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون:

«إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» (١) و القائلون «وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا» (٢) و المقلد لو لا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، و أنه الحق لم يبق عليه، و هذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودى على اليهودية، و النصرانى على النصرانية، و المبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية أو النصرانية أو البدعة. و أحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، و لم ينظروا لأنفسهم، و لا طلبوا الحق كما يجب، و لا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، و هذا هو التقليد البحت و القصور الخالص فى من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة، و تستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، و الصحيح بالسقيم، و فاسد الرأى بصحيح الرواية، و لم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا رسولا واحدا أمرهم باتباعه، و نهى عن مخالفته فقال: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (٣) و لو كان محض رأى أئمة المذاهب و أتباعهم حجة على العباد، (١) فى الآية (٢٣) من سورة الزخرف.

(٢) فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف.

(٣) فى الآية (٧) من سورة الحشر.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩١

لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به. و إن من أعجب الغفلة، و أعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله و وجود سنة رسوله، و وجود من يأخذونهما عنه، و وجود آله الفهم لديهم، و ملكة العقل عندهم «(١)» اه.

و فى سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١) «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» يقول ما نصه: (.. و فى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد عن التقليد فى دين الله، و إثارة ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز، و السنة المطهرة؛ فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، و يستن بسنته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، و قامت به حجج الله و براهينه، و نطقت به كتبه و أنبيأؤه، هو كاتخاذ اليهود و النصرارى الأخبار و الرهبان أربابا من دون الله: للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، و حرموا ما حرموا، و حللوا ما حللوا و هذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، و هو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، و التمرة بالتمر، و الماء بالماء. فى عباد الله، و يا أتباع محمد بن عبد الله: ما بالكم تركتم الكتاب و السنة جانبا، و عمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما، و طلبه منهم للعمل بما دلا عليه و أفاداه؟ فعلتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق، و لم تعضد بعضد الدين، و نصوص الكتاب و السنة تنادى بأبلغ نداء، و تصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك و يباينه، فاعرتموهما آذانا صما، و قلوبا غلفا، و أفهاما مريضة، و عقولا مهیضة، و أذهانا كليله، و خواطر عليه، و أنشدتم بلسان الحال:

و ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت و إن ترشد غزية أرشد

فدعوا- أرشدكم الله و إياى- كتبها لكم الأموات من أسلافكم، و استبدلوا بها كتاب الله خالقهم و خالقكم، و متعبدكم و

متعبدكم، و معبودهم (١) ج ٢ ص ١٨٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٢

و معبودكم، و استبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم و ما جاء وكم به من الرأى، بأقوال إمامكم و إمامهم، و قدوتكم و قدوتهم، و هو الإمام الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل .. اهدنا إلى الحق، و أرشدنا إلى الصواب، و أوضح لنا منهج الهداية (١) اه. و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٥٢، ٥٣، ٥٤) من سورة الأنبياء «إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فى ضَلَالٍ مُّبِينٍ» نجده يذم المقلدة، و أئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالم فى حق عالم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، و ذلك حيث يقول: (... و هكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، فإن العالم بالكتاب و السنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل .. قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين، و برأيه آخذين. و جوابهم هو ما أجاب به الخليل هاهنا «قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فى ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى فى خسران واضح لا يخفى على أحد، و لا يلتبس على ذى عقل؛ فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضر و لا تنفع، و لا تسمع و لا تبصر، و ليس بعد هذا الضلال ضلال، و لا يساوى هذا الخسران خسران. و هؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله، و بسنة رسوله كتابا قد دونت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه، أو لتقصير فى البحث، فوجد ذلك الدليل من وجده، و أبرزه واضح المنار، كأنه علم فى رأسه نار، و قال: هذا كتاب الله، أو هذه سنة رسول الله، و أنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن فى دينه كمخاطر

(١) ج ٢ ص ٢٣٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٣

فقالوا كما قال الأول:

و ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت و إن ترشد غزية أرشد

و قد أحسن من قال:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى و منهج الحق له واضح

«١» اه.

حياة الشهداء:

هذا .. و إن الشوكانى ليقدر فى تفسيره هذا: أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، و ذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة آل عمران «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (... و قد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم؟. فقيل: شهداء أحد. و قيل: فى شهداء بدر. و قيل: فى شهداء بئر معونة .. و على فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. و معنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة. ثم اختلفوا: فمنهم من قال: إنها ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتعمون. و قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها و ليسوا فيها. و ذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، و المعنى: أنهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة و الصحيح الأول، و لا موجب للمصير إلى المجاز، و قد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، و أنهم فى الجنة يرزقون و يأكلون و يتمتعون) (٢).

التوسل:

و لكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء، و الأولياء موقف المعارضة، و يفيض في الإنكار على من يفعل ذلك في سورة (١) ج ٣ ص ٣٩٨.

(٢) ج ١ ص ٣٦٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٤

يونس عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٩) «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...» يقول ما نصه: «... و في هذا أعظم واعظ، و أبلغ زاجر لمن صار دينه و هجيره المناداة لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، و كذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه و سلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذي خلق الأنبياء و الصالحين و جميع المخلوقين، و رزقهم و أحياهم و يميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه و يترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء، الخالق الرازق، المعطي المانع، و حسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، و خاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسي ضرا و لا نفعا. فكيف يملكه لغيره؟

و كيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، و منزلته لا- تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذي صاروا تحت أطباق الثرى، و يطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز و جل. كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، و لا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى (لا إله إلا الله) و مدلول (قل هو الله أحد).

و أعجب من هذا، اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء و لا ينكرون عليهم و لا يحولون بينهم و بين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، و إنما يجعلون أصنامهم شفعا لهم عند الله، و مقربين لهم إليه. و هؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر و النفع، و ينادونهم تارة على الاستقلال، و تارة مع ذى الجلال، و كفاك من شر سماعه، و الله ناصر دينه، و مطهر شريعته من أو ضار الشرك، و أدناس الكفر. و لقد توسل الشيطان- أخزاه الله- بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، و ينثليج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٥

المباركة، و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!! ... «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١) اه.

موقفه من المتشابه:

ثم إن المؤلف - كما قلنا في ترجمته - سلفى العقيدة، فكل ما ورد في القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها، و فوض الكيف إلى الله؛ و لهذا نراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» يقول: الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك. و قد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، و أخطئوا في ذلك خطئا بينا، و غلطوا غلطا فاحشا. و قال بعض السلف.

إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، و منه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه و عصبه كراسى بالأخبار حين تنوب

و رجح هذا القول ابن جرير. و قيل: كرسية: قدرته التي يمسك بها السموات و الأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسيا ... أى ما يعمده.

وقيل: إن الكرسي هو العرش. وقيل: هو تصوير لعظمته و لا حقيقة له.

وقيل. هو عبارة عن الملك. و الحق القول الأول. و لا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلى مجرد خيالات و ضلالات «٢» اه. و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ...

الآية» يقول ما نصه: (قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، و أحقها و أولاً لها بالصواب مذهب السلف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه «٣» اه.

موقفه من آراء المعتزلة:

و بالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، و أخذوا عنهم آراءهم (١) ج ٢ ص ٤٢٩.

(٢) ج ١ ص ٢٤٤.

(٣) ج ٢ ص ٢٠١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٦

و عقائدهم في غالب مسائل الكلام، فإننا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل و نجده يرد عليهم، و يعارضهم معارضة شديدة في كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة البقرة «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ... الآية» يقول ما نصه: (... و إنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا.

و قد ذهب المعتزلة و من تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا و الآخرة. و ذهب من عداهم إلى جوازها في الدنيا، و وقوعها في الآخرة. و قد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، و هي قطعية الدلالة، لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، و زعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، و قواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم بنصيب نافع ... «١» اه.

كذلك نراه يرد على الزمخشري في دعواه: أن دخول الجنة مستحق بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة الأعراف «... وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (... قال الكشاف: بسبب أعمالكم لا بالفضل كما تقول المبطله اه. أقول:

يا مسكين .. هذا قاله رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما صح عنه «سددوا و قاربوا و اعملوا. إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: و لا أنت يا رسول الله؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» و التصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، و لو لا التفضل من الله سبحانه و تعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطله. و في التنزيل «ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ» «٢» و فيه «فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ» «٣» اه «٤». (١) ج ١ ص ٧٢.

(٢) في الآية (٧٠) من سورة النساء.

(٣) في الآية (١٧٥) من سورة النساء.

(٤) ج ٢ ص ١٩٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٧

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها في المعين، و ذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة يوسف «وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ...

الآية» (وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم و البلخي، أن للعين تأثيرا، و ليس هذا بمستنكر من هذين و أتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب و السنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم و ديدنهم، و أى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك، و قد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، و أصيب بها جماعة في عصر النبوة. و منهم رسول الله صلى الله عليه و سلم. و أعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف. لمجرد الاستبعاد العقلي، و التطلع في العبارات، كالزمخشري في تفسيره؛ فإنه في كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة، على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة، و المذاهب الزائفة. و بالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة. و إجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفا و خلفا، و بما هو مشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني، و غيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب «١») اه و يقف الشوكاني من المعتزلة موقف المعارضة في مسألة غفران الذنوب.

فعند ما تعرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة الزمر «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا... الآية» نجده يقول: (.. و أما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة، و أنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين. و زعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب و النون، و بين الملاح و الحادي، و على نفسها براش تجنى، و لو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة (١) ج ٣ ص ٣٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٨

بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، و قد قال «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (١) «فلو كانت التوبة قيذا في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، و قد قال سبحانه: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ» (٢) قال الواحدي: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، و قتل النفس، و معاداة النبي صلى الله عليه و سلم. قلت: هب أنها في هؤلاء فكان ما ذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم. و لو كانت الآيات القرآنية، و الأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، و اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله «٣») اه.

موقف الشوكاني من مسألة خلق القرآن:

هذا .. و لم يرض الشوكاني موقف أهل السنة، و لا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، و إنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف في هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى، و راح ينحى باللائمة على من يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعند ما تعرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٢) من سورة الأنبياء «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» يقول ما نصه: (... و قد استدل بوصف الذكر بكونه محدثا على أن القرآن محدث، لأن الذكر هنا هو القرآن، و أوجب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات و الحروف، لأنه متجدد في النزول، فالمعنى: محدث تنزيله «و إنما النزاع في (١) في الآية (١١٦) من سورة النساء

(٢) في الآية (٦) من سورة الرعد

(٣) ج ٤ ص ٤٥٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٢٩٩

الكلام النفسى «١». و هذه المسألة- أعنى قدم القرآن و حدوثه- قد ابتلى بها كثير من أهل العلم ... و لقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن و حدوثه، و حفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، و لكنهم- رحمهم الله- جاوزوا ذلك إلى القول

بقدمه، و لم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظى بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، و ليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، و إرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة و التابعين و من بعدهم إلى وقت قيام المحنة و ظهور القول فى هذه المسألة: شىء من الكلام، و لا تنقل عنهم كلمة فى ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، و التمسك بأذيال الوقف، و إرجاع علم ذلك إلى عالمه. هو الطريقة المثلى؛ و فيه السلامة و الخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، و الأمر لله سبحانه «٢» اه هذا هو أهم ما فى تفسير الشوكانى من البحوث التى أعطى فيها لنفسه حرية واسعة. خولت له أن يسخر من عقول العامة، و أن يهزأ من تعاليم المعتزلة، و أن يندد ببعض مواقف أهل السنة. و أحسب أن الرّجل قد دخله شىء من الغرور العلمى، فراح، يوجه لومه لهؤلاء و هؤلاء، و ليته وقف منهم جميعا موقف الحاكم التزيه، و الناقد العف ... و على الجملة، فالكتاب له قيمته و مكانته، و إن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية و نرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم فى التفسير، و أحسب أنه كثير.

و الكتاب مطبوع فى خمس مجلدات، و متداول بين أهل العلم. (١) ليس هذا هو محل النزاع، لأن الكلام النفسى بمعنى أنه صفة أزيئية قائمة بذات الله تعالى ليست بحرف و لا صوت، منزّهة عن التقديم و التأخير و لوازم الكلام اللفظى، و منزّهة عن السكوت النفسى و عن الآفة الباطنة .. الكلام النفسى بهذا المعنى يقول به الأشعرى و ينفيه باقى الفرق- انظر محاضرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أنى دقيقة ص ١٢٨- مطبعة الإرشاد سنة ١٩٣٦ م.

(٢) ج ٣ ص ٣٨٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٠

الخوارج و موقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الخوارج:

إشارة

بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، نشط أنصار على رضى الله عنه فى الدعوة له، حتى أخذوا له البيعة من المسلمين، ليكون خليفة لهم ... و لكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر؛ لاعتقادهم أن الحق فى غير جانبه. و هؤلاء الصحابة هم: معاوية بن أبى سفيان، و طلحة بن عبد الله، و الزبير بن العوام.

و كان لعلى - رضى الله عنه - شيعة و أنصار، و كان لمعاوية رضى الله عنه شيعة و أنصار كذلك. و كانت حروب طاحنة بين الفريقين!! كان الغلب فيها لعلى و حزبه، إلى أن جاءت موقعة صفين، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية، و أوشكت الهزيمة أن تحدق به، لو لا أن لجأ إلى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح، طلبا للهدنة، و رغبة فى التحكيم بين الحزبين. و بعد أخذ ورد بين جيش على فى قبول التحكيم و عدمه. رأى على رضى الله عنه قبول التحكيم؛ رغبة منه فى حقن الدماء. و اختار معاوية: عمرو بن العاص ليمثله و اختار أصحاب على: أباموسى الأشعرى.

و كان قبول على - رضى الله عنه - لمبدأ التحكيم أول عامل من عوامل التصدع فى جيشه و حزبه؛ إذ أن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ، لأن الحق ظاهر فى جانب على، و لا يعتوره شك فى نظرهم، و قبول التحكيم دليل الشك من على فى أحقيته بالخلافه، و هم إنما قاموا معه فى حروبه لاعتقادهم بأن الحق فى جانبه، فكيف يشك هو فيه؟؟ ...

لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم. فخرجوا على على، و لم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا- إذا أقر على نفسه بالكفر، لقبوله التحكيم، و إلا إذا

نقض ما أبرم

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠١

من الشروط بينه و بين معاوية، و لكن عليا رضى الله عنه لم يستجب لرغبتهم هذه، فأخذوا كلما خطب على أو ضممه و إياهم مكان جامع رفعوا أصواتهم بقولهم: (لا حكم إلا لله).

و كان التحكيم، و فيه خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، فلم يكن إلا تحكيما فاشلا. أما قلوب كثير من الناس إلى ناحية الخوارج، و أخيرا، و بعد يأس الخوارج من رجوع على إليهم اجتمعوا فى منزل أحدهم، و خطب فيهم خطبة حثهم على التمسك بمبادئهم و الدفاع عنه، و طلب منهم الخروج من الكوفة إلى قرية بالقرب منها يقال لها حروراء، فخرجوا إليها، و أمروا عليهم عبد الله ابن وهب الراسبي «١». و وقعت بينهم و بين على حروب طاحنة هزمهم فيها، و لكن لم يقض عليهم. و أخيرا دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم.

و جاءت دولة الأمويين، فكان الخوارج شوكة فى جنبها يهددونها و يحاربونها، حتى كادوا يقضون عليها. ثم جاءت الدولة العباسية، فكان بينهم و بينها حروب كذلك، و لكن لم يكونوا فى قوتهم الأولى، لتفرق كلمتهم و تشتت و حدثهم، و ضعف سلطانهم، و خور قواهم.

دبت فى وحدة الخوارج جرثومة التفرق، و أصيبوا بداء التحزب، فبلغ عدد أحزابهم عشرين حزبا، كل حزب يفارق الآخر فى المبدأ و العقيدة ...

و لكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

أحدهما: إكفار على، و عثمان، و الحكمين، و أصحاب الجمل، و كل من رضى بتحكيم الحكمين.

و ثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

و هناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج، و هو: الإكفار بارتكاب الكبائر «٢». (١) نسبة إلى راسب. حى من الأزد.

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٥٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٢

هذا .. و قد وضع الخوارج مبدأ للخلافة فقالوا: (إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، و إذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل، أو يحكم، و ليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا، بل يصح أن يكون من قريش و من غيرهم، و لو كان عبدا حبشيا، و إذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين و يجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله، و إلا وجب عزله، و لهذا أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، و لم يكن قرشيا «١»).

و على هذا حكموا بصحة خلافة أبى بكر و عمر، و بصحة خلافة عثمان فى سنية الأولى، فلما غير، و بدل و لم يسر سيرة الشيخين - كما زعموا - وجب عزله، و أقروا بصحة خلافة على أولا، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ فى التحكيم، و كفر به كما يزعمون!! .. و لا يسعنا فى تلك العجالة إلا أن نطوى الحديث عن التعرض لكل فرقة من فرق الخوارج، و لكن نكتفى بالكلام عن أشهرها، و هى ما يأتى:

أولا - الأزارقة:

و هم أتباع نافع بن الأزرق، و هم يكفرون من عداهم من المسلمين، و يحرمون أكل ذبائحهم و مناكحتهم، و لا يجيزون التوارث بينهم، و يعاملونهم معاملة الكفار من المشركين .. إما الإسلام، و إما السيف، و دارهم دار حرب، و يحل قتل نساءهم و أطفالهم، و لا يقولون برجم الزانى المحصن، و لا يقولون بحد من يقذف المحصنين من الرجال .. أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعا. و لا يرون

جواز التقية.

ثانياً - النجدة:

و هم أتباع نجدة بن عامر، و هم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم، فإن رأوا أن الحاجة تدعوا إلى إمام أقاموه، و إلا فلا. كما أنهم يكفرون من يقول بإمامة نافع ابن الأزرق، و يكفرون من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع و حزبه، و يقولون: إن الدين أمران: (١) فجر الإسلام ج ١ ص ٣١٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٣

أحدهما: معرفة الله تعالى، و معرفة الرسول، و الإقرار بما جاء به جملة.

فهذا واجب معرفته على كل مكلف.

و ثانيهما: ما عدا ما تقدم، فالناس معذورون بجهالته إلى أن تقوم عليهم الحجّة.

فمن استحل شيئاً حراماً باجتهاد فله عذره؛ و هم يعظمون جريمة الكذب، و يجعلونها أكبر جرماً من شرب الخمر و الزنى.

و من بدع نجدة: أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه، و قال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم في غير نار جهنم، ثم يدخلهم الجنة، و زعم أن النار يدخلها من خالفه في دينه.

ثالثاً - الصفريّة:

و هم أتباع زياد بن الأصفر، و هم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم و نساءهم كما ترى الأزارقة ذلك. و من الصفريّة من يخالف في ذلك فيقول: كل ذنب له حد في الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركاً، و لا كافراً، بل يدعى باسمه المشتق من جريمته يقال: سارق، و قاتل، و قاذف و كل ذنب ليس فيه حد معلوم في الشريعة مثل الإعراض عن الصلاة فمرتكبه كافر .. و لا يسمى مرتكب واحد من هذين النوعين جميعاً مؤمناً، و منهم من يقول: إن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالى فيحده و يحكم بكفره.

رابعاً - الإباضية:

و هم أتباع عبد الله بن إباض، و هم أعدل فرق الخوارج، و أقربها إلى تعاليم أهل السنة، و هم يجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين، و لا- مؤمنين. و لكنهم كفار. و يروى عنهم أنهم يريدون كفر النعمة، و أجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، و مناكحتهم، و التوارث معهم، و حرّموا دماءهم في السر دون العلانية، لأنهم محاربون لله و لرسوله، و لا يدينون دين الحق و دارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، و استحلوا من غنائمهم: الخيل و السلاح، و كل ما فيه قوة حربية لهم. و لم يستحلوا غنائم الذهب و الفضة، بل يردونها لأهلها.

و اختلفوا في النفاق على ثلاثة أقوال:

فريق يرى أن النفاق براءة من الشرك و الإيمان معا، و يحتج بقوله تعالى في الآية (١٤٣) من سورة النساء «مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ لَا».

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٤

و فريق يرى أن كل نفاق فهو شرك، لأنه ينافى التوحيد.

و فريق ثالث يرى أن النفاق لا يسمى به غير القوم الذين سماهم الله تعالى منافقين.

و هناك مخالفة لبعض الإباضية في بعض المسائل، لا نعرض لها هنا، مخافة التطويل. هذه هي أهم فرق الخوارج، و هذه هي أهم ما لهم من تعاليم و عقائد؛ نضعها بين يدي القارئ قبل أن نتكلم عن موقفهم من التفسير، ليكون على علم بها، و ليعلم بعد ذلك مقدار الصلة بينها و بين ما لهم من تفسير.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٥

مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم

إشارة

تعددت فرق الخوارج، و تعددت مذاهبهم و آراؤهم، فكان طبيعياً- و هم ينتسبون إلى الإسلام، و يعترفون بالقرآن- أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم، تبنى عليها مبادئها و تعاليمها، و أن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها، فما رآته في جانبها- و لو ادعاء- تمسكت به، و اعتمدت عليه، و ما رآته في غير صالحها حاولت التخلص منه بصرفه و تأويله، بحيث لا يبقى متعارضاً مع آرائها و تعاليمها.

سلطان المذهب يغلب على الخوارج في فهم القرآن:

و الذي يقرأ تاريخ الخوارج، و يقرأ ما لهم من أفكار تفسيرية، يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم، و تحكم فيها، فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا على ضوءه، و لا يدركون شيئاً من معانيه إلا تحت تأثير سلطانه، و لا يأخذون منه إلا بقدر ما ينصر مبادئهم و يدعو إليها.

فمثلاً نرى أن أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر، و مخلد في نار جهنم، و نقرأ في الكتب التي تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبي الحديد- و هو ممن تعرض لهم في كتابه (شرح نهج البلاغة)- يسوق لنا أدلتهم التي أخذوها من القرآن، و بنو عليها رأيهم في مرتكب الكبيرة، كما نجد يناقش هذه الأدلة، و يفندها دليلاً بعد دليل. و نرى أن نمسك عن مناقشة ابن أبي الحديد لهذه الأدلة، و يكفي أن نسوق للقارئ الكريم هذه الآيات التي استندوا إليها، و وجهة نظرهم فيها؛ فهي التي تعيننا في هذا البحث، و هي التي ترينا إلى أي حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة في فهم نصوص القرآن ... فمن هذه الأدلة ما يأتي:

قوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة آل عمران «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قالوا: فجعل تارك الحج كافراً.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٦

و منها قوله تعالى في الآية (٨٧) من سورة يوسف «إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» قالوا: و الفاسق- لفسقه و إصراره عليه آيس من روح الله، فكان كافراً.

و منها قوله تعالى في الآيات (٤٤) من سورة المائدة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» قالوا: و كل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله.

و منها قوله تعالى في الآية (١٤ و ١٥ و ١٦) من سورة الليل «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصِيلاها إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» قالوا: و قد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصل إلى النار، فوجب أن يسمى كافراً.

و منها قوله تعالى في الآية (١٠٦) من سورة آل عمران «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» قالوا: و الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت، و

وجب أن يسمى كافرا؛ «لقوله بما كنتم تكفرون».

ومنها قوله تعالى في الآيات (٣٨) وما بعدها إلى آخر سورة عبس «وَجُودٌ يُؤْمِنُ مَسِيرَةً * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوَجُودٌ يُؤْمِنُ عَلَيْهَا عَبْرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجْرَةُ» قالوا: و الفاسق على وجهه غبرة، فوجب أن يكون من الكفرة الفجرة. ومنها قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة سبأ «ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ» قالوا: و الفاسق لا بد أن يجازى، فوجب أن يكون كفورا.

ومنها قوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة الحجر «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» و قال في الآية (١٠٠) من سورة النحل «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» قالوا: فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركا. التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٧

ومنها قوله تعالى في الآية (٢٠) من سورة السجدة «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» قالوا: فجعل الفاسق مكذبا. ومنها قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة الأنعام «... وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» قالوا: فأثبت الظالم جاحدا، و هذه صفة الكفار.

ومنها قوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة النور «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». ومنها قوله تعالى في الآيات (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) من سورة المؤمنون «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ. أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ» قالوا: فنص سبحانه على أن من تخف موازينه يكون مكذبا، و الفاسق تخف موازينه فكان مكذبا، و كل مكذب كافر. ومنها قوله تعالى في الآية (٢) من سورة التغابن «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنًا» قالوا: و هذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر، و الفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافرا «١» ...

هذه بعض الآيات التى تمسك بها الخوارج فى موقفهم من مرتكب الكبيرة الذى لم يتب، و التى حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفيهم من المسلمين.

و لا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات و سباقها، و يعرف الآيات و الأحاديث الواردة فى شأن عصاة المؤمنين. و يتأمل قليلا فى هذه التخريجات و الاستنتاجات التى يقولون بها، لا يسعه بعد هذا كله: إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون، و مندفعون بدافع العقيدة، و سلطان المذهب.

و هناك نصوص من القرآن استغلها أفراد من الخوارج، لتدعيم مبادئهم التى (١) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الثانى ص ٣٠٧-٣٠٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٨

يشدون بها عن عداهم من بعض فرق الخوارج، و هى فى مظهرها التفسيرى أكثر تعصبا، و أبلغ تعنتا، فمن ذلك: أن نافع بن الأزرق كان لا يرى جواز التقيّة التى هى فى الأصل من مبادئ الشيعة، و يستدل على حرمتها بقوله تعالى فى الآية (٧٧) من سورة النساء «... إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ» و يرى نجده بن عامر جواز التقيّة، و يستدل على ذلك بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة غافر «وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ».

و أظهر من هذا: أن نجده بن عامر كان لا يصبوب نافع بن الأزرق فيما يقول به من إكفار القعدة، و استحلال قتل أطفال مخالفيه، و عدم رد الأمانات إلى مخالفيه، و غير ذلك من آرائه التى شذ بها، فأرسل نجده إلى نافع رسالة يقول له فيها: (... و أكفرت الذين عذرهم الله تعالى فى كتابه من قعدة المسلمين و ضعفتمهم. قال الله عز و جل - و قوله الحق و وعده الصدق -: «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا

عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» (١) ثم سماهم - تعالى - أحسن الأسماء فقال «ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» (١). ثم استحلت قتل الأطفال و قد نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قتلهم، و قال الله جل ثناؤه «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (٣) و قال سبحانه فى القعدة خيرا فقال «وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» (٤) فتفضيله المجاهدين على القاعدتين لا يدفع منزله من هو دون المجاهدين .. أو ما سمعت قوله تعالى «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ» (٤) فجعلهم من المؤمنين، ثم إنك لا- تؤدى الأمانة إلى من خالفك و الله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها، فاتق الله فى نفسك؛ و اتق يوما لا يجزى والد عن ولده و لا مولود هو جاز عن والده شيئا، فإن الله بالمرصاد، و حكمه العدل، و قوله الفصل. و السلام). (١) فى الآية (٩١) من سورة التوبة.

(٣) فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام.

(٤) فى الآية (٩٥) من سورة النساء.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٠٩

فرد عليه نافع بكتاب جاء فيه: (... و عبت ما دنت به من إكفار العقدة و قتل الأطفال، و استحلال الأمانة من المخالفين، و سآفسر لك إن شاء الله أما هؤلاء القعدة، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا- يجدون إلى الهرب سبيلا، و لا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا، و هؤلاء، قد تفقهوا فى الدين و قرءوا القرآن و الطريق لهم نهج واضح، و قد عرفت ما قاله الله تعالى فىمن كان مثلهم إذ قالوا «كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» (١) فقال: «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا» (١) و قال سبحانه: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٣). و قال: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ» (٤) فخير بتعذيرهم، و أنهم كذبوا الله و رسوله. ثم قال: «سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٤) فانظر إلى أسمائهم و سماتهم و أما الأطفال، فإن نوحا نبى الله كان أعلم بالله منى و منك، و قد قال «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْمَأْرُضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (٦) فسماهم بالكفر و هم أطفال و قبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك فى قوم نوح و لا نقوله فى قومنا .. و الله تعالى يقول «أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ» (٧) و هؤلاء كمشركى العرب لا يقبل منهم جزية، و ليس بيننا و بينهم إلا السيف أو الإسلام.

و أما استحلال أمانات من خالفنا، فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم كما أحل دماءهم لنا، فدمائهم حلال طلق و أموالهم فىء للمسلمين (...). (٨). (١) فى الآية (٩٧) من سورة النساء.

(٣) فى الآية (٨١) من سورة التوبة.

(٤) فى الآية (٩٠) من سورة التوبة.

(٦) فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة نوح.

(٧) الآية (٤٣) من سورة القمر

(٨) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الأول ص ٣٨٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٠

و لا شك لدينا فى أن نافع بن الأزرق متعصب فى فهمه للآيات على النحو الذى جاء فى رسالته هذه، و هو تعصب بلغ به إلى درجة المغالطة، و إلا فهو جهل منه بمواقع كلام الله، و مدلول آياته.

مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن:

هذا .. و إن الخوارج عند ما ينظرون إلى القرآن لا يتعمقون فى التأويل و لا يغوصون وراء المعانى الدقيقة، و لا يكلفون أنفسهم عناء

البحث عن أهداف القرآن و أسرارها، بل يقفون عند حرفية ألفاظه، و ينظرون إلى الآيات نظرة سطحية، و ربما كانت الآية لا تنطبق على ما يقصدون إليه، و لا تتصل بالموضوع الذى يستدلون بها عليه، لأنهم فهموا ظاهرا معطلا، و أخذوا بفهم غير مراد. و لقد يعجب الإنسان و يدهش عند ما يقرأ ما للقوم من سخافات فى فهمهم لبعض نصوص القرآن، أوقعهم فيها التنطع و التمسك بظواهر النصوص، و لكى لا أتهم بالقسوة فى حكمى هذا، أضع بين يدى القارئ الكريم بعض ما جاء عن القوم، حتى لا يجد مفرا من الحكم عليهم بمثل ما حكمت به.

(روى أن عبيدة بن هلال الشكرى اتهم بامرأة حداد رأوه يدخل منزله بغير إذنه «فأتوا قطريا» (١) فذكروا ذلك له، فقال لهم. إن عبيدة من الدين بحيث علمتم، و من الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إنا لا نقاره على الفاحشة، فقال: انصرفوا .. ثم بعث إلى عبيدة فأخبره و قال: إنا لا- نقار على الفاحشة، فقال: بهتوني يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إني جامع بينك و بينهم؛ فلا تخضع خضوع المذنب، و لا تتناول تناول البريء .. فجمع بينهم فتكلموا، فقام عبيدة فقال بسم الله الرحمن الرحيم «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ: ...» الآيات (١١) و ما بعدها من سورة النور) فبكوا و قاموا إليه فاعتنقوه و قالوا: استغفر لنا .. ففعل «٢». (١) هو قطرى بن الفجاءة الزعيم الثالث للزارقة.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٣٦:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١١

(و يروى أن واصل بن عطاء وقع هو و بعض أصحابه فى يد الخوارج فقال لأصحابه: اعتزلوا و دعونى و إياهم- و كانوا قد أشرفوا على العطب- فقالوا:

شأنك .. فخرج إليهم فقالوا: ما أنت و أصحابك؟ قال: مشركون مستجبرون ليسمعوا كلام الله و يعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلمونا:

فجعلوا يعلمونه أحكامهم، و جعل يقول: قد قبلت أنا و من معى. قالوا فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال: ليس ذلك لكم. قال الله تعالى «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَةً» (١) فأبلغونا مأمنا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن «٢») و من الخوارج من أداه تمسكه بظاهر النصوص إلى أن قال (لو أن رجلا أكل من مال يتيم فلسين و جبت له النار، لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة النساء «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا» و لو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار، لأن الله لم ينص على ذلك «٣») و هذا هو ميمون العجرى زعيم الميمونية «٤» من الخوارج، يرى جواز نكاح بنات الأولاد و بنات أولاد الإخوة و الأخوات و يستدل على ذلك فيقول: (إنما ذكر الله تعالى فى تحريم النساء بالنسب الأمهات، و البنات و الأخوات و العمات، و الخالات، و بنات الأخ، و بنات الأخت، و لم يذكر بنات البنات و لا بنات البنين، و لا بنات أولاد الإخوة و لا بنات أولاد الأخوات «٥» (١) فى الآية (٦) من سورة التوبة.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٠٦

(٣) تلبس إبليس ص ٩٥

(٤) يعدهم صاحب الفرق بين الفرق من غير فرق المسلمين.

(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٦٤-٢٦٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٢

و يروى أن رجلا من الإباضية أضاف جماعة من أهل مذهبه، و كانت له جارية على مذهبه قال لها: قدمى شيئا فأبطأت، فحلف لبيعه من الأعراب، فقيل له: تبع جارية مؤمنة من قوم كفار، فقال «وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا» (١) (فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة). و أيضا نرى أن الخوارج خرجوا على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، و قالوا: لم خرجت من بيتها، و الله تعالى يقول: «وَ قَرْنَ فِي

بَيُوتَكَنَّ» (٢).

(في الآية (٣٣) من سورة الأحزاب).

و أيضا فإن الأزارقة قالوا: من قذف امرأة محصنة فعليه الحد، و من قذف رجلا محصنا فلا حد عليه «٣» .. و هذا لأن الله تعالى نص على حد قاذف المحصنات، و لم ينص على حد قاذف المحصنين.

و قالوا- أيضا- بأن سارق القليل يجب عليه القطع «٤»، أخذنا بظاهر قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة المائدة «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ».

و غير هذا كثير نجده عنهم في بطون الكتب، و هو لا- يدع مجالاً- للشك في أن الخوارج قوم سطحيون في فهمهم لآيات القرآن الكريم. و إدراك معانيه.

موقف الخوارج من السنة و إجماع الأمة، و أثر ذلك في تفسيرهم للقرآن:

و لقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية. أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخا لبعض آيات الكتاب. أو مخصصا (١) التبصير في الدين ص ٣٥.

(٢) التبصير في الدين ص ٣٦.

(٣) التبصير في الدين ص ٢٩.

(٤) التبصير في الدين ص ٢٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٣

لبعض عموماته، أو زائدا على بعض أحكامه، و يظهر أن هذا المبدأ قد تملك قلوب الخوارج، و تسلط على عقولهم، فنتج عنه أن وضع بعضهم على رسول الله صلى الله عليه و سلم هذا الحديث، و هو: (إنكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله و ما خالفه فليس عنى) فقد قال عبد الرحمن المهدي: (الزنادقة و الخوارج وضعوا حديث: ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ... إلخ «١»).

كما كان من أثر هذا الجمود عند ظواهر القرآن أيضا، أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع الأمة، و لم يقدره عند فهمهم لنصوص القرآن، مع أن الإجماع في الحقيقة يستند إلى أصل من الكتاب أو السنة، و ليس أمرا مبتدعا في الدين، أو خارجا على قواعده و أصوله.

و في هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج، و هى مخالفة لإجماع الأمة. و مناقضة لما صح عن الرسول صلى الله عليه و سلم، و قالوا: يبطلها القرآن .. فيقول:

(... قالوا: حكم فى الرجم يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم رجم، و رجمت الأئمة من بعده، و الله تعالى يقول فى الإمام «فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصِنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ» «٢» و الرجم إتلاف للنفس لا يتبعض، فكيف يكون على الإمام نصفه؟ ..

و ذهبوا إلى أن المحصنات؛ ذوات الأرواح .. قالوا: و فى هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد «٣»).

(قالوا: حكم فى الوصية يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله (١) انظر القول الفصل لشيخ الإسلام صبرى ص ٦٤-٦٥ (هامش). و قد اغتر بهذا الحديث الموضوع كثير من المسلمين، و كان ذريعة لتشكيك بعض الناس فى عقائدهم.

(٢) فى الآية (٢٥) من سورة النساء).

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٤

صلى الله عليه و سلم قال: (لا وصية لوارث)، و الله تعالى يقول «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْآقْرَبِينَ» (١).

و الوالدان و ارثان على كل حال لا يحجبهما أحد عن الميراث. و هذه الرواية خلاف كتاب الله عز و جل (٢).
 (قالوا: حكم فى النكاح يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (لا تنكح المرأة على عمتها، و لا على خالتها) و أنه قال: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب). و الله عز و جل يقول «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ» (٣) .. إلى آخر الآية و لم يذكر الجمع بين المرأة و عمتها و خالتها، و لم يحرم من الرضاع إلا الأم المرضعة و الأخت بالرضاع .. ثم قال «وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» فدخلت المرأة على عمتها و خالتها، و كل رضاع سوى الأم، و الأخت فيما أحله الله تعالى (٤).
 يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم، ثم يتولى بنفسه الرد عليهم فى ذلك كله ردا مسهبا فيه إزالة كل شبهة، و دفع كل حجة و ردت على السنن القوم، و لا نطيل بذكر ذلك. و من أراد الوقوف عليه، فليرجع إليه فى تأويل مختلف الحديث) ص ٢٤١ - ٢٥٠.

الإنتاج التفسيري للخوارج:

لم يكن للخوارج من الإنتاج التفسيري مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة، أو غيرهما من فرق المسلمين، التى خلفت لنا الكثير من كتب التفسير، و كل ما وصل إلينا من تفسير الخوارج الأول لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، و اشتملت عليها مناظراتهم، و ذكرنا لك (١) فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢.

(٣) الآية (٢٣) من سورة النساء.

(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٥

منها كل ما وصل إلى أيدينا، و جميع ما استخلصناه من بطون الكتب المختلفة.

و لكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير؟ و هل وقف إنتاجهم عند هذا المقدار الضئيل؟ أو كان لهم مع هذا كتب مستقلة فى التفسير، و لكن فقدها المكتبة الإسلامية على طول الأيام و مر العصور؟.

الحق أنى وجهت لنفسى هذا السؤال، و كدت أعجز عن الجواب عنه ...

و لكن هيا الله لى طرفا جمعنى مع رجل من الإباضية (١) المعاصرين، يقيم فى القاهرة، فوجهت إليه هذا السؤال نفسه، فافهمنى أن الإنتاج التفسيري للخوارج كان قليلا بالنسبة لإنتاج غيرهم من فرق الإسلام، و مع هذا فلم تحتفظ المكتبة الإسلامية من هذا النتاج القليل إلا ببعض منه. لبعض العلماء من الإباضية فى القديم و الحديث.

فسألته: و هل تذكر شيئا من هذه الكتب؟ فذكر لى من الكتب ما يأتى: -١- تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي .. من أهل القرن الثالث الهجرى.

٢- تفسير هود بن محكم الهوارى .. من أهل القرن الثالث الهجرى.

٣- تفسير أبى يعقوب، يوسف بن إبراهيم الوردجاني .. من أهل القرن السادس الهجرى.

٤- داعى العمل ليوم الأمل .. للشيخ محمد بن يوسف اطفيش .. من أهل القرن الحاضر.

٥- هميان الزاد إلى دار المعاد .. له أيضا.

٦- تيسير التفسير .. له أيضا.

فقلت له و هل يوجد شىء من هذه الكتب إلى اليوم؟ .. فقال لى: (١) هو الشيخ إبراهيم اطفيش، الموظف بالقسم الأدبى بدار الكتاب

المصرية.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٦

أما تفسير عبد الرحمن بن رستم، فغير موجود و أما تفسير هود بن محكم، فموجود، و متداول بين الإباضية في بلاد المغرب .. و هو يقع في أربع مجلدات، و قد أطلعني منه على جزءين مخطوطين عنده، و هما الأول و الرابع. أما الأول: فيبدأ بسورة الفاتحة، و ينتهي بآخر سورة الأنعام. و أما الرابع: فيبدأ بسورة الزمر، و ينتهي بآخر القرآن. قال: و أما تفسير أبي يعقوب الوردجاني، فغير موجود، و يذكر المحققون من علمائنا أنه من أحسن التفاسير بحثا، و تحقيقا، و إعرابا. و أما تفسير داعي العمل ليوم الأمل، فلم يتمه مؤلفه؛ لأنه عزم على أن يجعله في اثنين و ثلاثين جزءا، ثم عدل عن عزمه هذا، و اشتغل بتفسير هميان الزاد إلى دار المعاد.

و قد أطلعني محدثي على أربعة أجزاء من تفسير داعي العمل، في مجلدين مخطوطين بخط المؤلف، أما أحد المجلدين: فإنه يحتوى على الجزء التاسع و العشرين، و الجزء الثلاثين من أجزاء الكتاب، و هو يبدأ بسورة الرحمن، و ينتهي بآخر سورة التحريم، و أما المجلد الثاني: فإنه يحتوى على الجزء الحادى و الثلاثين، و الجزء الثانى و الثلاثين، و هو يبدأ بسورة تبارك، و ينتهي بآخر القرآن. و قد وجدت بالمجلد الأخير بعض ورقات فيها تفسير أول سورة (ص) و يظهر - كما قال محدثي - إن المؤلف قد ابتداء تفسيره هذا بسورة الرحمن إلى أن انتهى إلى آخر سورة الناس، ثم بدأ بسورة (ص) و وقف عندها و لم يتم. و أما تفسير هميان الزاد، فموجود و مطبوع في ثلاثة عشر مجلدا كبارا، و منه نسخة في دار الكتب المصرية، و نسخة أخرى عند محدثي.

و أما تيسير التفسير، فموجود و مطبوع في سبع مجلدات متوسطة الحجم، و منه نسخة بدار الكتب المصرية، و أخرى عند محدثي أيضا.

أسباب قلة إنتاج الخوارج في التفسير:

و أنت ترى أن هذه الكتب المذكورة، ما وجد منها و ما لم يوجد، كلها

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٧

للإباضية و حدهم، و لعل السرف في ذلك: أن جميع فرق الخوارج ما عدا الإباضية بادت و لم يبق لها أثر.

أما الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا، و مذهبهم منتشر في بلاد المغرب، و حضر موت، و عمان، و زنجبار.

و لكن بقى بعد هذا سؤال يتردد في نفسى، و لعله يتردد في نفس القارئ أيضا، و هو: ما السرف في أن الخوارج قل إنتاجهم في التفسير؟ و الجواب عن هذا السؤال - كما أعتقد - ينحصر في أمور ثلاثة و هى ما يأتى:

أولا: أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية، و من قبائل تميم على الأخص، و قليل منهم كان يسكن البصرة و الكوفة مع احتفاظه ببداوته، فكانوا لغلبة البداوة عليهم أبعد الناس عن التطور الدينى، و العلمى، و الاجتماعى، و كانوا يمثلون الإسلام الأول فى بساطته، و على فطرته، بدون أن تشوبه تعاليم الأمم الأخرى. أضف إلى ذلك: احتفاظهم بأهم خصائص أهل البدو من سذاجة التفكير، و ضيق التصور، و البعد عن التأثر بحضارة الأمم المجاورة لهم.

ثانيا: أنهم شغلوا بالحروب من مبدأ نشأتهم. و كانت حروبا قاسية و طويلة، و متتابعة ... أسلمتهم حروب على إلى حروب الأمويين، و أسلمتهم حروب الأمويين إلى حروب العباسيين التى تركتهم فى حالة تشبه الاحتضار، و تؤذّن بالفناء، فكان من الطبيعى أن لا تدع الحرب لهم من الوقت ما يتسع للبحث و التصنيف.

ثالثا: أن الخوارج - مع ما هم عليه من شدوذ - كانوا يخلصون لعقيدتهم، و يتمسكون بإيمانهم إلى حد كبير، و يرون أن الكذب

جريمة من أكبر الجرائم، و به- عند جمهورهم- يخرج الإنسان من عداد المؤمنين. فلعل هذا دعاهم إلى عدم الخوض في تفسير القرآن، و جعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٨

مخافة أن لا يصيبوا الحق فيكونوا قد كذبوا على الله ... و قد سئل بعضهم:

لم لم تفسير القرآن؟ فقال: (كلما رأيت قوله تعالى «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ»، «١») أحجمت عن التفسير).

من أجل هذا كله لم يكن ينتظر من الخوارج أن يؤلفوا لنا في التفسير كما ألف غيرهم، و ليس التفسير وحده هو الذى حرم من تصنيف الخوارج و تأليفهم بل كل العلوم فى ذلك سواء، و ما وجد لهم من مؤلفات فى علم الكلام أو الفقه، أو الأصول، أو الحديث، أو التفسير، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية و حدهم، لأن هذه الفرقة هى التى عاشت و انتشرت فى كثير من بلاد المسلمين، و استمرت إلى يومنا هذا، و تأثرت بتعاليم المعتزلة و غيرهم، و سائرت التطور العلمى و الاجتماعى و بعد: فهذا هو تراث الخوارج فى التفسير، و هو تراث نادر عزيز، و ما وجد منه أندر و أعز، و أرى أن اكتفى بالكلام عن هميان الزاد إلى دار المعاد وحده، و عذرى فى ذلك: أن ما وجدناه من تفسير هود بن محكم، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه الاطلاع الكافى الذى يعطينا فكرة واضحة عنه، و عن مؤلفه، و ذلك راجع إلى رداءة خطه، و ضياع بعض أوراقه، و تآكل بعضها.

و ما وجدناه من تفسير داعى العمل ليوم الأمل. لم يكن أكثر حظا من من تفسير هود بن محكم:

و أما تيسير التفسير، فهو فى الحقيقة خلاصة لما تضمنه هميان الزاد فلم يكن الكلام عنه بمعطينا فكرة جديدة عن التفسير عند الإباضية أو عند مفسره على الأقل (١) الآيات (٤٤، ٤٥، ٤٦) من سورة الحاقة:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣١٩

هميان الزاد إلى دار المعاد لمحمد بن يوسف إطفيش

التعريف بمؤلف هذا التفسير «١»:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبي «٢»، الإباضى، و هو من وادى ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب. نشأ بين قومه، و عرف عندهم بالزهد و الورع. و اشتغل بالتدريس و التأليف و هو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، و انكب على القراءة و التأليف، حتى قيل إنه لم ينم فى ليلة أكثر من أربع ساعات. و له من المؤلفات فى شتى العلوم ثروة عظيمة تربو على الثلاثمائة مؤلف .. فمن ذلك: نظم المغنى لابن هشام فى خمسة آلاف بيت .. و كان ذلك فى شبابه، و شرح كتاب التوحيد للشيخ عيسى بن تبغورين و هو من أهم مؤلفاته فى علم الكلام، و شرح كتاب العدل و الإنصاف فى أصول الفقه لأبى يعقوب يوسف بن إبراهيم الوردلانى، و له فى الحديث و فاء الضمانة بأداء الأمانة، و هو مطبوع فى ثلاث مجلدات، و جامع الشمل فى حديث خاتم الرسل، و هو مطبوع فى مجلد واحد. و له فى الفقه شرح كتاب النيل. و هو مطبوع فى عشر مجلدات، و له مؤلفات أخرى فى النحو و الصرف و البلاغة، و الفلك، و العروض، و الوضع، و الفرائض، و غيرها.

و أما التفسير فله فيه داعى العمل ليوم الأمل .. لم يتم، و هميان الزاد إلى دار المعاد .. و هو ما نحن بصدده. و تيسير التفسير .. و هو مختصر من السابق.

هذا، و قد توفى المؤلف سنة ١٣٣٢ هـ اثنين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، و له من العمر ست و تسعون سنة. (١) اعتمدنا فى هذه الترجمة على ما حدثنا به الشيخ إبراهيم اطفيش، و هو تلميذ المؤلف و ابن أخيه.

(٢) الوهبي نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي، الزعيم الأول للخوارج.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٠

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عندهم في عصورهم الأولى؛ و ذلك لقرب عهد مؤلفه، و تأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه، و الذين خالفوه فيه.

و لقد جرت سنة الله بين المؤلفين أن يأخذ اللاحق من السابق، و أن يستفيد المتأخر من المتقدم، و صاحبنا في تفسيره هذا، استمد من كتب من سبقه من المفسرين على اختلاف نحلهم و مشاربهم و إن كان يدعى في مقدمته أنه لا يقلد فيه أحدا إلا إذا حكى قولاً. أو قراءة، أو حديثاً، أو قصة، أو أثراً لسلف. و أما نفس تفاسير الآي، و الرد على بعض المفسرين، و الجواب، فمن عنده إلا ما نسبه لقائله. كما يدعى أنه كان ينظر بفكره في الآيه أولاً، ثم تارة يوافق نظر جار الله الزمخشري، و القاضي البيضاوي .. و هو الغالب، و تارة يخالفهما، و يوافق وجهاً أحسن مما أثبتناه أو مثله.

و مهما يكن من شيء فلا- يسعنا إلا- أن نقول: إن الرجل- و قد قرأ الكثير من كتب التفسير- تأثر بما جاء فيها، و استفاد الكثير من معانيها مما يدعوننا إلى القول بأن تفسيره يمثل التفسير المذهبي للخوارج الإباضية في أواخر عصورهم فقط، و بعد أن خرجوا من عزلتهم التي مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن.

نقرأ في هذا التفسير فنجد أن صاحبه يذكر في أول كل سورة عدد آياتها، و المكي منها و المدني، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهداً لذلك في الغالب بالأحاديث الموضوعه في فضائل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحاً وافياً، فيسهب في المسائل النحوية، و اللغوية، و البلاغية، و يفيض في مسائل الفقه، و الخلاف بين الفقهاء كما يتعرض لمسائل علم الكلام و يفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية و القراءات، و هو مكثر إلى

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢١

حد كبير من ذكر الإسرائيليات التي لا يؤيدها الشرع، و لا يصدقها العقل، كما يطيل في ذكر تفاصيل الغزوات التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم. ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآيه يمكن أن يجعلها في جانبه إلا مال بها إلى مذهبه، و جعلها دليلاً عليه، و لا- بآيه تصارحه بالمخالفة إلا- تلمس لها كل ما في طاقته من تأويل؛ ليتخلص من معارضتها .. و قد يكون تأويلاً متكلفاً، و فاسداً، لا ينجي من معارضة الآيه له، لكنه التعصب الأعمى .. يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله، و يطرح تفكيره الصائب، ليمشى مع الهوى بعقل فارغ و تفكير خاطئ!! و إليك بعض ما جاء في هذا التفسير؛ لتقف على مسلك صاحبه في فهمه لآيات القرآن الكريم.

حقيقة الإيمان:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢ و ٣) من سورة البقرة «.. هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» نراه يقرر: أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد، و الإقرار، و العمل، ثم يقول:

(فمن أخل بالاعتقاد وحده، أو به و بالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضاً من حيث أنه أظهر ما ليس في قلبه، و من أخل بالإقرار وحده، أو بالإقرار و العمل، فهو مشرك عند جمهورنا و جمهور قومنا. و قال القليل:

إنه إذا أخل بالإقرار وحده، مسلم عند الله من أهل الجنة، و إن أخل به و بالعمل ففاسق كافر كفر نعمه ... و إن أخل بالعمل فقط، فمنافق عندنا، فاسق ضال، كافر كفراً دون شرك غير مؤمن بالإيمان التام ... ثم قال:

و اختلف الخوارج .. و هم الذين خرجوا عن ضلالة على، فقالت الإباضية الوهيبية، و سائر الإباضية فيمن أخل بواحد من الثلاثة: ما تقدم من إشراكه بترك الاعتقاد، أو بترك الإقرار، و ينافق بترك العمل، و يشبتون الصغيرة. و قال الباكون كذلك و إنه لا صغيرة. و مذهب المحدثين أن انضمام العمل و الإقرار إلى الاعتقاد

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٢

على التكميل لا على أنه ركن، و نحن نقول: انضمامهما إليه ركن، و هما جزء ماهيته ... «(١)» ها.

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة البقرة «... وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»: الآية» نراه يحاول محاولة جديده في تحقيق أن العمل جزء من الإيمان، و لا يتحقق الإيمان بدونه. فيقول: (ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله - عز و جل - الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقرونا بالعمل الصالح؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به و هو الله تعالى، إذ لا يخدم الإنسان مثلا سلطانا لا يعتقد بوجوده، و ثبوت سلطته، فالعمل الصالح كالبناء النافع، المظلل المانع للحر، و البرد و المضرات، و الايمان أس، و لا ينفع الأس بلا بناء عليه، و لو بنى الإنسان ألوفا من الأسس و لم يبن عليها لهلك بالصوص، و الحر، و البرد، و غير ذلك: فإذا ذكر الإيمان مفردا قيد بالعمل الصالح. و إذا ذكر العمل الصالح، فما هو إلا فرع الإيمان؛ إذ لا نعمل لمن لا- نقر بوجوده. و في عطف الأعمال الصالحات على الإيمان، دليل على أن كلا منهما غير الآخر؛ لأن الأصل في العطف المغايرة بين المتعاطفين، ففي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيدان بأن البشارة بالجنات: إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات و الإيمان.) اه «(٢)».

موقفه من أصحاب الكبار:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلص في النار و ليس بخارج منها.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨١) من سورة البقرة «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» يقول: (١) ج ١ ص ٢٠٠.

(٢) ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٣

... «سيئة» خصلة قبيحة، و هي الذنب الكبير، سواء كان نفاقا أو إشراكا، و من الذنوب الكبيرة: الإصرار. فإنه نفسه كبيرة، سواء كان على الصغيرة أو الكبيرة، و الدليل على أن السيئة: الكبيرة قوله «فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ». و يحتمل وجه آخر و هو أن السيئة: الذنب صغيرا أو كبيرا، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» و إن قلت: روى قومنا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن السيئة هنا الشرك. و كذا قال الشيخ هود- رحمه الله- إنها الشرك. قلت: ما ذكرته أولى مما ذكرها؛ فإن لفظ السيئة عام، و حمله على العموم أولى؛ إذ ذلك تفسير منهما لا حديث، و لا سيما أنهما و قومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار، و لم يحصروا دخولها على الشرك، و معترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكبير، سواء كان أبديا، أو غير أبدي، و ادعاء أن الخلود في الموحدين بمعنى المكث الطويل، و في الشرك بمعنى المكث الدائم، استعمال للكلمة في حقيقتها و مجازها، و هو ضعيف، و أيضا ذكر إحاطة الخطيئات و لو ناسب الشرك كغيره. لكنه أنسب بغيره؛ لأن الشرك أقوى «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» ربطته ذنوبه و أوجبت له دخول النار، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو، أو الحرق، أو حائط السجن، و ذلك بأن مات غير تائب) اه «(١)».

حملته على أهل السنة:

و نرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتديد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب في النار على قدر معصيته، ثم يدخل الجنة بعد ذلك، ندد بهم و لمزهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤) من سورة البقرة «... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» يقول (...).

و ترى أقواما ينتسبون إلى الملة الحنيفة يضاھنون اليهود في قولهم: لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) «(٢)، (١). ٢ ص ١٤٠.

(٢) ج ١ ص ٢٢٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٤

مغفرة الذنوب.

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو و المغفرة على مذهبه القائل: بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها و الرجوع عنها، و يحمل على الأشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة و إن لم يتب.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٨٤) من سورة البقرة «وَأِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ...»

يقول (... و لا دليل في الآية على جواز المغفرة لصاحب الكبيرة الميت بلا توبة منها، كما زعم غيرنا، لحديث هلك المصرون) «(١) اه. و عند قوله تعالى في الآية (١٢٩) من سورة آل عمران (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» يقول: (يغفر لمن يشاء الغفران له بأن يوفقه للتوبة، و يعذب من يشاء تعذيبه بأن لا يوفقه، و ليس من الحكمة أن يعذب المطيع الموفى، و ليس منها أن يرحم العاصي المصير، و قد انتفى الله من أن يكون ظالما، و عد من الظلم: النقص من حسنات المحسن، و الزيادة في سيئات المسيء، و ليس من الجائر عليه ذلك، خلافا للأشعرية في قولهم:

يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين، و النار جميع الأبرار. و قد أخطأوا في ذلك..»، اه «(٢)، و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة الزمر (... إِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) يقول: (بشرط التوبة منها، بدليل التقييد بها في مواضع من القرآن و السنة، و المطلق يحمل على المقيد. و قد ذكرت في القرآن مرارا شرطا للغفران، فذكرها فيما ذكرت. ذكر لها فيما لم تذكر، و إنما تحذف للدليل، و القرآن في حكم كلام واحد لا يتناقض حاشاه، و أيضا يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة مع أنه ناه عنها، لأن ذلك يؤدي بهم إلى الاجترار عليها. و قد أخفى الصغائر لئلا يجترأ عليها من حيث أنه غفرها. و يدل (١) ج ٣ ص ٤٤٣.

(٢) ج ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٥

لذلك تعقيب الآية بقوله «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ» لئلا يطمع طامع كالقاضي - يريد البيضاوي - في حصول المغفرة بلا توبة. و يدل له أيضا قراءة ابن مسعود و ابن عباس «يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء» أي لمن يشاؤه بالتوبة ..

و أما قوله «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» فاستئناف معلل لمغفرة الذنوب بالتوبة، أي يغفرها، و يقبل التوبة منها. لأن من شأنه الغفران العظيم و الرحمة العظيمة و ملكه و غناه واسع لذلك. و المراد بالآية: التنبيه على أنه لا يجوز لمن عصى الله - أي عصيان كان - أن يظن أنه لا يغفر له، و لا يقبل توبته، و ذلك مذهبنا معشر الإباضية و زعم القاضي و غيره: أن الشرك يغفر بلا توبة و مشهور مذهب القوم: أن الموحد إذا مات غير تائب: يرجى له، و أنه إن شاء عذبه بقدر ذنبه و أدخله الجنة. و إن شاء غفر له. و مذهبنا: أن من مات على كبيرة غير تائب: لا يرجى له) اه «(١).

رأيه في الشفاعة:

و يرى المؤلف: أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين، و لا لأصحاب الكبائر و من خلال رأيه هذا ينظر إلى آيات الشفاعة فلا يرى فيها إلا ما يتفق و مذهبه فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة البقرة (وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ) يقول: (... و إن قلت: فهل الشفاعة و الفداء بالعدل واقعان و لكن لا يقبلان؟ أم غير واقعين؟ قلت: غير واقعين ... أما من تأهل للشفاعة من الملائكة، و الأنبياء و العلماء و الصالحين، فلا يتعرضون بها لمن ظهرت شقاوته لهم، فإن تعرضوا بها لهم قبل أن تظهر لهم، قيل لهم: إنهم بدلوا و غيروا، و ليسوا أهلا لها، فيتركوا التعرض لها. و أما من لم يتأهل لها فمشغول بنفسه لا يدري ما يفعل به «٢» اه. (١) ج ١٢ ص ٧٢.

(٢) ج ٢ ص ١٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٦

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٣) من السورة نفسها (... وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ..) يقول: («و لا تنفعها شفاعة لعدمها هناك فالمراد أنه لا شفاعة تنفعها، فالشفاعة هنالك منفية من أصلها، و ليس المراد أنه هناك شفاعة لا تقبل. و إنما ساغ ذلك، لأن القضية السالبة تصدق بنفى الموضوع، كما تصدق نفى المحمول، فكما تقول: ليس زيد قاعدا في السوق و تريد أنه فيها لكنه قائم، كذلك تقول: ليس زيد قاعدا فيها، و تريد أنه ليس فيها أصلا و ذلك مخصوص بالمشرك؛ فإنه لا شفاعة له هنالك إلا شفاعة القيام لدخول النار، و لا نفع له في دخول النار، و إنما الشفاعة للموحد التائب «١» اه و عند قوله تعالى في الآية (١٥٩) من سورة الأنعام «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شَرِيحًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ... الآية» يقول: (... فالآية نص أو كالنص في أن لا شفاعة لأهل الكبائر. أي أنت برىء منهم على كل وجه و قد علمت عن عمر و أبي هريرة أن الآية في أهل البدع من هذه الأمة «٢» اه

رؤية الله تعالى:

و يرى صاحبنا: أن رؤية الله تعالى غير جائزة و لا واقعة لأحد مطلقا، و يصرح بذلك في تفسيره لآيات الرؤية، و يرد على أهل السنة الذين يقولون بجوازها في الدنيا، و وقوعها للمؤمنين في الآخرة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة البقرة (وَ إِذِ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ... الآية) نراه يذكر ما ورد من الروايات في هذا الباب، و من الروايات رواية تفيد: أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة، يعقب عليها فيقول: (و هذه الرواية تقتضي أن موسى يجيز الرؤية، حتى سألها و منعها .. و ليس كذلك، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك، فنهاهم عن ذلك و حرمه، أو سكت انتظارا للوحي (١) ج ٢ ص ٢٩٩

(٢) ج ٦ ص ٢٧٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٧

في ذلك، فلما فرغ و خرج، عاودوه ذكر ذلك، فقال لهم: قد سألته على لسانكم كما تحبون، لأخبركم بالجواب الذي يجمعكم لا لجواز الرؤية، فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكا، فكفروا بطلب الرؤية، لاستلزامها اللون، و التركيب، و التحيز، و الحدود، و الحلول .. و ذلك كله يستلزم الحدوث، و ذلك كله محال على الله، و إذا كان ذلك مستلزما عقلا لم يختلف دنيا و أخرى، فالرؤية محال دنيا و أخرى، و لا بالإيمان، و الكفر، و النبوة، و عدمها «١» اه.

و عند قوله تعالى في الآية (١٥٣) من سورة النساء «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. الآية» يقول: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ إِذْ سَأَلُوا رُؤْيَا اللَّهَ جَل و علا الموجبة للتشبيه .. و قالت الاشعريه: الصاعقة إنما هي من أجل امتناعهم من الإيمان بما وجب إيمانه إلا بشرط الرؤية، لا من أجل طلب الرؤية.

و هو خلاف ظاهر الآية، مع أن الرؤية توجب التحيز، و الجهات، و التركيب و الحلول، و اللون، و غير ذلك من صفات الخلق. و يدل لما قلته قوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ «٢») و الأشعرية لما أفحموا قالوا:

بلا كيف. و حديث الرؤية إن صح فمعناه: يزدادون يقينا بحضور ما وعد الله في الآخرة، فلا يشكون في وجود الله. و كمال صدقه، و قدرته، كما لا يشكون في البدر «٣» اه.

أفعال العباد:

و إذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحيانا، فإنه يصرح بمخالفتهم في بعض المسائل، فمثلا نراه يقرر: أن أفعال العباد كلها بإرادة الله تعالى و أن العبد لا يخلق أفعال نفسه. و نراه يرد على المعتزلة و لا يرضى موقفهم من هذه المسألة (١) ج ٢ ص ٤٢.

(٢) في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام

(٣) ج ٥ ص ١٧٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٨

فمثلا عند ما فسر قوله تعالى في الآية (١٠٧) من سورة الأنعام (..) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَ مَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ... الآية) يقول: (و لو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئا، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله و مشيئته، و فيه رد على المعتزلة في قولهم: لم يرد معصية العاصي ..

و زعموا أن المعنى: لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك. و لزم عليهم أن يكون مغلوبا على أمره إذا عصى و لم يرد المعصية، بل أراد الإيمان منهم و لم يقع .. تعالى الله عن ذلك- و الحق أن المعصية بإرادته و مشيئته، مع اختيار العاصي .. لا جبر، للذم عليها و العقاب و النهى عنها «١» اه) و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٢) من سورة الزمر (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) يقول: (من إيمان، و كفر، و خير، و شر، مما هو كائن دنيا و أخرى «٢» اه).

موقفه من المتشابه.

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل، و يعيب على من يقول بالظاهر، و إن فوض علمه و كفيته لله فمثلا- عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢١٠) من سورة البقرة (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) يقول: (إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ... على حذف مضاف أي أمر الله. بدليل قوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ «٣») و الحاصل؛ أن مذهبنا و مذهب هؤلاء- يريد المعتزلة و من وافقهم- تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به «٤» اه (١) ج ٦ ص ٦٨

(٢) ج ١٢ ص ٧٧

(٣) في الآية (٢٣) من سورة النحل

(٤) ج ٢ ص ١٥٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٢٩

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة المائدة (..) وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) نراه يذكر الحديث القائل (إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، و كلتا يديه يمين) ثم يقول: (و يمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، و العرب تذكر اليمين في الأمر الحسن، و دل لذلك قوله: و كلتا يديه يمين، و التأويل في مثل ذلك هو الحق.

و أما قول سلف الأشعرية في مثل ذلك. إنا نؤمن به و ننزهه عن صفة الخلق و نكل معناه إلى الله، و نقول. هو على معنى يليق به. و كذا طوائف من المتكلمين؛ فجمود و تعام عن الحق «١» اه و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف (إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... الآية) يقول (.. و استوى بمعنى استولى بالملك، و الغلبة، و القوة، و التصرف فيه كيف شاء، و العرش جسم عظيم و ذلك مذهبنا و مذهب المعتزلة، و أبي المعالي و غيره من حذاق المتكلمين، و خص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته «٢» اه

موقفه من تفسير الصوفية

و نجد المؤلف يبدى رأيه في تفسير الصوفية بصراحة تامة؛ و يحمل على من يفسر هذا التفسير، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة البقرة (... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ). (... قِيلَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ الْإِنْفَاقُ مِنْ جَمِيعِ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَمْوَالِ؛ وَ الْعِلْمُ، وَ قُوَّةِ الْبَدَنِ، وَ الْجَاهِ، وَ فَصَاحَةِ اللِّسَانِ .. يَنْفَعُونَ بِذَلِكَ عِيَالَهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَى عَلَى الْوَجْهِ الْجَائِزِ وَ قِيلَ. الْمَعْنَى وَ مِمَّا خَصَّصْنَاهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَارِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ - جَل وَ عِلَا - يَفِيضُونَ ...

و هذا القول و الذي قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف، و ليس تفسير الصوفية عندي مقبولا إذا خالف الظاهر، و كان تكلفا، أو خالف أسلوب العربية (١) ج ٥ ص ٣٣٩

(٢) ج ٦ ص ٣٦١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٠

و لا- أعذر من يفسر به و لا- أقبل شهادته، و أتقرب إلى الله تعالى ببعضه و البراءة منه، فإنه و لو كان في نفسه حقا لكن جعله معنى للآية أو للحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر و أساليب العرب التي يتخاطبون بها و تكلف من التكلف الذي يبغضه الله، فإن القولين و إن ناسبهما قوله صلى الله عليه و سلم إن علما لا يقال به ككثر لا ينفق منه الذي رواه الطبراني في الأوسط، لكن لا يصحان تفسيراً للآية، إذ لا يتبادر ذلك و لا يجرى على أسلوب العرب و القول الأخير أبعد و أنا أعد اعتقادي ذلك نورا و معرفة أفاضها الله الرحمن الرحيم على. و قد أقبل القول الذي قبله. لأنه قريب من أسلوب العرب. و قليل التكلف و الصحيح أن المراد. النفقة الواجبة و غير الواجبة من المال «١» اه

موقفه من الشيعة

و صاحبنا لا يسلم للشيعة استدلالهم على إمامة علي بقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَثِّقْتُكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» بل نراه يفند احتجاجهم بالآية فيقول:

و زعم الشيعة أن الذين آمنوا الذي يقيمون الصلاة ... إلى راعون. المراد به علي بن ابي طالب و أن جملة «هم راعون» حال من واو «يؤتون الزكاة» و هي مقارنة و أنه أعطى الزكاة و هو في الصلاة راعع سأل سائل و هو في ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه في حال ركوعه و أراد به الزكاة، و عبر عنه بالجمع تعظيما و هي دعوى بلاد ليل عليها و الأصل العموم، و الأصل أن لا يطلق لفظ الجمع على المفرد و من دعوى الشيعة أن المراد بالولي في الآية المتولى للأمر المستحق للتصرف فيها، و أن هذه الآية دليل على إمامة علي ... و هذا أيضا تكلف بلاد ليل «٢» اه

رأيه في التحكيم

و نرى المؤلف يتأثر في تفسيره هذا بعقيدته في مسألة التحكيم بين علي و معاوية (١) ج ١ ص ٢٢٠

(٢) ج ٥ ص ٣٧٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣١

رضى الله عنهما. فيفر من الآيات التي تعارضه، ويمكن أن تكون مستندا لمخالفيه.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النساء «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ... الآية» نراه يقول:

(.. و لا دليل في الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هي ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها، و أيضا المراد هنا: الإصلاح مثلا لا مجرد بيان الحق «١») اه. و عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٩، ١٠) من سورة الحجرات «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... إلى قوله ... «لَعَلَّكُمْ تَزْحَمُونَ» يقول: ... و الإصلاح بالنصح و الدعاء إلى حكم الله ... ثم يقول:

و سمع على رجلا يقول في ناحية المسجد (لا حكم إلا الله) فقال: كلمه حق أريد بها باطل ... لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، و لا نمنعكم الفء ما دامت أيديكم في أيدينا، و لا نبدؤكم بقتال (قلت) الحق أنه إذا حكم الله بحكم في مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، و لو كان على أعلم عالم. ثم قال: قيل: و في الآية دليل على أن البغي لا يزيل اسم مؤمن؛ لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين .. و سماهم إخوة مؤمنين (قلت) لا دليل؛ أما و إن طائفتان من المؤمنين .. فتسميتهم فيه مؤمنين: باعتبار ما يظهر لنا قبل ظهور البغي و أما إنما المؤمنون إخوة ... فتسميتهم فيه مؤمنين إخوة: باعتبار ما ظهر لنا قبل البغي، فقوله و أصلحوا بين أخويكم في معنى اهدوهم إلى الحال الى كانوا عليها قبل. أو المراد بالمؤمن الموحد لا الموفى؛ بدليل لا يزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن، و لا يشرب الخمر حين يشربها و هو مؤمن. و أما لفظ آمن و إيمان، فلا يختصان بالموفى) اه «٢». (١) ج ٤ ص ٤٧٨

(٢) ج ١٢ ص ٥١٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٢

إشادته بالخوارج و حطه من قدر عثمان و على و من والاهما:

ثم إنه لا- تكاد تأتي مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، و لا لذكر على، أو عثمان، أو من يلوذ بهما إلا و غض من شأنهم، و رماهم بكل نقيصة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١٠٥، ١٠٦) من سورة آل عمران «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. الخ» نراه يعيب على من يقول من المفسرين: إن الذين تفرقوا و اختلفوا هم من خرج على على عند قبوله التحكيم و يقول: إن أمر الحكمين لم يكن حين نزلت الآية، بل في إمارة على، و تفرقوا و اختلفوا صيغتان ماضويتان، و لا دليل على صرفها للاستقبال، و لا على التعيين لمن ذكر، بل دلت الآية على خلوصهم من ذلك، و على أنهم المحقون الذين تبيض وجوههم، فمن خالفهم فهو داخل في قوله تعالى «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» و هو يعم كل من كفر بعد إيمانه. و اعلم أنه قد خرج على على حين أذعن للحكومة صحابة كثيرين- رضى الله عنهم- و تابعون كثيرين، فترى المخالفين يذمون و يشتمون من خرج عنه، و يلعنونه، غير الصحابة الذين خرجوا عنه، و الخروج واحد إما حق في حق الجميع، و إما باطل في حق الجميع ...

فإذا كان حقا في جنب الكل، فكيف يشتمون من خرج عليه غير الصحابة، و إن كان باطلا في جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضا ... عافاهم الله.

و نرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد يصح الحديث و يزيدون فيه. و قد يصح و يؤولونه فينا و ليس فينا) .. ثم سرد المؤلف بعض الأحاديث التي حملت عليهم، وردّها بعدم صحتها، أو بحملها على غلاة الخوارج كالصفرية. أو بحملها على من قبل التحكيم .. ثم قال: و الدليل الأقوى على أن تلك الأحاديث ليست فينا و لا فيمن اقتدينا بهم، و أن الراضين بالتحكيم هم المبطلون، ما رواه أبو عمر، و عثمان بن خليفة: أن رجلا من تلاميذ أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس، لقيه بعد ما وقع فيما وقع من أمر

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٣

التحكيم، فقال له: قف يا عبد الله بن قيس أستفتك، فوقف .. و كان التلميذ قد حفظ عنه أنه حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: سيكون في هذه الأمة حكمان ضالان مضلان يضلان و يضل من اتبعهما قال: فلا تتبعهما و إن كنت أحدهما. ثم قال له التلميذ: إن صدقت فعليك لعنة الله، و إن كذبت فعليك لعنة الله. و معنى ذلك: إن كانت الرواية التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ثم وقع فيها، فعليه لعنة الله، و إن كان كاذبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعليه لعنة الله؛ لنقله الكذب عن رسول الله، لا محيص عن الأمرين جميعا ... («١») اه.

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٩) من سورة التوبة «إِلَّا تَتُوبُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. الآية» نراه يحاول الغض من شأن عثمان الذي بذل ماله في غزوة تبوك دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، و نصره لدين الله فيقول: (..) و عن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي يدعى النبوة هلك و أصابتهم سنون فهلكت أموالهم؛ فبعث رجلا- من عظمائهم، و جهز معه أربعين ألفا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم و لم يكن للناس قوة، و كان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام، فقال: يا رسول الله .. هذه مائتا بعير بأقتابها و أحلاسها، و مائتا أوقية. قال صاحب المواهب:

قال عمران بن حصين: فسمعتة يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعدها- و العهدة على القسطلاني و عمران- فإن صح ذلك فمعنى ذلك: الدعاء له بالخير، لا القطع بأنه من أهل الجنة. و عن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة، فثرها في حجره صلى الله عليه وسلم، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها في حجره و يقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، فإن صح هذا فذلك أيضا دعاء. و إنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. («٢»). (١) ج ٤ ص ١٨٥-١٨٦.

(٢) ج ٧ ص ٢١٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٤

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠٣) و ما بعدها من سورة الكهف «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» ... الآيات إلى قوله «ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُوءًا» يقول (..) و زعم على أنهم أهل حروراء، و هم المسلمون الذين خرجوا عنه؛ لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم.

و سأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء. و سئل أهم مشركون؟ فقال: لا، فقال: أ منافقون؟ فقال: لا .. بل إخواننا بغوا علينا .. و ذلك خطأ تشهد به عبارته؛ لأنه ليس الإنسان إلا مؤمنا أو مشركا أو منافقا، فإذا انتفى الشرك و النفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون، و المؤمن لا يوصف بالبغى و هو مؤمن، و من بغى دخل في حدود النفاق. و أيضا الباغى من يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم، و السافك دماء من لم يتبعه على هذه الزلة. و أيضا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله، و لا بلفائه، بل مؤمنون بآيات الله و بالبعث. و الأخسرون أعمالا قد وصفهم الله سبحانه و تعالى بكفر الآيات و اللقاء، و لست أقول ذلك معجبا بنفسى، و لا متعجبا ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرحت به («١») اه.

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة النور «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...

الآية» يقول: (...)

قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم: أبو بكر، و عمر، و عثمان، و علي، و إن استخلافهم: إمامتهم العظمى، و سيأتي ما يدل على بطلان دخول عثمان و علي في ذلك .. ثم قال: و في أيام أبي بكر، و عمر، و عثمان، و علي. و بعدهم، كانت الفتوح العظيمة، و تمكين الدين لأهله، لكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان و علي، فإنهما و إن كانت خلافتهم برضى الصحابة، لكن ما ماتا إلا و قد بدلا و غيرا فسحقا .. كما في أحاديث عنه صلى الله عليه و سلم أنهما مفتونان «(٢)».

و عند تفسيره لقوله تعالى في آخر الآية السابقة «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» يقول: (... أقول- و الله أعلم بغيه- إن أول من (١) ج ١٠ ص ١٨٣ و ١٨٤.

(٢) ج ١٠ ص ٢٨٠-٢٨١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٥

كفر بتلك النعمة و جحد حقها: عثمان بن عفان .. جعله المسلمون على أنفسهم، و أموالهم، فخانهم في كل ذلك. زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم و وسعه و ابتاع من قوم و أبي آخرون فغضبهم، فصاحوا به فسيرهم للحبس، و قال: قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا به، فكلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن، و قد جمع في ذلك غضب المال، و قذف عمر رضى الله عنه. و استعمل أخاه لأمه و هو الوليد بن عقبه. و نزل «و اتقوا فتنة» بحضرة أبي بكر، و عمر- رضى الله عنهما- و عثمان-، و علي، فقال لعثمان: بك تفتح و بك تشب، و قال لعلي: أنت إمامها. و زمامها، و قائدها، تمشى فيها مشى البعير في قيده و قال لضرس بعض الجلوس في نار جهنم أعظم من جبل أحد، و قال: يثور دخانها تحت قدمي رجل يزعم أنه منى و ليس منى، ألا إن أوليائي المتقون .) إلى آخر ما ذكره من النقائص في حق علي و عثمان رضى الله عنهما «(١)» ..

و عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة الشورى «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .. الآية» يقول: (... فمودة قرابته صلى الله عليه و سلم من لم يبدل منهم و لم يغير، مثل فاطمة، و حمزة، و العباس، و ابنه- رضى الله عنهم- واجبة) .. ثم ذكر روايات كثيرة في الحث على حب آل البيت و مودتهم .. و بعد ما فرغ منها قال: (لكن المراد بآله: آله الذين لم يبدلوا، فخرج على و نحوه ممن بدل، فإنه قتل من قال صلى الله عليه و سلم: لا يدخل قاتله الجنة. و لم يصح عندنا معشر الإباضية رواية: أنه لما نزلت قيل: من قرابتك الذين تجب علينا مودتهم؟ فقال: علي، و فاطمة، و ابناهما ... «(٢)» اه.

اعتداده بنفسه و حملته على جمهور المسلمين:

هذا .. و إن المؤلف ليفخر كثيرا في مواضع من تفسيره بنفسه و بأهل نحلته، و يرى أنه و حزبه أهل الإيمان الصادق، و الدين القويم، و التفكير السليم. و أما من عداهم: فضالون مضلون، مبتدعون مخطئون. (١) ج ١٠ ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) ج ١٢ ص ٢٢٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٦

فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٧٠) من سورة البقرة «وَ إِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا الآية» يقول ما نصه:

(.. و اعلم أن الحق هو القرآن و السنة، و ما لم يخالفهما من الآثار، فمن قام بذلك، فهو الجماعة و السواد الأعظم، و لو كان واحدا؛ لأنه نائب النبي صلى الله عليه و سلم و الصحابة، و التابعين الذين اهتدوا، و كل مهتد، و من خالف ذلك، فهو مبتدع ضال، و لو كان جمهورا، هذا ما يظهر لى بالاجتهاد، و كنت أقرره للتلاميذ عام تسع و سبعين و مائتين و ألف .. فأصحابنا الإباضية الوهبيية هم الجماعة و السواد الأعظم و أهل السنة و لو كانوا أقل الناس، لأنهم المصيبون في أمر التوحيد، و علم الكلام، و الولاية، و البراءة، و الأصول

دون غيرهم «١» اه.

و عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيه (١١٢) من سورة هود «فَأَشِيتَقِم كَمَا أُمِرْتَ وَ مَن تَابَ مَعَكَ. الآيه» يقول ما نصه: (و اعلم يا أخى - رحمك الله - أنى استقرت هذه المذاهب المعترية كـمذهبنا معشر الإباضية، و مذهب المالكية، و مذهب الشافعية و مذهب الحنفية، و مذهب الحنبلية، بالمنقول و المعقول، فلم أر مستقيماً منها فى علم التوحيد و الصفات سوى مذهبنا، فإنه مستقيم خال عن التشبيه و التعطيل.

حججه لا تقاومها حجة، و لا تثبت لها، و الحمد لله وحده «٢» اه.

هذا هو مفسرنا الإباضى، و هذا هو تفسيره الذى ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، و التعصب للمذهب الفاسد، و هو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجاراة المعتزلة فى بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعية التى جرت على ألسن وضاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم؛ و يروجوا له بين الناس. (١) ج ٢ ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) ج ٨ ص ٢١٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٧

الفصل الخامس تفسير الصوفية

تمهيد أصل كلمة تصوف - معناها - نشأته و تطوره - أقسامه

أصل كلمة تصوف:

وقع الاختلاف فى أصل هذه الكلمة (تصوف) فقيل: إنها مشتقة من الصوف؛ و ذلك لأن الصوفية خالفوا الناس فى لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفاً و زهداً. و قيل: إنه من الصفاء؛ و ذلك لصفاء قلب المريد، و طهارة باطنه و ظاهره عن مخالفة ربه. و قيل: إنه مأخوذ من الصفة التى ينسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفة. و يرى غيرهم أنه لقب غير مشتق. قال القشيري رحمه الله: (و لا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، و لا قياس، و الظاهر أنه لقب. و من قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى. قال. و كذلك من الصوف؛ لأنهم لم يختصوا به «١» اه.

معنى التصوف:

و أما معنى التصوف .. فقيل: (هو إرسال النفس مع الله على ما يريد «٢»).

و قيل: (هو مناجاة القلب و محادثة الروح، و فى هذه المناجاة طهارة لمن شاء (١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢.

(٢) دائرة المعارف للبستاني المجلد السادس ص ١٣٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٨

أن يتطهر، و صفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس و الدنس، و فى تلك المحادثة عروج إلى سماء النور و الملائكة، و صعود إلى عالم الفيض و الإلهام. و ما هذا الحديث و النجوى إلا ضرب من التأمل، و النظر، و التدبر فى ملكوت السموات و الأرض. بيد أن الجسم و النفس متلازمان و توأمان لا ينفصلان، و لا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر. فمن شاء لنفسه صفاء و رفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات و ملذات البدن .. فالتصوف إذن: فكر و عمل. و دراسة، و سلوك «١».

نشأة التصوف و تطوره:

و التصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا و متاعها، آخذين أنفسهم بالزهد و التقشف، مبالغين فى العبادة، فكان منهم من يقوم الليل و يصوم النهار، و منهم من يشد الحجر على بطنه تربيةً لنفسه و تهذيباً لروحه، غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية، و إنما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد و التفانى فى طاعة الله تعالى، و كان هذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى، و أول من سمي بالصوفى: أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ خمسين و مائة من الهجرة «٢» و فى هذا القرن و ما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية، و ظهرت تعاليم القوم و نظرياتهم التى تواضعوا عليها، و أخذت هذه الأبحاث تنمو و تتزايد كلما تقادم العهد عليها. و بمقدار ما اقتبسها القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذا الأبحاث و النظريات.

و لقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة و المتكلمين و الفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التطور الصوفى، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل و كونوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، (١) دروس فى تاريخ الفلسفة للدكتور مدكور، و يوسف كرم ص ١٤٠.

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ١٥٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٣٩

و أصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق و مبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة، و جعلهم يحاربون التصوف الفلسفى، و يؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد، و التقشف، و تربية النفس، و إصلاحها ... و ما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى. و من ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع و الطاعة، و تحلوا بالزهد الكاذب و التقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق، و يتولون تربية الأتباع و المريدين، و وقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة، هى دائرة الأوراد و الأذكار، و إن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه و التفسير و الحديث.

أقسام التصوف:

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين: تصوف نظرى: و هو التصوف الذى يقوم على البحث و الدراسة. و تصوف عملى: و هو التصوف الذى يقوم على التقشف و الزهد و التفانى فى طاعة الله. و كل من القسمين كان له أثره فى تفسير القرآن الكريم، مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضاً إلى قسمين: تفسير صوفى نظرى، و تفسير صوفى فيضى أو إشارى. و سنتكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به و يوفق إليه:

أولاً- التفسير الصوفى النظرى

وجد من المتصوفة- كما قلنا- من بنى تصوفه على مباحث نظرية، و تعاليم فلسفية، فكان من البدهى أن ينظر هؤلاء المتصوفة إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم، و تتفق و تعاليمهم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٠

و ليس من السهل أن يجد الصوفى فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه، و لا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته التى يقول بها؛ إذ أن القرآن عربى جاء لهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات، ربما كانت فى الغالب مستحدثة و بعيدة عن روح الدين و بدهة العقل. غير أن الصوفى حرصا منه على أن يتسلم له تعاليمه و نظرياته، يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه، فتراه من أجل هذا يتعسف فى فهمه للآيات القرآنية، و يشرحها شرحا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع، و تشهد له اللغوة.

ابن عربى شيخ هذه الطريقة:

إشارة

و نستطيع أن نعتبر الأستاذ الأ-كبر محيى الدين بن عربى شيخ هذه الطريقة فى التفسير؛ إذ أنه أظهر من خب فيها و وضع، و أكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظرى، و إن كان له من التفسير الإشارى ما يجعله فى عداد المفسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضا.

تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية:

نقرأ لابن عربى فى الكتب التى يشك فى نسبتها إليه، كالتفسير المشهور باسمه، و فى الكتب التى تنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية، و الفصوص، فنراه يطبق كثيرا من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية. فمثلا يفسر بعض الآيات بما يتفق و النظريات الفلسفية الكونية، فعند قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن إدريس عليه السلام:

«وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» نجده يقول: (و أعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحي عالم الأفلاك، و هو فلك الشمس، و فيه مقام روحانية إدريس، و تحنه سبعة أفلاك، و فوقه سبعة أفلاك، و هو الخامس عشر) .. ثم ذكر الأفلاك التى تحته، و التى فوقه، ثم قال: (و أما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين كما قال تعالى:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤١

«وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ» (١) فى هذا العلو، و هو يتعالى عن المكان لا عن المكانة (٢).

و عند قوله تعالى فى الآية (٨٧) و ما بعدها من سورة البقرة: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ... إلى قوله -.. كَذَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» يقول: (... و الظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعال، و ميكائيل هو روح الفلك السادس و عقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد، و إسرافيل هو روح الفلك الرابع و عقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات، و عزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه و يسلمها إلى الله تعالى (٣).

و عند قوله تعالى فى الآيتين (١٩، ٢٠) من سورة الرحمن «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ» يقول: «مرج البحرين» بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج، و بحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات «يلتقيان» فى الوجود الإنسانى «بينهما برزخ» هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة و لطافتها، و لا- فى كثرة الأجساد الهيولانية و كثافتها «لا يبغيان» لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن و يخرج به و يجعله من جنسه، و لا البدن يجسد الروح و يجعله ماديا

... سبحانه خالق الخلق القادر على ما يشاء «(٤)» اه.

تأثره في تفسيره بنظرية وحدة الوجود:

كذلك نرى ابن عربي يتأثر في تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود، التي هي أهم النظريات التي بنى عليها تصوفه، فتراه في كثير من الأحيان يشرح (١) في الآية (٣٥) من سورة محمد عليه السلام

(٢) الفصوص ج ١ ص ٢٦

(٣) تفسير ابن عربي ج ١ ص ٥١

(٤) تفسير ابن عربي ج ٢ ص ٢٨٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٢

الآيات على وفق هذه النظرية، حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذي أراده الله تعالى.

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في أول سورة النساء «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... الآية» نجده يقول: «اتقوا ربكم» اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، و اجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم؛ فإن الأمر ذم و حمد، فكونوا وقايته في الذم، و اجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدياء عالمين» (١).

و في تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٩ و ٣٠) من سورة الفجر «.. فَاذْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي» يقول: (... و ادخلي جنتي التي هي ستري، و ليست جنتي سواك، فأنت تسترني بذاتك الإنسانية فلا- أعرف إلا- بك، كما أنك لا تكون إلا بي فمن عرفك عرفني، و أنا لا- أعرف فأنت لا- تعرف، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى. غير المعرفة التي عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، و معرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت ربا، و أنت رب لمن له فيه أنت عبد، و أنت رب و أنت عبد لمن له في الخطاب عهد .. الخ) (٢).

و في سورة آل عمران عند قوله تعالى في الآية (١٩١) «... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا أَى شَيْئًا غَيْرِكُ؛ فَإِنِ الْغَيْبُ هُوَ الْبَاطِلُ، بَلْ جَعَلْتَهُ أَسْمَاءَ كُ و مظاهر صفاتك «سبحانك» نزهك أن يوجد غيرك. أى يقارن شيء فردانيتك أو يثنى وحدانيتك ...» (٣) اه.

و مثلا عند قوله تعالى في الآيتين (٩ و ١٠) من سورة الشمس «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ (١) الفصوص ج ١ ص ٥٠.

(٢) الفصوص ج ١ ص ١٩١-١٩٣

(٣) تفسير ابن عربي ج ١ ص ١٤١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٣

«زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» يقول: (تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكوا إلا بربها، فيه تشریف و تعظيم في ذاتها، لأن الزكاة ربو، فمن كان الحق سمعه و بصره و جميع قواه، و الصورة في الشاهد صورة خلق، فقد زكت نفس من هذا نعته، و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج، كالأسماء الإلهية لله. و الخلق كله بهذا النعت في نفس الأمر، و لو لا أنه هكذا في نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور و لا- وجود، و لذلك خاب من دساها؛ لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دساها في هذا النعت، و ما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتي لا ينفك عنه و يستحيل زواله. لذلك وصفه بالخبيثة حيث لم يعلم هذا، و لذلك قال «قد أفلح» ففرض له البقاء، و البقاء ليس إلا لله، أو لما كان عند الله، و ما ثم إلا الله، أو ما هو عنده، فخرائنه غير نافذة، فليس إلا صور تعقب صوراً ...» (١) اه.

.. و غير هذا كثير من قسر الآيات و إخضاعها لنظرية وحدة الوجود التي يدين بها ابن عربي.

قياسه الغائب على الشاهد:

كذلك نجد ابن عربي يفهم بعض النصوص القرآنية فهما خياليا منتزعا من المشاهد المحسوس، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة الرحمن.

«الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ*». يقول ما نصه (: الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ) على أى قلب نزل «خلق الإنسان» فعين له الصنف المنزل عليه «علمه البيان» أى نزل له البيان فأبان عن المراد الذى فى الغيب «الشمس والقمر بحسبان» ميزان حركات الأفلاك «والنجم والشجر يسجدان» لهذا الميزان أى من أجل هذا الميزان، فمنه ذو ساق وهو الشجر. ومنه ما لا طاق له وهو النجم، فاختلفت السجدتان.

«والسمااء رفعها» وهى قبة الميزان «ووضع الميزان» ليزن به الثقلان «ألا تطغوا فى الميزان» بالإفراط والتفريط من أجل الخسران «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ (١) الفتوحات ج ٤ ص ١١٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٤

بالقسط» مثل اعتدال نشأة الإنسان» إذ الإنسان لسان الميزان «و لا تخسروا الميزان» أى لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل. و قال تعالى «وَوَضَعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ (١)» فأعلم أنه ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علما وعملا، فللمعاني ميزان بيد العقل يسمى المنطق، يحتوى على كفتين تسمى المقدمتين، وللکلام ميزان يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعانى التى تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذى لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: «وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢)» «وَلَكِنْ يُنزَّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ (٣)» وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه: يمينه وشماله، وجعل لسانه: قائمه ذاته. فهو لأى جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذى يوزن بالأعمال على شكل القبان، ولهذا وصف بالثقل والخفة؛ ليجمع بين الميزان العدى وهو قوله تعالى «بِحُسْبَانٍ» وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا فى القبان، فلذلك لم يعين الكفتين، بل قال: فأما من ثقلت موازينه... فى حق السعداء، وأما من خفت موازينه.. فى حق الأشقياء، ولو كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا. وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضا إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان... اه «٤».

إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية:

وكذلك يخضع ابن عربي التفسير الصوفى النظرى إلى القواعد النحوية (١) فى الآية (٤٧) من سورة الأنبياء.

(٢) فى الآية (٢١) من سورة الحجر.

(٣) فى الآية (٢٧) من سورة الشورى.

(٤) الفتوحات ج ٣ ص ٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٥

أحيانا، ولكنه خضوع يكيه الصوفى على حسب ما يرضى روحه و يوافق ذوقه، فنجد ابن عربي مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الحج «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» يقول: (... وقوله «عند ربه» العامل فى هذا الظرف فى طريقنا. قوله: «و من يعظم» أى من يعظمها عند ربه، أى فى ذلك الموطن، فلتبحث فى المواطن التى تكون فيها عند ربك ما هى؟ ... كالصلاة مثلا، فإن المصلى يناجى ربه، فإذا عظم حرمة الله فى هذا الموطن كان خيرا له ... والمؤمن إذا نام على طهارة فوجهه عند ربه، فيعظم هناك حرمة الله، فيكون الخير الذى له فى مثل هذا الموطن المبشرة التى تحصل له فى نومه أو يراها له غيره. والمواطن التى يكون

العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمان الله على الشهود ... اه «١». (١) الفتوحات ج ٤ ص ١١٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٦

التفسير الصوفي النظرى فى الميزان

إشارة

من هذه الأمثلة السابقة كلها نستطيع أن نقرر فى صراحة و اطمئنان: أن التفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن- فى الغالب- عن هدفه الذى يرمى إليه!! .. يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه و آياته، و يقصد الصوفى هدفا معينا بأبحاثه و نظرياته. و قد يكون بين الهدفين تنافر و تضاد، فىأبى الصوفى إلا أن يحول القرآن عن هدفه و مقصده، إلى ما يقصده هو و يرمى إليه، و غرضه بهذا كله: أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، و أن يقيم نظرياته و أبحاثه عن أساس من كتاب الله، و بهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته التصوفية و لم يعمل للقرآن شيئا، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين و إلحاد فى آيات الله!! ..

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود، و رأينا غيره كأبى يزيد البسطامى، و الحلاج، و غيرهما، يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبا منه. و وحدة الوجود- عندهم- معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد كل العالم مظاهر و مجال له، فالله سبحانه هو الموجود الحق، و كل ما عداه ظواهر و أوهام، و لا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع و المجاز. و هذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، و عن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم و أخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله فى أئمتهم، و صوروه- أعنى الصوفية- بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة، و إن اختلفت فى الاصطلاح و الألفاظ...!! «١».

هذا المذهب الذى خول لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، و لمثل ابن عربى (١) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون إلى فريقين: فريق يقول بالحلول، و فريق لا يقول به؛ أنظر الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٧

أن يقول: إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله و حل فيها، و الذى جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى و غير سماوى؛ إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم و صور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذى يذهب بالدين من أساسه .. هل يكون سائغا و مقبولا أن نجعله أصلا نبني عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم؟ .. هل يليق بابن عربى و هو الأستاذ الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى فى الآيتين (٦ و ٧) من سورة البقرة «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» * حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

فيقول شارحا لهذا النص القرآنى: (يا محمد .. إن الذين كفروا: ستروا محبتهم فى .. دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به. أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك؛ فإنهم لا يعقلون غيرى، و أنت تنذرهم بخلقى و هم ما عقلوه و لا شاهدوه، و كيف يؤمنون بك و قد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعا لغيرى، و على سمعهم فلا- يسمعون كلاما فى العالم إلا- منى، و على أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى، فلا يبصرون سوى، و لهم عذاب عظيم عندى ..

أردهم بعد هذا المشهد السننى إلى إنذراك و أحجبهم عنى، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو ادنى قربا .. أنزلتك إلى من يكذبك، و يرد ما جئت به إليه منى فى وجهك، و تسمع فى ما يضييق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائيك؟ فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضى عنهم «١» اه.

و هل يجدر بمثل هذا الصوفي الكبير أن يتأثر بمذهبه في وحدة الوجود فيقول في قوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة الإسراء: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»: (... فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفا .. و هو الصحيح؛ فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء (١) الفتوحات ج ١ ص ١١٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٨

إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم، و ما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوا إليهم. و لهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيره منه على المقام أن يهتضم، و إن أخطئوا في النسبة فما أخطئوا في المقام، و لهذا قال: «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَشْيَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» (١) أى أتم قلم عنها: إنها آلهة .. و إلا- فسموهم، فلو سموهم لقالوا: هذا حجر، أو شجر، أو ما كان، فتميز عندهم بالاسمية؛ إذ ما كل حجر عبد و لا اتخذ إلهها، و لا كل شجر، و لا كل جسم منير، و لا كل حيوان. فله الحجة البالغة عليهم بقوله:

قل سموهم .. (٢).

و أصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى في الآية (١٦٣) من سورة البقرة «وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» قال: (... إن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين، و الذين عبدوا غير الله قربة إلى الله، فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم و الإله الذى يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم فى أحديته .. فقال: و إلهكم، فجمعنا و إياهم إله واحد، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم. و من قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا- من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه؛ و لهذا ذكر الله أنهم يتبرءون منهم يوم القيامة. و ما أخذوا إلا- من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم، لا أنهم جهلوا قدر الله فى ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: و إلهكم إله واحد؟. و نبههم فقال: «قل سموهم» فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالا بعيدا، أو مينا؛ لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة؛ لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم، و علموا أنه لا يسمع و لا يبصر و لا يغنى عنهم من الله شيئا، فهى شهادة من الله بقصور نظرهم و عقولهم. ثم أخبرنا الله أنه قضى ألا نعبد إلا إياه بما نسبه من الألوهية (١) فى الآية (٢٣) من سورة النجم:

(٢) الفتوحات ج ٣ ص ١١٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٤٩

لهم أى جعلوهم كالنواب لله و الوزراء، كأن الله استخلفهم، و من عادة الخليفة أن يكون فى رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه؛ فلهذا نسبوا الألوهية لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك. و قول من قال: أجعل الآلهة إلهها واحدا إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع، فأشبه هذا القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى، و معلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هى هذه الصورة، و كل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها: إنها الله. لكن لما كان هذا من عند الله، و ذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم فى ذلك، كما ثبت فى قوله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» (١) هذا حقيقة؛ فوجه الله موجود فى كل جهة يتولى أحد إليها، و مع هذا لو تولى الإنسان فى صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته، لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولى فى غير هذه العبادة التى لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة، فإن الله يقبل ذلك التولى، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه الله لكان كافرا و جاهلا، و مع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله، و لهذا اختلفت الشرائع: فما كان محرما فى شرع ما، حلله الله فى شرع آخر، و نسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر فى عين ذلك المحكوم عليه، قال الله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مَنَاجَا» (٢) فما نسخ من شرع و اتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود «إِنَّا جَعَلْنَاكَ

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴿٣﴾» يعنى الحق الذى أنزلته إليك «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾» و هو ما خالف شرعك «فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٣﴾» و هو ما شرعه الله لك على الخصوص. فإذا علمت هذا و تقرر لديك، علمت أن الله إله واحد فى كل شرع عينا، و كثير صورة و كونا، (١) فى الآية (١١٥) من سورة البقرة

(٢) فى الآية (٤٨) من سورة المائدة

(٣) فى الآية (٢٦) من سورة ص

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٠

فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه، و كلها حق و مدلولها صدق، و التجلى فى الصورة كثرة أيضا لاختلافها، و العين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع؟

أو كيف يصح لى أن أخطئ قائلا؟ و لهذا لا يصح خطأ من أحد فيه، و إنما الخطأ فى إثبات الغير و هو القول بالشرىك، فهذا القول بالعدم: لأن الشرىك ليس ثم، و ذلك لا يغفره الله، لأن الغفر الستر، و لا يستر إلا من له وجود، و الشرىك عدم فلا يستر .. فهى كلمة تحقيق «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴿١﴾» لأنه لا يجده. فلو وجده لصح و كان للمغفرة عين تتعلق بها. و ما فى الوجود من يقبل الأضداد إلا العالم من حيث ما هو واحد، و فى هذا الواحد ظهرت الأضداد، و ما هى إلا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود التى بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة و أمثالها ... «٢» اه.

رأينا فى التفسير الصوفى النظرى:

و رأى الذى أدين الله عليه: أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله.

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة و ما وراء الطبيعة، و الذى جرى عليه ابن عربى و غيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية .. لا نقبله على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى و مقصوده الذى جاء القرآن من أجله، و إن كنا نقبله - إن صح - على أنه مما تحتمله الآية ما دام لا يعارض القرآن و لا ينافيه. على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون ظنيا، و قد يظهر خطؤه فى يوم من الأيام، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه؟

أما التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة، فهذا أيضا ضرب من التخمين (١) فى الآية (١١٦) من سورة النساء.

(٢) الفتوحات ج ٤ ص ١٠٦ و ١٠٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥١

و التخمين لا يجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم صلى الله عليه و سلم. و أما التفسير الذى يبنى على قواعد نحوية أو بلاغية، فهذا إن ساعده السياق و السباق قبل، و إلا أعرضنا عنه، و أخذنا بما يصححه النظر و يقويه الدليل.

هذا هو رأينا فى التفسير الصوفى النظرى، و ليس لدينا من المعاذير ما نستطيع أن نتلمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير الذى يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه. و إذا صح - و ما أرانى ارتضى ذلك - أن نغض الطرف عما قالوه فى التفسير من بيان لحقائق الموجودات علويها و سفليها. و حقائق الملائكة، و الروح، و العرش، و الكرسي، و أمثال ذلك، فلا يصح أن نغض الطرف بحال عما قالوه من التفسير المبنى على وحدة الوجود. و إذا أمكننا - على كره - أن نتسامح فى بعض عبارات شديدة جرى بها لسان صوفى أخذه الوجد، و ارتفع به الحال، و غاب عن نفسه، و شاهد ما لا نشاهد، فقال فى لحظة نسى فيها نفسه فلم ير إلا الله: أنا

الحق، أو أنا الله، فليس في مقدورنا أن نتسامح في مثل هذه التفاسير التي جرت بها ألسنة القوم و أقلامهم و هم في حالة الهدوء النفسى، يقدرون ما يقولون، و يشعرون بكل ما ينطقون أو يكتبون. هذا و لم نسمع بأن أحدا ألف في التفسير الصوفى النظرى كتابا خاصا يتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشارى، و كل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربى، و كتاب الفتوحات المكية له، و كتاب الفصوص له أيضا، كما يوجد بعض من ذلك في كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب. التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٢

ثانيا - التفسير الصوفى الفيضى أو الإشارى

حقيقته:

إشارة

التفسير الفيضى أو الإشارى: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، و يمكن التطبيق بينها و بين الظواهر المرادة.

الفرق بينه و بين التفسير الصوفى النظرى:

و على هذا فالفرق بين التفسير الصوفى الإشارى و التفسير الصوفى النظرى من وجهين:
أولاً: أن التفسير الصوفى النظرى، يبنى على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفى أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك. أما التفسير الإشارى، فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجع العبارات هذه الإشارات القدسية، و تنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

ثانياً: أن التفسير الصوفى النظرى، يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعانى، و ليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه .. و هذا بحسب طاقته طبعاً.

أما التفسير الإشارى، فلا يرى الصوفى أنه كل ما يراد من الآية، بل يرى أى هناك معنى آخر تحتمله الآية و يراد منها أولاً و قبل كل شئ: ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره.

هل للتفسير الإشارى أصل شرعى؟

ربما يجول بخاطر القارئ الكريم هذا السؤال و هو: هل للتفسير الإشارى

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٣

أصل شرعى يقوم عليه، أو هو أمر جد بعد ظهور المتصوفة و ذبوع طريقتهم و للجواب عن هذا السؤال نقول:

لم يكن التفسير الإشارى بالأمر الجديد فى إبراز معانى القرآن الكريم، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله صلى الله عليه و سلم .. أشار إليه القرآن، و نبه عليه الرسول عليه الصلاة و السلام، و عرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم و قالوا به.

أما إشارة القرآن إليه، ففي قوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء «... فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَيْثُ بَدِئًا» و قوله فى الآية

(٨٢) منها أيضا: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» و قوله فى الآية (٢٤) من سورة محمد عليه السلام: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر و بطن.

و ذلك لأن الله سبحانه و تعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا، و يحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهرة، لأن القوم عرب، و القرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره و لا شك. و إنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، و حضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله و مراده، و ذلك هو الباطن الذى جهلوه و لم يصلوا إليه بعقولهم «١».

و أما تنبيه الرسول صلى الله عليه و سلم، فذلك فى الحديث الذى أخرجه الفريابى من رواية الحسن مرسلًا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال:

(لكل آية ظهر و بطن، و لكل حرف حد، و لكل حد مطلع) و فى الحديث الذى أخرجه الديلمى من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: (القرآن تحت العرش له ظهر و بطن يحاج العباد).

ففى هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر و بطن. و لكن ما هو الظهر و ما هو البطن؟ اختلف العلماء فى بيان ذلك: (١) انظر الموافقات ج ٣ ص ٣٨٢-٣٨٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٤

ف قيل. ظاهرها- أى الآية- لفظها، و باطنها تأويلها:

و قال أبو عبيدة: إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية و ما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، و حديث حدث به عن قوم، و باطنها وعظ الآخرين و تحذيرهم أن يفعلوا كفعالهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم ... و لكن هذا خاص بالقصص، و الحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

و حكى ابن النقيب قولاً- ثالثاً: و هو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، و بطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل فى معنى الظهر و البطن. و أما قوله فى الحديث الأول:

و لكل حرف حد، فمعناه على ما قيل. لكل حرف حد أى منتهى فيما أراد الله من معناه أو لكل حكم مقدار من الثواب و العقاب. و الأول أظهر. و قوله:

و لكل حد مطلع، و معناه على ما قيل أيضا: لكل غامض من المعانى و الأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته و يوقف على المراد به. و قيل: كل ما يستحقه من الثواب و العقاب يطالع عليه فى الآخرة عند المجازاة. و الأول أظهر أيضا.

و أما الصحابة فقد نقل عنهم من الأخبار ما يدل على أنهم عرفوا التفسير الإشارى و قالوا به، أما الروايات الدالة على أنهم يعرفون ذلك فمنها:

ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال. (إن القرآن ذو شجون و فنون، و ظهور و بطون، لا تنقضى عجائبه، و لا- تبلغ غايته فمن أو غل فيه برفق نجا، و من أخبر فيه بعنف هوى، أخبار و أمثال، و حلال و حرام، و ناسخ و منسوخ، و محكم و متشابه، و ظهر و بطن، فظهره التلاوة، و بطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، و جانبوا به السفهاء).

و روى عن أبى الدرداء أنه قال: (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها).

عن ابن مسعود أنه قال: (من أراد علم الأولين و الآخرين فليثور القرآن).

و هذا الذى قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٥

و أما الروايات الدالة على أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشارياً، فما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم: فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رثيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال. ما تقولون في قوله تعالى «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أ كذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه له.

قال. إذا جاء نصر الله و الفتح، و ذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك و استغفره، إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول «١» اه فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر، أما ابن عباس و عمر، فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر، هو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة:

و أيضاً ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى في الآية (٣) من سورة المائدة «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» فرح الصحابة و بكى عمر رضي الله تعالى عنه و قال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا نعيه عليه الصلاة و السلام، فقد أخرج ابن أبي شيبة (أن عمر رضي الله تعالى عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النبي صلى الله عليه و سلم ما يبكيك؟ قال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال عليه الصلاة و السلام: صدقت «٢»):
فعمر رضي الله عنه أدرك المعنى الإشاري: و هو نعي رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أقره النبي على فهمه هذا: و أما باقى الصحابة: فقد فرحوا بتزول الآية؛ لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها: (١) البخاري باب التفسير ج ٦ ص ١٧٩.
(٢) تفسير الألوسي ج ٦ ص ٦٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٦

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له طهر و بطن .. ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي .. و بطن يفهمه أصحاب الموهبة و أرباب البصائر.

غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هي أمر فوق ما نطن و أعظم مما نتصور. و لقد فهم ابن مسعود أن في فهم معاني القرآن مجالا-رحبا و متسعا بالغا فقال: (من أراد علم الأولين و الآخرين فليثور القرآن) و إلى هذا أشار الله تعالى بقوله «مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» (١) و قال «.. ما كان حديدًا يُفْتَرَى وَ لَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» (٢).

التفاوت في إدراك المعاني الباطنة و إصابتها:

غير أن هذه المعاني المتكاثرة التي يشتمل عليها باطن القرآن لم تكن في متناول المفسرين جميعا، كما أنهم لم يكونوا متساوين في القدر الذي أدركوه منها، بل تفاوتوا في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في الأخذ بالأسباب، كما أنهم لم يكونوا جميعا مصيبين فيما وصلوا إليه منها و أدركوه، بل أصابوا في بعض منها و أخطئوا في بعض آخر، و ما أخطئوا فيه: بعضه عن جهل، و بعضه عن تعمد خبيث و نية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر على ما به، قالوا بالباطن أيضا، و لكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق و عقيدتهم الفاسدة و الباطنية. لم يعترفوا بظاهر القرآن و اعترفوا بالباطن فقط، و لكنهم أيضا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق و نواياهم السيئة، و كلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية أهل الحقيقة و أصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن و لم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، و لكنهم حين فسروا المعاني الباطنة خلطوا عملا-صالحا و آخر سيئا، فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة سائغة، تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع؛ و لهذا أرى أن أستعرض بعض ما للقوم من أفهام في التفسير، ثم أحكم عليها حكما مجردا عن كل شيء إلا عن

الحق و الإنصاف، ثم بعد هذا أذكر شروط التفسير الإشاري، و هي الشروط التي إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله و الأخذ به، و إلا أسقطناه و رفضناه مهما كان لقاتله من المكانة في نفوسنا أو في نفوس القوم. (١) في الآية (٣٨) من سورة الأنعام. (٢) في الآية (١١١) من سورة يوسف. التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٧

التفسير الإشاري في الميزان

إشارة

قلنا: إن القرآن له ظهر و بطن و ذكرنا لك أهم الأقوال في معنى الظاهر و الباطن. و مهما يكن من شيء فإن ظاهر القرآن- و هو المنزل بلسان عربي مبين- هو المفهوم العربي المجرد. و باطنه هو مراد الله تعالى و غرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ و التراكيب. هذا هو خير ما يقال في معنى الظاهر و الباطن. و على ذلك نقول: إن كل ما كان من المعاني العربية التي لا- يبنى فهم القرآن إلا- عليها داخل تحت الظاهر، فالمسائل البيانية، و المنازع البلاغية، لا معدل لها عن ظاهر القرآن، فإذا فهم الإنسان مثلا الفرق بين ضيق في قوله تعالى في الآية (١٢٥) من سورة الأنعام «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ» و بين ضائق في قوله تعالى في الآية (١٢) من سورة هود «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ» و عرف أن (ضيق) صفة مشبهة دالة على الثبوت و الدوام في حق من يرد الله أن يضلّه، و أن (ضائق) اسم فاعل يدل على الحدوث و التجدد و أنه أمر عارض له صلى الله عليه و سلم. إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن. إذا فلا- يشترط في فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربي، و إذا كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من تفسير القرآن في شيء.. لا مما يستفاد منه و لا مما يستفاد به. و من ادعى فيه ذلك فهو مبطل في دعواه. أما المعنى الباطن، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده. بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، و معنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآني، و لهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٨

أولهما:- أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية:

و ثانيهما: أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول: فظاهر من قاعده كون القرآن عربيا، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق، و لأنه مفهوم يلصق بالقرآن و ليس في ألفاظه و لا في معانيه ما يدل عليه، و ما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا؛ إذ ليست نسبتة إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه. و لا مرجح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تحكّم و تقول على القرآن ظاهر، و عند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم:

و أما الشرط الثاني: فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان و له معارض صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، و الدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء «١»:

إذا توافر هذان الشرطان في معنى من المعاني الباطنة قبل؛ لأنه معنى باطن صحيح، و إلا رفض رفضا باتا؛ لأنه معنى باطن فاسد و تقول على الله بالهوى و التشهى:

إذا عرفنا هذا كله ثم ذهبنا نستعرض على ضوءه أقوال القوم في معانى القرآن الباطنة، وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح، و كثير منها أيضا هو من قبيل الباطن الفاسد المرفوض. و كبرى المشاكل أن بعضها منسوب إلى رجال من أهل العلم لهم مكانة علمية و دينية في نفوسنا، بل و بعضها منسوب إلى رجال من الصحابة، و هم أعرف الناس بكتاب الله و ما يحويه من المعانى و الأسرار. (١) الموافقات ج ٣ ص ٣٩٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٥٩

فمن الأفهام الباطنة المنقولة عنهم و يمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول: ما جاء في قوله تعالى في الآية (٢٢) من سورة البقرة «.. فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» من قول سهل التستري: («فلا- تجعلوا لله أندادا» أى أضدادا، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها و مناها بغير هدى من الله «١») اه.

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة داخله تحت عموم الأنداد حتى لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادا لا صنما، و لا شيطانا، و لا النفس، و لا كذا، و لا كذا.. و هذا مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية و ما يحف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أ كان صنما أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، و لم يعرف أنهم اتخذوها أربابا من دون الله، و مع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، و بيان ذلك:

أن الناظر في القرآن الكريم، قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجربه فيما لم تنزل فيه الآية؛ لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه، و سهل التستري- رحمه الله- حين قال في الآية ما قال، لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتى بما هو ند في الاعتبار الشرعي؛ و ذلك لأن حقيقة الند: أنه المضاد لنده، الجارى على مناقضته، و النفس الأمارة هذا شأنها؛ لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، و هذا هو الذى يعنى به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه، و على هذا فلا غبار على قول سهل في الآية، بل و هناك ما يشهد له من الجهتين- جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتبارا، و جهة كون الخطاب- و إن كان موجها للمشركين- فيه لأهل الإسلام نظر و اعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولى: فقوله تعالى في الآية (٣١) من سورة (١) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٠

التوبة: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» و ظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله، و لكنهم ائتمروا بأوامرهم، و انتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، و ما أباحوا لهم حللوه، و فاتهم أن المحلل و المحرم هو الله، فقال الله سبحانه: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» و هذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه.

و أما ما يشهد له من الجهة الثانية: فهو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان أين تذهب بكم هذه الآية؟

«أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا» و كان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالى «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ... الآية «١»» فعمد رضى الله عنه، له في الآية نظر و اعتبار، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه و إن لم تنزل فيه، حذرا منه و خوفا أن يكون التوسع في المباحات سببا في الحرمان من نعيم الآخرة و متاعها، فإذا صح لعمر رضى الله عنه أن ينزل الآية على المتوسعين في المباحات من المؤمنين و لم تنزل فيهم، صح لسهل أيضا أن ينزل الآية على النفس الأمارة و إن لم تنزل فيها كذلك.

و من ذلك أيضا ما جاء في قوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة البقرة «... وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ» من قول سهل رحمه الله.

(لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، و إنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره .. أى لا تهتم بشىء هو غيرى. قال: فأدم عليه

السلام لم يعصم من الهمة و الفعل فى الجنة، فالحقه ما لحقه من أجل ذلك. قال: و كذلك كل من ادعى ما ليس له و ساكنه قلبه ناظرا إلى هوى نفسه، لحقه الترك من لله عز و جل مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله، فيعصمه من تدييره و ينصره على عدوه و عليها ... قال: و آدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تديير نفسه للخلود لما أدخل الجنة، ألا ترى أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى و الشهوة العلم و العقل و البيان و نور القلب؛ (١) الآية (٣٠) من سورة الاحقاف.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦١

لسابق القدر من الله تعالى، كما قال عليه السلام: الهوى و الشهوة يغلبان العلم و العقل «١» اه.

و بالنظر فى كلام سهل هذا نرى أنه ادعى فى الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن المراد النهى عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله.

و إن كان هذا منهيًا عنه أيضا، لكن يمكن أن يكون لهذا الكلام الذى قاله سهل وجه يجرى عليه، و ذلك أن النهى فى الآية لا يصح حمله على نفس القرب مجردا، إذ لا- مناسبة فيه ظاهرة، و لأنه لم يقل به أحد، و إنما النهى عن معنى فى القرب و هو إما التناول و الأكل. و إما غيره و هو شىء ينشأ الأكل عنه، و ذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل، و لا شك فى أن السكون لغير الله لجلب منفعة أو دفع مفسدة منهي عنه.

فهذا التفسير له وجه ظاهر فكأنه يقول: لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهى الله عنه لكان ساكنا لله وحده: فلما لم يفعل و سكن إلى أمر فى الشجرة غره به الشيطان و هو الخلود فى الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان فقال فى الآيتين (١٢١، ١٢٢) من سورة طه «و عصى آدم ربه فغوى ثم اجتباؤه ربه فتأب عليه و هدى .

مثل هذا- و هو كثير فى كلام الصوفية- لا نعدم له وجهًا نحمله عليه حتى يكون تفسيرًا صحيحًا و مقبولًا.

و لكن هناك أقوال لهم فى التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائرا و عجزا عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة و تصبح مقبولة. فمن ذلك:

ما يروونه عن ابن عباس أنه فسر (الم) فقال: (الألف: الله. و اللام: جبريل و الميم محمد صلى الله عليه و سلم .. و أن الله أقسم بنفسه و جبريل و محمد عليهما السلام «٢»).

و هذا إن صح نقله فهو مشكل إلى حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة (١) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٦-١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٢

بحرف ليس معهودا فى كلام العرب. اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى كقول الشاعر:

فقلت لها قفى فقالت قاف أراد: قالت و قفت.

و قول زهير:

بالخير خيرات و إن شرافا و لا أربد الشر إلا أن تا

أراد: و إن شرافش، و أراد: إلا أن تشاء.

و قول الآخر:

نادوهموا ألا الجموا ألاتا قالوا جميعا كلهم ألاتا

أراد: ألا تركبون. قالوا: ألا فاركبوا.

و قوله عليه الصلاة و السلام «كفى بالسيف شا» أراد. شافيا «١».

... و لكن أين الدليل على ما ذكر فى قوله (الم)؟

على أنه لم يقد دليل من الخارج يدل على هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعي على نقلها لو صح أنه مما يفسر و يقصد تفهيم معناه ... و لما لم يثبت شيء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه و إلا توقفنا:

و مثل هذا المروى عن ابن عباس- و لعله أشكل منه- ما قاله سهل التستري في تفسيره للبسملة حيث قال: («بسم الله الرحمن الرحيم» الباء: بهاء الله عز و جل، و السين: سناء الله عز و جل، و الميم: مجد الله عز و جل، و الله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، و بين الألف و اللام منه حرف مكى (١) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٥-١٥٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٣

غيب من غيب إلى غيب، و سر من سر إلى سر، و حقيقة من حقيقة إلى حقيقة، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان.

و الرحمن: اسم فيه خاصية من الحرف المكنى بين الألف و اللام، و الرحيم:

هو العاطف على عباده بالرزق في الفرع، و الابتداء في الأصل، رحمة لسابق علمه القديم) اه «١».

و ما فسر به (الم) فاتحة البقرة و هو قوله (الم). اسم الله عز و جل فيه معان و صفات يعرفها أهل الفهم به، غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة، فأما هذه الحروف إذا انفردت، فالألف: تأليف الله عز و جل. ألف الأشياء كما شاء، و اللام: لطفه القديم، و الميم: مجده العظيم) و قال: (لكل كتاب أنزله الله تعالى سر، و سر القرآن فواتح السور؛ لأنها أسماء و صفات، مثل قوله المص و الر، و المر، و كهيعص، و طسم، و حمعسق، فإذا جمعت هذه الحروف بعضها إلى بعض كانت اسم الله الأعظم، أى إذا أخذ من كل سورة حرف على الولاء أى على ما أنزلت السورة و ما بعدها على النسق (الر) و (حم) و (ن) معناه الرحمن. و قال ابن عباس و الضحاك: الم: معناه أنا الله أعلم. و قال على رضى الله عنه: هذه أسماء مقطعة، إذا أخذ من كل حرف حرفا لا يشبه صاحبه فيجمعن كان اسم من أسماء الرحمن، إذا عرفوه و دعوه به كان الإسم الأعظم الذي إذا دعى به أجاب ..) اه «١».

و ما قاله أبو عبد الرحمن السلمى في تفسير (الم) فاتحة البقرة و هو قوله، (الم: قيل: إن الألف ألف الوحانية، و اللام: لام اللطف، و الميم: ميم الملك، معناه من وجدنى على الحقيقة بإسقاط العلائق و الأغراض تلطفت له ... فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى، و هو الاتصال بالملك الملك، دون الاشتغال بشيء من الملك .. و قيل: الم، معنى الألف: أى (١) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٤

أفرد سر، و اللام ليت جوارحك لعبادتي، و الميم: أقم معى بمحو رسومك و صفاتك، أزينك بصفات الأنس بى، و المشاهدة إياى، و القرب منى ..) اه «١»:

فهذا الذى قاله سهل التستري و الذى قاله أبو عبد الرحمن السلمى مشكل كالمروى عن ابن عباس، بل و أعظم منه إشكالا حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلى أسرار غيبية و معان مكنية، و إذا جمعت هذه الحروف على طريقة مخصوصة كان كذا و كذا، بل و يدعون أحيانا أن هذه الحروف هى أصل العلوم و منبع المكاشفات على أحوال الدنيا و الآخرة، و ينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئا من ذلك، و هذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن، و لا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل برهانى أو إقناعى، و كل ما أقوله فيها: إنها دعاوى محالة على الكشف و الاطلاع، و دعوى الكشف و الاطلاع لا تصلح دليلا شرعيا بحال من الأحوال، و من المواضع المشككة أيضا، و لكنها أخف إشكالا مما مر .. ما جاء عنهم من نحو تفسير سهل التستري لقوله تعالى فى الآية (٩٦) من سورة آل عمران:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... الآية» بقوله: (أول بيت وضع للناس بيت الله عز و جل بمكة، هذا هو الظاهر، و باطنها الرسول يؤمن به

من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس (٢)» و من ذلك تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٦) من سورة النساء «.. وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنْبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ ..» حيث يقول- بعد ذكره للتفسير الظاهر- (.. و أما باطنها، فالجار ذى القربى: هو القلب، و الجار الجنب: هو الطبيعة، و الصاحب بالجنب: هو العقل المقتدى بالشرعية، و ابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله ..) اه (٢) (١) حقائق التفسير ص ٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ٤١ و ٤٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٥

و تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤١) من سورة الروم: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» بقوله: (مثل الله الجوارح بالبر، و مثل القلب بالبحر، و هم أعم نفعا و أكثر خطرا، هذا هو باطن الآية، ألا ترى أن القلب إنما سمي قلبا لتقلبه و بعد غوره؟ ..) اه (١) و تفسير ابن عطاء الله السكندري لقوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة يس) (وَ آيَةٌ لَهُمُ الْمَآرِضُ الْمُتَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» بقوله: «القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ و الاعتبار و الموعظة، و أخرجنا منها حبا معرفة صافية تضيء أنوارها على الظاهر و الباطن)» (٢). هذا و أمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية و بيان معانيها التي تحمل عليها لا غير لكان هو بعينه مذهب الباطنية؛ و ذلك لأن المعاني التي حملوا عليها الألفاظ في الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ، لا بالوضع الحقيقي و لا بالوضع المجازي المناسب، و ليس في مساق الآيات ما يدل على هذه المعاني المذكورة، و معلوم أن القرآن عربي و مخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه و تراكيبه، فهذه الآيات المذكورة آنفا لا يفهم منها العربي أكثر من المعاني المتبادرة إلى فهمه، و التي تنساق إلى ذهنه ابتداء، فلا يفهم من البيت الحرام، و لا- من الجار ذى القربى، و الجار الجنب، و الصاحب الجنب. و ابن السبيل، و لا من البر و البحر، و لا من الأرض و الحب، إلا ما يفهمه العربي من هذه الألفاظ و ما وراء ذلك فليس عليه دليل.

و أيضا لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة و التابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، و لو كان عندهم معروفا لنقل؛ لأنهم أدري بمعاني القرآن ظاهرها و باطنها باتفاق الأمة، و غير معقول أن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى (١) المرجع السابق

(٢) حقائق التفسير للسلمي ص ٢٨٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٦

مما كان عليه أولها، و لا هم أعرف بالشرعية منهم، و لا أدري بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم و على لغتهم. و لكن إجلالنا لهؤلاء المفسرين و وثوقنا بهم من الناحية العلمية و الدينية، و اعترافهم في تفاسيرهم- التي نقلنا عنها- بالمعاني الظاهرية للقرآن و إنكارهم على من يقول بباطن القرآن دون ظاهره. كل هذا يجعلنا نحسن الظن بالقوم، فنحمل أمثال هذه المعاني على أنها ليست من قبيل التفسير، و إنما هي ذكر منهم لتظير ما ورد به القرآن، فإن التظير يذكر بالتظير كما قال ابن الصلاح في فتاواه «١».

مقالة الشاطبي في التفسير الإشاري:

و لزيادة الإيضاح أذكر لك ما قاله الشاطبي في هذا الموضوع:

قال رحمه الله: الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب، الظاهرة للبصائر، إذا صحت على كمال شروطها فهي على ضربين: أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن و يتبعه سائر الموجودات فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل، حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك. و الثاني ما يكون أصل انفجاره من الموجودات: جزئها أو كليها، و يتبعه الاعتبار في القرآن.

فإن كان الأول، فذلك الاعتبار صحيح، و هو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، و هو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، و بحسب التكليف و أحوالها، لا بإطلاق، و إذا كانت

كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط (١) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٧

المستقيم، ولأن الاعتبار القرآني قلما يجده إلا- من كان من أهله عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده كما لم يخرجوا في العمل به و التخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه، و يلزم من ذلك أن يكون معتدا به لجريانه على مجاريه.

و الشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضى به العريية، و ما تدل عليه الأدلة الشرعية. و إن كان الثاني، فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، و أخذه على إطلاقه فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره في فهم القرآن، فنقول:

إن تلك الأنظار الباطنة في القرآن في الآيات المذكورة- يريد «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ» و ما ذكره معها مما تقدم لنا ذكره- إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهي راجعة إلى الاعتبار غير القرآني و هو الوجودي «١» و يصح تنزيله على معاني القرآن لأنه وجودي أيضا. فهو مشترك من تلك الجهة غير خاص، فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطلبه المربي، و هو أمر خاص، منفرد بنفسه، لا يختص بهذا الموضوع، فلذلك يوقف على محله، فكون القلب جارا ذا قربي، و الجار الجنب هو النفس الطبيعي ... إلى سائر ما ذكر، يصح تنزيله اعتباريا مطلقا، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض في هذا النمط صحيح و سهل جدا عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ و أيضا فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى (١) مثال الاعتبار: الخارجى ما يروونه عن بعضهم في معنى قوله تعالى في الآية (٣) من سورة القدر لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال ألف شهر هي مدة الدولة الاموية، لانها مكثت ثلاثا و ثمانين سنة و أربعة أشهر و أن ذلك من الله تسلية لرسوله صلى الله عليه و سلم حين أطلعه على ملوك بنى أمية واحدا واحدا فسرى عنه بهذه السورة. هذا المعنى لم يؤخذ من القرآن، بل أخذ من الخارج و الواقع في ذاته؛ بمصادفة مطابقة العدد، و اللفظ لا ينبو عنه. لكنه لا دليل من الشرع على كونه هو المعنى المقصود) اه هامش الموافقات ج ٣ ص ٤٠٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٨

المقصود المخاطب به الخلق، بل أجراه مجراه و سكت عن كونه هو المراد و إن جاء شىء من ذلك و صرح صاحبه أنه هو المراد، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآني و الوجودي، و أكثر ما يطرأ هذا لمن هو بعد في السلوك، سائر على الطريق، لم يتحقق بمطلوبه. و لا- اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية و غيرهم ... «١» اه فالشاطبي- رحمه الله- يقرر في كلامه هذا: أن مثل هذا النوع الأخير من كلام الصوفية راجع إلى الاعتبار غير القرآني، و مع ذلك فيمكن تنزيله على معاني القرآن. كما أنه يقرر: أن من قال هذا لم يذكر عنه أنه قاله على أنه تفسير للآية و بيان للمقصود منها، و هذا من حسن ظنه بالقوم.

مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري:

إشارة

و إذا نحن رجعنا إلى أقوال العلماء التي قالوها في تفسير الصوفية وجدناها جميعا تقوم على حسن الظن بهم، و إليك بعضا منها:

مقالة ابن الصلاح:

قال ابن الصلاح في فتاواه- و قد سئل عن كلام الصوفية، في القرآن- «وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدى المفسر رحمه الله تعالى أنه قال:

صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس فى الآية المذكورة- يريد قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة التوبة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» فكانه قال أمرنا بقتال النفس و من يلينا من الكفار، و مع ذلك فى ليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإبهام و الإلباس

(٢). (١) الموافقات ج ٣ ص ٤٠٣-٤٠٥

(٢) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٦٩

مقالة سعد الدين التفتازانى:

و قد علق التفتازانى على قول النسفى فى كتابه العقائد (و النصوص على ظواهرها، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد) فقال- رحمه الله-: (و سمو الباطنية لا دعائمهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، و قصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية .. ثم قال: و أما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها و مع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، و يمكن التطبيق بينها و بين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان و محض العرفان «١» اه

مقالة ابن عطاء الله السكندرى:

و نقل السيوطى عن ابن عطاء الله السكندرى أنه قال فى كتابه لطائف المنن (اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله و كلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، و لكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له و دلت عليه فى عرف اللسان. و ثم أفهام باطنة تفهم عند الآية و الحديث لمن فتح الله قلبه، و قد جاء فى الحديث «لكل آية ظهر و بطن» فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل و معارضة: هذا إحالة لكلام الله و كلام رسوله .. فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا- هذا، و هم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظاهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها و يفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم «٢» اه فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التى قالوها فى القرآن على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن، أو على أنها إشارات خفية، و معان إلهامية، تنهل على قلوب العارفين، و تزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقى لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التى نقلت عنهم، و هذا عمل حسن (١) العقائد النسفية و شرحها لسعد الدين التفتازانى ص ١٤٢

(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٨٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٠

و صنع جميل من هؤلاء العلماء، و قد تابعناهم عليه حملا لحال المؤمن على الصلاح ... و لكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم على أثر تلك المقالة التى قرأناها لابن عربى فى فتوحاته .. و فيها يصرح بأن مقالات الصوفية فى كتاب الله ليست إلا تفسيرا حقيقيا لمعانى القرآن، و شرحا لمراد الله من ألفاظه و آياته و يذكر لنا أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقيية، و المداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر .. و فى هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم- على حد تعبيره- الذين ينكرون عليه و على غيره من الصوفية. و إليك ما قاله بالنص لتقف على رأيه الصريح الذى لا موارد فيه و لا التواء.

مقالة ابن عربى فى التفسير الإشارى:

إشارة

قال رحمه الله: (اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطواراً، فمنها العالم والجاهل، و منها المنصف والمعاند، و منها القاهر و منها المقهور و منها الحاكم و منها المحكوم، و منها المتحكم و منها المتحكم فيه، و منها الرئيس و المرءوس و منها الأمير و الأمور، و منها الملك و السوقة، و منها الحاسد و المحسود و ما خلق الله أشق و لا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسرارهم في خلقه، و فهمهم معاني كتابه و إشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسول عليهم السلام لما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم- كما ذكرنا- عدل أصحابنا إلى الإشارات. فكلامهم- رضى الله عنهم- في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه إشارات، و إن كان ذلك حقيقة و تفسيراً لمعانيه النافعة، و رد ذلك كله إلى أنفسهم مع تقريرهم إياه في العموم، و فيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى «سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ» (١) يعني الآيات المنزلة في الآفاق و في أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يروونه في نفوسهم و وجه آخر يروونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يروونه في نفوسهم إشارة ليأنس (١) في الآية (٥٣) من سورة فصلت

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧١

الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، و لا يقولون في ذلك إنه تفسير؛ و قايه لشرهم و تشنيعهم في ذلك بالكفر عليه؛ و ذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق، و اقتدوا في ذلك بسنن الهدى، فإن الله كان قادراً على تنصيب ما تأوله أهل الله في كتابه، و مع ذلك فما فعل؛ بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامة علوم معاني الاختصاص التي فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم).

(و لو كان علماء الرسوم ينصفون، لا اعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيم بينهم، فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك، و يعلو بعضهم على بعض في الكلام في معنى تلك الآية، و يقر القاصر بفضل غير القاصر فيها، و كلهم في مجرى واحد و مع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك، ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشيء مما يغمض عن إدراكهم، و ذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء و أن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف، و صدقوا، فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا- بالتعلم و هو الإعلام الرحمانى الربانى قال تعالى: «أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَفَرَأَى وَقَدْ رَئْبَكَ * أَلَمْ يَكُ مِنْ عَلَقٍ * عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (١) فإنه القائل «أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» و قال تعالى: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (٢) فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا شك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام، و الله يقول في حق الرسول: «وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (٣) و قال في حق عيسى «وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ» (٤) و قال في حق خضر صاحب موسى عليهما السلام «وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً» (٥) فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا: إن العلم لا يكون إلا بالتعلم و أخطئوا في اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبي و لا رسوم يقول الله: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» (٦)، و هى العلم، و جاء بمن و هى نكرة. و لكن علماء الرسول لما آثروا الدنيا على الآخرة، و آثروا جانب الخلق على جانب الحق، و تعودوا أخذ العلم من الكتب و من أفواه الرجال الذين من جنسهم، و رأوا في زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا و امتازوا به عن العامة، حججهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبادة تولى (١) الآيات (١، ٢، ٣، ٤، ٥) من سورة العلق.

(٢) الآيات (٣، ٤) من سورة الرحمن

(٣) فى الآية (١٣) من سورة النساء.

(٤) الآية (٤٨) من سورة آل عمران

(٥) في الآية (٦٥) من سورة الكهف

(٦) في الآية (٢٦٩) من سورة البقرة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٢

اللّه تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه و على السنّة رسله و هو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذي لا يشك مؤمن في كمال علمه و لا- غير مؤمن؛ فإن الذين قالوا: إن الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفي العلم عنه، و إنما قصدوا بذلك أنه تعالى لا يتجدد له علم بشيء، بل علمها مندرج في علمه بالكلية، فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين، و قصدا تنزيهه سبحانه في ذلك و إن أخطوا في التعبير عن ذلك، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه و إلهامه إياهم «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (١)» في إثر قوله: «وَنَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (١)» فبين لها الفجور من التقوى إلهاما من الله لها لتجتنب الفجور و تعمل بالتقوى).

(و كما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها، و لا- أخرجت ذلك من نفوسها و لا- من أفكارها، و لا تعلمت فيه، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالى: «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٣)» و قال فيه إنه «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ (٣)» و إذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله، لا- من فكر الإنسان و رويته- و علماء الرسوم يعلمون ذلك- فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به احق بشرحه و بيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضا تنزيلا من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل. و كذا قال على بن أبي طالب رضى الله عنه في هذا الباب (ما هو إلا فهم يؤتاه الله من يشاء من عباده في هذا القرآن). فجعل ذلك عطاء من الله، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولى به من غيرهم. فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم، و أعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به، و أحقهم بالذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة غافلون- و هم في إنكارهم على أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعا- سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا، و صانوا عنهم (١) الآية (٧، ٨) من سورة الشمس.

(٣) في الآية (٤٢) من سورة فصلت؛ على التقديم و التأخير.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٣

أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات، فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الكل، كما قال القائل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

كما يتميز المحق من أهل الله، من المدعى في الأهلية غدا يوم القيامة. قال بعضهم:

فإذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

أين عالم الرسوم من قول على بن أبي طالب رضى الله عنه حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين و قرأ؟ هل هذا إلا من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن؟ فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم، فإن الله يقول فيهم: «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١)» فأقامهم مقام الرسول في التفقه في الدين و الإنذار، و هو الذي يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله صلى الله عليه و سلم على بصيرة، لا على غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم، فستان بين من هو فيما يفتى به و يقوله على بصيرة منه في دعائه إلى الله و هو على بينة من ربه، و بين من يفتى في دين الله بغلبة ظنه). (ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول:

فهمنى ربي، و يرى أنه أفضل منه، و أنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى في سرى مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم في واقعتي فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه و بحكمه عنده. قال أبو يزيد

البسطامى رضى الله عنه فى هذا المقام ... يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، و أخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت يقول أمثالنا: حدثنى قلبى عن ربى، و أنتم تقولون حدثنى فلان .. و أين هو؟ قالوا: مات. عن فلان .. و أين هو؟ قالوا: مات. و كان الشيخ أبو مدين - رحمه الله - إذا قيل له: قال فلان. عن فلان، عن فلان يقول: ما نريد نأكل قديدا، هاتوا اتونى بلحم طرى - يرفع همم أصحابه - فأولئك أكلوه لحما طريا، و الواهب لم يمته، و هو أقرب إليكم من جبل الوريد). (١) فى الآية (١٢٢) من سورة التوبة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٤

(و الفيض الإلهى و المبشرات ما سد بابها، و هى من أجزاء النبوة، و الطريق واضحة، و الباب مفتوح، و العمل مشروع و الله يهرول لتلقى من أتى إليه يسعى و ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، و هو معهم أينما كانوا، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب - مع دواك العلم بذلك و الإيمان به - لم تترك الأخذ عنه و الحديث معه، و تأخذ عن غيره و لا - تأخذ عنه فتكون حديث عهد بربك؟. «١» اه

رأينا فى مقالة ابن عربى:

و نحن لا ننكر على ابن عربى أن ثم أفهاما يلقيها الله فى قلوب أصفياؤه و أحبابه، و يخصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك و مراتب الوصول كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيرا للقرآن و بيانا لمراد الله من كلامه، و لكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى، و أن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى، و ليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية و بيان لمراد الله تعالى؛ لأن القرآنى عربى قبل كل شىء كما قلنا، و الله سبحانه و تعالى يقول فى شأنه «كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (٢) و حاشا لله أن يلغز فى آياته، أو يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، و هو يقول «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» (٣).

هذا هو ما أدين الله عليه بالنسبة لكلام الصوفية، و عذرى فى ذلك أنى لم أسلك مسلك القوم، و لم أذق ذوقهم، و لم أعرف اصطلاحاتهم التى يصطلحون عليها، و لعلى إذا سلكت هذا الطريق، و انكشف لى من أستار الغيب ما انكشف لهم، أو على الأقل فهمت لغة القوم و وقفت على مصطلحاتهم. لعلى إذا حصل لى شىء من هذا تبدل رأبى و تعير حكمى، فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيدا و غريبا. و قد سأل رجل بعض العلماء أن يقرأ عليه تائبة ابن الفارض فقال له: (دع عنك هذا، من جاع جوع القوم

و سهر سهرهم رأى ما رأوا) (٤)، (١) الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠

(٢) الآية (٣) من سورة فصلت

(٣) الآية (١٧) من سورة القمر، و فى مواضع أخرى من السورة نفسها

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٥

يقولون: إنهم يدركون بعض المعانى بعين اليقين، و ما من شأنه أن يدرك بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، إذا فلا بد لمن يريد أن يحكم على القوم حكما صحيحا أن يجتهد فى الوصول إلى ما وصلوا إليه بالعيان، دون أن يطلبه عن طريق البيان، فإنه طور وراء طور العقل، و الشاعر يقول:

علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف

و ليس يعرفه من ليس يشهده و كيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

«١» و يقول ابن خلدون: (و ليس البرهان و الدليل بنافع في هذه الطريق ردا و قبولاً؛ إذ هي من قبيل الوجدانيات) «٢».

و يقول الآلوسى في مقدمته تفسيره ج ١ ص ٨: (فالإنصاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه، و اتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل؛ لكثرة العوائق و العلاتق إليه:

و إذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

و يقول الآلوسى أيضا بعد أن نقل عن ابن عربى ما قاله فى تفسير الفاتحة فى فتوحاته: (فإذا وقع الجدار، و انهدم الصور، و امتزجت الأنهار، و التقى البحران، و عدم البرزخ، صار العذاب نعيما، و جهنم جنه، و لا عذاب و لا عقاب، إلا نعيم و أمان، بمشاهدة العيان. الخ): يقول الآلوسى بعد نقله لهذا الكلام الغريب: (و هذا و أمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق و لا ينافى ما وردت به القواطع: ثم قال: و إياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه، و كلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى، فسلمه لهم بالمعنى الذى أرادوه، مما لا- تعلمه أنت و لا أنا، لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقلك، المشوب بالأوهام فالأمر و الله وراء ذلك. «٣») اه و مثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم و شطحاتهم مهما أوغلت فى البعد و الغرابة، و توريط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير ما لهم فى نفوسنا من المكانة العلمية و الدينية: و مهما يكن (١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢٢

(٢) مقدمه ابن خلدون ٥٢٥.

(٣) تفسير الآلوسى ج ١ ص ١٤٢-١٤٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٦

من شىء فأنا عند رأى لا أتحول عنه، حتى إذ ما جعت جوع القوم، و سهرت سهرهم، و وجدت مواجيدهم، سلمت لهم بكل ما يقولون (و من ذاق عرف) و الخلاصة: أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، و ليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم، و لم يذيعوها على الناس فيوقعوهم فى حيرة و اختلاف: منهم من يأخذها على ظاهرها و يعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، و إذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافه فربما كذب به أو أشكل عليه: و منهم من يكذبها على الإطلاق، و يرى أنها تقول على الله و بهتان: ليتهم فعلوا ذلك، إذا لأراحونا من هذه الحيرة، و أراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم، و قذف البعض لهم بالكفر و الإلحاد فى آيات الله!!

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٧

شروط قبول التفسير الإشارى

تبين لنا فيما سبق أن التفسير الإشارى منه ما هو مقبول و منه ما ليس بمقبول فعلياً بعد ذلك أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر فى التفسير الإشارى- و إن كنا تعرضنا لأهمها فيما سبق- حتى يكون تفسيراً مقبولاً و إليك هذه الشروط:

أولاً: أن لا يكون التفسير الإشارى منافياً للظاهر من النظم القرآنى الكريم.

ثانياً: أن يكون له شاهد شرعى يؤيده:

ثالثاً: أن لا يكون له معارض شرعى أو عقلى و هذه الشروط الثلاثة قد أوضحناها فيما سبق، فلا حاجة بنا إلى إعادة توضيحها.

رابعاً: أن يدعى أن التفسير الإشارى هو المراد وحده دون الظاهر، بل لا بد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولاً؛ إذ لا يطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر (و من ادعى فهم أسرار القرآن و لم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب «١»).

إذا علمت هذا، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض المتصوفة من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من

سورة البقرة «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» فقال: معناه («من ذل» من الذل «ذى، إشارة إلى النفس «يشف، من الشفاء، ع» أمر من الوعى «٢»). و ما نقل عن بعضهم من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٦٩) من سورة العنكبوت «وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» فجعل «لمع» فعلا ماضيا بمعنى أضاء و «المحسنين» مفعوله «٣».

هذا التفسير و أمثاله إلحاد فى آيات الله، و الله تعالى يقول «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا» (٤) قال الألوسى فى تفسير هذه الآية: (أى ينحرفون (١) الاتقان ج ٢ ص ١٨٤

(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٨٤

(٣) مبادئ التفسير للخضرى ص ٩

(٤) فى الآية (٤٠) من سورة فصلت

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٨

فى تأويل آيات القرآن عن جهه الصحة و الاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة، و هو مراد ابن عباس بقوله: يضعون الكلام فى غير موضعه «١») هذه هى الشروط التى إذا توفرت فى التفسير الإشارى كان مقبولا، و معنى كونه مقبولا عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر و لا بالغ مبلغ التعسف، و ليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية و أما عدم وجوب الأخذ به، فلأنه من قبيل الوجدانيات، و الوجدانيات لا تقوم على دليل و لا تستند إلى برهان، و إنما هى أمر يجده الصوفى من نفسه، و سر بينه و بين ربه. فله أن يأخذ به و يعمل على مقتضاه، دون أن يلزم به أحدا من الناس سواه. (١) تفسير الألوسى ج ٢٤ ص ١١٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٧٩

أهم كتب التفسير الإشارى

إشارة

من العلماء من وجه همته إلى التفسير الظاهر و لم يتعرض للتفسير الإشارى، كالبيضاوى، و الزمخشرى مثلا. و منهم من جعل غالب همه فى التفسير الظاهر و تعرض للتفسير الإشارى بقدر، كما فعل النيسابورى، و الألوسى. و منهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشارى و مع ذلك فهو يتعرض أحيانا للتفسير الظاهر، كما فعل سهل التسترى. و منهم من وجه همته كلها للتفسير الإشارى. و لم يحم حول المعانى الظاهرة، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى، و منهم من أعرض عن الظاهر و جمع فى تفسيره بين التفسير الصوفى النظرى و التفسير الصوفى الإشارى كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربى.

و ليس ضروريا أن نتكلم عن تفسير النيسابورى و الألوسى من ناحية ما فيهما من التفسير الإشارى؛ لأنهما أقرب إلى أهل الظاهر منهما إلى أهل الإشارة إذ كان كلامهما عن التفسير الإشارى أمرا عارضا و تابعا لغيره، و قد سبق الكلام عنهما فى كتب التفسير بالرأى المحمود.

و يكفى هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التى وجه أصحابها فيها كل عنايتهم، أو جلها نحو التفسير الإشارى. و إليك أهم هذه الكتب:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٠

١- تفسير القرآن العظيم للتسترى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله، التستري، المولود يتستر «١» سنة ٢٠٠ هـ مائتين. و قيل سنة ٢٠١ إحدى و مائتين من الهجرة.

كان- رحمه الله- من كبار العارفين، و لم يكن له في الورع نظير. و كان صاحب كرامات، و لقي الشيخ ذا النون المصري- رحمه الله- بمكة. و كان له اجتهاد وافر و رياضة عظيمة أقام بالبصرة زمنا طويلا، و توفي بها سنة ٢٨٣ هـ ثلاث و ثمانين و مائتين، و قيل سنة ٢٧٣ هـ ثلاث و سبعين و مائتين، فرحمه الله رحمة واسعة «٢».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، و لم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة و متفرقة من كل سورة. و يظهر لنا أن سهلا- رضى الله عنه- لم يؤلف هذا الكتاب، و إنما هي أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، المذكور في أول الكتاب، و الذى يقول كثيرا، قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى كذا. فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب و نسبها إليه.

نقرأ في هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر (١) تستر بضم التاء الاولى، و سكون السين المهملة؛ و فتح التاء الثانية: بلد من الاهواز.

(٢) انظر وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٨٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨١

القرآن و باطنه، و معنى الحد و المطلع، فيقول: (ما من آية في القرآن إلا و لها أربعة معان: ظاهر، و باطن، و حد، و مطلع. فالظاهر: التلاوة، و الباطن:

الفهم، و الحد: حلالها و حرامها. و المطلع: إشراق القلب على المراد بها. فقها من الله عز و جل، فالعلم الظاهر علم عام، و الفهم لباطنه و المراد به خاص:

قال تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء «فَمَا لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا» أى لا يفقهون خطابا اه «١»:

و يقول فى موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالى ما استولى و ليا من أمه محمد صلى الله عليه و سلم إلا علمه القرآن، إما ظاهرا و إما باطنا. قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، و إن فهمه هو المراد اه «٢»:

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلا التستري يرى: أن الظاهر هو المعنى اللغوى المجرد. و أن الباطن هو المعنى الذى يفهم من اللفظ و يريده الله تعالى من كلامه: كما نأخذ منه: أنه يرى أن المعانى الظاهرة أمر عام يقف عليها كل من يعرف اللسان العربى، أما المعانى الباطنة، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم و إرشادهم إليه:

كذلك نجد سهلا- رضى الله عنه- لم يقتصر فى تفسيره على المعانى الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحيانا المعانى الظاهرة، ثم يعقبها بالمعانى الإشارية، و قد يقتصر أحيانا على المعنى الإشارى وحده، كما يقتصر أحيانا على المعنى الظاهرى، بدون أن يعرج على باطن الآية:

و حين يعرض سهل للمعانى الإشارية لا يكون واضحا فى كل ما يقوله، بل تارة بالمعنى الغريبة التى نستبعد أن تكون مرادة لله تعالى، و ذلك كالمعانى التى نقلناها عنه سابقا فى معنى البسمله، و الم فاتحة البقرة، و تارة يأتى بالمعانى (١) ص ٣.

(٢) ص ٧ و لعلك تجد فى هذه العبارة ما يؤكد ما قلناه من أن الكتاب من وضع أحد تلاميذه: أبو بكر محمد بن أحمد البلدى.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٢

الغريبة التى يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ، و ذلك هو الغالب فى تفسيره:

كذلك نجد المؤلف ينحو في كتابه هذا منحى تركية النفوس، و تطهير القلوب، و التحلى بالأخلاق و الفضائل التى يدل عليها القرآن و لو بطريق الإشارة... و كثيرا ما يسوق من حكايات الصالحين و أخبارهم ما يكون شاهدا لما يذكره، كما أنه يتعرض فى بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللفظ الكريم، و إليك نماذج من تفسيره:

فى سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٨) «وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ» يقول ما نصه: (عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل و ولد، و لا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس) اهـ (١):

و فى سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢) حكاية عن إبراهيم عليه السلام «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» يقول ما نصه: («الذى خلقتى فهو يهدين» أى الذى خلقتى لعبوديته يهدينى إلى قربه «و الذى هو يطعمنى و يسقنى» قال: يطعمنى لذة الإيمان و يسقنى شراب التوكل و الكفاية: «و إذا مرضت فهو يشفين» قال: يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى، و إذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى. «و الذى يميتنى ثم يحيين» قال: الذى يميتنى ثم يحيينى بالذكر. «و الذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين» قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف و الرجاء، و لم يحكم عليه بالمغفرة) اهـ (٢): (١) ص ٦٠.

(٢) ص ١٠٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٣

و فى سورة الصفات عند قوله تعالى فى الآية (١٠٧) «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ» قال ما نصه: (إبراهيم عليه الصلاة و السلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله و عصمته حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، و إنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السر له، و رجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم) اهـ (١):

فهذه المعانى كلها مقبولة و يمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآنى بدون معارضة شرعية أو عقلية.. و الكتاب- فى الغالب- يسير على هذه الطريقة، و هى لا شوب فيها. (١) ص ١٢٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٤

٢- حقائق التفسير للسلمى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى، الأزدي السلمى، المولود ٣٣٠ هـ ثلاثين و ثلاثمائة من الهجرة، و قيل غير ذلك.

كان رحمه الله شيخ الصوفية و عالمهم بخراسان، له اليد الطولى فى التصوف، و العلم الغزير، و السير على سنن السلف، أخذ الطريق عن أبيه، فكان موقفا فى جميع علوم الحقائق و معرفة طريق التصوف، و كان على جانب عظيم من العلم بالحديث، حتى قيل: إنه حدث أكثر من أربعين سنة إملاء و قراءة.

و كتب الحديث بنيسابور، و مرو، و العراق، و الحجاز، و صنف سننا لأهل خراسان، و أخذ عنه بعض الحفاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، و أبو القاسم القشيري، و غيرهما، و لقد خلف- رحمه الله- من الكتب ما يزيد على المائة:

منها ما هو فى علوم القوم، و منها ما هو فى التاريخ، و منها ما هو فى الحديث، و منها ما هو فى التفسير.

و لكن السلمى مع وفرة جلالته، و عظيم منزلته بين مريديه، لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه. قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابورى القطان: كان السلمى غير ثقة، يضع للصوفية، و كأن الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: (قدر

أبي عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، و كان مع ذلك محمودا صاحب حديث) قال ابن السبكي صاحب طبقات الشافعية: (قول الخطيب فيه هو الصحيح، و أبو عبد الرحمن ثقة، و لا عبرة بهذا الكلام فيه) هذا، و قد كانت وفاته سنة ٤١٢ هـ اثنتى عشرة و أربعمئة من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة «١». (١) رجعنا فى هذه الترجمة إلى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣١، و إلى طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٦٠-٦٢:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٥

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

يقع هذا التفسير فى مجلد واحد كبير الحجم. و منه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية، قرأت فى هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن، و لكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها و يغضى عن بعضها الآخر، و هو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، و إنما جرى فى جميع ما كتبه على نمط واحد، و هو التفسير الإشارى، و هو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر غير مراد؛ لأنه يصرح فى مقدمته تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة فى كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر.

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمى، لم يكن له مجهود فى هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض، و رتبها على حسب السور و الآيات، و أخرجها للناس فى كتاب سماه: حقائق التفسير.

و أهم من ينقل عنه السلمى فى حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، و ابن عطاء الله السكندرى، و الجنيد، و الفضيل بن عياض، و سهل بن عبد الله التستري، و غيرهم كثير.

و إليك بعض ما قاله فى مقدمته لتعلم أن السلمى حين اقتصر على المعانى الإشارية لم يجحد المعانى الظاهرة للقرآن، و لتعلم أيضا أن مجهوده فى هذا التفسير إنما هو الجمع و الترتيب.

قال رحمه الله: (... لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا فى أنواع فرائد القرآن: من قراءات، و تفاسير، و مشكلات، و أحكام، و إعراب. و لغة، و مجمل، و مفسر، و ناسخ، و منسوخ، و لم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نسبت إلى أبى العباس بن عطاء، و آيات ذكر أنها عن جعفر بن محمد على غير ترتيب، و كنت قد سمعت منهم فى ذلك حروفا استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، و أضم أقوال مشايخ أهل

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٦

الحقيقة إلى ذلك، و أرتبه على السور حسب و سعى و طاقتى، و استخرت الله فى جمع شىء من ذلك. و استعنت به فى ذلك و فى جميع أمورى، و هو حسبى و نعم المعين) اه «١»

طعن بعض العلماء على هذا التفسير:

إشارة

غير أن الاقتصار على المعانى الإشارية، و الإعراض عن المعانى الظاهرة فى هذا المؤلف، ترك للعلماء مجالا للطعن على هذا التفسير و على صاحبه من أجله، فالجلال السيوطى رحمه الله يذكر أبا عبد الرحمن السلمى فى كتابه طبقات المفسرين ضمن من صنف فى التفسير من المبتدعة و يقول: (و إنما أوردته فى هذا القسم لأن تفسيره غير محمود «٢»). و الحافظ الذهبي رحمه الله يقول عن السلمى: (... و له كتاب يقال له حقائق التفسير، و ليته لم يصنفه. فإنه تحريف و قرمطة، و دونك الكتاب فستري العجب «٣») و يقول

السبكي في طبقات الشافعية: (و كتاب حقائق التفسير، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات، و محال للصوفية ينبو عنها اللفظ «٤».

و قد مر بك آنفا أن الإمام أبا الحسن الواحدى قال: (صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر).

و هذا هو الإمام ابن تيمية يطعن على تفسير السلمى من ناحية أخرى فيقول: (و ما ينقل فى حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه فى غير ذلك «٥» اه).

رأينا فى هذه الطعون:

هذا، و إن عد السيوطى السلمى فى ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه و إجحاف. (١) ص ١-٢.

(٢) طبقات المفسرين ص ٣١.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٦١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) منهاج السنة ج ٤ ص ١٥٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٧

و ما قاله الذهبي من أن ما فى الحقائق تحريف و قرمطة- يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية- فهذا غير صحيح؛ لأن الرجل يقر الظواهر على ظواهرها، و القرامطة بخلاف ذلك.

و أما ما قاله السبكي من أن السلمى قد اقتصر فى حقائقه على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

و أما قول الواحدى: إنه لو اعتقد أن ما فى الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا فنقول فيه: إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير، و إنما قال: إنه إشارات تخفى و تدق إلا على أربابها، كما صرح بذلك فى مقدمة حقائق التفسير «١».

و أما قول ابن تيمية: إن ما ينقل فى حقائق السلمى من التفسير عن جعفر عامته كذب على جعفر، فهذه كلمة حق من ابن تيمية؛ إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، و لست أدري كيف اغتر السلمى و هو العالم المحدث بمثل هذه الروايات المختلفة الموضوعه ..

نماذج من تفسير السلمى:

و إذ قد فرغنا من الحديث على حقائق التفسير، فاسمع بعض ما جاء فيه؛ لتحكم أنت بدورك عليه:

فى سورة النساء عند قول الله تعالى فى الآية (٦٦) «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» يقول: (قال محمد ابن الفضل «اقتلوا أنفسكم» بمخالفة هواها «أو اخرجوا من دياركم» أى اخرجوا حب الدنيا من قلوبكم «ما فعلوه إلا قليل منهم» فى العدد، كثير فى المعانى، و هم أهل التوفيق و الولايات الصادقة) اه «٢».

و فى سورة الرعد عند قوله تعالى فى الآية (٣) «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ» (١) ص ١

(٢) ص ٤٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٨

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا يقول: (قال بعضهم: هو الذى بسط الأرض و جعل فيها أوتادا من أوليائه و سادة من عبيده فإليهم الملجأ، و بهم النجاة، فمن ضرب فى الأرض يقصدهم فاز و نجا، و من كان بغيته لغيرهم خاب و خسر. سمعت على بن سعيد يقول: سمعت أبا

محمد الحريري يقول: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة، فلما مات الجنيد و حملنا جنازته حضر الجنازة فلما رجعنا تقدم خطوات و علا موضعا من الأرض عاليا، فاستقبلني بوجهه و قال:

يا أبا محمد .. إني لراجع إلى تلك الخربة و قد فقدت ذلك السيد، ثم أنشد شعرا

و ما أسفى من فراق قوم هم المصاييح، و الحصون

و المدن، و المزن، و الرواسى و الخير، و الأمن، و السكون

لم تتغير لنا الليالى حتى توفتهم المنون

فكل جمر لنا قلوب و كل ماء لنا عيون) اه

«١» و فى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآية (٦٣) «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً» يقول: (قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحاب القربة، و فتح إلى قلوب عباده عيوننا من ماء الرحمة، فانبتت فاخضرت بزينة المعرفة، و أثمرت الإيمان، و أينعت التوحيد. أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، و اشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، و أناخت بين يديه، و عكفت فأقبلت عليه، و انقطعت عن الأ-كوان أجمع، ذاك آواها الحق إليه، و فتح لها خزائن أنواره، و أطلق لها الخيرة فى بساتين الأنس، و رياض الشوق و القدس) «٢».

و فى سورة الرحمن عند قوله تعالى فى الآية (١١) «فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ» يقول: (قال جعفر: جعل الحق تعالى فى قلوب أوليائه رياض أنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أصولها ثابتة فى أسرارهم، و فروعها قائمة بالحضرة فى المشهد، فهم يجنون ثمار الأنس فى كل أوان، و هو قوله تعالى (١) ص ١٣٨

(٢) ص ٢١٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٨٩

«فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ» أى ذات الألوان، كل يجتنى منه لونا على قدر سعته، و ما كوشف له من بوادى المعرفة و آثار الولاية) «١» و فى سورة الانفطار عند قوله تعالى فى الآيتين (١٣ و ١٤) «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» يقول: (قال جعفر: النعيم المعرفة و المشاهدة، و الجحيم النفوس؛ فإن لها نيرانا تنقد «٢».

و فى سورة النصر عند قوله تعالى فى أولها «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ» يقول. (قال ابن عطاء الله: إذا شغللك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى، و الفتح هو النجاة من السجن البشرى بقاء الله تعالى ..) «٣» اه (١) ص ٣٤٤

(٢) ص ٣٨٥

(٣) ص ٤٠٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٠

٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن

إشارة

لأبى محمد الشيرازى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبى النصر، البقلى، الشيرازى الصوفى، المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ست و ستمائة من الهجرة النبوية «١»

التعريف بهذا التفسير:

إشارة

جرى مؤلف هذا التفسير على نمط واحد وهو التفسير الإشاري، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً، يدل على ذلك قوله في المقدمة: (و لما وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه، لأن تحت كل حرف من حروفه بحرا من بحار الأسرار، ونهرا من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته.. قال الله تعالى «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» (٢) و قال «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِمَّا دَأَى لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي» (٣) فتعرضت أن أعرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء، وأسوة بالخلفاء، وسنة للأصفياء، وصنفت في حقائق القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي مما عباراتها أطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم، وتركت كثيرا منها ليكون كتابي أخف محملا وأحسن تفصيلا، واستخرت الله تعالى في ذلك، واستعنت به، ليكون (١) كشف الظنون ج ٢ ص

٢١ ولم نقف على أكثر من هذا في ترجمته

(٢) في الآية (٢٧) من سورة لقمان

(٣) في الآية (١٠٩) من سورة الكهف

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩١

لمراده، و مواطئا لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيف.. و سميته ب (عرائس البيان في حقائق القرآن) الخ (١).

فأنت ترى من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعاني الظاهرة للقرآن، و يقرر أن ما ذكره في كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن، وإشارات تجلت له من جانب الرحمن، كما ترى فيها وصفه لكتابه والمسلك الذي سلكه فيه، غير أنني ألاحظ من قوله (و استعنت به ليكون موافقا لمراده، و مواطئا لسنة رسوله) أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعاني ليس إلا تفسيرا لكتاب الله و بيانا لمراده منه، وهذا هو ما لا نقره عليه، و لا نسلمه له، لأن هذه المعاني الغريبة التي يأتي بها في تفسيره لا يمكن أن تكون داخله تحت مدلول اللفظ القرآني، و لا يعقل أن تكون مرادة لله تعالى من خطابه لأفراد الأمة، و حسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

و إليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

في سورة التوبة عند قوله تعالى في الآية (٩١) «لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ» يقول: (وصف الله زمرة أهل المراقبات، و مجالس المحاضرات، و الهائمين في المشاهدات. و المستغرقين في بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسمهم بالمجاهدات، و أمروا نفوسهم بالرياضات، و أذابوا قلوبهم بدوام الذكر، و جولانها في الفكر، و خرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضل حرج الامتحان، و أبقاهم في مجالس الأئس و رياض الإيقان، و قال «ليس على الضعفاء» يعني الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة «و لا على المرضى» الذين أمرضهم مرارة الصبابات «و لا على الذين لا يجدون ما ينفقون» الذين يتجردون عن الأكوام بتجريد التوحيد و حقائق التوحيد «حرج» عتاب من جهة العبودية و المجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحين باباب الوصلة، ضعفاء من الشوق، و مرضهم من الحب، و فقرهم من حسن الرضا.. اه (٢) (١) ج ١ ص ٢-

(٢) ج ١ ص ٣٣٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٢

و في سورة النحل عند قوله تعالى في الآية (٨١) «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِأَسْرِكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ» يقول: (يعنى ظلال أوليائه؛ ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، و يأوون إليها من قهر الطغيان، و شياطين الإنس و الجان؛ لأنهم ظلال الله في أرضه، لقوله عليه السلام «السلطان ظل الله في أرضه، يأوى إليه كل مظلوم» «و جعل لكم من الجبال أكنانا» أكنان الجبال: قلوب أكابر المعرفة، و ظلال أهل السعادة من أهل المحبة، يسكن فيها المنقطعون إلى الله «و جعل لكم سراويل تقيكم الحر» جعل للعارفين سراويل روح الإنس، لئلا يحترقوا بنيران القدس «و سراويل تقيكم بأسكم» سراويل المعرفة و أسلحة المحبة، لتدفعوا بها محاربة النفوس و الشياطين ثم زاد نعمته و منته عليهم بقوله «كذلك يتم نعمته عليكم» ... اه «١».

و في سورة النمل عند قوله تعالى في الآيتين (٢٠، ٢١) «وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ *» يقول: (... إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقد ساعه، و كان قلبه غائبا في غيب الحق، مشغولا بالمذكور عن الذكر، فتفقد و ما وجده. فتعجب من شأنه .. أين قلبه إن لم يكن معه؟ ... فظن أنه غائب عن الحق و كان في الحق غائبا، و هذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، و هذا من كمال استغراقهم في الله، فقال «لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو ليأتيني بسُلطان مبین» لأعذبه بالصبر على دوام المراقبة و الرعاية، و ألقينه في بحر النكرة من المعرفة، ليفنى ثم يفنى عن الفناء «أو أذبحه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل ...» «٢» اه.

هذا .. و الكتاب مطبوع في جزئين، يضمهما مجلد كبير، و توجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية؟ (١) ص ٥٣٤-٥٣٥

(٢) ج ٢ ص ٨١٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٣

٤- التأويلات النجمية لنجم الدين دايه و علاء الدولة السمناني

التعريف بمؤلفي هذا التفسير:

إشارة

ألف هذا التفسير نجم الدين دايه، و مات قبل أن يتمه، فأكمله من بعده علاء الدولة السمناني، و سنوضح ذلك فيما بعد عند الكلام عن هذا التفسير، إذا فقد اشترك نجم الدين دايه و علاء الدولة السمناني في هذا التفسير، و إذا لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين.

أما نجم الدين دايه:

فهو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدی الرازی المعروف بدايه، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ أربع و خمسون و ستمائة من الهجرة كان من خيار الصوفية «أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبي الجناح المعروف بالبكري، و كان مقيما أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيزخان إلى بلاد الروم، و هناك لقي صدر الدين القنوي و أخذ عنه، و يقال: إنه استشهد في حروب جنكيز خان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد. قرب السرى السقطي و الجنيد «١»:

و أما علاء الدولة السمناني:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمناني، البيهقي، الملقب بعلاء الدولة، و ركن الدين، و المولود سنة ٦٥٩ هـ تسع و خمسين و ستمائة. تفقه و طلب الحديث على كثير من شيوخ عصره، حتى برع في العلم قال الذهبي: (كان إماما جامعاً. كثير التلاوة، و له وقع في النفوس، و كان يحط على ابن عربي و يكفره (١) انظر نفحات الانس ص ٤٩١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٤

و كان مليح الشكل، حسن الخلق، عزيز الفتوة، كثير البر يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفاً فينفقها في القرب. أخذ عن صدر الدين بن حمويه، و سراج الدين القزويني، و إمام الدين بن علي مبارك البكري. و ذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة (١) اه. و ذكره الأسنوي في طبقاته و قال: (كان عالماً مرشداً، له كرامات و تصانيف في التفسير و التصوف و غيرها «٢») و من مصنفاته مدارج المعارج، و تكملة التأويلات النجمية. و ذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيراً كبيراً في ثلاثة عشر مجلداً «٣»، و لكن لم يبين لنا إن كان هذا التفسير على طريقة القوام أو طريقة المفسرين. و كان رحمه الله قد دخل بلاد التتار، ثم رجع و سكن تبريز و بغداد، و مات في رجب سنة ٧٣٦ هـ ست و ثلاثين و سبعمائة من الهجرة.

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفيه فيه:

إشارة

يقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار، و منه نسخة مخطوطة بدار الكتب، و هي التي رجعنا إليها. ينتهي المجلد الرابع عند قوله تعالى في الآيتين (١٧ و ١٨) من سورة الذاريات «كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» و هذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية في تفسيره، أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير، كتبه علاء الدولة، و جعله تتمه لكتاب نجم الدين داية، و قد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم و اصطلاحاتهم، و لهذا يقول فيها: (... و لا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد السلوك، و مشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان ... «٤») ثم بعد (١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٥٠-٢٥٢.

(٢) طبقات المفسرين للداودي ص ٢٨.

(٣) كشف الظنون. ج ١ ص ٢٣٨

(٤) ج ٥ ص؟ يلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات، لأن النسخة التي بأيدينا لم ترقم صفحاتها

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٥

أن فرغ من المقدمة، فسر الفاتحة على طريقة القوم، مع أن نجم الدين فسر أول الكتاب. ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، و انتهى عند آخر القرآن.

و يلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التي مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

و الذي يقرأ في هذا التفسير، و يقارن بين ما كتبه نجم الدين داية؛ و بين ما كتبه السمناني، يلاحظ أن هناك فرقاً بين التفسيرين؛ ذلك أن الجانب الذي كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحياناً للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلاً: و الإشارة فيه إلى كذا و كذا، و ما يذكره من التفسير الإشاري سهل المأخذ؛ لأنه لا يقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية. كما أنه يربط بين الآيات.

أما الجانب الذي كتبه السمناني فلا يعرج فيه على المعاني الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التي في الجانب الذي كتبه نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، و السر في ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة، و هي يطول ذكرها، و يصعب فهمها، و يكفي أن أشير هنا إلى بعض منها.

فمثلاً نراه يقرر في هذه المقدمة: أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر. فالمعنى الذي يجري على هذا البطن يغير المعنى

الذي يجرى على البطن الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القلبية، و بطن مخصوص باللطيفة النفسية، و بطن مخصوص باللطيفة القلبية، و بطن مخصوص باللطيفة السرية، و بطن مخصوص باللطيفة الروحية، و بطن مخصوص باللطيفة الخفية، و بطن مخصوص باللطيفة الحقية، و لتوضيح ذلك فسر لنا قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النساء «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَىٰ .. الآية» على هذه البطون السبعة سبع تفسيرات، كل يخالف الآخر. ثم هو لم يقف عند هذا الحد، بل تعدها إلى القول بأن لكل آية سبعين بطنا بل سبعمائه، و وضح ذلك بكلام يطول ذكره.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٦

و على الجملة، فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشاري، و هو أقرب إلى الفهم من غيره لو لا هذه التكملة. و إليك نماذج منه. بعضها لنجم الدين و بعضها لعلاء الدولة؛ لتعرف الفرق بين التفسيرين و تلمس اختلاف المشربين.

من تأويلات نجم الدين:

في سورة البقرة عند قوله تعالى في الآية (٢٤٩) «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ..» يقول: (و الإشارة فيها: أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا، و ماء زينتها، و ما زين للخلق فيها؛ لقوله تعالى «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ .. الآية (١)» ليظهر المحسن من المسيء، و ليميز الخبيث من الطيب، و المقبول من المردود، و كما قال تعالى «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢)» ثم امتحنهم و قال تعالى «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي» يعنى من أوليائي، و محبي و طلابي، و له اختصاص بقربي، و قبولى، و التخلق بأخلاقى، و نيل الكرامة منى. كان النبي صلى الله عليه و سلم يقول: (أنا من الله، و المؤمنون منى) «إلا من اغترف غرفة بيده» يعنى: من قنع من متاع الدنيا على ما لا بد منه: من المأكول، و المشروب، و الملبوس، و المسكن، و صحبة الخلق. على حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه. و كان يقول (اللهم ارزق آل محمد قوتا (أى ما يمسك رمقهم ... (٣) اه.

و فى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٣) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (١) الآية (١٤) من سورة آل عمران. (٢) الآية (٧) من سورة الكهف.

(٣) ج ١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٧

يقول («يا أيها الذين آمنوا» أى صدقوا محمدا صلى الله عليه و سلم فيما دلهم إلى الله بإذنه. «قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار» أى جاهدوا كفار النفس و صفاتها بمخالفة هواها صفاتها، و تبديل و حملها على طاعة الله، و المجاهدة فى سبيله، فإنها تحجبك عن الله «و ليجدوا فيكم غلظة» أى عزيمة صادقة فى فنائها بترك شهواتها و لذاتها و مستحسناتها، و منازعتها فى هواها، و حملها على المتابعة فى طلب الحق «و اعلموا أن الله مع المتقين» بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه، كما يتقى المرء بترسه عن الشباب، و الرمح و السيف) «١».

و فى سورة يوسف عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٠ و ٣١) «وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتهنَّ أَكْبَرْتَهُنَّ وَ قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» (يشير بالنسوة إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية، و السبعية، و الشيطانية فى مدينة الجسد «امرأة العزيز» و هى الدنيا «تراود فتاها عن نفسه» تطالب عبدها و هو القلب. كان عبدا فى البداية لحاجته إليها للتربية. فلما كمل القلب و صفا عن دنس البشرية استأهل المنظر الإلهي، فتجلى له الرب

تبارك و تعالى فتور القلب بنور جماله و جلاله، فأحتاج إليه كل شيء، و سجد له حتى الدنيا «قد شغفها حب» أى أحبته الدنيا غاية الحب، لما ترى عليه آثار جمال الحق. و لما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاق على جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن «إنا لنها في ضلال مبين» «فلما سمعت» زليخا الدنيا «بمكرهن» فى ملامتها «أرسلت إليهن» أى الصفات «و أعدت لهن متكنا» أى هيات طعمه مناسبة لكل صفة منها «و آتت كل وحدة منهن سكيناً» و هو سكين الذكر «و قالت، زليخا الدنيا ليوسف القلب «اخرج عليهن، و هو إشارة إلى غلبه أحوال القلب على صفات البشرية «فلما رأينه» أى وقعن على جماله و كماله (١). ٢ ج ٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٨

«أكبرنه» أكبرن جماله أن يكون جمال بشر «و قلن حاش لله ما هذا بشرا» أى جمال بشر «إن إلا ملك كريم» ما هذا إلا جمال ملك كريم. و هو الله تعالى بقراءة من قرأ ملك بكسر اللام) «١» اه.

و فى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧ و ١٨) «و حَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلُهُ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» يقول («و حَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ» أى صفته الشيطانية «و الإنس» أى صفته النفسانية «و الطير» أى صفته الملكية «فهم يوزعون» عن طيعتهم بالشرعية ليسخروا لسليمان القلب و ينقادوا له «حتى إذا أتوا على وادى النمل» و هو هوى النفس الحريضة على الدنيا و شهواتها «قالت نملة» و هى النفس اللوامة «يا أيها النمل» أى الصفات النفسانية «ادخلوا مساكنكم» محالكم المختلفة و هى الحواس الخمس «لا يحطمنكم» لا يهلكنكم «سليمان» القلب «و جنوده» المسخرة له «و هم لا- يشعرون» لأنهم الحق، و أنتم الباطل، فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة و تنفيها، و هى لا تشعر بحال الظلمة و ما أصابها) «٢» اه.

من تأويلات السمناني:

فى سورة التحريم عند قوله تعالى فى الآية (١١): «وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» يقول: («و ضرب الله مثلا- للذين آمنوا» يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس اللوامة «امرأة فرعون» يعنى القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة، ما ضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هى بنفسها «إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة و نجنى من فرعون و عمله و نجنى من القوم الظالمين» يعنى إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة فى مناجاتها مع ربها: ابن لى بيتا فى أحص أطوار القلب و قالت أيضا فى مناجاتها: نجنى من هذه القوة الفاسدة و الفاعلة و عملها. و نجنى من أنوانها و قواها الظالمة ...» (٣) اه. (١) ج ٣ ص؟

(٢) ج ٤ ص؟

(٣) ج ٥ ص؟

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٣٩٩

و فى سورة الشمس عند قوله تعالى فى الآيات (١١) و ما بعدها «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ... (إلى آخر السورة)» يقول: («كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث اشقاها» يعنى إذ انبعث اللطيفة، و أسرع إلى الطاغية انبعث اشقى قوى النفس على إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقه شوقها «فقال لهم رسول الله» أى اللطيفة «ناقه الله و سقياها» أى احذروا عقر ناقه الشوق و شربها من عين الذكر «فكذبوه فعقروها» بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، و عقروا ناقه الشوق «فدمدم عليهم ربهم بذنبهم» أى أهلكهم الله «فسواها» أى عمهم بذلك العذاب «و لا- يخاف عقباها» و لا- يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقه الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله و تكذيبهم إياه) اه.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٠

٥- التفسير المنسوب لابن عربي

من مؤلف هذا التفسير؟

هذا التفسير طبع مجردا في مجلدين، و طبع على هامش عرائس البيان في حقائق القرآن، لأبي محمد بن أبي النصر الشيرازي، الصوفي، الذي تكلمنا عنه فيما مضى. و كلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربي، و بعض الناس يصدق هذه النسبة، و يعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربي نفسه، و البعض الآخر لا- يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربي، بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق القاشاني، و إنما نسب لابن عربي: ترويجا له بين الناس، و تشهيرا له بشهرة ابن عربي. و ممن يرى هذا الرأي الأخير: المرحوم الشيخ محمد عبده في مقدمة التفسير التي اقتبسها المرحوم الشيخ رشيد رضا من درسه، و رواها عنه بالمعنى، و وضعها في مقدمة تفسير المنار. و ذلك حيث يذكر وجوه التفسير يعد منها التفسير الإشاري، ثم يقول: (و قد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، و من ذلك: التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، و إنما هو للقاشاني الباطني الشهير، و فيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله و كتابه العزيز) «١» اه.

و نحن مع الأستاذ الإمام في أن هذا التفسير للقاشاني، لا- «لابن عربي» و إن كنا لا نوافق على دعواه أن القاشاني من الباطنية، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالى.

هذا، و إنى حين أميل لهذا الرأي- أعنى كون التفسير للقاشاني- أؤيده بما يأتي:

أولا: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشاني، و الاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى؛ لأنها الأصل الذي أخذت عنه النسخ المطبوعة. (١) تفسير المنار ج ١ ص ١٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠١

ثانيا: قال في كشف الظنون: (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشاني، هو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبي الغنائم عبد الرزاق جمال الدين الكاشي السمرقندي، المتوفى سنة ٧٣٦ هـ «١» ثلاثين و سبعمائة، أوله الحمد لله الذي جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته... الخ «٢») و قد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثا: في تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى في الآية (٣٢) «وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ» يقول: (... و قد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدس روحه العزيز في شهود الوحدة و مقام الفناء عن أبيه أنه... الخ «٣»). و نور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد بن علي النطنزي الأصفهاني، و المتوفى في أواخر القرن السابع، و كان شيخا لعبد الرزاق القاشاني، المتوفى سنة ٧٣٠ هـ ثلاثين و سبعمائة من الهجرة، كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس «٤» في مناقب الأولياء ص ٥٣٤-٥٣٧. و غير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري شيخا لابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ثمان و ثلاثين و ستمائة من الهجرة.

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربي، و إنما هو لعبد الرزاق القاشاني الصوفي.

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه.

إشارة

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفي النظري، و بين التفسير (١) في الاصل سنة ٨٨٧ و هو خطأ.

(٢) كشف الظنون ص ١٨٧. و لكن لم نعرف من أتم هذا التفسير و الكتاب من أوله إلى آخره يسير على طريقة واحدة

(٣) تفسير ابن عربي ج ٢ ص ١١٦.

(٤) هذا الكتاب باللغة التركية؛ قد رجعنا اليه بمعونة الاستاذ الشيخ زاهد الكوثري و كل المشيخة الاسلاميه العثمانية بدار الخلافة سابقا

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٢

الإشاري، و لم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال.

أما ما فيه من التفسير الصوفي النظري: فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذي كان له أثره السيئ في تفسير القرآن الكريم.

و أما ما فيه من تفسير إشاري: فكثير منه لا نفهم له معنى، و لا نجد له من سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه، و لو أن المؤلف - رحمه الله - كان واضحا في كلامه، كما كان التستري واضحا، أو جمع بين التفسير الظاهر و التفسير الباطن لهان الأمر، و لكنه لم يفعل شيئا من ذلك، مما جعل الكتاب مغلقا، و موهما لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه، كما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال الأستاذ الإمام في القاشاني، إنه باطني. و أنا مع اعترافي بأن الكتاب في جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية، من ناحية ما فيه من المعاني التي تقوم على نظرية وحدة الوجود، و ما فيه من المعاني الإشارية البعيدة - مع اعترافي بهذا أخالف كل من يقول: إن القاشاني من الباطنية. ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد و الورع، و أيضا فإننا نعلم أن الباطنية ينكرون المعاني الظاهرية للقرآن، و يقولون: إن المراد هو الباطن وحده، أما صاحبنا، فلم يذهب هذا المذهب، بل نجده في مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد و لا بد منه أولا، كما نبه على أنه لا يحوم في كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر، و لعله فعل ذلك لأنه وجد من المفسرين من اعتنى بالظواهر دون الإشارات، فأراد هو أن يعتنى بالناحية الإشارية، دون الناحية الظاهرية للقرآن. فألف كتابه على النحو الذي نراه و إليك بعض ما جاء في هذه المقدمة، لتعلم أن الرجل ليس باطنا، و لتعلم أيضا منهجه الذي نهجه في تفسيره، و طريقته التي سار عليها في شرحه لكتاب الله. قال رحمه الله:

(و بعد، فإنني طالما تعهدت تلاوة القرآن، و تدبرت معانيه بقوة الا و كنت مع المواظبة على الأوراد، حرج الصدر. قلق الفؤاد، لا ينشرح بها نبي و لا يصرفني عنها ربي، حتى استأنست بها فألفتها، و ذقت حلاوة كأسها و شربتها، فإذا أنا بها نشيط النفس، فلج الصدر، متسع البال، منبسط القلب،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٣

فسيح السر، طيب الوقت و الحال، سرور الروح بذلك الفتوح، كأنه دائما في غبوق و صبح، تنكشف لي تحت كل آية من المعاني ما يكل بوصفه لساني لا القدرة تفي بضبطها و إحصائها، و لا القدرة تصبر عن نشرها و إفشائها، فتذكرت خبر من أتى ما ازدهاني، مما وراء المقاصد و الأمانى، قول النبي الأمي الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت و ناطق: (ما نزل من القرآن آية إلا و لها ظهر و بطن، و لكل حرف حد و لكل حد مطلع) و فهمت منه أن الظهر: هو التفسير، و البطن: هو التأويل، و الحد: ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام و المطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام و قد نقل عن الإمام المحقق السابق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال لقد تجلى الله لعباده في كلامه، و لكن لا يبصرون، و روى عنه عليه السلام أنه خر مغشيا عليه و هو في الصلاة فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها ... فأريت أن أعلق بعض ما يسبح لي في الأوقات من أسرار حقائق البطون و أنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر و الحدود، فإنه قد عين لها حد محدد، و قيل: من فسر برأيه فقد كفر. و أما التأويل فلا يبقى و لا يذر؛ فإنه يختلف بحسب أحوال المستمع و أوقاته، في مراتب سلوكه و تفاوت درجاته، و كلما ترقى عن مقامه انفتح له باب فهم جديد، و اطلع به على لطيف معنى عتيدي، فشرعت في تسويد هذه الأوراق بما عسى يسمح به خاطر على سبيل الاتفاق، غير حائم ببيعة التفسير، و لا خائض في لجة من المطلعات ما لا يسعه التقرير مراعيًا لنطق الكتاب و ترتيبه، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه في أساليبه، و كل ما لا يقبل التأويل عندي، أو لا يحتاج إليه فما أوردته أصلا، و لا أزعم أني بلغت الحد فيما

أوردته كاملاً فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت. و علم الله لا يتقيد بما علمت، و مع ذلك فما وقف الفهم منى على ما ذكر فيه، بل ربما لا يح لى فيما كتب من الوجوه ما تهت فى محاوريه، و ما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلاً ليعلم به أن للفهم إليه سبيلاً، و يستدل بذلك على نظائرها إن جاوز مجاوز عن ظواهرها، إذ لم يكن فى تأويلها بد من تعسف، و عنوان المروءة ترك التكلف

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٤

و عسى أن يتجه لغيرى وجوه أحسن منها طوع القياد، فإن ذلك سهل لمن تيسر له من أفراد العباد. و لله تعالى فى كل كلمه كلمات ينفذ البحر دون نفادها، فكيف السبيل إلى حصرها و تعدادها .. و لكنها أنموذج لأهل الذوق و الوجدان يحتذون على حذوها عند تلاوة القرآن فينكشف لهم ما استعدوا له من مكنونات علمه، و يتجلى عليهم ما استطاعوا له من خفيات غيبه، و الله الهادى لأهل المجاهدة، إلى سبيل المكاشفة و المشاهدة، و لأهل الشوق إلى مشارب الذوق، إنه ولى التحقيق، و بيده التوفيق «(١)» اه. فمن هذه المقدمة يمكنك أن تحكم على الكاشانى بأنه صوفى لا باطنى، كما أنك تجد فيها منهجه الذى سار عليه فى تفسيره، و لو تصفحت الكتاب لوجدت أنه سار على الطريقة التى رسمها لنفسه و لم يحد عنها، و إليك نماذج منه.

نماذج من التفسير الاشارى:

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٦) «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئْسَ الْمَصِيرُ» يقول ما نصه: (و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا الصدر الذى هو حرم القلب، بلدا آمنا من استيلاء صفات النفس، و اغتيال العدو اللعين، و تخطف جن القوى البدنية أهله، و ارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره، «مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ»: من وحد الله منهم و علم المعاد. «قال و من كفر»: أى و من احتجب أيضا من الذين سكنوا الصدر، و لا- يجاوزون حده بالترقى إلى مقام العين، لاحتجابهم بالعلم الذى وعأوه الصدر، فأمته قليلا من المعانى العقلية، و المعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به، ثم أضطره إلى عذاب نار الحرمان و الحجاب، و بئس المصير مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم. و تألمهم بحرمانهم «(٢)» اه. (١) ج ١ ص ٣-٥

(٢) ج ١ ص ٥٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٥

و فى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (٩٥) «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ» يقول ما نصه: (إن الله فالق حبه القلب بنور الروح عن العلوم و المعارف، و نوى النفس بنور القلب عن الأخلاق و المكارم، و يخرج حى القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها، و مخرج ميت النفس عن حى لقلب أخرى بإقباله عليها، و استيلاء الهوى و صفات النفس عليه، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم، و تقليبكم فى أطواركم، فأنى تصرفون عنه إلى غيره «(١)»

نماذج التفسير المبني على وحدة الوجود:

فى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» يقول: (ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلا، أى شيئا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماء ك و مظاهر صفاتك. سبحانك: نزهك أن يوجد غيرك أى يقارن شىء فردانيتك، أو يثنى وحدانيتك ...) «(٢)» اه و فى سورة الواقعة عند قوله تعالى فى الآية (٥٧) «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تُصَدِّقُونَ، يقول: (نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا و ظهورنا فى صوركم «(٣)» اه.

و في سورة الحديد عند قوله تعالى في الآية (٤) «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» يقول: (و هو معكم أينما كنتم بوجودكم به، و ظهوره في مظاهر كم «٤») اه.

و في سورة المجادلة عند قوله تعالى في الآية (٧) «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ.. الآية» يقول: (لا بالعدد و المقارئة، بل بامتيازهم عنه بتعييناتهم. و احتجاجهم عنه بماهياتهم و نياتهم، و افتراقهم منه بالإمكان اللازم (١) ج ١ ص ٢١٥.

(٢) ج ١ ص ١٤١

(٣) ج ٢ ص ٢٩١

(٤) ج ٢ ص ٢٩٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٦

لماهياتهم و هوياتهم، و تحققهم بوجوده اللازم لذاته، و اتصاله بهم بهويته المندرجة في هوياتهم، و ظهوره في مظاهرهم، و تستره بماهياتهم و وجوداتهم المشخصة، و إقامتها بعين وجوده، و إيجابهم بوجوده، فبهذه الاعتبارات هو رابع معهم، و لو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم؛ و لهذا قيل: لو لا الاعتبارات لارتفعت الحكمة) «١» اه.

و في سورة المزمل عند قوله تعالى في الآيتين (٨ و ٩) «وَ اذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ ...» يقول: (و اذكر اسم ربك الذي هو أنت، أى اعرف نفسك، و اذكرها، و لا تنسها، فينسك الله، و اجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها ... «رب المشرق و المغرب» أى الذى ظهر عليك نوره، فطلع من أفق وجودك بإيجادك، أو المغرب الذى اختفى بوجودك، و غرب نوره فيك و احتجب بك) «٢» اه هذه بعض النماذج التى تكشف لك عن روح هذا التفسير، و لو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم فى الغالب على مذهب صاحبه فى وحدة الوجود، و لعل هذا هو السر الذى من أجله نسب الكتاب لابن عربى؛ فإن ابن عربى يقول بوحدة الوجود، و يبنى كثيرا من تفسيره لبعض الآيات على هذا المذهب، فالاتحاد المذاهب و تشابه التفسير وقع الالتباس، فنسب التفسير لابن عربى، أو قصدت النسبة ليروج الكتاب كما قلنا، و أمن من فعل ذلك من افتضاح أمره؛ اعتمادا على الاتحاد فى المذهب، و التشابه فى التفسير.

و إذ قد جرننا الحديث إلى ابن عربى، فأرى إتاما للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة هذا الرجل، و عن مذهبه فى التفسير، و ليقف القارئ بعد ذلك على مقدار التشابه بين ابن عربى و القاشانى فى فهم كتاب الله تعالى، و الكشف عن معانيه. (١) ج ٢ ص ٣٠٠

(٢) ج ٢ ص ٣٥٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٧

ابن عربى و مذهبه فى تفسير القرآن الكريم

ترجمة ابن عربى «١»:

إشارة

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، الطائى، الأندلسى، المعروف بابن عربى بدون أداة التعريف، كما اصطلح على ذلك أهل المشرق، فرقا بينه و بين القاضى أبى بكر بن العربى صاحب أحكام القرآن. و كان بالمغرب يعرف بابن العربى بالألف و اللام، كما كان يعرف فى الأندلس بابن سراقفة.

ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ستين و خمسمائة من الهجرة ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ ثمان و ستين و خمسمائة، و بقى بها نحو من ثلاثين عاما، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه، و علا ذكره، و فى سنة ٥٩٨ هـ ثمان و تسعين و خمسمائة، نرح إلى

المشرق و طوف في كثير من البلاد؛ فدخل الشام، و مصر، و الموصل، و آسيا الصغرى، و مكة، و أخيرا ألقى عصاه و استقر به النوى في دمشق، و توفي بها في سنة ٦٣٨ هـ ثمان و ثلاثين و ستمائة، و دفن بها، فرحمه الله رحمة واسعة.

ابن عربي بين أعدائه و مرديه:

كان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته، و كان له أتباع و مريدون، يعجبون به إلى حد كبير، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر، و العارف بالله، كما كان له أعداء ينقمون عليه، و يرمونه بالكفر و الزندقة، و ذلك لما كان يدين به (١) رجعا في هذه الترجمة لترجمته المذكورة في آخر الفتوحات، و هي ملخصة من نفتح الطيب، و إلى شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١، و إلى دائرة المعارف الإسلامية المجلد الاول، العدد الثالث، و دائرة المعارف للبستاني المجلد الاول ص ٥٩٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٨

من القول بوحدة الوجود، و لما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر و الزندقة، فمن المعجبين بابن عربي: قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي القيروزي آبادي صاحب القاموس، و قد كتب كتابا يدافع فيه عنه، ردا على رضى الدين بن الخياط الذي كتب عن عقيدة ابن عربي و رماه بالكفر. و كمال الدين الزمكاني، من أكابر مشايخ الشام، و الشيخ صلاح الدين الصفدي، و الحافظ السيوطي، الذي ألف في الدفاع عنه كتابا سماه (تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي) و سراج الدين البلقيني، و تقى الدين بن السبكي، و غيرهم.

و من الناقمين عليه: ابن الخياط السابق ذكره، و الحافظ الذهبي، و ابن تيمية عدو الصوفية على الإطلاق. و لقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربي أنهم حاولوا اغتياله بمصر، و لكن الله سلمه و أنجاه.

مكانته العلمية:

إشارة

لم تقتصر براءة ابن عربي على التصوف، بل برع مع ذلك في كثير من العلوم، فكان عارفا بالآثار و السنن. أخذ الحديث عن جمع من علمائه. و كان شاعرا و أديبا، و لذلك كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك الغرب. و قد بلغ مبلغ الاجتهاد و الاستنباط، و تأسيس القواعد و المقاصد التي لا يحيط بها إلا من طالعها، و وقف على حقيقتها. و يقال إنه كان من أنصار مواطنه ابن حزم و مذهبه الظاهري، و لكنه مع ذلك أبطل التقليد.

مذهب ابن عربي في وحدة الوجود:

أما مذهبه في وحدة الوجود فهو: أنه يرى أن الوجود حقيقة واحدة.

و يعد التعدد و الكثرة أمرا قضت به الحواس الظاهرة (و قد أداه قوله بوحدة الوجود إلى قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها و غير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى في صورهم، و صور جميع المعبودات، و الغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه. و إنما الباطل

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٠٩

من العبادة: أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره، و يسميه إلهها «١».

(و بالجملة، فمنزلة ابن عربي العلمية كبيرة، و لا- أدل على ذلك من مؤلفاته الكثيرة التي تدل على سعة باعه، و تبخره في العلوم الظاهرة و الباطنة، و قد بلغ ما بقى منها إلى اليوم مائة و خمسون كتابا، و يظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربي في

الواقع «٢»). و أهم هذه المؤلفات الفتوحات المكيّة، الذى ذاع صيته. و كلف به كثير من الرجال، ثم فصوص الحكم» و له ديوان فى الأشعار الصوفية، و كتاب الأخلاق، و كتاب مجموع الرسائل الإلهية، و غير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

غير أن هذه المؤلفات، يوجد فى تضاعيفها كثير من الكلمات المشكّلة، التى حبيت خوض الناس فى عقيدته، و رميهم إياه بالكفر و الزندقه، و لكن أتباعه و مريديه و من أعجب به من العلماء لم يأخذوا هذه الألفاظ على ظواهرها بل قالوا: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، و إنما المراد أمور اصطلاح عليها متأخر و أهل الطريق غيره عليها. حتى لا يديعها الكذابون.

و قد قال السيوطى فى كتابه تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى: (و القول الفصل فى ابن عربى: اعتقاد ولايته، و تحريم النظر فى كتبه؛ فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا. قال السيوطى: و ذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلاحوا عليها. و أرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نص على ذلك الغزالي فى بعض كتبه و قال: إنه شبيه بالمتشابهة من القرآن و السنة، من حملة على ظاهره كفر) «٣».

و مما استدلووا به على أن ابن عربى لا يريد الظاهر الموهوم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت و هو من نظمه:

يا من يرانى و لا أراه كم ذا أراه و لا يرانى

(١) هامش دائرة المعارف الإسلامية المجلد الاول ص ٢٣٣

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الاول ص ٢٣٦

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٠

فاعترض عليه السامع و قال: كيف تقول إنه لا يراك، و أنت تعلم أنه يراك فقال مرتجلا:

يا من يرانى مجرما و لا أراه آخذا

كم ذا أراه منعما و لا يرانى لائذا

«١» قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره، و إنما له محامل تليق به.

و من العلماء من ينزه ابن عربى عن هذه العبارات الموهمة و يقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، و يروون فى ذلك أن الشعراى الذى اختصر الفتوحات قال: (و قد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة و الجماعة. فحذفتها من هذا المختصر. و ربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشري، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محبى الدين، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ فذاكرته فى ذلك، فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محبى الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه و حذفته، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة و الجماعة، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص و غيره «٢»).

و مهما يكن من شىء، فابن عربى معقد فى أفكاره، موهوم فى ألفاظه و تعابيره مشكل فى أكثر ما يقول. و مع كل هذا فلا أتهمه فى عقيدته، لجهلى باصطلاحات القوم و رموزهم. و كلمة الإنصاف فيه - كما أعتقد - قول الحافظ الذهبي عنه (و له توسع فى الكلام، و ذكاء، و قوة خاطر، و حافظه، و تدقيق فى التصوف و تأليفه جمه فى العرفان، و لو لا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس) «٣». (١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات ج ٤ ص ٥٥٧.

(٢) خاتمة الفتوحات ص ٥٥٥

(٣) دائرة المعارف للبستاني ص ٥٩٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١١

مذهب ابن عربي في تفسير القرآن الكريم

إشارة

يقوم مذهب ابن عربي في التفسير غالباً على نظرية وحدة الوجود التي يدين بها، و على الفيوضات و الوجدانيات التي تنهل عليه من سحائب الغيب الإلهي، و تنقذ في قلبه من ناحية الإشراق الرباني.

أما من الناحية الأولى: ناحية التأثير بمذهب وحدة الوجود.

فإننا نراه في كثير من الأحيان يتعسف في التأويل، ليجعل الآية تتمشى مع هذه النظرية. وهذا - فيما اعتقد - منهج كله شر في التفسير، فهو يبدل فيما أراد الله من آياته، و يقسرها على أن تتضمن مذهبه، و تكون أسانيد له، و هذا ليس من شأن المفسر المنصف، الذي يبحث في القرآن بحثاً مجرداً عن الهوى و العقيدة.

و أما من الناحية الثانية: ناحية الفيض الإلهي

فهو واسع الباع فيها، و قد مرت بك مقالته في التفسير الإشاري، و رأيت كيف ادعى أن كل ما يجري على لسان أهل الحقيقة من المعاني الإشارية في القرآن هو في الحقيقة تفسير و شرح لمراد الله، و إنما عبر عنها بالإشارة. تقيه من أهل الظاهر، و رأيت كيف ادعى أن أهل الله - و هم الصوفية - أحق الناس بشرح كتابه؛ لأنهم يتلقون علومهم عن الله، فهم يقولون في القرآن على بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن و التخمين.

ثم هو لا يرى فرقا بين القرآن نفسه، و بين تفسير أهل الله له، من ناحية أن كلا منهما حق ثابت، و صدق لا يعتره شك، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه؛ لأنه من عند الله، فكذلك أقوال أهل الحقيقة في التفسير، لا يأتيها الباطل من بين يديها و لا من خلفها، لأنها منزلة على قلوبهم من عند الله.

يقرر ابن عربي كل هذه المبادئ، و يصرح بها في فتوحاته، و أنا لازلت

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٢

واقفا عند رأيي الذي قررتُه آنفاً، و هو: أن دعوى الفيض و الإلهام لا يصح أن تكون أصلاً يحكم به على كتاب الله تعالى. هذا ... و إن ابن عربي لم نظفر له. بكتاب في التفسير و لكن نجد صاحب كشف الظنون يقول: إنه (صنف تفسيراً كبيراً على طريقة أهل التصوف في مجلدات، قيل إنه في ستين سفراً، و هو إلى سورة الكهف، و له تفسير صغير في ثمانية أسفار على طريقة المفسرين) (١) و إذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإننا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، و هو تفسيره لبعض الآيات التي وجدناها متفرقة في غضون مؤلفاته، كالفصوص، و الفتوحات. إليك بعضاً منها لتكون على بصيرة، و لتطمئن إلى حكمي على الرجل في شرحه لكتاب الله تعالى:

نماذج من التفسير الصوفي النظري:

في سورة نوح عند قوله تعالى في الآية (٢٥) «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» يقول: («مما خطيئاتهم أغرقوا» فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله و هو الحيرة «فأدخلوا ناراً» في عين الماء ... «فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً» فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد «٢»).

و عند قوله تعالى في الآيتين (٢٧، ٢٨) من سورة نوح أيضا: «إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدِي وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا» يقول ما نصه:

(«إنك إن تذرهم» أى تدعهم و تتركهم، «يضلوا عبادك»: أى يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أربابا، بعد ما كانوا عبيدا، فهم العبيد الأرباب «و لا يلدوا»: أى لا ينتجوا و لا يظهرها «إلا فاجرا»: (١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٣.

(٢) فصوص الحكم ج ١ ص ٢١٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٣

أى مظهرها ما ستر «كفارا» أى ساترا ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما ستر فيهم، ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر، و لا يعرف قدر الفاجر فى فجوره، و لا الكافر فى كفره، و الشخص واحد «رب اغفر لى» أى استرنى و استر من أجلي، فيجهل مقامى و قدرى، كما جهل قدرك «و ما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ (١)» «و لوالدى» كنت نتيجة عنهما، و هما العقل و الطبيعة «و لمن دخل بيتى» أى قلبى «مؤمنا» أى مصدقا بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية، و هو ما حدثت به أنفسهم «و للمؤمنين» من العقول «و المؤمنات» من النفوس «و لا تزد الظالمين» من الظلمات أهل الغيب المكتفين خلف الحجب الظلمانية «إلا تبارا» أى هلاكاً، فلا يعرفون نفوسهم و شهودهم وجه الحق دونهم (٢)» اه.

و فى سورة النساء عند قوله تعالى فى الآية (٨٠) «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» يقول: (لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته (٣)).

نماذج من التفسير الإشارى:

فى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (٥٧، ٥٨) «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ لَيْلَمِدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَ الْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» نراه يذكر: أنه لما أدركته الفطرة التى لا بد منها لكل داخل فى الطريق، و تحكمت فيه، رأى الحق سبحانه، فتلا عليه هاتين الآيتين، قال: فعلمت أنى المراد بهذه الآية، و قلت: ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأول الذى هدانا الله به على يد عيسى و موسى و محمد سلام الله عليهم جميعهم؛ فإن رجوعنا إلى هذا الطريق، كان بمبشرة على يد عيسى، و موسى، (١) فى الآية (٤٧) من سورة الزمر.

(٢) الفصوص ج ١ ص ١٢٣.

(٣) الفتوحات ج ٤ ص ١٢٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٤

و محمد عليهم السلام. «بين يدي رحمته» و هى العناية بنا «حتى إذا أقلت سحابة تقالا» و هو ترادف التوفيق «سقناه لبلد ميت» و هو أنا «فأحيينا به الأرض بعد موتها» و هو ما ظهر علينا من أنوار القبول، و العمل الصالح، و التعشق به.

ثم مثل فقال: «كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون» يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبى صلى الله عليه و سلم فى البعث - أعنى حشر الأجسام - من أن الله يجعل السماء تمطر مثل منى الرجال .. الحديث. ثم قال «و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه» و ليس سوى الموافقة و السمع و الطاعة لطهارة المحل «و الذى خبث» و هو الذى غلبت عليه نفسه و الطبع، و هو معتنى به فى نفس الأمر «لا يخرج إلا نكدا» مثل قوله: إن لله عبادا يقادون إلى الجنة بالسلاسل، و قوله فى الآية (١٥) من سورة الرعد «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا» فقلنا طوعا يا إلهنا (١)» اه.

و في سورة الحج عند قوله تعالى في الآيتين (٣٢ و ٣٣) «وَمَنْ يُعْظَمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ* لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» نجده يفسر «شعائر الله» فيقول (شعائر الله أعلامه، و أعلامه الدلائل الموصلة إليه) و يفسر قوله «ثم محلها إلى البيت العتيق» فيقول: («ثم محلها إلى البيت العتيق»، و هو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، و ليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمه الله و جلاله) (٢).

و في سورة لقمان عند قوله تعالى في الآية (١٦) «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِرْحَرَةٍ ... الآية» نجده يفسر قوله تعالى «فَتَكُنْ فِي صِرْحَرَةٍ» فيقول: (أى عند ذى قلب قاس لا شفقه له على خلق الله، قال تعالى «- في الآية (٧٤) من سورة البقرة-» ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ...») (٣). (١) الفتوحات ج ٤ ص ١٧٢.

(٢) الفتوحات ج ٤ ص ١٠٩.

(٣) الفتوحات ج ٤ ص ١١٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٥

نماذج من التفسير الظاهر:

في سورة الأنعام عند قوله تعالى في الآية (١٥٣) «وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» يقول: («و أن هذا صراطى مستقيما» فأضافه إليه. و لم يقل صراط الله، و وصفه بالاستقامة .. ثم قال «فاتبعوه» الضمير يعود على صراطه «و لا تتبعوا السبل» يعنى شرائع من تقدمه و مناهجهم من حيث ما هى شرائع لهم، إلا إن وجد حكم فيها فى شرعى فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعا لهم «فتفرق بكم عن سبيله» يعنى تلك الشرائع. عن سبيله: أى عن طريقه الذى جاء به محمد صلى الله عليه و سلم، و لم يقل عن سبيل الله:

لأن الكل سبيل الله؛ إذ كان الله غايتها. «ذلكم و صاكم به لعلكم تتقون» أى تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم و بين المشى على غيره ... (١) اه و هذا تفسير مقبول، لجريانه على مقتضى الظاهر من الآية، و لكن نجد صاحبنا أحيانا يشطح فى فهمه لظاهر الآيات شطحات لا نستطيع أن نسلماها له على ظاهرها، و إنما أقول على ظاهرها، لأنه ربما كان يعنى من وراء هذا الظاهر معنى لا غبار عليه، أراداه هو، و جهلته أنا، فمن ذلك أنه يقول: (اعلم- وفقك الله- أن الله أخبر عن نبيه و رسوله عليه السلام فى كتابه أنه قال «إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢)» فوصف نفسه بأنه على صراط مستقيم، و ما أخطأ هذا الرسول فى هذا القول. ثم إنه ما قال ذلك إلا بعد قوله: «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا» فما ثم إلا من هو مستقيم على الحقيقة على صراط الرب، لأنه ما ثم إلا من الحق آخذ بناصيته، و لا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده و هو على صراط مستقيم، و نكر لفظ دابة فعم، فأين المعوج حتى نعدل عنه؟ فهذا جبر، و هذه استقامة، فالله يوفقنا فى إنزال كل حكمه فى موضعها .. اه. (١) الفتوحات ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) فى الآية (٥٦) من سورة هود.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٦

هذه بعض النماذج من تفسير ابن عربى. و منها تستطيع أن تحكم على فهمه لمعانى القرآن، كما تستطيع أن تقارن بينها و بين ما فى تأويلات الكاشانى، المنسوبة لابن عربى، لتقف على مقدار التشابه بين التفسيرين، و تأثر كل منهما بعقيدته فى وحدة الوجود. و بعد .. فهذا هو تفسير الصوفية، و هؤلاء هم أهم مفسريه، و هذه هى أهم الكتب المؤلفة فيه و لعلى أكون قد أوفيت البحث حقه، و ألممت بالموضوع من جميع نواحيه.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٧

كيف وجدت الصلة بين التفسير و الفلسفة؟

فى إبان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، و يرجع الفضل الأكبر فى هذا العمل إلى العباسيين و حدهم؛ إذ أنهم نظموا الترجمة الإسلامية و شجعوها.

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة، و تعهدا أبنائه و أحفاده من بعده، و بلغ بها المأمون خاصة القمة، و أضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان.

و لكى يحقق العباسيون غايتهم استخدموا طائفة من الفرس و الهنود و الصابئة، و المسيحيين، الذين كانوا على اتصال و ثيق بالدراسات القديمة، فنقلوا إلى اللغة العربية كتب فلاسفة اليونان، و الهند، و الفرس، و غيرهم، ثم أذيعت هذه الكتب بين المسلمين، فقرأوها قراءة النهم المتعطش لهذا النوع من العلم الذى لم يكن لهم به عهد من قبل.

قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات و أبحاث؛ لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين، و لا تتفق معه بحال من الأحوال، فكرسوا حياتهم للرد عليها، و تنفير الناس منها، و كان على رأس هؤلاء: الغزالي، و الفخر الرازى، الذى تعرض فى تفسيره لنظريات الفلاسفة التى تبدو فى نظره متعارضة مع الدين، و مع القرآن على الأخص. فردها و أبطلها بمقدار ما أسعفته الحجة، و انقاد له الدليل.

و قرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلى حد كبير، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، و تعاليمه التى لا يلحقها

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٨

الشك، و لا تحوم حولها الشبهة .. نعم أعجبوا بها رغم هذا، لأنهم وجدوا أن فى مقدورهم أن يوفقوا بين الحكمة و العقيدة، أو بين الفلسفة و الدين، و أن يبينوا للناس أن الوحى لا يناقض العقل فى شىء، و أن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفوس، و ثبتت أمام الخصوم ... رأوا أن هذا فى مقدورهم، فبدلوا كل ما يستطيعون من حلول ليصلوا الفلسفة بالدين، و يؤاخوا بينهما، حتى يصبح الدين فلسفة، و الفلسفة دينا، و فعلا وصل فلاسفة المسلمين إلى هذا التوفيق، و لكنه توفيق إن أرضى بعض المسلمين فقد أغضب الكثير منهم؛ ذلك لأنهم لم يصلوا فى توفيقهم إلا إلى حلول وسطى، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويرا يبعد كثيرا عن الصور الثابتة الماثورة، و مثل هذه الحلول لا تصلح للتوفيق بين جانبيين متقابلين و طرفين متنافرين؛ و لذلك لم يجد الغزالي و من لفه صعوبة فى الرد على هؤلاء الفلاسفة الموفقين، و إبطال محاولاتهم، التى ظنوا أنهم أرضوا بها رجال الدين الواقفين عند حدوده و تعاليمه.

كيف كان التوفيق بين الدين و الفلسفة؟

إشارة

ثم إن الفلاسفة الموفقين بين الدين و الفلسفة، كانت لهم طريقتان يسيرون عليهما فى توفيقهم:

أما الطريقة الأولى: فهى طريقة التأويل للنصوص الدينية و الحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية

و معنى هذا إخضاع تلك النصوص و الحقائق إلى هذه الآراء حتى تسايرها و تتمشى معها.

و أما الطريقة الثانية: فهي شرح النصوص الدينية و الحقائق الشرعية بالآراء و النظريات الفلسفية

و معنى هذا أن تطغى الفلسفة على الدين و تتحكم فى نصوصه، و هذه الطريقة أخطر من الأولى، و أكثر شرا منها على الدين.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤١٩

الأثر الفلسفى فى تفسير القرآن الكريم

إشارة

مما تقدم يتضح لك أن علماء المسلمين لم يكونوا جميعا على مبدأ واحد بالنسبة للآراء الفلسفية، بل وجد منهم من وقف منها موقف الرفض و عدم القبول، كما وجد منهم من وقف موقف الدفاع عنها و القبول لها. و كان من هؤلاء و هؤلاء أثر ظاهر فى تفسير القرآن الكريم.

أما الفريق المعاند للفلسفة:

فإنه لما فسر القرآن اصطدم بهذه النظريات الفلسفية، فرأى من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات و يمزجها بالتفسير، إما على طريق الدفاع عنها و بيان أنها لا تتعارض مع نصوص القرآن، و ذلك بالنسبة للنظريات الصحيحة عنده، و المسلمة لديه. و إما على طريق الرد عليها، و بيان أنها لا يمكن أن تسائر نصوص القرآن، و ذلك بالنسبة للنظريات التى لا يسلمها و لا يقول بها. و هو فى الحالة الأولى يشرح القرآن على ما يوافق هذه النظريات التى لا يراها متعارضة مع الدين، و فى الحالة الثانية لا يمشى على ضوء النظريات الفلسفية فى تفسيره، بل يفسر النصوص على ضوء الدين و العقل و حدهما، دون أن يكون للرأى الفلسفى دخل فى شرح النص القرآنى و بيان معناه، و ممن فعل هذا فى تفسيره: الإمام فخر الدين الرازى، و دونك التفسير فسترى فيه ما ذكرته.

و أما الفريق المسالم للفلسفة:

المصدق بكل ما فيها من نظريات و آراء، فإنه لما فسر القرآن سلك طريقا كله شر و ضلال، إذ أنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه، ثم نظر من خلالها إلى القرآن، فشرح نصوصه على حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شىء إلا من التعصب الفلسفى ... و أخيرا وجدنا أنفسنا أمام شروح لبعض آيات القرآن، هى فى الحقيقة شروح لبعض النظريات الفلسفية، قصد بها تدعيم الفلسفة و خدمتها على حساب القرآن الكريم، الذى هو أصل الدين و منبع تعاليمه.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٠

من تفسير الفارابى:

فمن هذه الروح التي طغت عليها الفلسفة، ما تجده للفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ تسع و ثلاثين و ثلاثمائة من الهجرة في كتابه فصوص الحكم، من تفسيره لبعض الآيات و الحقائق التي جاء بها القرآن، تفسيراً فلسفياً بحثاً، فمن ذلك أنه يفسر الأولى و الآخرة الواردة في قوله تعالى في الآية (٣) من سورة الحديد «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» تفسيراً أفلوطينياً مبنياً على القول بقدوم العالم فيقول: إنه (الأول من جهة أنه منه و يصدر عنه كل موجود لغيره، و هو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربه منه، أول من جهة أن كل زمانى ينسب إليه يكون، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشيء، و وجد إذ وجد معه لا فيه. هو أول؛ لأنه إذا اعتبر كل شيء كان فيه أولاً أثره، و ثانياً قبوله لا بالزمان. هو آخر؛ لأن الأشياء إذا لوحظت و نسبت إليه أسبابها و مبادئها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية في كل طلب، فالغاية مثل السعادة في قولك: لم شربت الماء! فتقول:

لتغيير المزاج، فيقال: و لم أردت أن يتغير المزاج؟ فتقول: للصحة، فيقال:

لم طلبت الصحة؟ فتقول: للسعادة و الخير، ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه؛ لأن السعادة و الخير يطلب لذاته لا لغيره .. فهو المعشوق الأول، فلذلك هو آخر كل غاية، أول في الفكرة آخر في الحصول، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه، و لا يوجد زمان متأخر عن الحق (... «١» اه).

و يشرح الظاهر و الباطن الوارد في قوله تعالى في الآية (٣) من سورة الحديد أيضاً «.. وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» فيقول: (لا وجود أكمل من وجوده، فلا- خفاء به من نقص الوجود، فهو في ذاته ظاهر، و لشدة ظهوره باطن، و به يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفى و تستبطن لا عن خفاء) «٢» اه.

كما يشرح هذه الجملة مرة أخرى فيقول: (هو باطن لأنه شديد الظهور، (١) فصوص الحكم ص ١٧٤ - ١٧٥ ضمن المجموع من مؤلفات أبي نصر الفارابي

(٢) فصوص الحكم ص ١٧٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢١

غلب ظهوره على الإدراك فخفى، و هو ظاهر من حيث أن الآثار تنسب إلى صفاته، و تجب عن ذاته فتصدق بها (... اه «١».) و يفسر الوحي بقوله: (و الوحي لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة، و ذلك هو الكلام الحقيقي، فإن الكلام إنما يراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطب في باطن المخاطب ليصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مس باطن المخاطب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه، اتخذ فيما بين الباطنين سفيراً من الظاهرين، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار. و إذا كان المخاطب لا حجاب بينه و بين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس على الماء الصافي فانتقش منه، لكن المنتقش في الروح من شأنه أن يسيح إلى الحس الباطن إذا كان قوياً، فينتطع في القوة المذكورة فيشاهد، فيكون الموحى إليه يتصل بالملك باطنه، و يتلقى وحيه الكلى بباطنه (... اه «٢».) كما يشرح الملائكة بأنها (صورة علمية، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها، تلحظ الأمر الأعلى فينتطع في هويتها ما تلحظ، و هي مطلقة، لكن الروح القدسية تخاطبها في اليقظة، و الروح البشرية تعاشرها في النوم) اه «٣»

من تفسير إخوان الصفا:

و من الشروح الفلسفية للقرآن أيضاً ما نجده في رسائل إخوان الصفا، الذين لا زلنا نجهل الكثير عن تاريخ نشأتهم، و تكوينهم و الذين كانوا يمتون في أغلب الظن بصلة إلى الباطنية الإسماعيلية.

فمن ذلك أنهم يشرحون الجنة و النار، بما يفهم منه أن الجنة هي عالم الأفلاك و أن النار هي عالم ما تحت فلك القمر، و هو عالم الدنيا، ففي حديثهم عن تجرد النفس و اشتياقها إلى عالم الأفلاك، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلى ما هناك بهذا الجسد الثقيل

الكثيف، و يقولون: (إن النفس إذا فارقت (١) فصوص الحكم ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) فصوص الحكم ص ١٦٣

(٣) المرجع السابق ص ١٤٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٢

هذه الجنة، و لم يعقها شيء من سوء أفعالها، أو فساد آرائها، و تراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها، فهي هناك في عالم الفلك في أقل من طرفه عين بلا زمان، لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد، و معشوقها هو الملذات المحسوسة المموهة الجرمانية، و شهواتها هذه الزينات الجسمانية، فهي لا تبرح من هاهنا و لا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك، و لا تفتح لها أبواب السماء و لا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة، بل تبقى تحت فلك القمر، سائحة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة، تارة من الكون إلى الفساد؛ و تارة من الفساد إلى الكون «كَلَّمَا نَضَّجَتْ جُلُودَهُمْ يَدَلُّنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ» (في الآية (٥٦) من سورة النساء) «لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا» (الآية (٢٣) من سورة النبا) ما دامت السموات و الأرض، لا يذوقون فيها برد عالم الأرواح الذي هو الروح و الرياح، و لا يجدون لذة شراب الجنان المذكور في القرآن و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين (الآية (٥٠) من سورة الأعراف) الظالمين لأنفسهم و يروى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: (الجنة في السماء و النار في الأرض (١)) اه.

و من ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون: (إن كواكب الفلك هم ملائكة الله و ملوك سماواته .. خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه، و تدبير خلائقه؛ و سياسة بريته، و هم خلفاء الله في أفلاكه كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه (٢)) اه، كذلك يرى إخوان الصفا (أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلى ملكوت السماء و تدخل في زمرة الملائكة؛ و تحيي بروح القدس، و تسبح في فضاء الأفلاك، في فسحة السموات، فرحاً، مسرورة منعمة، متلذذة، (١) رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٩١-٩٢ المطبعة العربية سنة ١٩٢٨ م.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٩٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٣

مكرمة، مغتبطة) و يقولون إن ذلك هو معنى قول الله عز و جل في الآية (١٠) من سورة فاطر «إِلَيْهِ يَصِيْعُدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» (١).

كذلك يشرح إخوان الصفا الشياطين شرحاً فلسفياً بحثاً لا يتفق مع ما جاء به الدين فيقولون: (إن الله أشار إلى النفوس و وساوسها بقوله- في الآية (١١٢) من سورة الأنعام- «شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» فشياطين الجن هي النفوس المفارقة الشريفة التي قد استجنت عن إدراك الحواس. و شياطين الإنس هي النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد) اه ... (٢).

ثم يقولون: (أمثال هذه النفوس التي ذكرناها- يعنون النفوس الخبيثة- هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل (٣)).

كما يفهمون أن تسمية الله الشهداء في قوله في الآية (٦٩) من سورة النساء «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسَنٌ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا» بهذا الاسم إنما هو لشهادتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهولي، و يعنون بها جنة الدنيا و نعيمها (٤).

ثم إن إخوان الصفا يعتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان العامة، و يقولون: (إن النبي صلى الله عليه و سلم يخبر خواص أمته بما جاء به و اعتقده بالتصريح في السر و العلن، غير مرموز و لا- مكتوم، ثم يشير إليها، و يرمز عنها عند العوام

بالألفاظ المشتركة، و المعانى المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور، و تقبلها نفوسهم «٥» و غير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة. (١) المصدر السابق ج ٤ ص ١١٠ و ١١١. مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦ هـ

(٢) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٧٢، مطبعة تحفة الاخبار سنة ١٣٠٦ هـ

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ١٧٤

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ١٨٦

(٥) المرجع السابق ج ٤ ص ١٨٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٤

هذه بعض شروح الفلاسفة من المسلمين لآيات القرآن الكريم، و هي كما ترى شروح تقوم على نظريات فلسفية، بحثه لا يمكن أن يتحملها النص القرآنى بحال من الأحوال.

هذا ... و لم نسمع أن فيلسوفا من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة فى عقولهم، ألف لنا تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، و كل ما وجدناه لهم فى ذلك لا يعدو بعض أفهام قرآنية مفرقة فى كتبهم التى ألفوها فى الفلسفة.

[ابن سينا الشخصية الأولى التى كان لها أكبر أثر فى التفسير الفلسفى]

إشارة

و أكثر من وجدنا له أثراً فى التفسير من هؤلاء الفلاسفة هو الرئيس أبو على بن سينا؛ إذ قد عثر له على تفسير قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ. الْآيَةُ» «١» و على تفسير سورة الإخلاص، و المعوذتين «٢» و بعض آيات أخرى، و لهذا سأعتبر ابن سينا الشخصية الأولى التى كان لها أكبر أثر فى التفسير الفلسفى، فأذكر نبذة عن حياته، ثم أعرض لمسلكه فى التفسير فأقول:

ترجمة ابن سينا:

هو الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا. كان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلى بخارى، و فى قريته من قراها ولد له أبو على ابن سينا سنة ٣٧٠ هـ سبعين و ثلاثمائة من الهجرة. ثم انتقل مع أهله إلى بخارى، ثم طوف أبو على بعد ذلك فى البلاد، و اشتغل بالعلوم، و حصل كثيراً من الفنون. حفظ القرآن و له من العمر عشر سنين، و أتقن الأدب، و حفظ أشياء من أصول الدين، و الحساب و الجبر، ثم تعلم المنطق على أبى عبد الله الناتلى، و فاقه، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية و الإلهية، ثم رغب فى علم الطب فقرأ الكتب المؤلفة فيه، حتى أصبح بارعاً لا يعدله أحد فيه. كل هذا و لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا و قد فرغ من (١) يوجد هذا التفسير فى كتاب جامع البدائع.

(٢) يوجد تفسير هذه السور الثلاث فى رسائل ابن سينا.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٥

تحصيل العلوم التى عاناها، مما يدل على ذكائه الخارق و ذهنه الثاقب. أما تصانيفه فكثيرة، تقارب المائة مصنف، و من أهمها: كتاب الشفاء فى الحكمة، و النجاة و الإشارات، و القانون، و غير ذلك من كتبه القيمة، التى انتفع الناس بها كثيراً.

و لقد جمع أبو على ابن سينا إلى شهرته العلمية شهرة أخرى سياسية؛ إذ أنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان، و لما اضطرت أمور الدولة خرج أبو على من بخارى، و طوف ببلاد كثيرة حتى وصل إلى همدان، و هناك تقلد الوزارة لشمس الدولة، ثم ثار الجند عليه،

و أغاروا على داره، و نهبوا، و قبضوا عليه، و سألوا شمس الدولة قتله فامتنع، ثم أطلق فتواري، ثم أعاده شمس الدولة وزيراً بعد ذلك، و لما مات شمس الدولة توجه إلى أصبهان، ثم أدركه مرض شديد مات على أثره، و كانت وفاته بهمدان سنة ٤٢٨ هـ ثمان و عشرين و أربعمئة من الهجرة، و دفن بها، فرحمه الله «١».

مسلك سينا في التفسير:

ابن سينا كمسلم يدين بالقرآن، و فيلسوف محب للفلسفة حريص على سلامة ما فيها من آراء، كان حريصاً كل الحرص على أن يوفق بين الدين و الفلسفة، حتى يرضى ناحيته الدينية و الفلسفية. و كان طبيعياً- و القرآن هو الدعامة الأولى من دعائم الإسلام- أن يوفق ابن سينا بين نصوص القرآن و النظريات الفلسفية التي تبدو معارضة لها، و فعلاً قام بهذه العملية التي كانت- فيما اعتقد- شراً على الدين، و إبطالا لحقائق القرآن الصريحة الثابتة.

نظر ابن سينا إلى القرآن، و نظر إلى الفلسفة، فحكم النظريات الفلسفية في النصوص القرآنية، فشرحها شرحاً فلسفياً بحثاً، و كانت طريقته التي يسلكها في شرحه غالباً هي شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية، و ذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبي صلى الله عليه و سلم لحقائق تدق على (١) انظر وفيات الأعيان ج ص ٢٧١-٢٧٥، و شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٣٤-٢٣٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٦

أفهام العامة، عجزت أفهامهم عن إدراكها، فرمز إليها النبي بما يمكنهم أن يدركوه، و أخفى عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم، و هو يقول: (إن المشترط على النبي أن يكون كلامه رمزا، و ألفاظه إيماء، و كما يذكر أفلاطون في كتاب النواميس: إن من لم يقف على معاني رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهي، و كذلك أجله فلاسفة يونان و أنبيأؤهم كانوا يستعملون في كتبهم الرموز و الإشارات، التي حشوا فيها أسرارهم، كفيثاغورس و سقراط و أفلاطون .. و ما كان يمكن النبي محمداً صلى الله عليه و سلم أن يوقف على العلم أعرابياً جافياً، و لا سيما البشر كلهم، إذ كان مبعوثاً إليهم كلهم) اه «١».

و على هذا الأساس نظر ابن سينا إلى نصوص القرآن كرموز لا يعرف حقيقتها إلا الخواص أمثاله، ففسرها تفسيراً حكم فيه ما لديه من نظريات فلسفية، فكان في عمله هذا فاشلاً، و بعيداً عن حقيقة الدين، و روح القرآن الكريم.

و إليك بعض ما قاله ابن سينا في بعض نصوص القرآن الكريم، لتقف على مقدار تهافته، و بعده عن حقائق القرآن الثابتة.

عرض ابن سينا لشرح قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة الحاقة «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» ففسر العرش بأنه الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، و فسر الملائكة الثمانية التي تحمل العرش بأنها الأفلاك الثمانية التي تحت الفلك التاسع و إليك عبارته بنصها:

قال: (و أما ما بلغ النبي صلى الله عليه و سلم عن ربه عز و جل من قوله «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» (فبقول) إن الكلام المستفيض في استواء الله تعالى على العرش من أوضاعه: أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية، و تدعى المشبهة من المتشعرين أن الله تعالى على العرش لا- على سبيل حلول. هذا، و أما في كلام الفيلسوف فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع (١) رسائل ابن سينا ص ١٢٤-١٢٥. مطبعة هندية سنة ١٩٠٨ م

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٧

الذي هو فلك الأفلاك، و يذكر أن الله تعالى هناك، و عليه لا- على حلول، كما بين أرسطو في آخر كتاب سماع الكيان. و الحكماء المتشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هذا الجرم. هذا .. و قد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس؛ لأن الحركات إما ذاتية و إما غير ذاتية. و الذاتية إما طبيعية، و إما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفنى و لا تتغير أبد الدهر، و قد ذاع في الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعاً، لا يموتون كالإنسان الذي يموت، فإذا قيل إن الأفلاك أحياء ناطقة

لا تموت، و الحى الناطق الغير الميت يسمى ملكا، فالأفلاك تسمى ملائكة، فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول على ثمانية، و وضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك. و الحمل يقال على وجهين: حمل بشرى، و هو أولى باسم الحمل كالحجر المحمول على ظهر الإنسان، و حمل طبيعي كقولنا الماء محمول على الأرض، و النار على الهواء، و المعنى هنا الحمل الطبيعي لا الأول. و قوله: يومئذ، و الساعة، و القيامة، فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته.

و لما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة أكد جعل الوعد و الوعيد، و أشباههما إلى ذلك الوقت «١» اه. كذلك نجد ابن سينا يفسر الجنة و النار و الصراط تفسيراً فلسفياً بعيداً عن المأثور الثابت الصحيح، فيقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام: عالم حسى، و عالم خيالى و همى، و عالم عقلى. و العالم العقلى عنده هو الجنة، و العالم الخيالى هو النار، و العالم الحسى هو عالم القبور. أما الصراط فيقول فى شرحه: (اعلم أن العقل يحتاج فى تصور أكثر الكليات إلى استقراء الجزئيات، فلا محالة أنها تحتاج إلى الحس الظاهر، فتعلم أنه يأخذ من الحس الظاهر إلى الخيال إلى الوهم، و هذا هو من الجحيم طريق و صراط دقيق صعب حتى يبلغ ذاته العقل، فهو إذا يرى كيف الحد صراطاً و طريقاً فى عالم الجحيم، فإن جاوزه بلغ عالم العقل، فإن وقف فيه و تخيل الوهم عقلاً، و ما يشير إليه حقاً، فقد وقف (١) رسائل ابن سينا ص ١٢٨ - ١٢٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٨

على الجحيم، و سكن فى جهنم، و هلك و خسارنا مينا).

كذلك يفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة المدثر: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» تفسيراً فلسفياً بعيداً عن هدف القرآن، فيقرر أن النفس الحيوانية هى الباقية الدائمة فى جهنم، و هى منقسمة إلى قسمين: إدراكية، و عملية، و العملية. شوقية، و عضوية، و العلمية: هى تصورات الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة، و تلك المحسوسات ستة عشر، و القوة الوهمية الحاكمة على تلك الصور حكماً غير واجب واحدة - ذاتيان، و ستة عشر، و واحدة تسعة عشر ... ثم يقول:

(و أما قوله «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً» فمن العادة فى الشريعة تسمية القوى اللطيفة الغير المحسوسة ملائكة) اه «١» كما يفسر أبواب الجنة الثمانية، و أبواب النار السبعة تفسيراً فلسفياً صرفاً، فيقول. (و أما ما بلغ النبى محمد عن ربه عز و جل أن للنار سبعة أبواب، و للجنة ثمانية أبواب، فإذ قد علم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة و هى خمسة، و إدراكها الصور مع المواد، أو مدركة متصورة بغير مواد كخزائنه الحواس المسماة بالخيال، و قوة حاكمها عليها حكماً غير واجب و هو الوهم، و قوة حاكمها واجبا و هو العقل، فذلك ثمانية. فإذا اجتمعت الثمانية جملة أدت إلى السعادة السرمدية، و الدخول فى الجنة، و إن حصل سبعة منها لا تستتم إلا بالثامن أدت إلى الشقاوة السرمدية. و المستعمل فى اللغات أن الشىء المؤدى إلى الشىء يسمى باباً، فالسبعة المؤدية إلى النار سميت أبواباً لها، و الثمانية المؤدية إلى الجنة سميت أبواباً لها «٢»).

و يفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجٍ الزُّجَاجِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ» (١) رسائل ابن سينا ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) رسائل ابن سينا ص ١٣٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٢٩

وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (النور اسم مشترك لمعنيين: ذاتى و مستعار، و الذاتى هو كمال المشف من حيث هو مشف كما ذكرها أرسطاطاليس، و المستعار على وجهين: إما الخير، و إما السبب الموصل إلى الخير، و المعنى هاهنا هو القسم المستعار بكلى فى قسميه .. أعنى أن الله تعالى خير بذاته و هو سبب لكل خير، كذلك الحكم فى الذاتى و غير الذاتى. و قوله «السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» عبارة عن الكل. و قوله «مشكاة» فهو عبارة عن

العقل الهولاني و النفس الناطقة؛ لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهيئ. للاستضاءة؛ لأن كل ما يقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد، و الضوء أكثر، و كما أن العقل بالفعل مشبه بالنور، كذلك قابله مشبه بقباله و هو المشف، و أفضل المشفات الهواء، و أفضل الأهوية هو المشكاة، فالمرموز بالمشكاة هو العقل الهولاني الذي نسبته إلى العقل المستفاد كنسبة المشكاة إلى النور، و المصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل؛ لأن النور كما هو كمال للمشف كما حدبه الفلاسفة و مخرج له من القوة إلى الفعل، و نسبة العقل المستفاد إلى العقل الهولاني كنسبة المصباح إلى المشكاة. و قوله «في زجاجة» لما كان بين العقل الهولاني و المستفاد مرتبة أخرى و موضع آخر نسبته كنسبة الذي بين المشف و المصباح، فهو الذي لا يصل في العيان المصباح إلى المشف إلا بتوسط و هو المرسج، و يخرج من المسارج الزجاجية لأنها من المشفات القوابل للضوء. ثم قال بعد ذلك «كأنها كوكب دري» ليجعلها الزجاج الصافي المشف، لا الزجاج الذي لا يستشف، فليس شيء من المتلونات يستشف «توقد من شجرة مباركة زيتونة» يعنى به القوة الفكرية التي هي موضوعه و مادة للأفعال العقلية، كما أن الدهن موضوع و مادة للسراج (... «١») و هكذا استمر ابن سينا في شرح هذه الآية فارجع إليه إن شئت، و سترى أن شرحه هذا مزيج من فكرتي أفلاطون و أرسطو حيث جمع فيه بين ما يعرف لأفلاطون من التعبير؛ (الخير) و (الكل)، و ما يعرف لأرسطو من أقسام العقل. (١) رسائل ابن سينا ص ١٢٥-١٢٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٠

و يقول في تفسير قوله تعالى في الآية (٤) من سورة الفلق «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ»: (قوله تعالى «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ» إشارة إلى القوة النباتية؛ فإن النباتية موكله بتدبير البدن و نشوه و نموه، و البدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة المختلفة المتنازعة إلى الانفكاك، لكنها من شدة انفعال بعضها عن بعض صارت بدنا حيوانيا. و النفاثات فيها هي القوى النباتية، فإن النفث سبب لأن يصير جوهر الشيء زائدا في المقدار من جميع جهاته .. أي الطول و العرض و العمق. و هذه القوى هي التي تؤثر في زيادة الجسم المغتذى و النامي من جميع الجهات المذكورة .. إلخ «١»).

و يفسر قوله تعالى في الآية (٥) من سورة الفلق أيضا «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» فيقول: (عنى به النزاع الحاصل بين البدن و قواه كلها، و بين النفس «٢»).

و في سورة الناس يفسر قوله تعالى في الآية (٤) «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ» فيقول: (هذه القوة التي توقع الوسوسة هي القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية، ثم إن حركتها تكون بالعكس، فإن النفس وجهها إلى المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيلة إذا جذبتها إلى الاشتغال بالمادة و علائقها فتلك القوة تخنس أي تتحرك بالعكس و تجذب النفس الإنسانية إلى العكس، فلهذا سمى خناسا «٣»).

و يفسر قوله تعالى في الآية (٦) من سورة الناس أيضا «مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» فيقول: (الجن هو الاستتار، و الإنس هو الاستئناس، فالأمور المستترة هي الحواس الباطنة، و المستأنسة هو الحواس الظاهرة «٤») اهـ.

رأينا في تفسير الفلاسفة:

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا في شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم، (١) جامع البدائع ص ٢٧-٢٨ مطبعة السعادة سنة ١٩١٧ م.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨

(٣) المرجع السابق ص ٣١

(٤) المرجع السابق ص ٣١-٢٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣١

و هو كما ترى عين ما يذهب إليه الباطنية في تأويلاتهم للآيات القرآنية، و لا أحسب أن مسلما مهما كان محبا للفلسفة و الفلاسفة يقر ابن سينا و أمثاله على دعوى أن الحقائق القرآنية رموز و إشارات لحقائق أخرى، دقت عن أفهام العامة، و خفيت على عقولهم القاصرة، فرمز إليها النبي بآيات القرآن الكريم.

هذا، و لعل القارئ الكريم يلحظ معي أن الإمامية الاثني عشرية، و الباطنية الإسماعيلية، و متطرفي الصوفية، و رجال الفلسفة الإسلامية، كلهم يسيرون على نمط واحد هدام لمقاصد القرآن و مراميه، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز، أو الإشارة، أو الباطن. و يظهر لنا أنها عدوى سرت إلى المسلمين من قدماء الفلاسفة «١»، ثم تلقتها هذه الفرق بصدر رحب، و تقبلتها بقبول حسن، لأنهم رأوا فيها عونا كبيرا على ترويج بدعهم، و نشر ضلالتهم بين المسلمين!! ... (١) انظر ما قلناه عن بيرون اليهودي عند كلامنا عن الباطية.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٢

الفصل السابع تفسير الفقهاء

كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهى

١- التفسير الفقهى من عهد النبوة إلى مبدأ قيام المذاهب الفقهية.

نزل القرآن الكريم مشتملا على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التى تتعلق بمصالح العباد فى دنياهم و آخراهم، و كان المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية. و ما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و لما توفى رسول الله صلى الله عليه و سلم جدت للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكما شرعيا صحيحا، فكان أول شىء يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم، ينظرون فى آياته، و يعرضونها على عقولهم و قلوبهم، فإن أمكن لهم أن ينزلوها على الحوادث التى جدت فيها و نعمت، و إلا لجأوا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإن لم يجدوا فيها حكما اجتهدوا و أعملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب و السنة؛ ثم خرجوا بحكم فيما يحتاجون إلى الحكم عليه.

غير أن الصحابة فى نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقون أحيانا على الحكم المستنبط، و أحيانا يختلفون فى فهم الآية، فتختلف أحكامهم فى المسألة التى يبحثون عن حكمها، كالخلاف الذى وقع بين عمر بن الخطاب و على بن أبى طالب فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها، فعمر رضى الله عنه حكم بأن عدتها وضع الحمل، و على حكم بأن عدتها أبعد الأجلين: وضع الحمل، و مضى أربعة أشهر و عشرة أيام، و سبب هذا الخلاف تعارض نصين عامين فى القرآن، فإن الله سبحانه

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٣

جعل عدة المطلقة الحامل وضع الحمل، و جعل عدة الوفاة أربعة أشهر و عشر من غير تفصيل. فذهب على رضى الله عنه إلى العمل بالآيتين معا، و أن كل آية منهما مخصصة لعموم الأخرى و ذهب عمر رضى الله عنه إلى أن آية الطلاق مخصصة لآية الوفاة، و قد تأيد رأى عمر رضى الله عنه بما ورد أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية مات عنها زوجها، فوضعت الحمل بعد خمسة و عشرين يوما من موته، فأحلها رسول الله صلى الله عليه و سلم للأزواج «١».

و كالخلاف الذى وقع بين ابن عباس و زيد بن ثابت فى تقسيم ميراث من مات عن زوج و أبوين، فابن عباس رضى الله عنه أفتى بأن للزوج النصف، و للأم الثلث، و للأب الباقي تعصيا، تمسكا بظاهر قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة النساء: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ

وَرِثَهُ أَبُوهُ فَلِأَمِّهِ الثُّلُثُ». و زيد بن ثابت رضى الله عنه و معه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقي بعد فرض الزوج، نظرا لأن الأب و الأم ذكر و أنثى و ورثا بجهة واحدة، فللذكر مثل حظ الأنثيين (٢).

مثل هذا الخلاف كان يقع مع الصحابة رضى الله عنهم حسبما يفهمه كل منهم فى النص القرآنى، و ما يحيط به من أدلة خارجية، و مع هذا الاختلاف فقد كان كل واحد من المختلفين يطلب الحق وحده، فإن ظهر له أنه فى جانب من خالفه رجع إلى رأيه و أخذ به.

٢- التفسير الفقهي فى مبدأ قيام المذاهب الفقهية:

ظل الأمر على هذا إلى عهد ظهور أئمة المذاهب- الأربعة و غيرها- و فيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها، لأنها لم تكن على عهدهم، فأخذ كل إمام ينظر إلى هذه الحوادث تحت ضوء القرآن و السنة، و غيرها من مصادر التشريع، ثم يحكم عليها بالحكم الذى ينقدح فى ذهنه، و يعتقد (١) انظر تاريخ التشريع للخضرى ص ١١٣.

(٢) انظر تاريخ التشريع الاسلامى للأساتذة: السبكي و السائس و البربرى ص ٩٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٤

أنه هو الحق الذى يقوم على الأدلة و البراهين. و كانوا يتفقون فيما يحكمون به أحيانا، و أحيانا يختلفون حسبما يتجه لكل منهم من الأدلة غير أنهم مع كثرة اختلافهم فى الأحكام لم تظهر منهم بادرة التعصب المذهب، بل كانوا جميعا ينشدون الحق و يطلبون الحكم الصحيح، و ليس بعزيم على الواحد منهم أن يرجع إلى رأى مخالفه إن ظهر له أن الحق فى جانبه، فهذا هو الشافعى رضى الله عنه كان يقول: إذا صح الحديث فهو رأيي، و كان يقول: الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة، و كان يقول لأحمد بن حنبل و هو تلميذه فى الفقه: إذا صح الحديث عندك فأعلمنى به، و كان يقول: إذا ذكر الحديث فما لك النجم الثاقب ...

إلى غير ذلك مما يدل على انتشار روح التقدير و الحب بين أولئك الفقهاء ..

و هذه هى سنة أسلافهم من الصحابة و التابعين (١).

٣- التفسير الفقهي بعد ظهور التقليد و التعصب المذهبي:

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة ..

التقليد الذى يقوم على التعصب المذهبي، و لا- يعرف التسامح، و لا يطلب الحق لذاته و لا ينشده تحت ضوء البحث الحر، و النقد البرىء.

و لقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلدة إلى أن نظروا إلى أقوال أئمتهم كما ينظرون إلى نص الشارع. فوقفوا جهدهم العلمى على نصره مذهب إمامهم و ترويجه، و بدلوا كل ما فى وسعهم لإبطال مذهب المخالف و تنفيده، و كان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلى آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل، و إلا فلا أقل من أن يؤولها تأويلا يجعلها به لا تصلح أن تكون فى جانب مخالفه، و أحيانا يلجأ إلى القول بالنسخ أو التخصيص، و ذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل. فهذا عبد الله الكرخي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ و هو أحد المتعصبين لمذهب أبى حنيفة يقول: (كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ) (١). (٢) انظر تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) تاريخ التشريع الاسلامى للأساتذة: السبكي و السائس و البربرى ص ٢٨١:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٥

و مع هذا الغلو في التعصب المذهبي، فإننا لم نعدم من المقلدين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة، فنظر في أقوالهم نظرة الباحث الحر الذي يسائر الدليل حتى يصل به إلى الحق أيا كان قائله.
و كان لهؤلاء و هؤلاء- أعنى المتعصبين و غير المتعصبين- أثر ظاهر في التفسير الفقهي، فالمتعصبون ينظرون إلى الآيات من خلال مذهبهم فيتزولونها عليه، و غير المتعصبين ينظرون إليها نظرة خالية من الهوى المذهبي، فيتزولونها على حسب ما يظهر لهم، و ينقدح في ذهبنهم.

تنوع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية:

و إذا نحن تتبعنا التفسير الفقهي في جميع مراحلها، وجدناه يسير بعيداً عن الأهواء و الأعراض من مبدأ نزول القرآن إلى وقت قيام المذاهب المختلفة، ثم بعد ذلك يسير تبعاً للمذاهب، و يتنوع بتنوعها، فلأهل السنة تفسير فقهي متنوع بدأ نظيفاً من التعصب، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا، و للظاهرية تفسير فقهي يقوم على الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها، و للخوارج تفسير فقهي يخصهم، و للشيعة تفسير فقهي يخالفون به من عداهم ...
و كل فريق من هؤلاء يجتهد في تأويل النصوص القرآنية حتى تشهد له أولاً تعارضه على الأقل .. مما أدى ببعضهم إلى التعسف في التأويل، و الخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها و مدلولاتها.

الإنتاج التفسيري للفقهاء:

إشارة

هذا و إنا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات في التفسير الفقهي، فإننا لا نكاد نعثر على شيء من ذلك قبل عصر التدوين. اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة و التابعين، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم في التفسير الفقهي:

فمن الحنفية:

الف أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص و المتوفى سنة ٣٧٠ هـ سبعين

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٦

و ثلاثمائة من الهجرة أحكام القرآن، و هو مطبوع في ثلاث مجلدات كبار، و متداول بين أهل العلم.

و ألف أحمد بن أبي سعيد المدعو بملا جيون من علماء القرن الحادي عشر الهجري، التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية، و هو مطبوع بالهند في مجلد كبير، و منه نسخة في مكتبة الأزهر، و أخرى في مكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

و من الشافعية:

ألف أبر الحسن الطبري المعروف بالكياالهراسي المتوفى سنة ٥٠٤ هـ.

أربع و خمسمائة من الهجرة، كتابه أحكام القرآن، و هو مخطوط في مجلد كبير، و موجود في دار الكتب المصرية، و في المكتبة الأزهرية.

و ألف شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبي، المعروف بالسمنين، و المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ست و خمسين و سبعمائة من الهجرة، كتابه (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز) و يوجد منه في مكتبة الأزهر الجزء الأول، و هو ينتهي عند قوله تعالى في سورة البقرة «فَمَنْ اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ... الآية» و هو مخطوط بخط المؤلف. و ألف علي بن عبد الله محمود الشنفي من علماء القرن التاسع الهجري، كتابه (أحكام الكتاب المبين) و توجد منه نسخة في المكتبة الأزهرية، مخطوطة بخط المؤلف، في مجلد متوسط الحجم. و ألف جلال الدين السيوطي. المتوفى سنة ٩١١ هـ إحدى عشرة و تسعمائة من الهجرة، كتابه (الإكيل في استنباط التنزيل) و هو موجود في المكتبة الأزهرية، و مخطوط في مجلد متوسط الحجم.

و من المالكية:

ألف أبو بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ثلاث و أربعين و خمسمائة من الهجرة. كتابه أحكام القرآن، و هو مطبوع في مجلدين كبيرين، و متداول بين أهل العلم. التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٧ و ألف أبو عبد الله القرطبي المتوفى سنة ٤٧١ هـ إحدى و سبعين و ستمائة من الهجرة، كتابه (الجامع لأحكام القرآن) و هو مخطوط بدار الكتب المصرية، و قد قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءا ينتهي الجزء الرابع عشر عند آخر سورة (فاطر) و ما بقى منه على أهبة الطبع «١».

و من الزيدية:

ألف حسين بن أحمد النجدي. من أهل القرن الثامن الهجري، كتابه (شرح الخمسمائة آية) و لم يصل إلى أيدينا هذا التفسير. و ألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجري، (الثمرات اليانعة و الأحكام الواضحة القاطعة) و منه نسخة في دار الكتب المصرية، مخطوطة في ثلاث مجلدات، و يوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني منه في مجلد واحد مخطوط، و ألف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادي عشر الهجري، كتابه (منتهى المرام، شرح آيات الأحكام) و لم نقف على هذا التفسير.

و من الإمامية الاثنى عشرية:

ألف مقداد السيوري، من أهل القرن الثامن الهجري، كتابه (كنز الفرقان في فقه القرآن) و منه نسخة بدار الكتب المصرية، مطبوعة في مجلد صغير على هامش تفسير الحسن العسكري.

و هناك كتب أخرى في تفسير آيات الأحكام

إشارة

ذكرها صاحب كشف الظنون، لا نزيل بذكرها، كما لا نزيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب، و يكفي أن نعرض لأهمها و هو ما يأتي: (١) كان هذا وقت تأليف هذا الكتاب، أما الآن فقد تم طبع هذا التفسير و لما نفذت نسخه أخذت دار الكتب في طبعه

للمرة الثانية؛ كما يجرى الآن طبعه ضمن سلسلة (كتاب الشعب).

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٨

١- أحكام القرآن للجصاص (الحنفي)

ترجمة المؤلف:

هو أبو بكر، أحمد بن علي الرازي، المشهور بالجصاص «١». ولد رحمه تعالى ببغداد سنة ٣٠٥ هـ خمس و ثلاثمائة من الهجرة. كان إمام الحنفية في وقته، و إليه انتهت رئاسة الأصحاب. أخذ عن أبي سهل الزجاج، و عن أبي الحسن الكرخي، و عن غيرهما من فقهاء عصره. و استقر التدريس له ببغداد، و انتهت الرحلة إليه، و كان على طريق الكرخي في الزهد، و به انتفع، و عليه تخرج، و بلغ من زهده أنه خوطب في أن يلي القضاء فامتنع، و أعيد عليه الخطاب فلم يقبل. أما مصنفاته فكثيرة. أهمها كتاب أحكام القرآن و هو ما نحن بصده الآن، و شرح مختصر الكرخي، و شرح مختصر الطحاوي، و شرح الجامع الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، و كتاب أصول الفقه، و آخر في أدب القضاء، و على الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، و إليه يرجع كثير من الفضل في تدعيم مذهب الحنفية على البراهين و الأدلة.

هذا و قد ذكره المنصور بالله في طبقات المعتزلة، «٢» و سيأتيك في تفسيره ما يؤيد هذا القول.

أما وفاته فكانت سنة ٣٧٠ هـ سبعين و ثلاثمائة من الهجرة، فرحمه الله و رضى عنه «٣».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي خصوصا عند الحنفية؛ لأنه (١) الجصاص نسبة إلى العمل بالجص.

(٢) شرح الأزهار ج ٢ ص ٤.

(٣) انظر ترجمته في الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٢٧-٢٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٣٩

يقوم على تركيز مذهبهم و الترويج له، و الدفاع عنه. و هو يعرض لسور القرآن كلها، و لكنه لا يتكلم إلا- عن الآيات التي لها تعلق بالأحكام فقط، و هو- و إن كان يسير على ترتيب سور القرآن- مبوب كتبويب الفقه، و كل باب من أبوابه معنون بعنوان تدرج فيه المسائل التي يتعرض لها المؤلف في هذا الباب.

استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:

هذا ... و إن المؤلف- رحمه الله- لا يقتصر في تفسيره على ذكر الأحكام التي يمكن أن تستنبط من الآيات، بل نراه يستطرد إلى كثير من مسائل الفقه و الخلافات بين الأئمة، مع ذكره للأدلة بتوسع كبير، مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن، و كثيرا ما يكون هذا الاستطراد إلى مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بعد.

فمثلا نجد عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة البقرة:

«وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» يستطرد لمذهب الحنفية في أن من قال لعبده: من

بشرني بولادة فلانة فهو حر، فبشره جماعة واحدا بعد واحد أن الأول يعتق دون غيره «١».

و مثلاً عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (٢٦) من سورة يوسف:

«وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ... الآية» نجده يستطرد لخلاف الفقهاء في مدعى اللقطة إذا ذكر علامتها، و خلافهم في اللقيط إذا ادعاه رجلا ن و وصف أحدهما علامة في جسده، و خلافهم في متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسه و ادعته الزوجة لنفسها، و خلافهم في مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار و المستأجر ... و غير ذلك من مسائل الخلاف التي لا تتصل بالآية إلا عن بعد «٢». (١) ج ١ ص ٣٣.

(٢) ج ٣ ص ٣١٠-٣١٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٠

تعصب لمذهب الحنفية:

ثم إن المؤلف - رحمه الله و عفا عنه - متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير، مما جعله في هذا الكتاب يتعسف في تأويل بعض الآيات حتى يجعلها في جانبه، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفه، و الذي يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه في كثير من المواقف.

فمثلاً عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة البقرة «ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل في صوم التطوع لزم إتمامه «١».

و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٣٢) من سورة البقرة «وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ .. الآية» نجده يحاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه على أن للمرأة أن تعقد على نفسها بغير الولي و بدون إذنه «٢».

و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢) من سورة النساء «وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ... الآية» و قوله في آية (٦) منها «وَ ابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... الآية» نجده يحاول أن يأخذ من مجموع الآيتين دليلاً لمذهب أبي حنيفة القائل بوجوب دفع المال لليتيم إذا بلغ خمساً و عشرين سنة، و إن لم يؤنس منه الرشد «٣».

حملة الجصاص على مخالفه:

ثم إن الجصاص مع تعصبه لمذهبه و تعسفه في التأويل، و ليس عفا اللسان مع الإمام الشافعي رضي الله عنه و لا مع غيره من الأئمة، و كثيراً ما نراه يرمى (١) ج ١ ص ٢٧٤-٢٨٥.

(٢) ج ١ ص ٤٧٢-٤٧٤.

(٣) ج ٢ ص ٥٦-٥٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤١

الشافعي و غيره من مخالفى الحنفية عبارات شديدة، لا تليق من مثل الجصاص في مثل الشافعي و غيره من الأئمة رحمهم الله. فمثلاً عند ما عرض لآية المحرمات من النساء في سورة النساء نجده يعرض للخلاف الذي بين الحنفية و الشافعية في حكم من زنى بامرأة، هل يحل له التزويج بينها أولاً؟ ثم يذكر مناظرة طويلة جرت بين الشافعي و غيره في هذه المسألة، و يناقش الشافعي فيما يرد به على مناظرة، و يرميه بعبارات شنيعة لاذعة كقوله:

(فقد بأن أن ما قاله الشافعي و ما سلمه له السائل كلام فارغ لا معنى تحته في حكم ما سئل عنه «١»).

و قوله (ما ظننت أن أحدا ممن يتدب لمناظرة خصم يبلغ به الإفلاس من الحجاج أن يلجأ إلى مثل هذا، مع سخافة عقل السائل و غباوته «٢»).

و قوله حين لم يرقه أحد أجوبة الشافعي على سؤال مناظره (و لو كلم بذلك المبتدئون من أحداث أصحابنا لما خفى عليهم عوار هذا الحجاج، و ضعف السائل، و المسئول فيه «٣»).

و مثلا عند ذكره لمذهب الشافعي في الترتيب بين أعضاء الوضوء نجده يقول: (و هذا القول مما خرج به الشافعي عن إجماع السلف و الفقهاء «٤») كأن الشافعي في نظر الجصاص ممن لا يعتد برأيه، حتى ينعد الإجماع بدونه.

تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة.

كذلك نجد الجصاص يميل إلى عقيدة المعتزلة، و يتأثر بها في تفسيره، فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٠٢) من سورة البقرة: «وَاتَّبِعُوا مَا تَلَّوْا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ... الآية» نجده يذكر حقيقة السحر و يقول إنه: (١) ج ٢ ص ١٤٣

(٢) ج ٢ ص ١٤٣:

(٣) ج ٢ ص ٢٤٥:

(٤) ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٢

(متى أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا- حقيقة له و لا ثبات «١») كما ينكر حديث البخارى في سحر رسول الله صلى الله عليه و سلم، و يقرر أنه من وضع الملاحدة «٢».

و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ... الآية» نجده يقول: (معناه لا تراه الأبصار. و هذا تمدح بنفى رؤية الأبصار كقوله تعالى (في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة) «لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ، و ما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم و نقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال... فلما تمدح بنفى رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده و نقيضه بحال: إذ كان فيه إثبات صفة نقص. و لا يجوز أن يكون مخصوصا بقوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روى عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملا للتأويل لم يجز الاعتراض به على ما لا مساغ للتأويل فيه. و الأخبار المروية في الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت، و هو علم الضرورة الذى لا تشوبه شبهة، و لا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة في اللغة «٣») اه.

حملة الجصاص على معاوية رضى الله عنه:

كما أننا نلاحظ على الجصاص أنه تبدو منه البغضاء لمعاوية رضى الله عنه، و يتأثر بذلك في تفسيره. فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآيات (٣٩ و ٤٠ ٤١) من سورة الحج «أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ...» إلى قوله «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (١) ج ١ ص ٤٨.

(٢) ج ٢ ص ٥٥.

(٣) ج ٣ ص ٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٣

و لله عاقبة الأمور» يقول: (.. و هذه صفة الخلفاء الراشدين، الذين مكنهم الله في الأرض و هم أبو بكر و عمر و عثمان و على رضى الله عنهم. و فيه الدلالة الواضحة على صحة إمامتهم؛ لإخبار الله تعالى بأنهم إذا مكنوا في الأرض قاموا بفروض الله عليهم، و قد مكنوا في الأرض فوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتهين عن زواجره و نواهيه، و لا يدخل معاوية في هؤلاء؛ لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، و ليس معاوية من المهاجرين، بل هو من الطلقاء «١») اه.

و مثلاً في سورة النور عند قوله تعالى في الآية (٥٥). «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ يَسِّرَ تَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ... الآية» يقول: (و فيه الدلالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضاً؛ لأن الله استخلفهم في الأرض و مكن لهم كما جاء الوعد، و لا يدخل فيهم معاوية؛ لأنه لم يكن مؤمناً في ذلك الوقت «٢» اه.

و في سورة الحجرات عند قوله تعالى في الآية (٩): «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ... الآية» نجده يجعل علياً رضي الله عنه هو المحق في قتاله، أما معاوية و من معه فهم الفئة الباغية. و كذلك كل من خرج على علي «٣».

و ما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابي، و يفوض أمره إلى الله، و لا يلوى مثل هذه الآيات إلى ميوله و هواه.

هذا ... و الكتاب مطبوع في ثلاث مجلدات كبار، و متداول بين أهل العلم. (١) ج ٣ ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٢) ج ٣ ص ٤٠٦

(٣) ج ٣ ص ٤٩٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٤

٢- أحكام القرآن لكيا الهراسي (الشافعي)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بالكيا الهراسي «١» الهراسي، الفقيه الشافعي، المولود سنة ٤٥٠ هـ خمسين و أربعمائه من الهجرة.

أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور، و تفقه على إمام الحرمين الجويني مدة حتى برع، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق و درس بها مدة، ثم خرج إلى العراق، و تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٠٤ هـ أربع و خمسمائة من الهجرة.

و كان رحمه الله فصيح العبارة، حلو الكلام، محدثاً، يستعمل الأحاديث في مناظراته و مجالسه، فرضى الله عنه و أرضاه «٢».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه

أهمية هذا التفسير و مبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعي:

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية؛ و ذلك لأن مؤلفه شافعي لا- يقل في تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعي، و يحاول أن يجعلها غير سالحة لأن تكون في جانب مخالفه.

و ليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمه تفسيره التي يقرر (١) الكيا بكسر الكاف و فتح الياء (المخففة) معناه في اللغة العجمية الكبير القدر المقدم بين الناس. اه وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٩٠.

(٢) انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٧-٥٩٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٥

فيها (إن مذهب الشافعي رضي الله عنه أسد المذاهب و أقومها، و أرشدها و أحكمها، و إن نظر الشافعي في أكثر آرائه و معظم أبحاثه يترقى عن حد الظن و التخمين، إلى درجة الحق و اليقين، و السبب في ذلك أنه- يعنى الشافعي- بنى مذهبه على كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، و أنه أتيح له درك غوامض معانيه، و الغوص على تيار بحره

لاستخراج ما فيه، و أن الله تعالى فتح له من أبوابه، و يسر عليه من أسبابه، و رفع له من حجابيه ما لم يسهل لمن سواه، و لم يتأت لمن عداه ... «١».

يقرر صاحبنا هذا، و أنا لا أنكره عليه، و لا أغض من مقام الشافعي رحمه الله، و لكنني أقول: إن تقديم الكتاب بمثل هذا الكلام؛ نطق بأن الرجل متعصب لمذهبه، و شاهد عليه بأنه سوف يسلك في تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعي، و فروع مذهبه، و إن أده ذلك إلى التعسف في التأويل.

و إذا لم يكفك هذا دليلا على تعصب الرجل فدونك الكتاب، لتقف بعد القراءة فيه على مبلغ تعصب صاحبه و تعسفه.

تأدبه مع الأئمة و حملته على الجصاص:

غير أن الهراسي - و الحق يقال - كان عفا للسان و القلم مع أئمة المذاهب الأخرى، و مع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخض فيهم كما خاض الجصاص في الشافعي و غيره، و كل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفا كان فيه شديد المراس، قوى الجدل، قاسى العبارة؛ إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التي ذكرها الجصاص في تفسيره و عاب فيها مذهب الشافعي، ففند كل شبهة أوردها، و دفع كل ما وجهه إلى مذهب الشافعي، بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه اقتصر للشافعي من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة، و الألفاظ المقذعة «و الجزء من جنس العمل».

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة النساء. «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... الآية» نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل (١) ص ٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٦

بأن الزنى بامرأة يحرم على الزانى أصول المرأة و فروعها، و يفند ما رد به الجصاص على الشافعي في هذه المسألة، ثم يقول في شأن الجصاص (إنه لم يفهم معنى كلام الشافعي رضى الله عنه، و لم يميز بين محل و محل، و لكل مقام مقال، و لتفهم معانى كتاب الله رجال، و ليس هو منهم «١»).

كما يقول (و قد ذكر الشافعي مناظرة بينه و بين مسترشد طلب الحق في هذه المسألة، فأوردها الرازي متعجبا منها، و منبها على ضعف كلام الشافعي فيها، و لا شيء أدل على جهل الرازي و قلته معرفته بمعانى الكلام من ساقه لهذه المناظرة، و اعتراضاته عليها «٢»).

و يقول بعد قليل: (و لم يعلم هذا الجاهل معنى كلام الشافعي رضى الله عنه فاعترض عليه بما قاله، و عجب الناس من ذلك، فقال: في هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل. فكان كما قال القائل:

و كم من عائب قولاً صحيحاً و آفته من الفهم السقيم

«٣» كما يقول في موضع آخر: (و كيف يتصدى لتصنيف فى الدين من هذا مبلغ علمه، و مقدار فهمه، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول ... ثم يتعرض للطعن فيمن لو عمر عمر نوح ما اهتدى إلى مبادئ نظره فى الحقائق، فنسأل الله تعالى التوفيق، و نعوذ به من عمى البصيرة و اتباع الهوى «٤»).

هذا .. و إن المؤلف - رحمه الله - ليبين لنا فى مقدمته تفسيره الحامل له على تأليفه، و منهجه الذى سلكه، و تقديره لكتابه فيقول:

(و لما رأيت الأمر كذلك - يريد رجحان مذهب الشافعي على غيره - أردت أن أصنف كتابا فى أحكام القرآن، أشرح ما ابتدعه

الشافعي رضى الله عنه (١) ص ٢١٣

(٢) ص ٢١٤

(٣) ص ٢١٥

(٤) ص ٢٢٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٧

من أخذ الدلائل في غوامض المسائل، و ضمنت إليه ما نسجته على منواله، و احتذيت فيه على مثاله، على قدر طاقتي و جهدي، و مبلغ وسعي و جدى ...

و لا- يعرف قدر هذا الكتاب، و ما فيه من العجب العجائب، و لباب الألباب، إلا من وفر حظه من علوم المعقول و المنقول، و تبحر في الفروع و الأصول، ثم انكب على مطالعة هذه الفصول، بمسكته صحيحة، و قريحته همة غير قريحة «(١)».

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما في جميع السور. و الكتاب مخطوط في مجلد كبير، و موجود في دار الكتب المصرية، و في المكتبة الأزهرية. (١) ص ٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٨

٣- أحكام القرآن لابن العربي (المالكي)

ترجمة المؤلف:

هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري، الأندلسي، الإشبيلي، الإمام، العلامة، المتبحر، ختام علماء الأندلس، و آخر أئمتها و حفاظها .. كان أبوه من فقهاء إشبيلية و رؤسائها.

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨ هـ ثمان و ستين و أربعمائه من الهجرة، و تأدب ببلده، و قرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، و الشام، و بغداد، و مكة. و كان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه، و الأصول، و قيد الحديث، و اتسع في الرواية، و أتقن مسائل الخلاف و الكلام، و تبحر في التفسير، و برع في الأدب و الشعر ... و أخيراً عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله، ممن كانت له رحلة إلى المشرق.

و على الجملة، فقد كان- رحمه الله- من أهل التفنن في العلوم، و الاستبحار فيها، و الجمع لها، متقدماً في المعارف كلها، متكلماً في أنواعها، نافذاً في جمعها، حريصاً على أدائها و نشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، و يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، و كثرة الاحتمال، و كرم النفس، و حسن العهد، و ثبات الود. سكن بلده و شوور فيه، و سمع، و درس الفقه و الأصول، و جلس للوعظ و التفسير، و رحل إليه للسمع. قال القاضي عياض- و هو ممن أخذوا عنه:- (استقضى ببلده فنفذ الله به أهلها لصرامته، و شدة نفوذ أحكامه، و كانت له في الظالمين سورة مرهوبة، و تؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، و أقبل على نشر العلم و بثه).

هذا و قد ألف- رحمه الله- تصانيف كثيرة مفيدة، منها: أحكام القرآن ..

و هو ما نحن بصدد الآن، و كتاب المسالك في شرح موطأ مالك، و كتاب

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٤٩

القبس على شرح موطأ مالك بن أنس، و عارضة الأحوذى على كتاب الترمذى، و القواصم و العواصم، و المحصول في أصول الفقه. و كتاب الناسخ و المنسوخ، و تخلص التلخيص، و كتاب القانون في تفسير القرآن العزيز، و كتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن .. قيل: إنه ألفه في عشرين سنة، و يقع في ثمانين ألف ورقة، و ذكر بعضهم أنه رأى هذا التفسير و عد أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلداً. و بالجملة فقد خلف- رحمه الله- كتباً كثيرة، انتفع الناس بها بعد وفاته، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه في حياته. هذا .. و قد كانت وفاته- رحمه الله- سنة ٥٤٣ هـ ثلاث و أربعين و خمسمائة من الهجرة منصرفه من مراکش، و حمل ميتاً إلى مدينة فاس و دفن بها. فرضى الله عنه و أرضاه «(١)».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه.**إشارة**

يتعرض هذا الكتاب لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، و طريقته في ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية آية .. قائلا: الآية الأولى و فيها خمس مسائل (مثلا)، و الآية الثانية و فيها سبع مسائل (مثلا) و هكذا، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة في السورة.

تفسير ابن عربي بين إنصافه و اعتسافه:**إشارة**

هذا .. و إن الكتاب يعتبر مرجعا مهما للتفسير الفقهي عند المالكية، و ذلك لأن مؤلفه مالكي تأثر بمذهبه، فظهرت عليه في تفسيره روح التعصب له، و الدفاع عنه، غير أنه لم يشتط في تعصبه إلى الدرجة التي يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي، و لم يبلغ به التعسف إلى الحد الذي يجعله يفتد كلام مخالفه إذا كان وجيها و مقبولا، و الذي يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفه أحيانا، كما يلمس منه روح التعصب المذهبي التي تستولى على صاحبها فتجعله أحيانا كثيرة يرمى مخالفه و إن كان إماما له (١) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - ٢٨١ - ٢٨٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٠

قيمه و مركزه بالكلمات المقدعة اللادعة، تارة بالتصريح، و تارة بالتلويح.

و يظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه، فأحيانا يتغلب العقل على التعصب، فيصدر حكمه عادلا لا تكدره شائبة التعصب، و أحيانا - وهو الغالب - تتغلب العصبية المذهبية على العقل، فيصدر حكمه مشوبا بالتعسف، بعيدا عن الإنصاف.

طرف من إنصافه.**إشارة**

و إذا أردت أن أضع يدك على شيء من إنصاف الرجل و استعماله لعقله، فانظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة البقرة: «أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ... الآية» حيث يقول: (المسألة السادسة عشرة: قوله تعالى «وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ» الاعتكاف في اللغة هو اللبث، و هو غير مقدر عند الشافعي، و أقله لحظة، و لا حد لأكثره.

و قال مالك و أبو حنيفة: هو مقدر بيوم و ليلة، لأن الصوم عندهما من شرطه.

قال علماؤنا: لأن الله تعالى خاطب الصائمين. و هذا لا يلزم في الوجهين: أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالى لمن صام فلا يلزم بظاهره و لا باطنه، لأنها حال واقعة لا مشترطة، و أما تقديره بيوم و ليلة لأن الصوم من شرطه فضعيف، فإن العبادة لا تكون مقدره بشرطها، ألا ترى أن الطهارة شرط في الصلاة، و تنقضي الصلاة، و تبقى الطهارة؟ ... «١» اه.

فأنت ترى أن المؤلف - رحمه الله - لم يرقه هذا الاستدلال الذي أظهر بطلانه، و هذا دليل على أنه يستعمل عقله الحر أحيانا، فلا يسكت على الزلة العلمية فيما يعتقد، و إن كان فيها ترويج لمذهبه.

و انظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ... الآية» حيث يقول:

(المسألة السابعة و العشرون في قوله تعالى «برءوسكم»، .. ثم يذكر أن العلماء اختلفوا في مسح (١) ج ١ ص ٤٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥١

الرأس على أحد عشر قولاً، ثم يأخذ في بيانها واحداً واحداً. ثم يقول: (و لكل قول من هذه الأقوال مطلع من القرآن و السنة) ثم يذكر لنا مطلع كل قول، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: (و ليس يخفى على أحد عند اطلاعه على هذه الأقوال و الأنحاء و المطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات في مقصود الشريعة. و لا جاوز طرفيها إلى الإفراط، فإن للشريعة طرفين، أحدهما طرف التخفيف في التكليف، و الآخر طرف الاحتياط في العبادات، فمن احتاط استوفى الكل، و من خفف أخذ بالبعض ...) (١) اه فأتت ترى أنه يصوب كل ما قيل في مسح الرأس.

و انظر إليه في الآية السابقة حيث يقول: (المسألة السادسة و الأربعون) نزع علماؤنا بهذه الآية إلى أن إزالة النجاسة غير واجبة، لأنه قال: إذا قمتم إلى الصلاة: تقديره- كما سبق- و أتمم محدثون فاعسلوا وجوهكم و أيديكم، فلم يذكر الاستنجاء و ذكر الوضوء، و لو كان واجبا لكان أول مبدوء به ..

و هي رواية أشهب عن مالك. و قال ابن وهب: لا تجزئ الصلاة بها لا ذاكرا و لا ناسيا ... و الصحيح رواية ابن وهب، و لا حجة في ظاهر القرآن، لأن الله سبحانه و تعالى إنما بين في آية الوضوء صفة الوضوء خاصة، و للصلاة شروط: من استقبال الكعبة، و ستر العورة، و إزالة النجاسة ... و بيان كل شرط منها في موضعه ..) (٢). فأتت ترى أنه لا بميل إلى رواية أشهب عن مالك، و لا يرى في ظاهر الآية ما يشهد له.

طرف من تعصبه لمذهبه:

و إن أردت أن أضع يدك على شيء من تعصب ابن العربي، فانظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٨٦) من سورة النساء (و إذا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها .. الآية) حيث يقول. (المسألة السابعة) إذا (١) ج ١ ص ٢٣٥-٢٣٦. (٢) ج ١ ص ٢٤٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٢

كان الرد فرضاً بلا خلاف، فقد استدل علماؤنا على أن هذه الآية دليل على وجوب الثواب في الهبة للعين، و كما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة: و قال الشافعي: ليس في هبة الأجنبي ثواب ... و هذا فاسد، لأن المرء ما أعطى إلا يعطى، و هذا هو الأصل فيها، و إنا لا نعمل عملاً لمولانا إلا ليعطينا، فكيف بعضنا لبعض ..) (١) اه.

حملته على مخالفى مذهبه:

و إن أردت أن تقف على مبلغ قسوته على أئمة المذاهب الأخرى و أتباعهم، فانظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً ... الآية، حيث يقول: (المسألة الرابعة عشرة) هذا يدل على أن الخلع طلاق، خلافاً لقول الشافعي في القديم إنه فسخ، و فائدة الخلاف أنه إن كان فسخاً لم يعد طلقة. قال الشافعي: لأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين و ذكر الخلع بعده، و ذكر الثالث بقوله تعالى «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» ... و هذا غير صحيح، لأنه لو كان كل مذكور في معرض هذه الآيات لا يعد طلاقاً لوقوع الزيادة على الثلاث لما كان قوله تعالى «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» طلاقاً، لأنه يزيد به على الثلاث، و لا يفهم هذا إلا غيبى أو مغتاب. الخ) (٢).

و انظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النساء «.. وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ

أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ... الآية» حيث يقول: «المسألة الثامنة والعشرون» قوله تعالى:

«ماء» قال أبو حنيفة: هذا نفى في نكرة وهو يعم لغة، فيكون مفيداً جواز الوضوء بالماء المتغير. وغير المتغير لانطلاق اسم الماء عليه.. قلنا: استنوق الجمل إلى أن يستدل أصحاب أبي حنيفة باللغات، ويقولون على السنة العرب وهم يبنذونها (١) ج ١ ص ١٩٤-١٩٥.
(٢) ج ١ ص ٨٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٣

في أكثر المسائل بالعراء. واعلموا أن النفي في النكرة يعم كما قلتم، ولكن في الجنس، فهو عام في كل ما كان من سماء، أو بئر، أو عين، أو نهر، أو بحر عذب أو ملح. فأما غير الجنس فهو المتغير فلا يدخل فيه، كما لم يدخل فيه ماء الباقلاء... اهـ (١).
و نجده في موضع من كتابه يرمى أبا حنيفة بأنه كثيراً ما يترك الظواهر والنصوص للأقيسة (٢)، ويقول عنه في موضع آخر إنه (سكن دار الضرب فكثر عنده المدلس، و لو سكن المعدن كما قبض الله لمالك، لما صدر عنه إلا إبريز الدين و إكسير الملة، كما صدر عن مالك (٣) اهـ.

و انظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... الآية» حيث يقول في تعريض ساخر: (المسألة الحادية عشرة) قوله عز و جل «فاغسلوا» و ظن الشافعي - وهو عند أصحابه معد بن عدنان في الفصاحة بله أبي حنيفة و سواه - أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك، و قد بينا فساد ذلك في مسائل الخلاف. و في سورة النساء، و حققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء، أو ما في معنى اليد (٤) اهـ.

و انظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة النساء .. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا» حيث يقول: (المسألة الثانية عشرة) قوله تعالى «ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا» اختلف الناس في تأويله على ثلاثة أقوال: الأول: أن لا يكثر عيالكم .. قاله الشافعي.

الثاني. أن لا تضلوا .. قاله مجاهد. الثالث: أن لا تميلوا .. قاله ابن عباس (١) ج ١ ص ١٨٦

(٢) ج ١ ص ١٧٦

(٣) ج ١ ص ٣١٨

(٤) ج ١ ص ٢٣٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٤

و الناس .. قلنا: أعجب أصحاب الشافعي. بكلامه هذا، و قالوا هو حجة، لمنزلة الشافعي في اللغة، و شهرته في العربية، و الاعتراف له بالفصاحة، حتى لقد قال الجويني: هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه على المعاني و معرفته بالأصول ..
و اعتقدوا أن معنى الآية: فانكحوا واحدة إن خفتكم أن يكثر عيالكم، فذلك أقرب إلى أن تنتفى عنكم كثرة العيال .. قال ابن العربي: (كل ما قال الشافعي، أو قيل عنه، أو وصف به، فهو كله جزء من مالك و نغبة من بحره، و مالك أوعى سمعا، و أثقب فهما، و افصح لسانا، و أبرع بياناً، و أبداع و صفا، و يدللك على ذلك مقابلة قول بقول في كل مسألة و فصل) ثم تكلم بعد ذلك عن معنى لفظ «عال» في اللغة. ثم قال: (و الفعل في كثرة العيال رباعي لا مدخل له في الآية، فقد ذهبت الفصاحة، و لم تنفع الضاد المنطوق بها على الاختصاص.) اهـ (١).

و انظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى في سورة النساء «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ... الآية» حيث يقول: (المسألة الخامسة) قال أبو بكر الرازي إمام الحنفية في كتاب أحكام القرآن: ليس نكاح الأمة ضرورة، لأن الضرورة ما يخاف منه تلف النفس، أو تلف عضو، و ليس في مسألتنا شيء من ذلك. قلنا: هذا كلام جاهل بمنهاج الشرع، أو منهكم لا يبالي بموارد

القول. نحن لم نقل إنه حكم نيط بالضرورة، إنما قلنا:

إنه حكم علق بالرخصة المقرونة بالحاجة، و لكل واحد منهما حكم يختص به، و حالة يعتبر فيها، و من لم يفرق بين الضرورة و الحاجة التي تكون معها الرخصة، فلا يعنى بالكلام معه، فانه معاند أو جاهل، و تقرير ذلك إتعاب للنفس عند من لا ينتفع به) «٢» اه. فأنت ترى من هذه الأمثلة كلها. أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة، (١) ج ١ ص ١٣١. (٢) ج ١ ص ١٦٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٥

و لا مع أتباعهم، و هذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبي، الذي يقود صاحبه إلى ما لا يليق به، و يدفعه إلى الخروج عن حد اللطافة و الكياسة.

احتكامه إلى اللغة:

ثم إن المؤلف- رحمه الله- كثيرا ما يحتكم إلى اللغة في استنباط المعاني من الآيات، و في الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة «١».

كراهته للإسرائيليات:

كما أنه شديد النفرة من الخوض في الإسرائيليات، و لذلك عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة البقرة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً..»

الآية» نجده يقول: (المسألة الثانية) في الحديث عن بنى إسرائيل: كثر استرسال العلماء في الحديث عنهم في كل طريق، و قد ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال «حدثوا عن بنى إسرائيل و لا حرج» و معنى هذا الخبر: الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم و قصصهم، لا- بما يخبرون به عن غيرهم؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة و للثبوت إلى منتهى الخبر، و ما يخبرون به عن أنفسهم، فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه، فهو أعلم بذلك، و إذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله، ففي رواية مالك عن عمر رضی الله عنه أنه قال: رأني رسول الله صلى الله عليه و سلم و أنا أمسك مصحفا قد تشرمت حواشيه، فقال ما هذا؟ قلت: جزء من التوراة، فغضب و قال: و الله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي «٢» اه. (١) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالى في سورة النساء «ذَلِكَ أَذُنِي أَلَّا تَعُولُوا» ج ١ ص ١٣١، و ما قاله عند تفسير قوله تعالى في سورة النساء أيضا «وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» ج ١ ص ١٧٥ (٢) ج ١ ص ١١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٦

نفرة من الأحاديث الضعيفة:

كذلك نجد ابن العربي شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة، و هو يحذر منها في تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله صلى الله عليه و سلم توضع مرة و قال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، و توضع مرتين مرتين، و قال؛ من توضع مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضع ثلاثا ثلاثا و قال: (هذا وضوءي و وضوء الأنبياء من قبلي، و وضوء أبي إبراهيم) يقول لهم بعد ما بين ضعف هذا الحديث: (و قد ألقيت إليكم وصيتي في كل ورقة و مجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده ..) اه «١».

هذا و الكتاب مطبوع في مجلدين كبيرين، و متداول بين أهل العلم. (١) ج ص ٢٤١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٧

٤- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي (المالكي)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح- يأسكان الرء و الحاء المهملة- الأنصارى، الخزرجى، الأندلسى، القرطبى المفسر.

كان- رحمه الله- من عباد الله الصالحين، و العلماء العارفين، الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، و بلغ من زهده أن اطرح التكلف، و صار يمشى بثوب واحد و على رأسه طاقية، و كانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله و عبادته تارة، و بالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتبا انتفعوا بها. و من مصنفاته: كتابه فى التفسير المسمى بالجامع لأحكام القرآن، و هو ما نحن بصدده، و شرح أسماء الله الحسنى، و كتاب التذكار فى أفضل الأذكار، و كتاب التذكرة بأمور الآخرة، و كتاب شرح التقصى، و كتاب قمع الحرص بالزهد و القناعة و رد ذل السؤال بالكتب و الشفاعة. قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى باب. و له كتب غير ذلك كثيرة و مفيدة.

سمع من الشيخ أبى العباس بن عمر القرطبى، مؤلف المفهم فى شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح، و حدث عن أبى على الحسن بن محمد البكرى، و غيرهما. و كان مستقرا بمنية ابن خصيب، و توفى و دفن بها فى شوال سنة ٦٧١ هـ إحدى و سبعين و ستمائة من

الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة «١». (١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٣١٧-٣١٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٨

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: (هو من أجل التفاسير و أعظمها نفعا، أسقط منه القصص و التواريخ، و أثبت عوضها أحكام القرآن و استنباط الأدلة، و ذكر القراءات و الإعراب و النسخ و المنسوخ «١») و ذكر المؤلف رحمه الله فى مقدمه هذا التفسير السبب الذى حمله على تأليفه، و الطريق الذى رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، و شروطه التى اشترطها على نفسه فى كتابه فقال:

(و بعد، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذى استقل بالسنة و الفرض، و نزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، و أستفرغ فيه مُمتى «٢»، بأن أكتب فيه تعليقا و جيزا يتضمن نكتا من التفسير، و اللغات، و الإعراب، و القراءات، و الرد على أهل الزيغ و الضلالات، و أحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام و نزول الآيات، جامعا بين معانيها، و مبينا ما أشكل منها بأقوال السلف و من تبعهم من الخلف ... و شرطى فى هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها، و الأحاديث إلى مصنفها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، و كثيرا ما يجىء الحديث فى كتب الفقه و التفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فىبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم، و معرفة ذلك علم جسيم. فلا يقبل منه الاحتجاج به و لا الاستدلال حتى يضيفه إلى من أخرجه من الأئمة الأعلام، و الثقات المشاهير من علماء الإسلام، و نحن نشير إلى جمل من ذلك فى هذا الكتاب، و الله الموفق للصواب. و أضرب عن كثير من قصص المفسرين، و أخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه، و ما لا غنى عنه للتبيين، و اعتضت من ذلك تبين آى الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، و ترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكما أو حكما فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوى عليه من اسباب النزول، (١) الديباج المذهب ص ٣١٧

(٢) المنة: القوة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٥٩

و التفسير، و الغريب، و الحكم. فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير و التأويل ... و هكذا إلى آخر الكتاب، و سميته بالجامع لأحكام القرآن، و المبين لما تضمنه من السنة و أحكام الفرقان ... اه «١» و الذي يقرأ في هذا التفسير يجد أن القرطبي - رحمه الله - قد و في بما شرط على نفسه في هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، و القراءات، و الإعراب، و يبين الغريب من ألفاظ القرآن، و يحتكم كثيرا إلى اللغة، و يكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، و يرد على المعتزلة، و القدرية، و الروافض، و الفلاسفة، و غلاة المتصوفة، و لم يسقط القصص بالمره، كما تفيد عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما ذكر في مقدمه تفسيره، و لهذا نلاحظ عليه أنه يروي أحيانا ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلي.

هذا .. و إن المؤلف - رحمه الله - ينقل عن السلف كثيرا مما أثر عنهم في التفسير و الأحكام، مع نسبة كل قول إلى قائله و فاء بشرطه، كما ينقل عن تقدمه في التفسير، خصوصا من ألف منهم في كتب الأحكام، مع تعقيبه على ما ينقل منها. و ممن ينقل عنهم كثيرا: ابن جرير الطبري، و ابن عطية، و ابن العربي، و الكيا الهراسي، و أبو بكر الجصاص. و أما من ناحية الأحكام، فإننا نلاحظ عليه أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، و ما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

إنصاف القرطبي و عدم تعصبه:

و خير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشى مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أيا كان قائله. فمثلا- عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة البقرة: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ» نجده عند المسألة السادسة عشرة (١) القرطبي ج ١ ص ٢-٣

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٠

من مسائل هذه الآية يعرض لإمامه الصغير، و يذكر أقوال من يجيزها و من يمنعها، و يذكر أن من المانعين لها جملة: مالكا، و الثوري، و أصحاب الرأي، و لكننا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل على جوازها، و ذلك حيث يقول: (قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً، ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، و كان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟

ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسل .. أوحى إليه كذا .. أوحى إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام، فكأنما يقر في صدري، و كانت العرب تلوم بإسلامها فيقولون: اتركوه و قومهم؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، و بدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم و الله من عند نبي الله حقا .. قال: صلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، و ليؤمكم أكثركم قرآنا، فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآنا، لما كنت أتلقى من الركبان .. فقدموني بين أيديهم و أنا ابن ست أو سبع سنين، و كانت على بردة إذا سجدت تقلصت عنى فقالت امرأة من الحى: ألا تغطون عنا است قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لي قميصا، فما فرحت بشيء فرحى بذلك القميص) اه «١» و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٧٣) من سورة البقرة «... فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ...» نراه يعقد المسألة الثانية و الثلاثين من مسائل هذه الآية في اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية، فيذكر أن مالكا حظر ذلك عليه، و كذا الشافعي في أحد قوليته .. و ينقل عن ابن العربي أنه قال: (عجبا ممن يبيح له ذلك مع التمادي على المعصية، و ما أظن أحدا يقول: فإن قاله فهو مخطئ قطعاً) ثم يعقب القرطبي على هذا كله فيقول: (قلت: الصحيح خلاف هذا، فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالى في الآية (٢٩) من سورة النساء «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، وَ هَذَا عَمٌّ، وَ لَعَلَّ يَتُوبُ فِي ثَانِي الْحَالِ، فَتَمَحُّو التَّوْبَةَ عَنْهُ مَا كَانَ ...» اه «٢» (١) ج ١ ص

٣٥٣.

(٢) ج ٢ ص ٣٣٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦١

و مثلاً- عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٥) من سورة البقرة «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. الآية» نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التي تتعلق بهذه الآية في اختلاف العلماء في حكم صلاة عيد الفطر في اليوم الثاني، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك و أصحابه أنه لا تصلى صلاة العيد في غير يوم العيد، و يذكر عنه أيضاً أنه قال: (لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، و قد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تقضى، فهذه مثلها) ثم يعقب القرطبي على هذا فيقول: (قلت: و القول بالخروج- يعنى لصلاة العيد في اليوم الثاني- إن شاء الله أصح، للسنة الثابتة في ذلك، و لا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، و قد روى الترمذى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من لم يصل ركعتي الفجر فليصلهما بعد ما تطلع الشمس) ... قلت:

و قد قال علمائنا: من ضاق عليه الوقت، و صلى الصبح، و ترك ركعتي الفجر، فإنه يصلهما بعد طلوع الشمس إن شاء، و قيل لا يصلهما حينئذ. ثم إذا قلنا يصلهما ..

فهل ما يفعله قضاء؟ أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتي الفجر؟ قال الشيخ أبو بكر: و هذا الجارى على أصل المذهب، و ذكر القضاء تجوز. قلت:

و لا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني على هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة في السنة، مع ما ثبت من السنة: ثم روى عن النسائي بسنده (أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبي صلى الله عليه و سلم فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار، و أن يخرجوا إلى العيد من الغد. و في رواية: و يخرجوا لمصلاهم من الغد «١» اه.

و مثلاً نجده عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٧٨) من سورة البقرة «أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ... الآية» نجده في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية يذكر خلاف العلماء في حكم من أكل في نهار رمضان ناسياً ... فيذكر عن مالك أنه يفطر و عليه القضاء، و لكنه لا يرضى ذلك الحكم (١) ج ٢ ص ٣٠٤-٣٠٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٢

فيقول: (و عند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسياً لصومه. قلت: و هو الصحيح، و به قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسياً فلا- قضاء عليه، و إن صومه تام، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، و لا قضاء عليه ... «١» اه.

و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٣٦) من سورة البقرة «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ» نجده يذكر في المسألة السادسة من مسائل هذه الآية اختلاف العلماء في حكم المتعة، فيذكر من يقول بوجوبها، و يذكر من يقول بندوبها، و يعد في ضمن القائمين بالندب مالكا رحمه الله. ثم يقول: (تمسك أهل القول الأول بمقتضى الأمر، و تمسك أهل القول الثاني بقوله تعالى «حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ» و «عَلَى الْمُتَّقِينَ» و لو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين و القول الأول أولى؛ لأن عمومات الأمر بالامتناع في قوله «متعهن» و إضافة الإمتاع إليهن بلام التمليك في قوله «وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ» أظهر في الوجوب منه في الندب. و قوله «عَلَى الْمُتَّقِينَ» تأكيد لإيجابها؛ لأن كل واحد يجب عليه أن يتقى الله في الإشراك به و معاصيه، و قد قال تعالى في القرآن في الآية (٢) من سورة البقرة «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» «٢» اه.

كذلك نجد القرطبي - رحمه الله - كثيرا ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عن يهاجمهم ابن العربي من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحيانا، على ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين؛ الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه. (١) ج ٢ ص ٣٢٢.

(٢) ج ٣ ص ٢٠٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٣

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة النساء «... ذَلِكَ أَذْنِي أَلَّا تَعُولُوا» نراه يروي عن الشافعي أنه فسرها على معنى ألا تكثر عيالكم ثم يقول: (قال الثعلبي: و ما قال هذا غيره و إنما يقال: أعال بعيل إذا كثر عياله، و زعم ابن العربي: أن عال على سبعة معان لا ثامن لها، يقال: عال:

مال، الثاني: زاد الثالث. جار. الرابع: افتقر. الخامس: أثقل .. حكاه ابن دريد. قالت الخنساء: (و يكفى العشيعة ما عالها). السادس: عال قام بمثونة العيال، و منه قوله عليه السلام «و ابدأ بمن تعول». السابع: عال. غلب، و منه عيل صبره أى غلب، و يقال: أعال الرجل: كثر عياله. و أما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح، قلت: أما قول الثعلبي (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطني في سننه عن زيد بن أسلم، و هو قول جابر بن زيد .. فهذان إمامان من علماء المسلمين و أئمتهم قد سبقا الشافعي إليه. و أما ما ذكره ابن العربي من الحصر و عدم الصحة فلا يصح. و قد ذكرنا. عال الأمر اشد و تفاهم .. حكاه الجوهرى.

و قال الهروي في غريبه: (و قال أبو بكر: يقال عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها. و قال الأحمر: يقال: عالنى الشىء يعينى عيالا- و معيلا- إذا أعجزك و أما عال كثر عياله فذكره الكسائى و أبو عمرو الدورى و ابن الأعرابى. قال الكسائى أبو الحسن على بن حمزة: العرب تقول: عال يعول و أعال يعيل أى كثر عياله. و قال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا .. و لعله لغه. قال الثعلبي المفسر: قال أستاذنا أبو القاسم ابن حبيب: سألت أبا عمرو الدورى عن هذا- و كان إماما فى اللغة غير مدافع- فقال هى لغة حمير و أنشد:

و إن الموت يأخذ كل حى بلا شك و إن أمشى و عالا

يعنى: و إن كثر ماشيته و عياله. و قال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحنا. و قرأ طلحة بن مصرف: ألا- تعيلوا و هى حجة الشافعي رضى الله عنه. و قدح الزجاج و غيره فى تأويل عال من العيال بأن قال: إن الله تعالى قد أباح كثرة السرارى و فى ذلك تكثير العيال.

فكيف يكون أقرب إلى ألا تكثر العيال؟ و هذا القدح غير صحيح، لأن

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٤

السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع، و إنما القادح: الحرائر ذوات الحقوق الواجبة. و حكى ابن الأعرابى: أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله «(١)» اه.

و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة النحل «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا» نراه يعيب على ابن العربي تشنيعه على من يقول من الحنفية و غيرههم بحل النبيذ، و جعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: (و هذا تشنيع شنيع، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار «(٢)» اه.

و على الجملة. فإن القرطبي رحمه الله فى تفسيره هذا حر فى بحثه، نزيه فى نقده، عف فى مناقشته و جدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع فى كل فن استطرد إليه و تكلم فيه.

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب، ثم أراد الله له الذبوع بين أولى العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه، فتم

منه إلى الآن أربعة عشر جزءا تنتهي بآخر سورة فاطر، و عسى أن يعجل الله بإتمام ما بقى منه، حتى يتم به النفع إنه سميع مجيب «٣».

(١) ج ٥ ص ٢١-٢٢.

(٢) ج ١٠ ص ١٣٠.

(٣) وتد حقق الله الرجاء و تم طبع الكتاب كما قدمنا.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٥

٥- كنز العرفان في فقه القرآن لمقداد السيوري (من الإمامية الاثنى عشرية)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير، هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيوري «١» أحد علماء الإمامية الاثنى عشرية، و المعروف بينهم بالعلم، و الفضل و التحقيق، و التدقيق و له مؤلفات كثيرة، منها: تفسيره هذا؛ و منها التنقيح الرائع في شرح مختصر الشرائح، و شرح مبادئ الأصول ... و غير ذلك، و كان في أواخر القرن الثامن و أوائل القرن التاسع الهجري «٢».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، و هو لا يتمشى مع القرآن سورة سورة على حسب ترتيب المصحف ذاكرا ما في كل سورة من آيات الأحكام كما فعل الجصاص و ابن العربي مثلا، بل طريقته في تفسيره: أنه يعقد فيه أبوابا كأبواب الفقه، و يدرج في كل باب منها الآيات التي تدخل تحت موضوع واحد فمثلا يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد في الطهارة من الآيات القرآنية، شارحا كل آية منها على حدة، مبينا ما فيها من الأحكام على حسب ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية في فروعهم، مع تعرضه للمذاهب الأخرى، و رده على من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية.

هذا، و إن طريقته التي يسلكها في تدعيم مذهبه و ترويجه، و إبطال مذهب مخالفه، لا تخرج عن أمرين اثنين:

أولهما: الدليل العقلي. (١) السيوري: نسبة إلى السيور؛ و هو ما يقدر من الجلد؛ أو إلى بلد من بلاد اليمن كما في روضات الجنات.

(٢) انظر روضات الجنات ص ٥٦٦-٥٦٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٦

ثانيهما: دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت.

أما الدليل العقلي، فيندر أن يسلم له كمستند يستند إليه في صحة ما يشذ به.

و أما دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت، فتلك دعوى كثيرا ما تكون كاذبة، يلجأ إليها الشيعة عند ما يعوزهم الدليل، و تخونهم الحجج. و إليك بعض ما جاء في هذا التفسير لتقف على مقدار شذوذ صاحبه.

فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النساء «... وَ إِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا..» يقول: (... فتيمموا أي فتعمدوا و اقصدوا صعيدا طيبا، أي شيئا من وجه الأرض كقوله «صَعِيدًا زَلَقًا» «١» طيبا: أي طاهرا، و لذلك قال أصحابنا: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلب و مسح: أجزأه، و به قالت الحنفية. و قالت

الشافعية: لا بد أن يعلق باليد شيء، لقوله «فَامْسِجُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» «٢» و فيه نظر، لجواز كون من هنا ابتدائية. و الوجه:

المراد بعضه، و هو الجبهة عند أكثر أصحابنا، إما لكون الباء للتبعيض. أو للنصوص عن أهل البيت عليهم السلام. فمسح الجبهة إلى

طرف أنفه الأعلى، و كذا المراد باليدين: ظهر اليد من الزند إلى أطراف الأصابع. اه «٣» و يقول عند ما تعرض لآية التيمم في سورة

المائدة: (و تجب ضربة واحدة للوضوء و اثنتان للغسل) ثم يرد على الحنفية و الشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه و

أخرى للدين، و أن المراد بالوجه كله، و باليدين إلى المرفقين .. يرد عليهم فيقول:

(و روايات أهل البيت تدفع ذلك «٣»).

و عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٣٠) من سورة البقرة «.. فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» يقول: (... مدلول الآية انه

إذا طلقها الزوج (١) في الآية (٤٠) من سورة الكهف

(٢) في الآية (٦) من سورة المائدة

(٣) ص ٨، ٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٧

عقب الطلقتين تنكح زوجا غير ذلك المطلق و هذا الحكم عند أصحابنا مخصوص بما عدا طلاق العدة، فإن ذلك يحرم في التاسعة

أبدا- و طلاق العدة هو أن يطلق المدخول بها على الشرائط ثم يراجعها في العدة ثم يطلقها مرة ثانية و يفعل كما فعل أولا، ثم يطلقها

ثالثة، فإذا فعل ذلك ثلاثة أدوار حرمت عليه عندهم أبدا «١» اه، و هكذا يسير المؤلف بهذا الشذوذ في كثير من الأحكام، و بهذا

التعسف و التخبط في فهم نصوص القرآن، و الذي يقرأ الكتاب يرى الكثير من ذلك، و يعجب من محاولاته الفاشلة في استنباط ما

يشذ به من الآيات التي تجبهه، و لا يمكن أن تتمشى مع مذهبه بحال من الأحوال. هذا، و إن الكتاب مطبوع على هامش تفسير الحسن

العسكري، و موجود بدار الكتب. (١) ص ٢٥٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٨

٦- الثمرات اليانعة و الأحكام الواضحة الفاطمة ليوسف الثلاثي (الزبيدي)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو شمس الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن عثمان الثلاثي، الزبيدي الفقيه، أحد أصحاب الإمام

المهدي، و أحد أساطين العلم و جبال التحقيق عند أصحابه. ارتحل الناس إليه من الأقطار إلى تلاء، و كان إذا قرأ امتلا الجامع بالطلبة،

و باقيهم بكتبهم في الطاقات من خارج المسجد.

أخذ عن الفقيه حسن النحوي، و له تصانيف، منها: الزهور و الرياض، و الثمرات اليانعة، و هو أجل مصنف عند الزبيدي، و هو ما نحن

بصدده الآن، توفي رحمه الله بثلاث في شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٢ هـ اثنتين و ثلاثين و ثمانمائة من الهجرة «١».

التعريف بهذا التفسير و طريقة مؤلفه فيه:

إشارة

يقع هذا التفسير في ثلاثة أجزاء كبار، و منه نسخة خطية كاملة بدار الكتب المصرية، و يوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني فقط، و

هو مخطوط في مجلد كبير، يبدأ من قوله تعالى في الآية (٤) من سورة المائدة «يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَجَلٌ لَهُمْ... الآية» و ينتهي عند قوله

تعالى في الآية (٣٦) من سورة النور «فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُزْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ».

قرأت في هذا التفسير فوجدت المؤلف يقتصر على آيات الأحكام، متمشيا مع ترتيب المصحف في سورة و آياته، يذكر الآية أولا. ثم

يذكر ما ورد في سبب نزولها إن كان لها سبب، ثم يقول: و لهذه الآية ثمرات، هي أحكام شرعية: الأولى: كذا و الثانية: كذا ... إلى

أن ينتهي من كل ما يتعلق بالآية من الأحكام. (١) انظر شرح الازهار ج ١ ص ٤٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٦٩

اعتماد المؤلف على الروايات التي لا تصح:

و يلاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه لا- يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث. و ما يذكره من ذلك يمر عليه مرا سابريا بدون أن يعقب عليه بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو وضعه، فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» نراه يذكر الروايات الواردة في سبب نزول هذه الآية، و يذكر ضمن ما يذكر: أنها نزلت في علي بن أبي طالب لما تصدق بخاتمه في الصلاة و هو راكع «١». و قد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة، و لكن المؤلف يذكرها، ثم يأخذ في تفریع الأحكام على هذه القصة المكذوبة، كأنها عنده من الثابت الصحيح.

تقديره لكشاف الزمخشري:

كذلك يلاحظ على المؤلف في تفسيره هذا أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشري، مما يدل على أنه معجب به و بتفسيره إلى حد كبير، و لعل ذلك ناشئ عما بين الرجلين من صلة التمدد بمذهب الاعتزال.

مسلكه في أحكام القرآن:

إشارة

أما مسلك المؤلف في أحكام القرآن، فإنه يسرد أقوال السلف و الخلف في المسألة فيعرض لما ورد عن الصحابة و التابعين، و يعرض لمذهب الشافعية، و الحنفية، و المالكية، و الظاهرية، و الإمامية .. و غيرهم من فقهاء المذاهب، ذاكرا لكل مذهب دليله و مستنده في الغالب. كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية و اختلاف علمائهم في المسألة التي يعرض لها، مع الإفاضة في بيان أدلتهم التي استندوا إليها، و الرد على من يخالفهم فيما يذهبون إليه .. كل هذا بدون أن نلاحظ على الرجل شيئا من القدر في مخالفته، كما يفعل غيره ممن سبق الكلام عنهم. و إليك بعض ما جاء في هذا التفسير لتقف على مقدار دفاع المؤلف عن مذهبه، و عمله على تأييده بالبراهين و الأدلة. (١) ج ٢ ص ٥٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٠

رأيه في نكاح الكتابيات:

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٥) من سورة المائدة «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ... (إلى قوله) وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ... الآية» نراه يعرض لأقوال العلماء في حكم نكاح الكتابيات فيقول: (... ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية، و هذا مذهب أكثر الفقهاء و المفسرين، و روايته عن زيد بن علي، و الصادق، و الباقر، و اختاره الإمام يحيى بن حمزة و قال: إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة، و إن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة و هي نصرانية، فلما توفي عثمان خطبها معاوية، فقالت:

و ما يعجبك مني؟ قال ثنيتك، فقلعتها و أمرت بهما إليه، و نكح طلحة نصرانية، و نكح حذيفة يهودية. و قال القاسم، و الهادي، و الناصر، و محمد بن عبد الله، و عامة القاسمية، و هو مروى عن ابن عمر: أنه لا يجوز لمسلم نكاح كافرة كتابية كانت أو غيرها، و احتجوا بقوله تعالى في سورة البقرة «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ» (١) قالوا: هذا في المشركات لا في الكتابيات. قلنا: اسم المشرك ينطلق على أهل الكتاب، بدليل قوله تعالى. بعد ذكر اليهود و النصارى في قوله «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

اللَّهِ ... (إلى قوله تعالى) سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٢» و عن ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من قول النصارى إن ربها عيسى. و عن عطاء: قد كثر الله المسلمات، و إنما رخص لهم يومئذ. قالوا:

إنه تعالى عطف أحدهما على الآخر فدل أنهما غير ان حيث قال تعالى «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ «٣» قلنا: هذا كقوله تعالى «الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ «٤» قالوا: الآية مصرحة بالجواز في قوله تعالى «و الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» قلنا: قوله تعالى في سورة الممتحنة «وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ «٥» و قوله تعالى في سورة النور (الْحَيْثَاتُ لِلْحَيْثِينَ (١) في الآية (٢٣١)

(٢) الآية (٣١) من سورة التوبة

(٣) أول سورة البينة

(٤) في الآية (١٨٠) من سورة البقرة

(٥) في الآية (١٠)

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧١

وَ الْحَيْثُونَ لِلْحَيْثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ «١» و قوله تعالى في سورة النساء «وَمَنْ لَمْ يَشِ تَطْعَ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ «٢» فشرط الإيمان في هذا يقتضى التحريم. فتأول هذه الآية بأنه أراد المحصنات من أهل الكتاب الذين قد أسلموا؛ لأنهم كانوا يتكهنون ذلك، فسماهم باسم ما كانوا عليه. و قد ورد مثل هذا في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ «٣» و قوله تعالى «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ «٤» و قوله تعالى «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ .. «٥»- قالوا: سبب النزول و فعل الصحابة يدل على الجواز، و إنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول: قوله تعالى «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ» عام و نخصه بقوله تعالى «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أو نقول أراد بالمشركات الوثنيات، و بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ما أفاده الظاهر. أو يكون قوله تعالى «وَالْمُحْصَنَاتُ» ناسخاً لتحريم الكتابيات بقوله «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ». قلنا: نقل ما ذكرتم بما روى أن كعب بن مالك أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية فسأل النبي صلى الله عليه و آله عن ذلك فقال: إنها لا تحصن ماءك. و روى أنه نهاه عن ذلك.

و بأنا نتأول قوله تعالى «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، فنجمع و نقول:

و تخصيص المشركات بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب مترخ، و البيان لا يجوز أن يتراخى. قالوا روى جابر بن عبد الله عن النبي عليه السلام أنه قال: أحل لنا ذبائح أهل الكتاب و أحل لنا نساؤهم، و حرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا.

قال في الشفاء: قال علماؤنا: هذا حديث ضعيف النقل. قالوا: قوله صلى الله (١) في الآية (٢٤).

(٢) في الآية (٢٥).

(٣) في الآية (٤٨) من سورة العنكبوت.

(٤) في الآية (١٤٦) من سورة البقرة.

(٥) في الآية (٩٩) من سورة آل عمران.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٢

عليه و آله في المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب ... الخبر فأفاد جواز ذبائحهم، و نكاح نسائهم. قلنا: الجواز منسوخ بأدلة التحريم. ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس، فنقول: كافرة فأشبهت الحريية، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة، أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس. قالوا:

لا حكم للاعتبار مع الأدلة ... اه (١)

المسح على الخفين:

و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ... الْآيَةَ» نراه يعرض لمسألة المسح على الخفين فيقول: (.. إن المسح على الخفين والجوربين لا يجوز، وهو مروى عن علي عليه السلام، وابن عباس، و عمار بن ياسر، و أبي هريرة، و عائشة.

و قال عامة الفقهاء ... إنه يجوز المسح عليهما. حجتنا هذه الآية، و هي قوله تعالى «وَأَرْجُلُكُمْ» فأمرت بتطهير الرجلين، و الماسح على الخفين لا يكون مطهراً لهما، و كذلك الأخبار التي دلت على الغسل للقدمين. فأما ما روى أنه صلى الله عليه و آله مسح على الخفين و أمر به، فهذه الأخبار كانت بمكة و بعد هجرته صلى الله عليه و آله، ثم نزلت سورة المائدة بعد ذلك فكانت ناسخه و يدل على هذا ما رواه زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال: لما كان في ولاية عمر جاء سعد بن أبي وقاص فقال: يا أمير المؤمنين ما لقيت من عمار، قال: و ما ذاك؟ قال: خرجت و أنا أريدك و معي الناس، فأمرت منادياً فنادى بالصلاة، ثم دعوت بطهور فتطهرت و مسحت على خفي، و تقدمت أصلي، فاعتزلتني عمار، فلا هو اقتدى بي و لا هو تركني، فجعل ينادى من خلفي: يا سعد: أ صلاة من غير وضوء؟ فقال عمر: يا عمار.

أخرج مما جئت به، فقال: نعم .. كان المسح قبل المائدة، فقال عمر: يا أبا الحسن ما تقول؟ قال: أقول إن المسح كان من رسول الله صلى الله عليه و آله (١) ج ٢ ص ٦-٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٣

و سلم في بيت عائشة، و المائدة نزلت في بيتها، فأرسل عمر إلى عائشة فقالت:

كان المسح قبل المائدة، فقل لعمر: و الله لأن يقطع قدماي بعقبهما أحب إلى من أن أمسح عليهما، فقال عمر: لا نأخذ بقول امرأة، ثم قال: أنشد الله امرأ شهد المسح من رسول الله لما قام، فقام ثمانية عشر رجلاً كلهم رأى رسول الله صلى الله عليه و آله يمسح و عليه جبة شامية ضيقة الكمين، فأخرج يده من تحتها ثم مسح على خفيه، فقال عمر: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال:

سلمهم .. أقبل المائدة أم بعدها؟ فسألهم، فقالوا: ما ندري، فقال علي عليه السلام: أنشد الله امرأ مسلماً علم أن المسح قبل المائدة لما قام، فقام اثنان و عشرون رجلاً، فتفرق القوم و هؤلاء يقولون لا نترك ما رأينا. و عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: و الله ما مسح رسول الله بعد المائدة، و لأن أمسح على ظهر غير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على الخفين. و عن علي عليه السلام سبق: الكتاب الخفين - قيل معناه قطع - و عن أبي هريرة: ما أبالي على خفي مسحت أو على ظهر حمار. فثبت النسخ بما ذكر. و أما قول جرير:

رأيت رسول الله يمسح، و كان إسلامه بعد المائدة فروايتة لا تقبل مع إنكار أمير المؤمنين؛ و لأنه لحق بمعاوية فكان ذلك قدحا. هذا كلام أهل المذهب و المسألة إجماعية من أهل البيت عليهم السلام) «١» اه.

و هكذا نجد المؤلف - رحمه الله - يناقش مخالفه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، و إن دلت على شيء فهو قوة ذهن الرجل، و سعة اطلاعه. هذا .. و لا يكاد القارئ لهذا التفسير يجد فيه خلافاً كثيراً للمذاهب الفقهية الأخرى، كما هو الشأن في كتب التفسير الفقهية للإمامية الاثني عشرية، و هذا راجع إلى تقارب وجهات النظر بين الزيدية و أهل السنة في أصول الفقه و فروعها. (١) ج

٢ ص ١٨-١٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٤

الفصل الثامن التفسير العلمي**معنى التفسير العلمي:**

نريد بالتفسير العلمى: التفسير الذى يحكم الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن. و يجتهد فى استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

التوسع فى هذا النوع من التفسير و كثرة القائلين به:

إشارة

وقد وقع هذا النوع من التفسير، و اتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها و ما يكون، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية و العملية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها، و تعدد ألوانها.

الإمام الغزالي و التفسير العلمى:

و يظهر لنا- على حسب ما قرأنا- أن الإمام الغزالي كان- إلى عهده- أكثر من استوفى بيان هذا القول فى تفسير القرآن، و أهم من أيدته و عمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية، على رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن. و بين أيدينا كتاب الإحياء للغزالي نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن، فى فهم القرآن و تفسيره بالرأى من غير نقل.

وفيه ينقل عن بعض العلماء (أن القرآن يحوى سبعة و سبعين ألف علم و مائتى علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف؛ إذ لكل كلمة ظاهر و باطن، و حد و مطلع «١») ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال (من أراد (١) الإحياء ج ٣ ص ١٣٥ مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٥

علم الأولين و الآخرين فليتدبر القرآن «١») ثم يقول بعد ذلك كله: (و بالجمله فالعلوم كلها داخله فى أفعال الله عز و جل و صفاته، و فى القرآن شرح ذاته و أفعال و صفاته، و هذه العلوم لا نهاية لها، و فى القرآن إشارة إلى مجامعها «٢») ثم يزيد على ذلك فيقول: (بل كل ما أشكل فهمه على النظائر، و اختلف فيه الخلائق فى النظريات؛ و المعقولات. فى القرآن إليه رمز و دلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها «٣»).

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذى ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى الإحياء بيانا و تفصيلا، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها و ما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات و تفصيلات تولاه لا نطيل بذكرها، و يكفى أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين:

الأول: علم الصدق و القشر، و جعل من مشتملاته. علم اللغز، و علم النحو، و علم القراءات، و علم مخارج الحروف و علم التفسير الظاهر.

و الثانى: علم اللباب. و جعل من مشتملاته: علم قصص الأولين، و علم الكلام، و علم الفقه و علم أصول الفقه، و العلم بالله و اليوم الآخر، و العلم بالبراهين المستقيم، و طريق السلوك «٤».

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب و النجوم، و هيئة العالم، و هيئة بدن الحيوان، و تشريح أعضائه و علم السحر، و علم الطلسمات ... و غير ذلك ثم يقول: (و وراء ما عدته علوم أخرى، يعلم تراجمها و لا يخلو العالم

- عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتماهى فيها أن في الإمكان والقوة (١) المرجع السابق.
- (٢) المرجع السابق.
- (٣) المرجع السابق.
- (٤) جواهر القرآن ص ٢١-٣١ مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٦

أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الأدمى الوصول إليها، و علوم كانت قد خرجت من الوجود و اندرست الآن، فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، و علوم أخر ليس في قوة البشر أصلا إدراكها و الإحاطة بها، و يحظى بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان في حق الأدمى محدود، و الإمكان في حق الملك محدود إلى غاية من النقصان، و إنما الله سبحانه هو الذى لا يتناهى العلم فى حقه «١» ثم يقول بعد ذلك (ثم هذه العلوم ما عددنا و ما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، و هو بحر الأفعال، و قد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، و أن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ، فمن أفعال الله تعالى و هو بحر الأفعال مثلا- الشفاء و المرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم «وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» (٢) و هذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله و علاماته، و معرفة الشفاء و أسبابه و من أفعاله تقدير معرفة الشمس و القمر و منازلها بحسبان و قد قال الله تعالى «الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» (٣) و قال «وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ» (٤) و قال «... وَ حَسِيفَ الْقَمَرِ وَ جُمُعَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ» (٥) و قال «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ» (٦) و قال «وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (٧) و لا يعرف حقيقة سير الشمس و القمر بحسبان (١) جواهر القرآن ص ٣١-٣٢

(٢) الآية (٨٠) من سورة الشعراء

(٣) الآية (٥) من سورة الرحمن

(٤) فى الآية (٥) من سورة يونس

(٥) فى الآيتين (٨ و ٩) من سورة القيامة.

(٦) فى الآية (٦١) من سورة الحج و (٢٩) من سورة لقمان.

(٧) الآية (٣٨) من سورة يس

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٧

و خسوفهما، و لولج الليل فى النهار، و كيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هياث تركيب السموات و الأرض، و هو علم برأسه و لا- يعرف كمال معنى قوله «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ» (١). إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا و باطنا، و عددها و أنواعها، و حكمتها و منافعها. و قد أشار فى القرآن فى مواضع إليها، و هى من علوم الأولين و الآخرين، و فى القرآن مجامع علم الأولين و الآخرين. و كذلك لا يعرف معنى قوله «سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (٢) ما لم يعلم التسوية، و النفخ، و الروح، و وراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، و ربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، و لو ذهبت أفضل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، و لا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها ... فتفكر فى القرآن، و التمس غرائب لتصادف فيه مجامع علم الأولين و الآخرين «٣» (...). اهـ.

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطي ينحو منحى الغزالي في القول بالتفسير العلمي، و يقرر ذلك بوضوح و توسع في كتابه (الإتقان) في النوع الخامس و الستين منه، كما يقرر ذلك أيضا بمثل هذا الوضوح و التوسع في كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) و نجده يسوق من الآيات و الأحاديث و الآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم فمن الآيات: قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة الأنعام «مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» و قوله في الآية (٨٩) من سورة النحل «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» (٤) و من الأحاديث: ما أخرجه الترمذي و غيره: أن رسول الله صلى الله عليه (١) الآيات (٦ و ٧ و ٨) من سورة الانفطار.

(٢) في الآية (٢٩) من سورة الحجر و في الآية (٧٢) من سورة ص.

(٣) جواهر القرآن ص ٣٢-٣٤.

(٤) الإتقان ج ٢ ص ١٣٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٨

و سلم قال: (ستكون فتن، قيل: و ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم «١») و ما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إن الله لو أغفل شيئا لأغفل الذرة و الخردلة و البعوضة «٢»).

و من الآثار: ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: (من أراد العلم فعليه بالقرآن. فإن فيه خير الأولين و الآخرين «٣») و ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: (أنزل في القرآن كل علم و بين لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن «٤»).

ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة و غيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي صلى الله عليه و سلم ثلاث و ستون سنة من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة المنافقين «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا» فإنها رأس ثلاث و ستين سورة، و عقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده «٥»).

أبو الفضل المرسى و التفسير العلمي:

ثم ذكر عن أبي الفضل المرسى أنه قال في تفسيره: (جمع القرآن علوم الأولين و الآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به. ثم رسول الله صلى الله عليه و سلم، خلا ما استأثر به سبحانه و تعالى. ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة و أعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، و ابن مسعود، و ابن عباس حتى قال، لو ضاع لى عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، و فترت العزائم، و تضاعل أمل العلم و ضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة و التابعون من علومه و سائر فنونه، فنوعوا (١) الإتقان ج ٢ ص ١٣١

(٢) الاكليل ص ٢.

(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٢٦

(٤) الاكليل ص ٢

(٥) الاكليل ص ٢ و الاتقان ج ٢ ص ١٢٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٧٩

علومه، و قامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتنى قوم بضبط لغاته، و تحرير كلماته، و معرفة مخارج حروفه، و عددها، و عدد كلماته، و آياته، و سورته، و أحزابه، و أنصافه، و أرباعه، و عدد سجدياته، و التعليم عند كل عشر آيات ...

إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء و اعتنى النحاء بالمعرب منه و المبني من الأسماء و الأفعال، و الحروف العاملة، و غيرها، و أوسعوا الكلام في الأسماء و توابعها، و ضروب الأفعال. و اللازم، و المتعدى، و رسوم خط الكلمات، و جميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، و بعضهم أعربه كلمة كلمة. و اعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظا يدل على معنى واحد، و لفظا يدل على معنيين، و لفظا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، و أوضحوا معنى الخفى منه، و خاضوا في ترجيح أحد احتمالات ذى المعنيين و المعانى؛ و أعمل كل منهم فكره، و قال بما اقتضاه نظره.

و اهتني الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية، و الشواهد الأصلية و النظرية، مثل قوله تعالى «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» (١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله، و وجوده، و بقائه، و قدمه، و قدرته، و علمه، و تزيهه عما لا يليق به، و سمو هذا العلم بأصول الدين.

و تأملت طائفة منهم معانى خطابه، فرأت منها ما يقتضى العموم، و منها ما يقتضى الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة و المجاز، و تكلموا في التخصيص، و الإضمار، و النص، و الظاهر، و المجمل، و المحكم، و المتشابه، و الأمر، و النهى، و النسخ... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، و استصحاب الحال، و الاستقراء، و سمو هذا الفن أصول الفقه. (١) فى الآية (٢٢) من سورة الانبياء

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٠

و أحكمت طائفة صحيح النظر، و صادق الفكر فيما فيه من الحلال و الحرام، و سائر الأحكام، فأسسوا أصوله، و فرعوا فروعوه، و بسطوا القول فى ذلك بسطا حسنا، و سموه بعلم الفروع و بالفقه أيضا. و تلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، و الأمم الخالية، و نقلوا أخبارهم، و دونوا آثارهم و وقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، و أول الأشياء، و سمو ذلك بالتاريخ.

و تنبه آخرون لما فيه من الحكم، و الأمثال، و المواعظ التى تقلقل قلوب الرجال، و تكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد، و الوعيد، و التحذير، و التبشير، و ذكر الموت، و المعاد و النشور، و الحشر، و الحساب، و العقاب، و الجنة، و النار، فصولا من المواعظ، و أصولا من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء و الوعاظ.

و استنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان، و فى منامى صاحبى السجن، و فى رؤياه الشمس و القمر و النجوم ساجدة، و سموه تعبير الرؤيا، و استنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب، فإن عز فمن الحكم و الأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم و عرف عاداتهم، الذى أشار إليه القرآن بقوله: و أمر بالمعروف (١)».

و أخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام و أربابها و غير ذلك، علم الفرائض، و استنبطوا منها من ذكر النصف، و الثلث، و الربع، و السدس، و الثمن، حساب الفرائض، و مسائل العدل، و استخرجوا منه أحكام الوصايا.

و نظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة، فى الليل، و النهار، و الشمس، و القمر، و منازلها، و البروج، و غير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت. (١) الآية (١٧) من سورة لقمان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨١

و نظر الكتاب و الشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، و بديع النظم، و حسن السياق، و المبادئ و المقاطع، و المخالصة، و التلوين فى الخطاب، و الإطناب، و الإيجاز، و غير ذلك و استنبطوا منه المعانى، و البيان، و البديع.

و نظر فيه أرباب الإشارات، و أصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان و دقائق، جعلوا لها أعلاما اصطلاحوا عليها، مثل: الفناء، و

البقاء والحضور، والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه، وقد احتوى على علوم آخر من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم.

أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى «وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ رِزْقٌ غَيْرَ بَشَرٍ مِمَّا تَحْسَبُ» (١) وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى «شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» (٢). ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب، وشفاء الصدور. وأما الهيئة: ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففي قوله تعالى «انظُرُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ» (٣)، فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول (١) في الآية (٦٧) من سورة الفرقان.

(٢) في الآية (٦٩) من سورة النحل.

(٣) الآيتان (٣٠ و ٣١) من سورة المرسلات

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٢

بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئا كثيرا. ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفه، وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة: ففي قوله تعالى: «أَوْ أَثَارَهُ مِنْ عِلْمٍ» (١) فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة في قوله «وَوَظْفًا يَخْصِمَانِ» (٢)، والحدادة آتونى زبر الحديد (٣)، والبناء في آيات، والنجارة «وَاصْنَعِ الْفُلُوكَ بِأَعْيُنِنَا» (٤) والغزل «نَقَصْتِ عَزْلَهَا» (٥).

والنسج «كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا» (٦). والفلاحة «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ» ..

الآيات (٧) والصيد في آيات. والغوص «وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ» (٨) «تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً» (٩). والصياغة «وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا» (١٠). والزجاجة «صَيَّرْخَ مَمْرَدٍ مِنْ قَوَارِيرٍ» (١١). «الْمِضْبَاحِ فِي زُجَاجِهِ» (١٢) والفخارة «فَأَوْقَدْتِ لِي يَا

هَامَانُ عَلَيَّ الطِّينِ» (١٣) «والملاحه (١) في الآية (٤) من سورة الأحقاف.

(٢) في الآية (٢٢) من سورة الأعراف. وفي الآية (١٢١) من سورة طه.

(٣) في الآية (٩٦) من سورة الكهف.

(٤) في الآية (٣٧) من سورة هود.

(٥) في الآية (٩٢) من سورة النحل.

(٦) في الآية (٤١) من سورة العنكبوت.

(٧) الآيات (٦٣) وما بعدها من سورة الواقعة

(٨) في الآية (٣٧) من سورة ص.

(٩) في الآية (١٤) من سورة النحل.

(١٠) في الآية (١٤٨) من سورة الأعراف

(١١) فى الآيه (٤٤) من سورة النمل

(١٢) فى الآيه (٣٥) من سورة النور

(١٣) فى الآيه (٣٨) من سورة القصص.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٣

«أَمَّا السَّفِينَةُ ... الآيه «١» و الكتابة «عَلَّمَ بِالْقَلَمِ «٢» و فى آيات أخر و الخبز «أَحْمِلْ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا «٣» و الطبخ «بِعَجَلٍ حَيْنًا «٤» و القصاره، «وَثِيَابِكَ فَطَهَّرْ «٥»، قال الحواريون «٦» و هم القصارون. و الجزاره «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ «٧» و البيع و الشراء فى آيات، و الصبغ «صِبْغَةَ اللَّهِ «٨»، «جُدَّدَ بِيضٌ وَ حُمْرٌ «٩»، و الحجاره «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا «١٠» و الكياله و الوزن فى آيات كثيره، و الرمي «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ «١١» «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ «١٢»».

و فيه من أسماء الآلات و ضروب المأكولات، و المشروبات، و المنكوحات.

و جميع ما وقع و يقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله «ما فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ «١٣» قال السيوطى: انتهى كلام المرسى ملخصا مع زيادات «١٤».

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويله، نجده يذكر عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه قانون التأويل: (علوم القرآن خمسين علما، و

أربعمائه علم، (١) فى الآيه (٧٩) من سورة الكهف

(٢) فى الآيه (٤) من سورة القلم

(٣) فى الآيه (٣٦) من سورة يوسف

(٤) فى الآيه (٦٩) من سورة هود

(٥) فى الآيه (٤) من سورة المدثر

(٦) فى الآيه (٥٢) من سورة آل عمران و فى آيه (١١٤) من سورة المائده، و (١٤) من سورة الصف

(٧) فى الآيه (٣) من سورة المائده

(٨) فى الآيه (١٣٨) من سورة البقره

(٩) فى الآيه (٢٧) من سورة فاطر

(١٠) فى الآيه (١٤٩) من سورة الشعراء

(١١) فى الآيه (١٧) من سورة الأنفال

(١٢) فى الآيه (٦٠) من سورة الأنفال

(١٣) فى الآيه (٣٨) من سورة الأنعام

(١٤) الإكليل ص ٢-٥، و الإتقان ج ٣ ص ١٢٦-١٢٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٤

و سبعة آلاف علم، و سبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبه فى أربعة؛ إذ لكل كلمه ظهر و بطن، و حد و مطلع، و هذا مطلق دون اعتبار التركيب و ما بينها من روابط، و هذا ما لا يحصى، و ما لا يعلمه إلا الله «١» اه.

و أخيرا عقب السيوطى على هذه النقول و غيرها فقال: (و أنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شىء، أما أنواع العلوم فليس منها باب و لا مسأله هى أصل إلا و فى القرآن ما يدل عليها، و فيه عجائب المخلوقات، و ملكوت السموات و الأرض، و ما فى الأفق الأعلى و ما تحت الثرى و ...

إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات «٢» اه.

و من هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين في تفسير القرآن الكريم. و كيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ماجد منها و ما يجد إلى يوم القيامة.

و لو أنا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمي - تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، و لوجدنا أنها كانت في أول الأمر عبارة عن محاولات، يقصد منها التوفيق بين القرآن، و ما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة و صريحة على لسان الغزالي، و ابن العربي، و المرسي، و السيوطي، و لوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت عمليا، و ظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن، و تتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، و راجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العلم، و نتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألفت بعض التفاسير التي تسير على ضوء هذه الفكرة.

و نرى أن نؤجل البحث عن التفسير العلمي في هذه المرحلة الأخيرة إلى خاتمة الرسالة؛ حيث نعرض لألوان التفسير في العصر الحديث إن شاء الله تعالى. (١) الاتقان ج ٢ ص ١٣٨

(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٢٩ - ٢٣٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٥

إنكار التفسير العلمي

إشارة

إذا كانت فكرة التفسير العلمي قد راجت عند بعض المتقدمين، و ازدادت رواجاً عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجاً عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجاً عند بعض المتأخرين منهم أيضاً.

إنكار الشاطبي للتفسير العلمي:

و يظهر لنا على حسب ما قرنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة في العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الأندلسي، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ تسعين و سبعمائة من الهجرة؛ و ذلك أنا نجده في كتابه (الموافقات) يعقد بحثاً خاصاً لمقاصد الشارع، و ينوع هذه المقاصد إلى أنواع تولى شرحها و بيانها، و الذي يهمننا هنا النوع الثاني منها و هو (بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للأفهام) و في المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن (هذه الشريعة المباركة أمية؛ لأن أهلها كذلك «١» فهو أجرى على اعتبار المصالح «٢»)... ثم دلل على ذلك بأمور ثلاثة لا نطيل بذكرها، ثم عقب بفصل ذكر فيه (ان العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، و كان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، و اتصاف بمحاسن الشيم، فصحت الشريعة منها ما هو صحيح و زادت عليه، و أبطلت ما هو باطل، و بينت منافع ما ينفع من ذلك، و مضار ما يضر منه) ثم ذكر من العلوم الصحيحة التي كان للعرب اعتناء بها علم النجوم و ما يختص به من الاهتداء في البر، و البحر، و اختلاف الأزمان باختلاف سيرها. و ما يتعلق بهذا المعنى، ثم قال: (و هو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ» (١) يريد أن تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التي يقصدها الشارع الحكيم اه من الشارع ج ٢ ص ٦٩.

(٢) الموافقات ج ٢ ص ٦٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٦

و البحر «١» و قوله «و بِاللَّيْلِ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِخُونَ» «٢» و قوله «و الْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ نَازِلٍ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَمَّا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَمَّا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِخُونَ» «٣» و قوله «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ» «٤» و قوله «وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. الْآيَةَ» «٥» و قوله «وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ» «٦» و قوله «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجَّ» «٧» و ما أشبه ذلك من الآيات.

و ذكر علم الأنواء، و أوقات نزول الأمطار، و إنشاء السحاب، و هبوب الرياح المثيرة لها، و عرض لما ورد في ذلك من القرآن مثل قوله تعالى «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ» وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ .. الْآيَةَ «٨» و قوله «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ» أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ» «٩» و قوله «وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» «١٠» ... و غير ذلك من الآيات. (١) في الآية (٦٧) من سورة الأنعام

(٢) في الآية (١٦) من سورة النحل

(٣) في الآية (٣٩ و ٤٠) من سورة يس

(٤) في الآية (٥) من سورة يونس

(٥) في الآية (١٢) من سورة الإسراء

(٦) في الآية (٥) من سورة الملك

(٧) في الآية (١٨٩) من سورة البقرة

(٨) الآيتان (١٢ و ١٣) من سورة الرعد

(٩) الآيتان (٦٨ و ٦٩) من سورة الواقعة

(١٠) في الآية (٩) من سورة فاطر

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٧

و ذكر علم التاريخ و أخبار الأمم الماضية. قال: و في القرآن من ذلك ما هو كثير ... قال تعالى «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ... الْآيَةَ» «١». و قال تعالى «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» «٢».

و ذكر علم الطب، و بين أنه كان في العرب منه شيء مبني على تجارب الأمامين، لا على قواعد الأقدمين. قال: (و على ذلك المساق جاء في الشريعة لكن على وجه جامع شاف، قليل، يطلع منه على كثير، فقال تعالى «كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا» «٣»).

و ذكر التفنن في علم فنون البلاغة، و الخوض في وجوه الفصاحة، و التصرف في أساليب الكلام .. قال: (و هو أعظم منتحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن. قال تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» «٤»).

و ذكر ضرب الأمثال. و استشهد بقوله تعالى «وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» «٥».

و ذكر من العلوم التي عنى بها العرب و أكثرها باطل أو جميعها، علم العيافة و الزجر، و الكهانة، و خط الرمل، و الضرب بالحصى، و الطيرة، قال:

(فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل، و نهت عنه كالكهانة، و الزجر، و خط الرمل. و أقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب؛ فإن الكهانة و

الزجر كذلك، و أكثر هذه الأمور تخرص على علم الغيب من غير دليل فجاء النبي صلى الله عليه و سلم بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض، و هو الوحي و الإلهام، (١) فى الآية (٤٤) من سورة آل عمران:

(٢) فى الآية (٤٩) من سورة هود

(٣) فى الآية (٣١) من سورة الأعراف:

(٤) فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء:

(٥) فى الآية (٥٨) من سورة الروم، و فى الآية (٣٧) من سورة الزمر:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٨

و بقى للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة و هو الرؤيا الصالحة، و أنموذج من غيره لبعض الخاصة و هو الإلهام و الفراسة «١».

ثم بعد هذا البيان الذى أوضح فيه الشاطبى أن الشريعة فى تصحيح ما صححت و إبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم، و لم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهابا، و إيضاحا، و يتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين و الآخرين، مفندا هذا الزعم، الذى اعتقد أن قائله قد تجاوزوا به الحد فى دعواهم على القرآن. و ذلك حيث يقول فى المسألة الرابعة من مسائل النوع الثانى من المقاصد - أعنى مقاصد وضع الشريعة للإفهام - (ما تقرر من أمية الشريعة و أنها جارية على مذاهب أهلها - و هم العرب يبنى عليه قواعد: منها: أن كثيرا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين و المتأخرين من علوم الطبيعات و التعاليم كالهندسة و غيرها من الرياضيات، و المنطق و علم الحروف، و جميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون و أشباهها، و هذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح) «٢».

ثم يصحح الشاطبى رأيه هذا و يحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم فى القرآن فيقول: (.. إن السلف الصالح - من الصحابة و التابعين و من يليهم كانوا أعرف بالقرآن و بعلمه و ما أودع فيه، و لم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى سوى ما تقدم، و ما ثبت فيه من أحكام التكليف، و أحكام الآخرة، و ما يلى ذلك، و لو كان لهم فى ذلك خوض و نظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم، و ذلك دليل على أن، القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا.

نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب أو ما يبنى على معهودها مما يتعجب منه (١) الموافقات ج ٢ ص ٧١ - ٧٦

(٢) الموافقات ج ١ ص ٧٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٨٩

أولوا الأبواب، و لا تبلغه إدراكات العقول الراجعة، دون الاهتداء بأعلامه، و الاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا «١».

ثم أخذ الشاطبى بعد هذا فى ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمى من الأدلة فقال: (و ربما استدلوا على دعاهم بقوله تعالى «و نزلنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «٢» و قوله «ما فرطنا فى الكتاب من شىء» «٣» و نحو ذلك، و بفواتح السور - و هى مما لم يعهد عند العرب - و بما نقل عن الناس فيها، و ربما حكى من ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه و غيره أشياء «٤».

ثم أخذ الشاطبى رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال:

فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف و التعبد، او المراد بالكتاب فى قوله «ما فرطنا فى الكتاب من شىء»:

اللوح المحفوظ، و لم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية و العقلية.

و أما فواتح السور: فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهدا، كعدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره اصحاب السير، او هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، و غير ذلك. و أما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون و لم يدعه

أحد ممن تقدم، فلا- دليل فيها على ما ادعوا، و ما ينقل عن على أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، و يجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة؛ فيه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، و تقول على الله و رسوله فيه، و الله اعلم، و به التوفيق) «٥». (١) الموافقات ج ٢ ص ٧٩- ٨٠

(٢) في الآية (٨٩) من سورة النحل

(٣) في الآية (٣٨) من سورة الإنعام

(٤) الموافقات ج ٢ ص ٨٠

(٥) الموافقات ج ٢ ص ٨١- ٨٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٠

هذه هي الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبي في هذا الموضوع، و ذلك هو رأيه في التفسير العلمي الذي شغف به بعض العلماء المتقدمين و المتأخرين، و احسب أني- و قد وضعت بين يدي القارئ مقالة كل فريق و ما يستند إليه من أدلة- قد أنرت له الطريق، و أوضحت له السبيل؛ ليختار لنفسه ما يحلو، بعد أن يحكم على أحدهما بأنه خير مقالة و أحسن دليلاً.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩١

اختيارنا في هذا الموضوع

إشارة

أما أنا فاعتقادي أن الحق مع الشاطبي رحمه الله، لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية، لا يعتريها الضعف، و لا يتطرق إليها الخلل، و لأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، و لا يبقى معها مدعاهم. و هناك أمور أخرى يتقوى بها اعتقادنا أن الحق في جانب الشاطبي و من لف لفه، فمن ذلك ما يأتي:

أولاً- الناحية اللغوية:

و ذلك أن الألفاظ اللغوية لم نقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرجت حياة الألفاظ و تدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، و نحن و إن كنا لا نعرف شيئاً عن تحديد هذا التدرج و تاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعاني للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم و الفنون، فهناك معان لغوية، و هناك معان شرعية، و هناك معان عرفية، و هذه المعاني كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، و بعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظراً لحدوثه و طوره على اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، و جعلها تدل على معان جدد باصطلاح حادث، و لم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ و هل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعاني التي حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، في الوقت الذي نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، و تليت أول ما تليت على من كان حول النبي صلى الله عليه و سلم؟ .. أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلا من سفه نفسه، و أنكر عقله.

ثانياً- الناحية البلاغية:

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، و معلوم أن القرآن في أعلى

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٢

درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمي و قلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، و ألفاظه متحملة لهذه المعاني المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا في ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدم بلاغة القرآن، أو يذهب بفظاته العرب؛ و ذلك لأن من خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني. و كان الله يريدنا من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب و هذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. و إن كانوا يعرفون هذه المعاني فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوى علوم الأولين و الآخرين؟ و لم لم تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم و سائر الفنون؟ .. و هذا أيضا سلب لأهم خصائص العرب و مميزاتهم.

ثالثا - الناحية الاعتقادية:

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان، و نظامه نافع لكل عصر و زمان، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميعا من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، و هو يسائر حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن. و هذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، و قانون الدين الذي جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض.

هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتقد و يدين به، حتى يسلم له دينه، و لا يرتاب فيه، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء، و جعلناه مصدرا لجوامع الطب، و ضوابط الفلك، و نظريات الهندسة، و قوانين الكيمياء، و ما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكننا بذلك قد أوقعنا الشك في عقائدهم المسلمين نحو القرآن الكريم، و ذلك لأن قواعد العلوم و ما تقوم عليه من نظريات، لا قرار لها و لا بقاء، فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير، لأنه ظهر له خطأها. و أمام سمعنا و بصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيرا من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطها لها بعد ذلك، و كم بين نظريات العلم قديمة و حديثة من تناف و تضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملا

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٣

لجميع هذه النظريات و القواعد العلمية على ما بينها من التنافي و التضاد؟ و إذا كان هذا معقولا، فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا، و يكون على يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه؟؟ ...

الحق أن القرآن لا يعنى بهذا اللون من حياة الناس، و لا يتعهد بالشرح و لا يتولاه بالبيان، حتى يكون مصدرهم الذي يرجعون إليه في تعرف حياتهم العلمية الدنيوية.

و يبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة - فكرة التفسير العلمي - لم يقولوا بها، و لم يعملوا على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، و بيان صلاحته للحياة، و تمشيه معها على اختلاف أحوالها و تطور أزمانها. و لكن. (ما هكذا يا سعد تورد الإبل) فإن إعجاز القرآن غنى عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف، الذي قد يذهب بالإعجاز، و هناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه و سلم.

و إذا كان أرباب هذا المسلك في التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون و مشاهدته، و دعوة الله لهم بالنظر في كتاب الكون و آياته التي بثها في الآفاق و في أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلى مثل هذا في دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين و الآخرين، فهم مخطئون و لا شك و ذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون و مشاهدته، و دعوته إلى النظر في ملكوت السموات و الأرض و في أنفسهم، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس، و توجيه عامتهم و خاصتهم إلى مكان العظمة و العبرة، و لفهم إلى آيات قدرة الله و دلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات و المشاهد من روعة في النفس و جلال في القلب، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات و ضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة ...

و ليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف، الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى، فى إصلاح الحياة، و رياضة النفس، و الرجوع بها إلى الله تعالى.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٤

و ليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضا، أن من الخير لهم و لكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى فى تفسيرهم، رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن و صلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى، و حسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة. و حسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه و بين ماجد و يجد من نظريات و قوانين علمية، تقوم على أساس من الحق، و تستند إلى أصل من الصحة.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٥

الخاتمة كلمة عامة عن التفسير و ألوانه فى العصر الحديث

التفسير بين ماضية و حاضرة:

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد فى تفسير كتاب الله، و الكشف عن معانيه و مرامييه؛ إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذى جمع لهم بين سعادة الدنيا و الآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراساتهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ، و تلون بألوان مختلفة مرت بك كلها. أو مر بك على التحقيق ما وصلنا إليه فى دراستنا و قراءتنا الواسعة المستفيضة. و الذى يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخله شك فى أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث و التحقيق، فالناحية اللغوية، و الناحية البلاغية، و الناحية الأدبية، و الناحية النحوية، و الناحية الفقهية، و الناحية المذهبية، و الناحية الكونية الفلسفية. كل هذه النواحي و غيرها تناولها المفسرون الأول بتوسع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به فى تفاسيرهم التى ألفوها، اللهم إلا عملا صئيلا لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدمين، أو شرحا لغامضها، أو نقدا و تنفيذا لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحا لرأى على رأى، مما جعل التفسير يقف وقفه طويلا مليئة بالركود، خالية من التجديد و الابتكار.

مميزات التفسير فى العصر الحديث:

و لقد ظل الأمر على هذا، و بقى التفسير واقفا عند هذه المرحلة - مرحلة الركود و الجمود - لا يتعداها، و لا يحاول التخلص منها. حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فالتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٦

أن يتحرروا من قيد هذا الركود، و يتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا فى كتاب الله نظرة - و إن كان لها اعتماد كبير على ما دونه الأوائل فى التفسير - أثرت فى الاتجاه التفسيري للقرآن تأثيرا لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التى حشرت فى التفسير حشرا و مزجت به على غير ضرورة لازمة، و العمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلى الذى كاد يذهب بجمال القرآن و جلاله، و تمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية على رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو على أصحابه عليهم رضوان الله تعالى، و إلباس التفسير ثوبا أدبيا اجتماعيا، يظهر روعة القرآن، و يكشف عن مراميه الدقيقة و أهدافه السامية، و التوفيق يجد بالغ و جهد ظاهر بين القرآن و ما جد من نظريات علمية صحيحة، على تفاوت بين الموفقين فى الغلو و الاعتدال، و كان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون و غير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذى يتمشى مع الزمن فى جميع

أطواره و مراحلہ ... و هناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمي و التأثير بالمذهب و العقيدة، و الإلحاد الذي قام على حرية الرأي الفاسد.

ألوان التفسير في العصر الحديث:

إشارة

و على ضوء ما تقدم، نستطيع أن نجمل ألوان التفسير في العصر الحديث في الألوان الأربعة الآتية و هي أهمها؛ أولاً: اللون العلمي.

ثانياً: اللون المذهبي.

ثالثاً: اللون الإلحادي، رابعاً: اللون الأدبي الاجتماعي.

و سأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتفسير في العصر الحديث، على حسب ترتيبها، و بمقدار ما استفدت من قراءتي في كتب التفسير و ما يتصل به من مؤلفات جدد في هذا العصر، و الله ولي التوفيق.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٧

اللون العلمي للتفسير في عصرنا الحاضر

إشارة

تكلّمنا عن التفسير العلمي فيما سبق، و بينا أن هذا اللون من التفسير كان موضع أخذ ورد بين العلماء الأقدمين، فمنهم من أيده و قال به، و منهم من فنده و منع منه.

و قلنا: إن التفسير العلمي كان أكثر رواجاً و أعظم قبولا لدى المتأخرين، و أجملنا القول في هذه النقطة الأخيرة، و وعدناك بالتوسع فيها عند ما نعرض لهذه الخاتمة التي نحن بصدددها، و وفاء بوعدى أقول:

رواج التفسير العلمي في عصرنا الحاضر.

إن هذا اللون من التفسير - أعنى التفسير العلمي الذي يرمى إلى جعل القرآن مشتملاً على سائر العلوم ما جد منها و ما يجد - قد استشرى أمره في هذا العصر الحديث، و راج لدى بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم، و عناية بالقرآن الكريم، و كان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت على قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحملوا القرآن كل علوم الأرض و السماء، و أن يجعلوه دالاً عليها بطريق التصريح أو التلميح، اعتقاداً منهم - كما قلنا - أن هذا بيان لناحية من أهم نواحي صدقه، و إعجازه، و صلاحيته للبقاء.

أهم الكتب التي عنيت بهذا اللون:

إشارة

و من أهم هذه الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، و

الأرضية، و الحيوانات، و النباتات، و الجواهر المعدنية) للإمام الفاضل و الطبيب البارع، محمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري، و هو كتاب

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٨

كبير الحجم، يقع في ثلاث مجلدات. و مطبوع بالمطبعة الوهبيه بمصر سنة ١٢٩٧ هـ و منه نسخة بدار الكتب المصرية. و رسالة عبد الله باشا فكرى في مقارنة بعض مباحث الهيئه، بالوارد في النصوص الشرعية، و قد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ. و بين أيدينا كتاب (طبائع الاستبداد و مضارع الاستعباد) لرجل الإصلاح الإسلامى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي. و هو عبارة عن مجموع مقالات له، نشرها في بعض الصحف عند ما زار مصر سنة ١٣١٨ هـ و قد طبع هذا الكتاب و أبهم اسم مؤلفه و رمز له (الرحالة ك). و في هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - ينجاز انحيازاً بليغاً إلى هذا اللون من ألوان التفسير، فيصف القرآن بأنه (شمس العلوم و كنز الحكم «١») و يقرر بأن السر في إحجام العلماء عن تفسير قسمة الآلاء و الأخلاق من القرآن، و بيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفه هو (أنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون) ثم يقول: (و هذه مسألة إعجاز القرآن، و هى أهم مسألة في الدين، لم يقدرُوا أن يوفوها حقها من البحث، و اقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هى فصاحتها، و بلاغته، و إخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون «٢»).

ثم نراه يأخذ في بيان اشتمال القرآن على ما جد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن، فيقول: (إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق و حرية الرأى و التأليف كما أطلق لأهل التأويل و الخرافات: لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز .. لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان و الحدثان، تبرهن على إعجازه بصدق قوله تعالى: «وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ «٣» برهان عيان لا مجرد تسليم و إيمان، و مثال ذلك: أن (١) ص ٢٢.

(٢) ص ٢٣.

(٣) فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٤٩٩

العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق و طبائع كثيرة، تعزى لكاشفيها و مخترعيها من علماء أوروبا و أمريكا، و المدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً، و ما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه.

و ذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير، و قد وصف القرآن بدء التكوين فقال «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ «١»». و كشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة، و القرآن يقول: «وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ... (إلى أن يقول) وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ «٢»».

و حققوا أن الأرض منفتحة من النظام الشمسى و القرآن يقول: «... أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا «٣»».

و حققوا أن القمر منشق من الأرض، و القرآن يقول «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُضُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا «٤»» و يقول: «افْتَرَبَتِ السَّاعِيَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ «٥»»:

و حققوا أن طبقات الأرض سبع و القرآن، يقول «خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ «٦»» و حققوا أنه لو لا الجبال لاقتضى النقل النوعى أن تميد الأرض، أى ترتج فى دورتها، و القرآن يقول: «وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ «٧»».

و كشفوا أن التغيير فى التركيب الكيماوى بل و المعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، و القرآن يقول: «وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ «٨»». (١) فى الآية (١١) من سورة فصلت.

(٢) فى الآية (٤٠) من سورة يس.

- (٣) فى الآيه (٣٠) من سورة الأنبياء.
 (٤) فى الآيه (٤١) من سورة الرعد
 (٥) أول سورة القمر.
 (٦) فى الآيه (١٢) من سورة الطلاق.
 (٧) فى الآيه (١٥) من سورة النحل وآيه (١٠) من سورة لقمان.
 (٨) فى الآيه (٨) من سورة الرعد:
 التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٠

و كشفوا ان للجمامادات حياة قائمه بماء التبلور، و القرآن يقول: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿١﴾» و حققوا ان العالم العضوى - و منه الانسان - ترقى من الجماد، و القرآن يقول: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٢﴾».
 و كشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات، و القرآن يقول «خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴿٣﴾». و يقول «فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٤﴾»، و يقول: «اهْتَرَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَتْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾»، و يقول: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿٦﴾».
 و كشفوا طريقه إمساك الظل، أى التصوير الشمسى و القرآن يقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٧﴾».

و كشفوا تسيير السفن و المركبات بالبخار و الكهرباء، و القرآن يقول - بعد ذكره الدواب و الجوارى بالريح - «وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٨﴾».

و كشفوا وجود المكروب و تأثيره الجدرى و غيره من المرض، و القرآن يقول: «وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٩﴾»، أى متابعه مجتمعه «تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿١٠﴾» أى من طير المستنقعات اليابس ... إلى غير ذلك من الآيات (١) فى الآيه (٣٠) من سورة الأنبياء.
 (٢) فى الآيه (١٢) من سورة المؤمنون.

(٣) فى الآيه (٣٦) من سورة يس:

(٤) فى الآيه (٥٣) من سورة طه:

(٥) فى الآيه (٥) من سورة الحج:

(٦) فى الآيه (٣) من سورة الرعد:

(٧) فى الآيه (٤٥) من سورة الفرقان:

(٨) فى الآيه (٤٢) من سورة يس:

(٩) فى الآيه (٣) من سورة الفيل:

(١٠) فى الآيه (٤) من سورة الفيل.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠١

الكثيره المحققه لبعض مكتشفات علم الهيئه و النواميس الطبيعیه، و بالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيرا من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون، تجديدا لإعجازه ما دام الزمان و ماكر الجديدان «(١)» اه.

و بين أيدينا كتاب (إعجاز القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعى، و هو من أنصار هذه النزعه التفسيرية و من المؤيدين لها، و فى هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - يعقد بحثا خاصا لموضوع (القرآن و العلوم) و فيه يقرر أن القرآن (بآثاره الناميه، معجزه أصلية فى تاريخ العلم كله على بسط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله ... «(٢)») ثم يستطرد إلى ذكر بعض ما نقله السيوطى فى الإتقان و الإكليل عن العلامة المرسى فى اشتغال القرآن على سائر العلوم، و هنا نجده يعلق استخراج علم المواقيت من القرآن

فيقول: (قال بعض المتأخرين: إن الميقات مشار إليه في القرآن بقوله تعالى «رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ (٣)» قال: فإن عدد (رفيع) بحساب الجمل ثلاثمائة وستون، و هي عدد درج الليل و النهار). ثم يقول الرافعي نفسه بعد هذا: (و إذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور، و توارىخها، و أسرارها، و لو لا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم و الحديث «٤»).

ثم نرى الرافعي - رحمه الله - يسترسل في حديثه إلى أن يقول: (و قد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع. و ما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، و بسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنسقى فيه «٥». على أن هذا و مثله إنما يكون فيه إشارة و لمحة، و لعل متحققا (١) ص ٢٣-٢٥ (٢) ص ١٠٨.

(٣) في الآية (١٥) من سورة غافر:

(٤) ص ١١٣-١١٤ (هامش) مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٩ هـ.

(٥) و هنا نرى المؤلف يعلق على قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد للكواكبي من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٢

بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن، و أحكم النظر فيه، و كان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، و لا يلتوى عليه أمره، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم و إن لم تبسط من أنبائها، و تدل عليها و إن لم تسمها بأسمائها) ثم يقول: (و قد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم و إلى تمحيصها و غايتها على ما وصفناه آنفا، و ذلك قوله تعالى «سَيُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١)» و لو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى «فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ»، هذه آفاق، و هذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بدهاه فليس يصح في الأفهام شيء .. «٢» اهـ.

كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، الطبيب المعروف.

ينحاز إلى هذا اللون من ألوان التفسير في كتابه (الاسلام و الطب الحديث) الذي جمع فيه مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر. و بين أيديها هذا الكتاب، و هو مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٣٥٧ هـ و فيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن القرآن (ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلک، و لكنه يشير أحيانا إلى سنن طبيعیه ترجع إلى هذه العلوم «٣») كما يقرر أن كثيرا من آيات القرآن (لا يفهم شيئا من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثه «٤») كما يؤكد أن العلم الحديث (كشف عن معنى بعض الآيات، و سينكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين «٥»).

و في هذا كما ترى اتهام للصحابة و من جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعاني الحقيقية لبعض الآيات القرآنية؛ لجهلهم بهذه العلوم المستحدثه (١) الآية (٥٣) من سورة فصلت.

(٢) ص ١٢٤-١٢٦:

(٣) ص ١.

(٤) ص ١.

(٥) ص ١١٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٣

و هذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و سلف الأمة رضوان الله عليهم.

و إذا نحن تتبعنا ما فى هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن، و لا يهدف إليه من وراء خطابه للعبء الأمية. فمثلا نجده يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» تحت عنوان (الحياة تحت ضوء القرآن) و فيه يقول:

(... هذه الآية الكريمة معناها- و الله أعلم- (و تأمل قوله معناها) أن اللحوم و الأسماك و الألبان ... إلخ أفضل فى التغذية من البقول و القمح و الذرة، و ليست الأفضلية فى مقدار المواد الزلائية الضرورية للجسم فى كل نوع، لأن هذا يجب أن لا- يكون سببا مهما للأفضلية ..) ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية و ما فيها من نسبة المواد الزلائية. ثم يقول: (و قد اهدت أخيرا لجنة الأبحاث بإنجلترا إلى أن قيمة المواد الزلائية تختلف فى نوعها، و فى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلائية المكونة للأنسجة من أن تحترق، و رأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلائية و نوعها لها قيمة أكثر من اللبن و الذرة مثل البيان التالى:

لحوم لبن البقر أرز بطاطس فول دقيق ذرة ١٠٤ ١٠٠ ٨٨ ٧٩ ٧٠ ٤٠ ٣٠ ثم يقول: (إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف (و اعجب لقوله:

لخصها القرآن الشريف) لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة ..) «١».

و غير هذا كثير فى كتاب (الإسلام و الطب الحديث) مما لا نصدق أنه (١) ص ١٣-١٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٤

مراد لله من خطابه للعبء بالقرآن، و إن كان لا يتعارض- كما قلنا- مع ما ثبت من ذلك علميا و تحققت صحته.

هذا، و إن أعظم علماء العصر الحديث تشييعا للزعمة التفسيرية العلمية، و أكثرهم إنتاجا لهذا التفسير العلمى، هو المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى:

إذا أنه على حسب ما رأينا أكثر من جمع فى هذا و أطال فى تفسيره «الجواهر» الذى يقع فى خمسة و عشرين جزءا كبارا، و المطبوع بمصر سنة ١٣٤١-١٣٥١ هـ و لهذا أرى أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقته مؤلفه و منهجه الذى مسلكه فيه.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٥

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى «١»

الدوافع التى حملت المؤلف على كتابة هذا التفسير:

خلق الفيلسوف الإسلامى المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى- كما يقول هو عن نفسه:- (مغرما بالعجائب الكونية معجبا بالبدائع الطبيعية، مشوقا إلى ما فى السماء من جمال، و ما فى الأرض من بهاء و كمال) ثم كان منه- كما يقول- أنه لما تأمل الأمة الإسلامية و تعاليمها الدينية، ألقى أكثر العقلاء و بعض أجلة العلماء عن تلك المعانى معرضين، و عن التفرج عليها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم و ما أودع فيها من الغرائب، فدفعه ذلك إلى أن ألف كتبا كثيرة مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، و جعل آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع، و حكم الخلق، و كان من أهم هذه الكتب كتاب (نظام العالم و الأمم) و (جواهر العلوم) و (التاج المرصع) و (جمال العالم) و (النظام و الإسلام) و (الأمة و حياتها) و لكنه وجد أن هذه الكتب- رغم كثرتها، و انتشارها، و ترجمتها إلى اللغات الأجنبية- لم تشف غليله، فتوجه إلى ذى العزة و الجلال، أن يوفقه إلى أن يفسر القرآن تفسيراً ينطوى على كل ما وصل إليه البشر من علوم، فاستجاب الله دعاءه، و تم له ما أراد.

متى و كيف شرع المؤلف فى كتابة هذا التفسير:

ابتدأ المؤلف هذا التفسير أيام أن كان مدرسا بمدرسة دار العلوم، فكان يلقى تفسير بعض آيات على طلبتها، و بعضها كان يكتب فى

مجلة الملاجئ العباسية، ثم والى سيره فى التفسير حتى أخرج لنا هذه الموسوعة الكبيرة. (١) ولد سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م و توفى سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٤٠ م. عن كتاب الأعلام للزركلى ج ٣ ص ٣٣٣-٣٣٤ ط ثانية اه. و فى كتاب الأعلام الشرقية للأستاذ (زكى مجاهد) ج ٢ ص ١١٦-١١٧ ط القاهرة: أنه توفى فى سنة ١٣٥٩ هـ ١٩٣٩ م و فيه نظر.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٦

غرض المؤلف من تفسيره:

و لقد أمل المؤلف - رحمه الله - من وراء هذا التفسير - كما يقول - (أن يشرح الله به قلوبا، و يهدى به أمما، و تنفش به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية) و قال: (و إنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، و ينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، و ليقر أن فى مشارق الأرض و مغاربها مقرونا بالقبول، و ليولعن بالعجائب السماوية و البدائع الأرضية الشبان الموحدون، و ليرفعن الله مدنيتهم إلى العلاء و ليكونن داعيا حثيثا إلى درس العوالم العلوية و السفلية، و ليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة فى الزراعة، و الطب، و المعادن، و الحساب، و الهندسة، و الفلك، و غيرها من العلوم و الصناعات).

مسلك المؤلف فى تفسيره:

و لقد وضع المؤلف فى تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، و الأخلاق، و عجائب الكون، و أثبت فيه غرائب العلوم و عجائب الخلق، مما يشوق المسلمين و المسلمات - كما يقول - إلى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات فى الحيوان و النبات، و الأرض و السموات.

هذا .. و إن المؤلف - رحمه الله - ليقرر فى تفسيره أن فى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة و خمسين آية، فى حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة و خمسين آية، كما يقرر (أن الإسلام جاء لأمم كثيرة، و أن سور القرآن متممات لأمر أظهرها العلم الحديث) «١».

و كثيرا ما نجد المؤلف - رحمه الله - فى تفسيره يهيب بالمسلمين أن يتأملوا فى آيات القرآن التى ترشد إلى علوم الكون، و يحثهم على العمل بما فيها، و يندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها، و ينعى على من أغفلها من السابقين الأولين، و وقف عند آيات الأحكام و غيرها مما يتعلق بأمر العقيدة. (١) رجعنا فى هذا إلى مقدمة الكتاب و خاتمته و جمعناه ملخصا.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٧

نجد المؤلف يكرر هذه النغمة فى كثير من مواضع الكتاب فيقول فى موضع منه: (يا أمة الإسلام: آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم، و هذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعرى .. لما ذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث؟ و لكنى أقول: الحمد لله. الحمد لله، إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم، و دراستها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للزيادة فى معرفة الله و هى فرض عين على كل قادر ... إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن، هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، و ظهور الحقائق، و الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم «١» اه.

و يقول فى موضع آخر: (إن نظام التعليم الإسلامى لا بد من ارتقائه، فعلم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن، بل هى علوم لفظه، و ما نكتبه اليوم علوم معناه، و انطباقها على العلوم التى أظهرها الله فى الأرض، و لعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ» «٢» فإن البيان المذكور فى سورة القيامة فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، و بمعنى أنه إذا أشكل

شئ من معانيه فنحن نبينه لك، و علينا بيان ما فيه من الأحكام و العجائب و لا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر في هذا التفسير و ما لم يذكر، من البيان الذي أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام، فالحمد لله الذي وفق في هذا التفسير لبعض العرفان تصديقا لما ذكر الله من أن عليه البيان) (٣).

و يقول في موضع آخر: (... لما ذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه .. و علم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات (١) الجواهر ج ٣ ص ١٩
(٢) الآية (١٩) من سورة القيامة.
(٣) الجواهر ج ٢٥ ص ٤٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٨
قلائل لا تصل مائة و خمسين آية؟ فلما ذا كثر التأليف في علم الفقه، و قل جدا في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة و خمسين آية صريحة، و هناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة. فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة. و يجهلوا علما آياته كثيرة جدا؟
إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات .. لنقم به؛ لترقى الأمة (... اه «١»).

لم يلق تفسير الجواهر قبولا لدى كثير من المثقفين:

هذه المقالات- و غيرها كثير في تفسير الجواهر- نجد أغلبها قد صدر من المؤلف في مقام الرد على من كان يوجه إليه اللوم و الاعتراض على ما كان منه من تحميل القرآن الكريم علوما و نظريات مستحدثة لا عهد للعرب بها، و لا صلة للقرآن بشئ منها. و يظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف- رحمه الله- لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذي سلكه في تفسيره، مما يدل على أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولا لدى كثير من المثقفين.
مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر.

و لعل هذا المنزع في تفسير القرآن الكريم هو السر الذي من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، و لم تسمح بدخوله إلى بلادها، كما يجد القارئ ذلك في نص الكتاب المرسل من المؤلف إلى الملك عبد العزيز آل سعود، ملك نجد و الحجاز ص ٢٣٨ من الجزء الخامس و العشرين.

طريقة المؤلف في هذا التفسير:

إشارة

هذا و إنى- بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير- أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف و طريقته التي سلكها فيه، و ذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيراً لفظياً مختصراً، لا يكاد يخرج عما في (١) الجواهر ج ٢٥ ص ٥٣.
التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٠٩

كتب التفسير المألوفة لنا و المتداولة بين أيدينا، و لكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه لفظياً، و يدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو لطائف أو جواهر .. هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق و الغرب في العصر الحديث، أتى بها المؤلف، ليبين للمسلمين و لغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث و نبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة.

ثم إننا نجد المؤلف- رحمه الله- يضع لنا في تفسيره هذا كثيرا من صور النباتات، و الحيوانات، و مناظر الطبيعة، و تجارب العلوم،

بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس. كذلك نجد المؤلف - رحمه الله - يستشهد أحيانا على ما يقول بما جاء في الإنجيل، و اعتماده فيما ينقل على إنجيل (برنابا) لأنه - كما يرى - أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذي لم تصل إليه يد التحريف و التبديل كما قيل. و كثيرا ما نرى المؤلف - رحمه الله - يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم، و هو حين ينقلها يبدى لنا رضاه عنها، و تصديقه بها، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم. كما أنه يستخرج كثيرا من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذي لا نصدق أنه يوصل إلى حقيقة ثابتة، و إنما هي عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين، فتسلطت على عقول الكثير منهم.

هذا .. و إنا لنجد المؤلف - رحمه الله - يفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم على نظريات حديثة، و علوم جديدة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل، و لست أرى هذا المسلك في التفسير إلا ضرباً من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من أن يذهب بجلاله و جماله.

و إليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٠

نماذج من هذا التفسير:

فمثلاً، عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦١) من سورة البقرة «و إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالُوا تَشْتَدُّ لَنَا الَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِاللَّذِي هُوَ خَيْرٌ... الآية» نجده يقول: (الفوائد الطبية في هذه الآية) ثم يأخذ في بيان ما أثبتته الطب الحديث من نظريات طبية، و يذكر مناهج أطباء أوروبا في الطب، ثم يقول: (أ و ليست هذه المناهج هي التي نحا نحوها القرآن؟ أو ليس قوله «أ تَشْتَدُّ لَنَا الَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِاللَّذِي هُوَ خَيْرٌ» رمزا لذلك؟ كأنه يقول:

العيشة البدوية على المن و السلوى .. و هما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما. مع الهواء النقي و الحياة الحرة، أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل، و اللحم، و الإكثار من ألوان الطعام، مع الذلّة، و جور الحكام، و الجبن، و طمع الجيران من الممالك، فتختطفكم على حين غفلة و أنتم لا تشعرون.

بمثل هذا تفسير هذه الآيات. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله ...» (١) اه و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآيات (٦٧) و ما بعدها من سورة البقرة «و إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً.. الآيات إلى آخر القصة» نجده يعقد بحثاً في عجائب القرآن و غرائبها، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، و يذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول: (.. و أما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجاً .. إن هذه الآية تتلى، و المسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوروبا ثانياً ..)

ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، و كيف كان انتشاره بين الأمم، و فائدة هذا العلم، ثم قال أخيراً: (و لما كانت السورة التي نحن بصددتها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته، و كذلك حمارة، و مسألة الطير و إبراهيم الخليل، و مسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون، فماتوا ثم أحياهم .. و علم الله أننا (١) الجواهر ج ١ ص ٦٦-٦٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١١

نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضر الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها. فلا تياسوا من ذلك؛ فإني قد بدأت بذكر استحضر الأرواح،

فاستحضروها بطرقها المعروفة «وأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، و لكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء و المرسلين، كالعزيز، و إبراهيم، و موسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعانية، و أنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت: «فبهذا هم اقتده» (... اه «١») و مثلاً- عند ما تعرض لقوله تعالى في أول سورة آل عمران (الم) نجده يعقد بحثاً طويلاً عنوانه (الأسرار الكيميائية، في الحروف الهجائية، للأمم الإسلامية، في أوائل السور القرآنية) و فيه يقول: (انظر رعاك الله تأمل .. يقول الله: أ. ل. م- طس- حم- و هكذا يقول لنا: أيها الناس، إن الحروف الهجائية، إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما من لغة في الأرض إلا و أرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية، سواء أ كانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية، شرقية و غربية، فلا صرف، و لا إملاء، و لا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها، و لا سبيل لتعليم لغة و فهمها إلا بتحليلها، و هذا هو القانون المسنون في سائر العلوم و الفنون.

و لا جرم أن العلوم قسمان: لغوية و غير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم؛ لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية و طبيعية و إلهية، فإذا كانت العلوم التي هي آله لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها. فكيف إذا تكون العلوم المقصودة لتنتاجها المادية و المعنوية؟ فهي أولى بالتحليل و أجدد بإرجاعها إلى أصولها الأولية التي لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، و لا الهندسة إلا بعد علم البسائط و المقدمات، و لا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر و تحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم «٢» اه. (١) الجواهر ج ١ ص ٧١-٧٧.

(٢) الجواهر ج ٢ ص ١٠-١١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٢

و مثلاً نراه يعرض لقوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النور: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و قوله في الآيات (٢٠ و ٢١ و ٢٢) من سورة فصلت «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ*» و قوله في الآية (٦٥) من سورة يس «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» ثم يقول: (... أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام، و آثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة، هو نفس الذي صرح به القرآن، و إذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للانسان: «كفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (١) و القائل:

«بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» (٢) أ فلا يكون ذكر الأيدي و الأرجل و الجلود و شهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلى أن من الدلائل ما ليس بالبيانات المشهورة عند المسلمين؟ و أن هناك ما هو أفضل منها؟ .. و هي التي يحكم بها الله فاحكموا بها. و يكون ذلك القول لينبها و يفهمنا أن الأيدي فيها أسرار، و في الأرجل أسرار، و في النفوس أسرار: فالأيدي لا تشته، و الأرجل لا تشته، فاحكموا على الجانين و السارقين بآثارهم ... أو ليس في الحق أن أقول: إن هذا من معجزات القرآن و غرائبها؟ و إلا فلما ذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها و فصها ... «٣» اه.

و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآيتين (٥ و ٦) من سورة طه: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ نجده يقول: (... قوله «و ما بينهما» دخل في ذلك عوالم السحاب و الكهرباء و جميع العالم المسمى (الآثار العلوية) و هو من علوم الطبيعة قديما (١) في الآية (١٤) من سورة الاسراء.

(٢) الآية (١٤) من سورة القيامة.

(٣) الجواهر ج ٣ ص ٩ و ٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٣

و حديثا. و قوله: «و ما تحت الثرى» يشير لعلمين لم يعرفا إلا في زماننا، و هما علم طبقات الأرض، المتقدم مرارا في هذا التفسير، و علم الآثار، المتقدم بعضه في سورة يونس ... فالله هنا يقول. «و ما تحت الثرى» ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التي تظهر الآن تحت الثرى (...). اه (١).

و مثلا عند قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء «أ و لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ... الآية» يقول: (ها أنت قد اطلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أن السموات و الأرض أى الشمس و الكواكب و ما هي فيه من العوالم، كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى، و قلنا:

إن هذه معجزة؛ لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا في هذه العصور، ألا ترى أن كثيرا من المفسرين قالوا: إن الكفار في ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم.

فكان جوابهم على ذلك أنهم أخبروا به في نفس هذه الآية، فكان الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به، و ذلك أن هذه الأمور لم تخلق. و قد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم و حرصهم رحمهم الله، و ها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدي الفرنجة، كما نطق القرآن هنا، كأنه يقول: سيرى الذين كفروا أن السموات و الأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو و إن ذكرها بلفظ الماضي فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى: «أتى أمر الله (٢)» و هذه معجزة تامة للقرآن، و عجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا (...). اه (٣).

و مثلا عند قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة الرحمن «وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ» نجده يقول: (... و المارج المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر و الأصفر و الأخضر مختلطات، و كما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، و لقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه. فلفظ المارج يشير إلى تركيب (١) الجواهر ج ١٠ ص ٦٤-٦٥.

(٢) أول سورة النحل.

(٣) الجواهر ج ١٠ ص ١٩٩:

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٤

الأضواء من ألوانها السبعة، و إلى أن اللهب مضطرب دائما، و إنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلى أن نفوس الجان لا تزال في حاجة إلى التهذيب و التكميل. تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها إذ أفادتهم إن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة ..). اه (١).

و عند قوله تعالى في الآية (٣٥) من السورة نفسها «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ» يقول: (... إنه عبر هنا بشواظ من نار و فيما تقدم بقوله «من مارج من نار» و الشواظ و المارج كلاهما اللهب الخالص، فلما ذا جعل الجان مخلوقا من مارج و لم يقل من شواظ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم، و قد أبت ذلك هناك، و هذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح، و أيضا اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل ... و هذه الفكرة لم تعرف قط إلا في زماننا هذا؛ فإن تحليل الضوء و العلم بأنه مختلط، و الاطلاع على عالم الأرواح الناقصة و أنها مضطربة، لم يكن إلا في زماننا، و هذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم، و ليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف، فلا أصحاب المعلقات يدركونها، و لا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرئ القيس، أو لأبي العلاء، أو المتنبي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم؟ كلا .. فهذه بلاغة لا تخطر ببالهم، و أنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج؟ و عند إنزال العذاب يذكرون الشواظ (٢) اه.

و مثلا في سورة الزلزلة نجده يفسرها تفسيرا لفظيا مختصرا، ثم يذكر ما فيها من لطائف، مستعرضا ما وقع من حوادث الزلزال في إيطاليا، و ما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم و البترول من الأرض، (١) الجواهر ج ٢٤ ص ١٧.

(٢) الجواهر ج ٢٤ ص ٢٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٥

و ما كثر في هذا الزمان من استخراج الدفائن من الأرض، مثل ما كشف في مصر من آثار قدمائها، ثم يقول- بعد ما يفيض في هذا وغيره: (أ لست ترى أن هذه السورة- وإن كانت واردة لأحوال الآخرة- تشير من طرف خفى إلى ما ذكرنا في الدنيا؟ فالأرض الآن كأنها في حال زلزلة، وقد أخرجت أثقالها كنوزها و موتاها و غيرها، و الناس الآن يتساءلون، و ها هم أولاء يلهمون الاختراع، و ها هم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها، و كل إنسان في عمله الخاص به و ينتفع به «١» اه.

و مثلا نجده بعد أن يفرغ من تفسير سورة الكوثر، و سورة الكافرون، و سورة النصر، يذكر لنا بحثا مستفيضا عنوانه: (تطبيق عام على سورة الكوثر و النصر و ما بينهما) و فيه نجده يتأثر بنزعه التفسيرية العلمية إلى درجة جعلته يحمل نصوص الشارع من المعاني الرمزية ما يستبعد أن يكون مرادا لها، و ذلك أنه يقرر أولا أن هذه السور لم تكن خاصة بزمان النبوة، و لا بفتح مكة و نصر جيشها، لأن هذه الأمة كانت عند نزول هذه السور في أول عمرها، و سيطول إن شاء الله، و كم سيكون لها من فتوح و انتصارات. ثم قال: (و إذا كان الأمر كما وصفنا و نحن أبناء العرب، و ورثة النبي الذي جاء منا صلى الله عليه و سلم. و لغتنا في مصر، و الشام، و العراق، و شمال إفريقيا، هي لغة القرآن فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها؛ خوفا من أهل زمانهم، و لكننا الآن يجب علينا إبرازه و إظهاره، لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة، و قسطها من الإصلاح ..) ثم أخذ يبين لنا الكوثر، و أوصاف كيزانه، و طيره، و أوصاف من سيرد عليه من المسلمين، بما جاء في الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ... ثم قال- بعد هذا كله:- (اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى مما يراها الذين لا يفكرون، كم أمم جاءت قبلنا و جاء فيهم مصلحون، فما ذا فعلوا؟ ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة، و صورة مفرحة، و بهجة و جمال. و لا تزال نرى كل أمة (١) الجواهر ج ٢٥ ص ٢٤٩- ٢٥١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٦

حاضرة كفايته. جميعهم يصيغون ما يريدون من الجمال، و الحكمة، و العلم، و رقى الأمة بهيئة تسر الجمهور ... ثم يقول: (الجاهل يسمع الدر و الياقوت و شرابا أحلى من العسل، فيفرح و يعبد الله ليصل إلى هذه اللذات التي تقر بها عينه ... و العالم ينظر فيقول: إن هذا القول وراءه حكمة و وراءه علم؛ لأنني أرى في خلال القول عجائب. فلما ذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم، السماء! و أي دخل لنجوم السماء هنا؟ و لما ذا عبر به؟ ... ثم يقول:

لما ذا ذكر أن الذين يرون الحوض عليهم آثار الوضوء؟ و لم؟ ... و لم؟ ...

الحق أن نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم يريد أمرين: أمرا واضحا جليا يفرح به جميع الناس، و أمرا يختص بالقواد و العظماء إن النبوة بأمر الله، و الله جعل في أهل الأرض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع، و جعل أطباء يستخرجون منافع من الحب و الشجر، و حكماء يستخرجون علوما، و كل لا يعرف إلا علمه، فالطيب يشارك الفلاح في أنه يأكل، و لكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطيبة. هكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء في أنهم يفهمون الحوض كما فهموه، و يردونه معهم كما يردونه، و لكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها. فما ذا يقولون؟ يقولون إن النبي صلى الله عليه و سلم يريد معاني أرقى. إن الجنة فيها ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، فليس الماء الذي هو أحلى من العسل و أبيض من الثلج كل شيء هناك. ثم إن الجنة لا ظمأ فيها. و أي شيء عدد نجوم السماء؟ و لما ذا اختصت النجوم بالعدد و الوضوء بالأثر؟ و الذي نقوله. إن الحوض يرمز به للعلم مع بقاءه على ظاهره، فلا المسك الإذفر، و لا أنواع الجواهر النفيسة من در و ياقوت، و لا حلاوة العسل الذي في ذلك الماء، و لا اتساع الحوض إلا أفانين العلم و مناظر بدائعه المختلفة المناهج، العذبة المشارب، السارة للناظرين ..) ثم يخلص من هذا كله إلى الاستدلال على أن ما ذهب إليه من قبيل الكناية التي هي لفظ أطلق و أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، ثم يقول- بعد بيان هذه الكناية- (... هنا يكون النصر و لا يكون

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٧

إلا- بعد ان يتجافى الناس عن أفعال الملحدين و الكافرين.. و جعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سورة الكافرون. هنا يكون نصر الله و الفتح و يدخل الناس في هذه العلوم الحقيقية افواجا. و على حكماء المسلمين الذين بعدنا متى نشروا هذه الآراء العلمية و أمثالها، و رأوا المسلمين تقدموا و نصروا العلم على الجهل في العالم الإنساني، و اصبح المسلمون قائلين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس، و أنهم رحمة للعالمين، متى رأى العلماء ذلك فيعلموا أن هذا هو النصر في زماننا، و هو الفتح، و اذا فعلى القائلين بذلك أن يحمدا ربهم و يستغفروه ... «١» الخ.

هذا هو تفسير الجواهر، و هذه نماذج منه وضعتها امام القارئ، ليقف على مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية على قلم مؤلفه و قلبه. و الكتاب- كما ترى- موسوعة علمية، ضربت في كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازي، فليل عنه:

(فيه كل شيء إلا التفسير) بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف و أولى به، و اذا دل الكتاب على شيء، فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيرا ما يسبح في ملكوت السموات و الأرض بفكره، و يطوف في نواح شتى من العلم بعقله و قلبه، ليجلي للناس آيات الله في الآفاق و في أنفسهم، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنا لكل ما جاء و يجيء به الإنسان من علوم و نظريات، و لكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل و أحداث، تحقيقا لقول الله تعالى في كتابه: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» (٢)، و لكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، و انحراف به عن هدفه، و قد عرفت رأينا في المسألة فلا نعيده. (١) الجواهر ج ٢٥ ص ٢٦٩-٢٧٣.

(٢) في الآية (٣٨) من سورة الانعام.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٨

إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير

لم يقف العلماء في العصر موقف الإجماع على قبول هذا اللون من التفسير، بل نراهم مختلفين في قبوله و القول به، كما كان الشأن بين من سبقهم من العلماء الأقدمين ...

و إذا كنا قد وجدنا من العلماء المحدثين من انحاز إلى هذه الفكرة في التفسير و تأثر بها في مؤلفاته، فإننا نجد بجوار هؤلاء أيضا كثرة من العلماء لم ترض عن هذا اللون من التفسير، و لم تستغ أن تشرح به كتاب الله تعالى، و لم تغمض عينها أو تمسك قلمها عن رد هذه الفكرة على أهلها و تناولهم إياها بالنقد و التنفيد.

نجد هذه المعارضة في كثير من المحاورات و الاعتراضات التي وجهت إلى صاحب الجواهر، و ذكرها لنا في تفسيره.

كما نجد بعض أساتذتنا المعاصرين يعنون على من يأخذ بهذه الفكرة و يقول بها، و من بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت. فقد تناول هذا الموضوع بالبحث في العدد ٤٠٧ و ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجلة الرسالة (إبريل سنة ١٩٤١ م) و فيه يرد على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة.

و هذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولي يتناول هذا الموضوع في كتابه (التفسير: معالم حياته. منهجه اليوم) و فيه يرد على أنصار هذا المذهب في التفسير بحجج قوية واضحة، استفدنا منها كثيرا في تأييد ما اخترنا، من المذهبيين.

و هذا هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا. نجده في مقدمته تفسيره يعنى على من تأثروا في تفسيرهم بنزعاتهم العلمية، فشغلوا تفاسيرهم بمباحث النحو، و الفقه، و نكت المعاني، و البيان، و الإسرائيليات، و غير ذلك، و يعد هذا صارفا يصرف الناس عن القرآن و هديه، ثم يعنى على الفخر الرازي ما أورده في تفسيره من العلوم الحادثة في الملة، و يعد هذا صارفا يصرف

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥١٩

الإنسان عن القرآن و هديه، كما يتوجه بمثل هذا اللوم على من قلد الفخر الرازي في مسلكه من المعاصرين، و أظنه أراد صاحب الجواهر، و ذلك حيث يقول: (.. و قد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن، هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية و الطبيعية و غيرها) و قلده بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم هذا العصر و فنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآيه فصولاً طويلة - بمناسبة كلمة مفردة كالسما و الأرض - من علوم الفلك و النبات و الحيوان، تصدقارئها عما أنزل الله لأجله القرآن اه (١) .. و أخيراً فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي - رحمه الله رحمة واسعة - نجده في تقريره لكتاب (الإسلام و الطب الحديث) لا يرضى عن هذا المسلك في التفسير، رغم أنه مدح الكتاب و أشاد بمجهود مؤلفه، و ذلك حيث يقول: (لست أريد من هذا - يعني ثناءه على الكتاب و مؤلفه - أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملةً و تفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، و إنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسداً و روحاً، و ترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، لينبوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه (٢) اه.

و في موضع آخر يقول: (يجب أن لا - نجر الآيه إلى العلوم كي نفسرها، و لا - العلوم إلى الآيه: و لكن إن اتفق ظاهر الآيه مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها (٣) اه.

و من هذا كله يتبين أن التفسير العلمي في العصر الحديث إن كان قد لقي قبولا و رواجاً عند بعض العلماء، فإنه لم يلق مثل هذا القبول و الرواج عند كثير منهم، و قد علمت فيما سبق أي الرأيين أقرب إلى الحق و أخرى بالقبول. (١) تفسير المنارج ١ ص ٧

(٢) الإسلام و الطب الحديث ص د

(٣) المرجع نفسه ص ٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٠

اللون المذهبي للتفسير في عصرنا الحاضر

لم يبق من الفرق المنسوبة إلى الإسلام في هذا العصر الحديث من له كيان، أو شيء من الكيان - حسبنا نعلم - إلا أهل السنة، و الإمامية الاثنا عشرية، و الإمامية الإسماعيلية، و الزيدية، و الإباضية من الخوارج، و البهائية من الباطنية .. هذه هي الفرق التي لا تزال في اعتبارنا قائمة إلى يومنا هذا، محتفظة بتعاليمها و عقائدها التي تسير عليها من أول عهدنا و مبدأ ظهورها.

و إذا كنا قد وقفنا لكل فرقة من هذه الفرق في عصورها السابقة على عمل ظاهر في تفسير كتاب الله، و شرحة على حسب ما تمليه عقيدة المفسر، و ما يوحى به إليه، فإننا لا نعدم هذا اللون المذهبي لتفسير القرآن الكريم في هذا العصر الحديث، و لكن بمقدار ما بقي من هذه المذاهب قائمة إلى هذا العصر الذي نتكلم عنه، و نتحدث عن ألوان التفسير فيه.

نعم بقي اللون المذهبي لتفسير القرآن الكريم قائماً في هذا العصر الحديث، بمقدار ما بقي قائماً من المذاهب الإسلامية.

فأهل السنة فسروا القرآن، و ألفوا الكتب فيه بما يتفق و عقيدتهم، كما نرى ذلك واضحاً فيما خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب في التفسير.

و الإمامية الاثنا عشرية فسروا القرآن و ألفوا الكتب فيه بما يتمشى مع مذهبهم. و يتفق مع أهوائهم و مشاربهم، و من أحدث كتبهم التي اطلعنا عليها في التفسير: كتاب (بيان السعادة في مقامات العبادة) للشيخ سلطان محمد الخراساني، من أهل القرن الرابع عشر الهجري، و قد سبق لنا الكلام عنه مفصلاً، و كتاب (آلاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد النجفي،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢١

المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ و قد سبق الكلام عنه بإيجاز عند الكلام على أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثني عشرية. و الإباضية من الخوارج فسروا القرآن و ألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم، و يسائر مذهبهم، كما نجد ذلك في كتاب (هميان الزاد، إلى دار المعاد) للشيخ محمد بن يوسف إطفيش، المتوفى سنة ١٢٣٢ و قد مر الكلام عنه أيضا. و البهائية من الباطنية نظروا إلى القرآن من خلال عقيدتهم، فأولوا و حرفوا، كما نجد ذلك جليا في رسائل أبي الفضائل الجرفادقاني، أحد رجال البهائية في هذا العصر.

أما الزيدية، فهي و إن كانت لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، إلا أنها لم نقف لها على شيء في التفسير في هذا العصر الحديث. و أما المعتزلة، فحن و إن كنا لا نسمع عن قيامها في هذا العصر كفرقة لها كيان، و وحدة، و مقومات، إلا أننا نرى أثرا كبيرا لتعاليمها في تفسير القرآن في العصر الحديث، كما يظهر ذلك جليا في تفاسير الإمامية الاثني عشرية. و الإباضية، و مقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة في هذا العصر، أضفت على التفسير لونا مذهبيا، يقوم على تأييد العقيدة، و خدمتها على حساب القرآن الكريم، و لا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيري؛ إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التي ذكرتها، و ذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبي في هذا العصر.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٢

اللون الإلحادي للتفسير في عصرنا الحاضر

إشارة

منى الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، و يعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، و طرق الهدم. و كان من أهم الأبواب التي طرقتها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع ما في القرآن من هداية، و تناقض ما هو عليه من محجة بيضاء و تهدف إلى ما سولته لهم نفوسهم من نحل حاسرة و أهواء!! ... منى الإسلام بهذا من أيامه الأولى، و منى بمثل هذا في أحدث عصوره، فظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، و يلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، و يقضى حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيضة، و مزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة و أشباه العامة و رفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم و عقولهم.

الباعث على هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء نفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد و لو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره و شهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين و يرميهم جميعا بالسفه و الغفلة ثم طلع على الناس بجديده في تفسير كتاب الله ... جديد لا تقره لغة القرآن، و لا يقوم على أصل من الدين.

و منهم من تلقى من العلم حظا يسيرا، و نصيبا قليلا، لا يرقى به إلى مصاف العلماء، و لكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، و نسى أنه قل في علم اللغة نصيبه، و خف في علم الشريعة وزنه، فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذى بأفهام

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٣

فاسدة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة و أئمة الدين، و لأول نظرة يتضح لمن يطالع عليها أنها لا تستند إلى حجة، و لا تتكى على دليل.

و منهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، و لم يسر على عقيدة معروفة، و لكنه لعبت برأسه الغواية، و تسلطت على قلبه و عقله أفكار و آراء من نحل مختلفة، فانطلق إلى القرآن و هو يحمل في قلبه و رأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما يتفق معها، تأويلا لا يقرره العقل و لا يرضاه الدين.

هؤلاء جميعا خاضوا في القرآن على عمياء، فلم يراعوا في فهمه قوانين البلاغة، و لم يدخلوا إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، و حسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، و أنصفوا البحث الحر، و الرأي الطليق.

و لو لا أن الله فيض لهذا الدين رجالا يدرسونه ببصائر تنفذ إلى لبايه، و يدفعهم الإيمان و الإخلاص إلى أن يبعدوا عنه هذه الخبائث، التي يراد أن تلصق به أو تنزل في رحابه .. لو لا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شر مستطير، و لنتج عن أفكارهم و أهوائهم فتنة في الأرض و فساد كبير.

و أنا إذ أعرض لهذا اللون من التفسير، لا أريد أن أذكر أحدا من أصحابه باسمه و لقبه، إذ ربما كان هذا سببا للفتنة، و باعنا على العداوة، و كثير منهم أحياء يرزقون، و يكفي أن أضع يد القارئ على المراجع التي أنقل عنها تفسير هؤلاء القوم، و آراءهم في القرآن الكريم، و هي مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها و يطالع عليها.

وجدنا من أصحاب هذا اللون من ألوان التفسير، رجلا- يكتب بحثا طويلا- تحت عنوان (القرآن و المفسرون) و فيه يعرض لنواحي التقصير في تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالى، و يحمل عليهم حملة شديدة نكراء، و يوجه إليهم جميعا نقده الساخر، و لومه اللاذع، بدون أن يستثنى منهم مفسرا واحدا على كثرتهم، و كثرة المعتدلين منهم.

رأيناهم يتهم المفسرين جميعا بأنهم تأثروا في تفاسيرهم بعقائدهم، فأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم، في تعسف ظاهر، و تكلف غير مقبول «١». و رأينا (١) انظر مجلة الايمان العدد الثاني من السنة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٤

يرميهم جميعا بأنهم كثيرا ما يكتفون بذكر إسرائيليات ليس لها سند أصلا، فضلا عن طمعهم في تصحيح هذه الأسانيد المكذوبة، و نراه يذكر لهما الاتهام الأخير مثلا من أقوالهم في تفسير قصة أيوب عليه السلام، ثم يأخذ في تفنيد ما ذهبوا إليه، و إبطال ما قالوا به، بأدلة كثيرة ذكرها، و بعد هذا كله تناول هو قوله تعالى في الآيات (٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤) من سورة (ص):

«وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * اذْكُرْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

تناول الكاتب هذه الآيات، فشرحها شرحا يخالف ما ذهب إليه المفسرون جميعا، مدعيا أن ما ذهب إليه هو الذي يساير كل ما ورد من آيات القصص في القرآن، و مؤكدا أنه هو الذي يتفق مع بلاغة القرآن، و قدسية الأنبياء، فقال:

(يجب أن ننظر في الآية نظرة أخرى- يعني خلاف ما عليه المفسرون تساير بها نظائرها من آيات القصص و نحن إذا التفتنا إلى ما في هذه الآية من أن أيوب عليه السلام قد عزي النصب و العذاب للشيطان فقال «مسنى الشيطان بنصب و عذاب» كان ذلك مانعا كل المنع من أن يراد بالنصب و العذاب داء أصاب أيوب، و كان من نتائجه ما ذكره المفسرون .. إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزعه، و يوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلى الشر، و عن العزم في سبيل الغاية إلى التردد و الهزيمة، و إنه ما من نبي و لا رسول إلا و قد نزل به هذا المصاب .. مصاب إعراض الناس و استهوائهم بالدعوة و الداعين، و صد الشيطان لهم عن سبيل الله «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ... الآية» «١» و ما كانت شكوى الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، و لا كان حزنهم (١) الآية (٥٢) من سورة الحج.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٥

الذي كان يبلغ أحيانا حد الإهلاك للنفس إلا لبطء في سير الدعوة إلى الله تعالى .. انظر قوله تعالى «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي

صَفِيحٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ» (١) وقوله تعالى «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» (٢).

ولما كانت الشكوى تشعر بوهن في العزيمة، و ضعف في الثقة. و عدم القوة في السير إلى الغاية، كان جواب تلك الشكاية أن قيل له «اركض برجلك» فالمراد بالركض هنا؛ عقد العزيمة و تأكيدها، و استتمام الثقة و إكمالها، و المضاء بقوة و بغير تردد و لا توان إلى الغاية، فهي كناية من أعذب الكنايات و أروعها، و هي من وادى- شمر عن ساعد الجدل. شمر عن ساقيك- غير أنها أوفر منها صياغة و ترفعا. إذ من المعروف المشاهد أن السائر إلى جهة بغير تردد، بل بقوة و عزيمة، ترى لرجليه ضربا، و تسمع لقدميه على الأرض وقعا. و لما كان تردد المرء في غايته، و وهن عزمته إليها. و ضعف ثقته بها، صداً يغشى الأرواح، و مرضا يتعب النفوس و يضايق الصدور، كان عقد العزيمة و استكمال الثقة غسلا للروح من صدئها، و شفاء للنفس من مرضها، و نقعا لغلة الصدور؛ لذلك قال الله لرسوله أيوب «هَذَا مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ». و الآية كما ترى ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا- الركض المفهوم من قوله «اركض» المكنى به عن توثيق العزم، و الأخذ بالحزم، كما هو مقتضى النظم الكريم، الجارى لقواعد اللغة، التي تأبى أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء و العين، كما يقتضيه تفسير المفسرين؛ إذ ليس في النظم ما يدل عليهما بأى وجه من وجوه الدلالة. و لما كان أيوب عليه السلام باعتباره رسولا لا بد أن يأتمر في إخلاص الأنبياء بأمر ربه، بين الله ثمره جهاده و صبره، و مضاء عزمه، فقال: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» أى هدينا له أهله فآمنوا به و استجابوا لدعوته، و هدينا له مثلهم من غير أهله، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق و الإيجاد، بل هبة الهداية و الإرشاد؛ بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذرية و الولد، كما (١) في الآية (١٢٧) من سورة النحل.

(٢) في الآية (٦) من سورة الكهف.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٦

في قوله تعالى «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا» (١) إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهتدى الله بهم، لا أن يولد لهم. و لم يتحدث القرآن عن هبة يحيى لزكريا، و إسحاق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فهما قد تضمنت أمرين عظيمين: (الأول) أنه قد ولد لإبراهيم و لزكريا عن كبر و شيخوخة و يأس و قنوط. (و الثاني) أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادي، فموضع المنة في هذا: كونهما رسولين لا كونهما ولدين).

ثم بين الله بعد ذلك سيرة أيوب التي أمره أن يسير بها في قومه. و هي اللين في القول، و الرفق في الدعوة، و العظة بالحسن، و تلك هي الخطة التي رسمها الله لجميع أنبيائه، انظر كيف يقول لموسى و هارون «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» (٢). و يقول لرسوله الكريم:

«وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ» (٣). «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٤) و بين الله ذلك فقال: «وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِمًّا غَمًّا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَجْنُثْ» أى لا ترفع في وجوه قومك رمحا و لا عصا، و لا تغلظ لهم القول، و لا تخاشنهم في الطلب، بل لوح في وجوههم بالرياحين و الأزهار، و لا- تأثم بالغلظة و الجفوة، فإنك بخفض الجناح و الجدل بالتي هي أحسن تبلغ منهم ما لا تبلغه بالسيف، و العصا، و الخشونة، و الغلظة. فانظر إلى ما في الآية من كناية ما أجملها و أعلاها، و ما أخصبها و أرواها، و انظر كم تعطيك على هذا الوجه من فنون البلاغة، و كم تمنحك من جزالة في الأسلوب، ثم هم- يريد المفسرين- بعد ذلك يمسخونها و يشوهونها، فيجعلونها منقطعاً عما قبلها، و ما بعدها، فتقلق في مرقدها، و تنبو في مضجعها، إذ يجعلونها متوقفه في فهمها على معونة أجنبية من الكلام الذي هي فيه، و ذلك من أدعى الدواعي لانحطاط (١) في الآية (٥٣) من سورة مريم

(٢) الآيتان (٤٣) و (٤٤) من سورة طه

(٣) في الآية (١٥٩) من سورة آل عمران

(٤) فى الآيه (٢١٥) من سورة الشعراء

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٧

الكلام عن المستوى العالى لكلام البشر، فضلا عن مستوى الإعجاز الذى يجب أن يكون عليه القرآن الكريم).

(هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات، استنادا إلى ما جرى عليه قصص القرآن، و تحاميا لما يترتب على ما فسر به المفسرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام، باعتباره نبيا رسولا، و من منافاة ذلك لحكمته السامية، و تفاديا من أن يحدثنا القرآن عن أمر عادى، و هو أن شخصا مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه ... ذلك الحديث الذى لا يتحدث به عظيم من الناس فضلا عن الله تعالى، و لا يحدث به عن رجل عادى فضلا عن أيوب الرسول الكريم ...) اه «١» هذا هو التفسير الصحيح فى نظر صاحبه، و أحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد فى الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغه القرآن، و مخالف لظاهره الذى عرف منذ عهد الصحابة و التابعين، و أى شىء يقف فى سبيل المعنى الظاهر حتى نعدل عنه إلى مجاز أو كناية فيها تعسف ظاهر و تكلف غير مقبول؟ اللهم لا- شىء إلا دعوى التجديد، و الثورة على القديم، و العمل على هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم، و دفاعهم عن الدين.

و لا- أطيل بذكر ما أفند به هذا الرأى الشاذ و ما يحمله من دعاوى غير صحيحة على المفسرين جميعا، فقد سبقنى إلى هذا أحد أساتذتى الأجلاء، و لست ببالح مبلغه من العلم، و لا بات بأكثر مما أتى به فى الرد على صاحب هذا الرأى «٢».

و وجدنا من أصحاب هذا اللون رجلا- آخر دفعه حب التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد و يجارى من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة فى (١) مجلة الإيمان العدد الثالث من السنة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ.

(٢) صاحب الرد المفحم هو أستاذنا العلامة الشيخ السيد محمد الخضر حسين، و قد نشره فى مجلة الهداية الإسلامية .. العدد العاشر و الثانى عشر من المجلد السابع، و العدد الثانى و الثالث و الرابع من المجلد الثامن.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٨

أحكامها و حدودها. فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه و هوى أصحابه، فحمل الأمر فيها على الإباحة .. و جعل الأمر فى ذلك مفوضا إلى رأى ولى الأمر وحده، و هو و إن كان قد استعمل الأسلوب اللولبى فيما أبداه، و طرح الموضوع الذى عالجه فى صورة سؤال ألقاه شخص خالى الذهن ليتعرف وجه الحق فى المسألة، هو و إن كان قد فعل ذلك مفوض أمره فصدر المقال يكشف لنا عن نية صاحبه، و يفيدنا بكل صراحة أن الكاتب يريد أن يتأول آيات الحدود بحمل الأوامر الواردة فيها على الإباحة، و إليك ما جاء فى هذه المقالة لتقف على حقيقة الأمر، و لتعرف نية الكاتب و ما يهدف إليه فى مقاله.

قال هذا الكاتب تحت عنوان (التشريع المصرى و صلته بالفقه الإسلامى):

(قرأت فى السياسة الأسبوعية الغراء مقالا بهذا العنوان «١»). حوى أفكارا أثارت فى نفسى من الرأى ما كنت أريد أن أرجئه إلى حين، فإن النفوس لم تنهيا بعد لفتح باب الاجتهاد، حتى إذا ظهر المجتهد فى هذا العصر برأى جديد، كتلك الآراء التى كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون فى عصور الاجتهاد، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء و السكون، و إن بدا عليها ما بدا من الغرابة و الشذوذ؛ لأن الناس فى تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد و كانوا يألفون شذوذه و خطأه، إلفهم لصوابه و توفيقه. أما فى هذا العصر، فإن الناس قد بعد بهم العهد بالاجتهاد، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذا فى نظرهم، و إن كان فى الواقع صوابا، و ما أسرعهم فى ذلك إلى التشنيع و الطعن فى الدين، و المحاربة فى الرزق، فلا يجد من يرى شيئا من ذلك إلا أن يكتمه أو يظهره بين أخصائه، ممن يأمن شرهم و لا يخاف كيدهم، و تضيع بهذا على الأمة آراء نافعة فى دينها و دنياها، و لكنى سأقدم على ما كنت أريد إخفاءه من ذلك إلى حين، و سأجتهد ما أمكننى فى أن لا أدع لأحد مجالا فى ذلك التشنيع الذى يقف عقبه فى سبيل كل جديد) ... ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه ثم قال: (و لكن يبقى بعدا هذا فى تلك الحدود ذلك الأمر الذى (١) هذا المقال

المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة (سنة ١٩٧٣ م)

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٢٩

سنثيره فيها، لبحث في هدوء و سكون، فقد نصل فيه إلى تدليل تلك العقبة التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد ... و سيكون هذا بإعادة النظر فى النصوص التي وردت فيها تلك الحدود؛ لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئه، و سأقتصر فى ذلك- الآن- على ذكر ما ورد فى تلك الحدود من النصوص القرآنية، و ذلك قوله تعالى فى حد السرقة: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١) و قوله تعالى فى حد الزنى: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشِهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢) فهل لنا أن نجتهد فى الأمر الوارد فى حد السرقة و هو قوله تعالى (فاقطعوا) و الأمر الوارد فى حد الزنى و هو قوله تعالى (فاجلدوا) فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب، و يكون الأمر فيهما مثل الأمر فى قوله تعالى: «يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (٣) فلا يكون قطع يد السارق حدا مفروضا، لا يجوز العدول عنه فى جميع حالات السرقة، بل يكون القطع فى السرقة هو أقصى عقوبة فيها، و يجوز العدول عنه فى بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعه، و يكون شأنه فى ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولى الأمر، و تقبل التأثر بظروف كل زمان و مكان. و هكذا الأمر فى حد الزنى سواء أ كان رجما أم جلدا، مع مراعاة أن الرجم فى الزنى لا يقول به فقهاء الخوارج؛ لعدم النص عليه فى القرآن الكريم، و هل لنا أن ندلل بهذا عقبه من العقوبات التي تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى، مع أنا فى هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصا و لا ألغينا حدا، (١) الآيتان (٢٨ و ٢٩) من سورة المائدة.

(٢) الآية (٢) من سورة النور.

(٣) الآية (٣١) من سورة الأعراف.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٠

و إنما وسعنا الأمر توسيعا يليق بما امتازت به الشريعة الإسلاميه من المرونة و الصلاحيه لكل زمان و مكان، و بما عرف عنها من إيثار التيسير على التعسير. و التخفيف على التشديد (...) (١) اه.

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله، إذ أول آية السرقة و آية الزنى تأويلا غير مقبول بأى حال من الأحوال، و من ينظر إلى آية السرقة و آية الزنى لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقا، و ذلك الأمر فى قوله تعالى «فَاقْطَعُوا» و قوله «فَاجْلِدُوا» و ورد فى الوجوب القاطع؛ فإن بناء الأمر بالقطع فى آية السرقة على قوله «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ»، و بناء الأمر بالجلد فى آية الزنى على قوله «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» يصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب؛ و هذا لأن تعليق الحكم على شخص، موصوف يوصف يؤذن بأن المنقضى للحكم هو ذلك الوصف الذى قام بالشخص، و إذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة و الزنى و وضع الشارع لهما حكما فى صيغته الأمر و لم يذكر حكما غيره، لا يصح أن يقال: إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر فى قوله «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...» الآية.

ثم إن قوله تعالى فى آية السرقة «جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ» و قوله فى آية الزنى «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» و قوله «وَلَيْشِهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» يؤكد أن الأمر فى الآيتين للوجوب لا للإباحة.

ثم إن هناك من سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم القولية و العملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب فى الآيتين.

فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم على آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذى تنكره اللغة. و لا تفره السنة و لا يتفق و

حكمه التشريع؟ (١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٥٠ فبراير سنة ١٩٣٧ م

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣١

اللهم إن هذا التأويل لا يجوز، و لهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء و أعلامهم، فقام كثير منهم بالرد على صاحبه، و تنفيذ ما ذهب إليه «١»، و لقد تنبه القائمون على أمر الأزهر حينئذ إلى خطر هذا الرأي و ما يجره على الدين من بلاء. فجوزى صاحب المقال على ما كان منه جزاء إن كان بسيطا في حد ذاته، فهو يدل على أن أفكار الكاتب لم تلق قبولا و لم تجد رواجاً في محيط العلماء. و وجدنا غير هذا و ذاك من تأثير ببعض الآراء الفلسفية فراح ينكر بعض الحقائق الدينية لثابته، و يتأول ما ورد منها في القرآن بما يتمشى مع مذاهب الفلاسفة، فأنكر حقيقة الشيطان، و تأويل ما جاء من لفظ الشيطان في قوله تعالى في الآية (١١٧) من سورة النساء: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا» فقال ما نصه: (... و المعنى أن هؤلاء لم يجيبوا حين أشركوا بالله داعي العقل أو داعي فطرته، و إنما أجابوا نزعات الشر المثبتة في العالم على مقتضى سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير و عوامل الشر، فهم بذلك يتبعون قوة خفية أطلق عليها كلمة (شيطان) جريا على عادة العرب المألوفة، إذ كانوا يتصورون قوى الشر شياطين تتحدث و تناجى و تغرى و تدفع إلى ما تريد) .. ثم قال: (هذا هو الشيطان الذي يلبي المشرك بإشراكه أمره. و يتخذة وليا يأمره و ينهاه ... «٢»).

و في موضع آخر نجد «٣» صاحب هذا الرأي يعود إليه فيؤكدده، و لست أدري ما ذا يفعل في سياق الآية، و في القرائن التي احتفت بها، و الصفات التي انتظمتها مما يؤكد أن المراد هو إبليس، ذلك الكائن الخارجي المستقل المستتر عن أعين الناس، كما لا أدري كيف يفعل بالأحاديث الثابتة عن الرسول صلى الله عليه و سلم، و التي تقرر أن الشيطان حقيقة لها وجود خارجي. (١) خير من رد عليه أستاذنا السيد محمد الخضر حسين في مجلة الهداية الإسلامية العدد السابع من المجلد التاسع (مارس سنة ١٩٣٧ م)

(٢) مجلة الايمان السنة الخامسة العدد ٢١ ص ١١.

(٣) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٢

و أنكر بعضهم وجود عالم الجن، و تأول ما جاء من ذلك صريحا في آيات القرآن الكريم، ففسر قوله تعالى في أول سورة الجن: «قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنَّ» الآية بأن الجن قبيلة من العرب «١».

و هذا تأويل ينافي صريح القرآن في مواضع كثيرة، فضلا عن أنه لا يقوم على دليل يصححه.

و وجدنا غير هؤلاء جميعا رجلا نكس على رأسه، فطوعت له نفسه أن يخوض في تفسير كتاب الله على ما به من غواية و عمائية، و أخيرا طلع على الناس بكتاب مختصر في تفسير القرآن الكريم، تفسيراً جمع فيه الكثير من وساوسه و أوهامه. ثم سول له الغرور أن يسميه:

الهداية و العرفان في تفسير القرآن بالقرآن

أحدث هذا التفسير ضجة كبرى في المحيط العلمي، و قام رجال الأزهر و قعدوا من أجله، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنظر في هذا الكتاب، ثم لتحكم عليه بما ترى فيه، ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك، و فيه تنفيذ لآراء الرجل و حكم عليه بأنه (أفاك خراص، انتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه و أوفى بغرضه من الإلحاد في الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث في شأنه و ترديد سيرته).

ثم صودر الكتاب و اختفى عن أعين الناس «فأما الزيد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

قرأت ما جاء في تقرير اللجنة الأزهرية، و لكنني أردت أن أطلع على الكتاب نفسه، فعملت كل ما أستطيع حتى استصدرت تصريحاً

من دار الكتب المصرية بالاطلاع على هذا الكتاب الذى منع من التداول بين الناس.

حملته على جميع المفسرين:

جاءنى الكتاب و قرأت فيه، فوجدت مؤلفه قد قدم له بمقدمة عاب فيها (١) انظر مجلة الهداية الإسلامية المجلد الثامن العدد الحادى عشر ٧٠٣١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٣
المفسرين و كتب التفسير جميعا فقال: (وقد بلغ الدس و الحشو فى التفاسير أنك لا تجد أصلا من أصول القرآن إلا و تجد بجانبه رواية موضوعة؛ لهدمه و تبديله، و المفسرون قد وضعوا هذا فى كتبهم من حيث لا يشعرون) «١» اه.

طريقته فى التفسير:

إشارة

ثم قال بعد ذلك: (فهذا كله - يعنى الدس و الحشو فى التفاسير - دعانى إلى تفسيرى، و أن تكون طريقتى فيه كشف الآيه و ألفاظها بما ورد فى موضوعها من الآيات و السور، فىكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن، و يكون القرآن هو الذى ينطبق عليه و يؤيده من سنن الله فى الكون و نظامه فى الاجتماع، و قد اخترت أن تكون على عدد الآيات فى المصحف لتبقى الهداية بالترتيب الذى اختاره الله، و ليمكن الباحث عن معنى الآيه أن يلاحظ سياقها فىقرأ ما سبقها و ما لحقها من الآيات ليكون على علم تام و هداية واعظة ... «٢» اه.

و لعل القارئ الكريم يلحظ كما ألحظ أن المؤلف يرمى من وراء قوله (... و يكون القرآن هو الذى يفسر نفسه كما أخبر الله، و لا يحتاج إلى شىء من الخارج غير الواقع الذى ينطبق عليه و يؤيده من سنن الله فى الكون و نظامه فى الاجتماع). أنه يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم، و ينفى أن منزلتها منه منزلة المبين من المبين. و الله تعالى يقول: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «٣» اه.

و يظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا يعترف بما لها من مكانة فى تفسير القرآن الكريم، فقال مقالته السابقة، كما أنه راح يهدم ما للسنة من المكانة فى التشريع الإسلامى فقال (١) ص (ب).

(٢) ص ج - د.

(٣) فى الآيه (٤٤) من سورة النحل.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٤

فى قوله تعالى فى الآيه (٦٣) من سورة النور «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»: يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره، و أما التى تكون للرأى و المصلحة فلا مانع منها بل هى من حكمة الشورى «١» فأنت ترى أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة، و هذا عناد و مكابرة و مخالفة صريحة لقوله تعالى «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» و لغير هذا من الآيات التى وردت فى وجوب طاعته عليه السلام و هى كثيرة. ثم أى مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ ..

هذا و لا أريد أن أطيل بذكر ما جاء فى هذا الكتاب من أباطيل و أضاليل و يكفى أن أذكر طرفا مما حواه من ذلك ليتبين للقارئ أن الرجل (جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن و السنة و أجمع عليها الصحابة و أئمة المسلمين من بعدهم).

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:

إشارة

وقف هذا الرجل من معجزات الأنبياء عليهم السلام موقفا شاذا غريبا.

يقوم على إنكارها و جحدها و الذهاب بها- عن طريق التأويل الفاسد- إلى أن تكون من قبيل الممكن الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان رسول أو غير رسول، و هو يصرح بهذا في كثير من المواضع، فيقول في بعض المواضع: (و بعد هذا تعلم أن الله ينادى الناس بأنهم لا ينبغي أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه في دعوته غير ما في سيرته و رسالته «٢») و في موضع آخر يقول: (و اعلم أن آيات الله في نصر أنبيائه لا تناقض سننه في خلقه و كونه «٣») و في موضع ثالث يقول: (و قد كانت كل آياتهم حججا و براهين من (١) ص ٢٨١.

(٢) ص ١٦١.

(٣) ص ٢٩٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٥

سيرتهم و رسالتهم. فلا يمكن أن يأتوا بدليل على صدقهم من غير الدعوة نفسها، فتكون هناك علاقة بين الدعوة و دليلها فتدبر) «١» و في موضع رابع يقول: (و إن آياتهم على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، و صلاح رسالتهم، و أنهم لا يأتون بغير المعقول، و لا بما يبدل سنته و نظامه في كونه «٢»).

على هذا الأساس تناول الرجل آيات المعجزات فخرج بها عن مدلولها الحقيقي الذي أراده الله تعالى.

موقفه من معجزات عيسى عليه السلام:

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة آل عمران في شأن عيسى عليه السلام: «... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» نجده يقول ما نصه: (كهية الطير) يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل و ظلماته إلى خفة العلم و نوره (الأكمه) من ليس عنده نظر (الأبرص) المتلون بما يشوه الفطرة، فهل عيسى يبرئ هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحي و الفكري بالهداية الدينية؟ (في بيوتكم) يعلمهم التدبير المنزل (٣) اه.

و إذا كان المؤلف قد تردد في معنى إبراء الأكمه و الأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة، و بين تكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية، فإنه ليس تردد الشاك في أي الأمرين كان، و إنما هو تردد يبدو منه في صراحة (١) ص ٢٩٧

(٢) ص ٢٠٦

(٣) ص ٤٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٦

و وضوح ميله إلى أن المراد هو التكوين الروحي لا غير، و إنك لتجدده يصرح في موضع آخر بأن المراد هو تكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية، و ذلك عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١١٠) من سورة المائدة «... وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ .. من هذا تعرف أن عيسى نبي أرسله الله إلى بني إسرائيل ليشفي نفوسهم، و يحيى موت قلوبهم، فأيته في دعوته و سيرته و هدايته. عاش و مات كغيره من الأنبياء في بشرته، فلم يكن

خارقا في سنته، و لا ممتازا بما يدعو ألوهيته و عبادته «(١)».

كذلك تجده ينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم في المهد و ذلك حيث يؤول قوله تعالى في الآية (٤٦) من سورة آل عمران «... وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا ..» ما نصه: (في المهد: في دور التمهيد للحياة و هو دور الصبا، علامة على الجرأة و قوة الاستعداد في الصغر. و كهلا: علامة على أنه لا يفيل عزمه بالشيخوخة و الكبر- و يصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم و الكبير علامة على تواضعه و مباشرة دعوته بنفسه «(٢)» اه.

و تأول أيضا قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة مريم «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» فقال: (أى كان ذاك النهار ولدا صغيرا فكيف يأمرنا و ينهانا و نحن كبار القوم فهذا ابن حرام «(٣)».

و لما رأى أن قوله تعالى قبل ذلك في الآية (٢٧) «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلًا» لا- يتفق مع تأويله السابق تأوله أيضا فقال: (تحمله على ما يحمل عليه المسافر، و منه تفهم أنه كان في سياحة طويلة «(٤)».) (١) ص ٩٧

(٢) ص ٤٤

(٣) ص ٢٣٩

(٤) ص ٢٣٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٧

موقفه من معجزات موسى عليه السلام:

و عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٦٠) من سورة الأعراف «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» قال: (و يصح أن يكون الحجر اسم مكان، و اضرب بعصاك الحجر:

معناه: اطرقه و اذهب إليه، و الغرض أن الله هداه إلى محل الماء و عيونه «(١)».

و عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦٣) من سورة الشعراء «فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» قال ما نصه: («البحر» الماء الواسع «اضرب بعصاك البحر» اطرقه و اذهب إليه «فانفلق فكان كل فرقة كالطود العظيم» هذا بيان لحالة البحر، يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابس، راجع ١٦٠ في الأعراف، ثم راجع طه في ٧٧ و ٧٨ و لتعرف كيف اهتدى إلى طريق يبس مر منه، و اقرأ استعمال الضرب في السير في قصة أيوب في ص ... «(٢)».

و في سورة الأعراف عند قوله تعالى في الآيتين (١٠٧ و ١٠٨) «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ» يقول (مثال من قوة حجته و ظهور برهانه «(٣)»).

و عند قوله تعالى في الآيات (١١٨) إلى (١٢٢) من نفس السورة «فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» إلى قوله «رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ» يقول (يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجته حتى سلموا له و آمنوا به «(٤)»).

موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام:

و عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (٦٩) من سورة الأنبياء «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ أَسْفُودًا» (١) ص ١٣١

(٢) ص ٢٩٠

(٣) ص ١٢٦

(٤) ص ١٢٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٨

كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .. الخ) نجده ينكر أن يكون إبراهيم عليه السلام قد ألقى في النار و خرج منها سالما، و ذلك حيث يؤول الآية بما يخالف الظاهر فيقول: (معناه نجاه من الوقوع فيها- راجع ٦٤ في المائة و ٢٦ في النحل، و ترى في الآية و باقي القصة أن الله نجاه بالهجرة و خيب تدبيرهم «١»).

موقفه من معجزات داود عليه السلام:

و عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة الأنبياء: «... وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ» يقول: (يسبحن) يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التي كان يسخرها داود في صناعتها الحربية «و الطير» يطلق على ذى الجناح و كل سريع السير من الخيل و القطارات البخارية و الطيارات الهوائية «٢».

موقفه من معجزات سليمان عليه السلام:

و عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (٨١) من سورة الأنبياء: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا...» نجده يقول:

(«تجري بأمره» الآن تجرى بأمر الدول الأوربية و إشارتها، في التلغرافات و التليفونات الهوائية. اقرأ سبأ) «٣».

و في سورة النمل عند قوله تعالى في الآية (١٦) «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ...» يقول: «منطق الطير»

كل من يربى الطير و يؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقهم و ما ذا يريد، و يمكنهم أن يستعملوه في الرسائل و غيرها) «٤». (١) ص ٢٥٦

(٢) ص ٢٥٧

(٣) ص ٢٥٧

(٤) ص ٢٩٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٣٩

و في قوله تعالى في الآية (١٨) من السورة نفسها «حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأْنَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...» نجده يقول: («نملة»: قبيلة «النمل» قبائل الوادي) «١».

و في قوله بعد ذلك في الآية (٢٠) من السورة أيضا «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ» نجده يقول:

«الهدهد» اسم: طائر فهل يكون من ذوى الجناحين؟ و يكون كلامه كناية عما يحمل من رسائل؟

أم من الخيالة؟. السواري؟ أو الطيارين الآخرين؟ راجع الأنبياء) «٢».

و في قوله بعد ذلك في الآيات من (٣٨) إلى (٤٣) من السورة نفسها: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَا بُنَيَّ بَعْرُشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ*»

قَالَ عَفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقْفِرًا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ* قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ* فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَ هَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ

هُوَ وَ أوتينا العلم من قبلها و كننا مسلمين» في هذه الآيات نراه يقول: («بعرشها» بملكها، يريد أن يضع خطط الحرب و نظام الدخول

في البلاد، فطلب الخريطة التي فيها مملكة سبأ ليهاجمها و يربها أنه جاد غير هازل «عفريت من الجن» أحد القواد .. و يظهر أنه لم

يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج إلى الذي «عنده علم من الكتاب» من الكتابة و الرسم و التخطيط (قبل أن يرتد إليك طرفك)

الغرض أنه يأتي به حالا و قد أتى به، و يحتمل أنه رسمه في الحال أو كان عنده مرسوما، و لو كان عهد الفوتوغرافيا قديما لصح ان

يكون ذلك الرسم بها، و ترى ان سليمان يشكر الله على ما في المملكة من العلماء العاملين في كل فن، و نأخذ من القصة ان الله

يعظم شأن العلم و يدعوننا إلى التمسك بالأسباب (١) ص ٢٩٧

(٢) ص ٢٩٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٠

الكونية لتشديد الملك و إقامة الدولة «وَأُوتِينَا الْعِلْمَ» يؤيد لك أن المسألة علمية «مسلمين» منقادين لله، يعنى أنهم جمعوا بين العلم و التربية على الخلق العظيم» و هذا أحسن حافظ لنظام الملك و عزة الدولة) «١» اه.

موقفه من معجزة الإسراء:

و عند ما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة الإسراء: «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» نجده يقول: («أسرى» الإسراء يستعمل فى هجرة الأنبياء .. انظر ٧٧ فى طه و ١٣٨ فى الأعراف و ٥٢ فى الشعراء و ٢٣ فى الدخان و ٨١ فى هود و ٦٥ فى الحج، ثم تدبر آخر النحل و علاقته بالإسراء» المسجد الحرام» الذى له حرمة يحترم بها عند جميع الناس ٢١٧ و ٢١٨ فى البقرة و ٢٥ فى الحج «المسجد الأقصى» الأبعد، مسجد المدينة .. و قد بارك الله حوله، فكان للنبي صلى الله عليه و سلم هناك ثمرة و قوة، و كان بالإسراء الفتح و النصر فكان ذلك من آيات الله انظر ٢٠ يس و ١٠٨ فى التوبة ثم ارجع إلى الإسراء فاقراً إلى ٦٠ و ٩٣) (٢).

إنكاره للملائكة و الجن و الشياطين:

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة، و الجن، و الشياطين، بما لا يتفق و الحقائق الشرعية الثابتة. فمثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة «وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» نجده يقول: («الملائكة» رسل النظام و عالم السنن، و سجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له. راجع ٢٩، ثم انظر الملك فى ١٥ (إبليس) اسم لكل (١) ص ٢٩٨ - ٢٩٩. (٢) ص ٢١٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤١

مستكبر على الحق. و يتبعه لفظ الشيطان و الجان، و هو النوع المستعصى على الإنسان تسخيره «١»).

و عند قوله تعالى فى الآية (٧١) من سورة الأنعام: «قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَ لَا يَضُرُّنَا وَ نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ... الآية» نجده يقول: («الشياطين» تطلق على الحيات و الثعابين، تستهوى من يتبعها ليقتلها فيهوى معها و تضله بتعرجها راجع ٢٧٥ فى البقرة «٢»).

و عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٦ و ٢٧) من سورة الحجر: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ* وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ» يقول: (يمثل لك بوصف الإنسان، النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد. «و الجان» النوع المتشرد صاحب الطبع النارى، إذا قاربه يؤذيك و يغويك. و لا تستطيع أن تمسكه و تعدله، و النوعان موجودان فى كل أمه، فتدبر السياق من أول السورة، و راجع القصة فى البقرة «٣» اه و عند قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة النمل «وَ حَشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَ الْبَانِسِ» يقول («الجن» يطلق على العالم الخفى و الظاهر القوى، و جن كل شىء أوله و مقدمته. و جن الجيش قواده و رؤساؤه «و الإنس» طائعه و مرءوسه اقرأ الجن «٤»).

و عند قوله تعالى فى الآية (١٥٨) من سورة الصافات «وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» يقول: (الجنة أو الجن: سادتهم و كبرائهم «٥»). (١) ص ٧.

(٢) ص ١٠٥.

(٣) ص ٢٠٤.

(٤) ص ٢٩٧.

(٥) ص ٢٥٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٢

و عند قوله تعالى في الآيتين (٣٧ و ٣٨) من سورة (ص) «وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَ غَوَاصٍ، وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، نجده يقول: (الشياطين) يطلقون على الصناع الماهرين و الأشقياء المجرمين «مقرنين في الأصفاد» مسلوكين في القيود، و منها تفهم أن سليمان كان يشغل المسجونين من أصحاب الصناعات للانتفاع بهم .. (١)».

إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين:

إشارة

و لقد سولت للمؤلف نفسه أن يتأول بعض آيات الأحكام على غير ما أراد الله، و على مقتضى هواه الذي لا يخضع لقواعد اللغة و لا لأصول الشريعة!!.

حد السرقة:

فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة المائدة «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ... الآية» يقول: (و اعلم أن لفظ السارق و السارقة يعطى معنى التعود. أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، و يظهر لك من هذا المعنى: أن من سرق مرة أو مرتين و لا يستمر فى السرقة و لم يتعود للصوصية لا يعاقب بقطع يده؛ لأن قطعها فيه تعجيز له، و لا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه «٢»).

حد الزنى:

و عند قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النور. «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ... الآية» نجده يقول: («الزانية و الزانى» يطلق هذا الوصف على المرأة و الرجل إذا كانا معروفين بالزنى و كان من عادتهما و خلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد «٣»). (١) ص ٣٥٩.

(٢) ص ٨٨.

(٣) ص ٢٧٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٣

تعدد الزوجات:

فى الآية (٣) من سورة النساء «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع ... الآية» نجده يقول: («من النساء» نساء اليتامى الذين يفهم الكلام (هكذا بالأصل) لأن الزواج منهن يمنع الحرج فى أموالهن، و من هذا تفهم أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا للضرورة التى يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضررا على المجتمع من تركه، لتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق و اللاحق «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا » «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا» (١)).

فهو يريد أن يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامى فى حجره، و أمن من نفسه عدم الجور، و لم يقل أحد بالشرط الأول مطلقا، و من

يطلع على سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط في التعدد.

التسرى:

و عند قوله تعالى في نفس الآية السابقة «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» نجده يقول: (انظر آية ٢٥ إلى ٢٨ من النساء) «٢» و في الآية ٢٥ و هي قوله تعالى «وَمَنْ لَمْ يَشِطَّطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» يقول: (فيه عناية بالخدمات، و تسهيل لمن يريدون الزواج. و لا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات، انظر (٣٣) في النور و (٦٠) في الكهف ثم (٣٠ و ٣٦ و ٤٢ و ٤٢) في يوسف «العنت» الحرج انظر (٢٢٠) في البقرة و (٧) في الحجرات و (١٢٨) في التوبة و (١١٨) في آل عمران. و في هذه الآية رد على الذين يتخذون ملك اليمين من الخدمات و الوصيفات للتمتع بهن كالزوجات، بحجة أنهن مشتريات بالمال، (١) ص ٦١.

(٢) المرجع السابق.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٤

أو أسيرات بالحرب، فليس في الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج، مملوكة كانت أو مالكة، فتدبر ذلك في الآيات (١)، و في قوله تعالى في الآيتين (٥ و ٦) من سورة المؤمنون «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ... الآية يقول: (اقرأ المعارج، و النور، و أوائل البقرة «٢»).

ثم قال في المعارج عند قوله تعالى في الآيتين (٢٩ و ٣٠) «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *» ما نصه: (أو ملكت أيمانهم) من الخدم، فإن لهم ما ليس لغيرهم، فقد يكون في الإنسان فروج أى عيوب و نقائص يسيئه أن يراها الناس فيه، و لكن لا يسيئه أن يراها خدمه (٣).

فأنت ترى من هذا أنه يحرم التسرى، و يفسر الفروج بالعيوب، و هذا بعد عن قوانين اللغة، و مبادئ الشريعة.

الربا

كذلك نجد المؤلف يميل إلى أن الربا المحرم شرعا هو الفاحش فقط، و لهذا نراه عند ما يعرض لآيات الربا في سورة البقرة يفسر (الربا) فيقول:

(الربا هو الزيادة من الربح في رأس المال، و هو معروف او مقيد بالآية (١٣٠) في آل عمران، فانظرها أولا «٤») يريد قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً» ثم يقول بعد ذلك: («ذروا ما بقى») «فلكم رءوس أموالكم» و إن كان ذو عسرة» كل ذلك يفيدك أن الكلام في المعاملة الحاضرة، و يبشر من يتوب بأنه لا يحاسب على ما كسبه من قبل «فله ما سلف» (١) ص ٤٥٥.

(٢) ص ٢٦٧

(٣) ص ٤٥٥:

(٤) ص ٣٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٥

انظر (٣٨) في الأنفال (١). يريد قوله تعالى «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّبِعُوا يُعْذَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ».

ثم قال بعد ذلك عند ما عرض لقوله تعالى في الآية (١٣٠) من سورة آل عمران «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»: («الربا أضعافا مضاعفة» أى الربا الفاحش و بمعنى آخر: الربح الزائد عن حده في رأس المال. و تقدره كل أمه عرفها. راجع في جزائه أواخر البقرة، و قصة اليهود في أواخر النساء، ثم ارجع إلى (٥) في النساء و (٤٣) «٢».

زكاة الزروع:

كذلك نجد المؤلف يذهب في زكاة الزروع مذهبا لم يقل به أحد من المجتهدين فضلا عن أنه يصادم ما جاء من السنة الصحيحة في بيان المقدار الواجب في زكاة الزروع، وذلك حيث يفسر قوله تعالى في الآية (١٤١) من سورة الأنعام «وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» فيقول: («وَأَتُوا حَقَّهُ» يفيد أن في كل هذا الخارج من الأرض حقا لا بد من إعطائه «يوم حصاده» زمن تحصيله، وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق، أمر الحاكم العام بأخذه، والعمل على جبايته لبيت المال، وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحال) «٣». أقول: وليس للأمة دخل في تقدير مقررات الزكاة بعد أن قدرها الرسول عليه الصلاة والسلام، وقررها على الأمة.

مصارف الزكاة:

كذلك تخبط المؤلف في شرحه لبعض مصارف الزكاة، وذلك حيث فسر قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة التوبة «... وَفِي الرِّقَابِ» فقال: (في خلاصها من الاستعباد. وفي هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب، فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم وفي الزكاة حق لهذا التعاون) «٤». (١) ص ٣٨.

(٢) ص ٥٣.

(٣) ص ١١٣.

(٤) ص ١٥٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٦

الطلاق:

كذلك نجد المؤلف يذهب إلى أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمرا يخل بنظام العشرة، وآتيا من قبل المرأة، وذلك حيث يقول في قوله تعالى في الآية (١) من سورة الطلاق «... لا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ» ما نصه: (... «بيوتهن» بيوت الزوجية. راجع البقرة من (٢٢٦-٢٤٢) والأحزاب (٤٠)، والتحريم (٥)، والنور (٥-١٠) لتعرف أن الطلاق وإن كان في يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية) «١».

هذا بعض ما جاء في هذا الكتاب الذي هذى به صاحبه، وفيه غير هذا كثير مما يدل على أن الرجل قد ركب متن الغواية، ومشى يخطب خطب الأعشى في مهمه متسع من الضلالة!!

وحسبي أن أكون قد أطلعت القارئ على بعض ما جاء في هذا الكتاب، ولست في حاجة إلى أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام و يفتنها؛ فإني لست في مقام الرد و التنفيذ، وإنما أنا في مقام بيان لون من ألوان التفسير في هذا العصر و إذا كان القارئ الكريم يود أن يقف على إبطال هذه المزاعم التي حشا بها المؤلف كتابه، فليرجع إلى قرار اللجنة الأزهرية، التي ألفت للرد على هذا الكتاب «٢»، و ليرجع إلى ما كتبه شيخنا العلامة السيد محمد الخضر حسين في الجزء الثالث من رسائل الإصلاح «٣»، و لا شك أنه سيجد فيما كتب هنا و هناك ما يكفي لأن يذهب بتلك التأويلات أدراج الرياح، و ما ينادى بأن صاحب هذه التأويلات قد انحرف عن الهدى، فهوى إلى مكان سحيق؟ (١) ص ٤٥٥.

(٢) العدد الثالث و الرابع من المجلد الثاني من مجلة نور الاسلام (الازهر سنة ١٣٥٠ هـ)

(٣) ص ١٤٠ - ١٦٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٧

اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر

إشارة

يمتاز التفسير في هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبي الاجتماعي، و نعى بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجاف. الذى يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، و إنما ظهر عليه طابع آخر، و تلون بلون يكاد يكون جديدا و طارئا على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولا و قبل كل شىء على إظهار مواضع الدقة فى التعبير القرآنى، ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن إليها فى أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآنى على ما فى الكون من سنن الاجتماع، و نظم العمران.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٨

مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده و أثرها فى التفسير

إشارة

و إذا كان هذا اللون الأدبي الاجتماعي يعتبر فى نظرنا عملا جديدا فى التفسير، و ابتكارا يرجع فضله إلى مفسرى هذا العصر الحديث، فإننا نستطيع أن نقول بحق: إن الفضل فى هذا اللون التفسيري يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير .. هذه المدرسة التى قام زعيمها، و رجالها من بعده بمجهود كبير فى تفسير كتاب الله تعالى، و هداية الناس إلى ما فيه من خير الدنيا و خير الآخرة.

نعم قامت هذه المدرسة بمجهود كبير فى تفسير كتاب الله تعالى. مجهود نحمد لها الكثير منه، و لا نوافقها على بعض منه قليل.

محاسن هذه المدرسة:

فالذى تحمده لهذه المدرسة: أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثر بالمذهب إلى الدرجة التى تجعل القرآن تابعا لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، و إن كان تأويلا متكلفا و بعيدا.

كما أنها وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تشوه التفسير بما شوه به فى كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التى أحاطت بجمال القرآن و جلاله، فأساءت إليه و جرأت الطاعنين عليه!!

كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعه التى كان لها أثر سيئ فى تفسير القرآن الكريم!! ...

و لقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، و الأحاديث الموضوعه، أنها لم تخض فى تعيين ما أبهمه القرآن، و لم تجرؤ على الخوض فى الكلام عن الأمور الغيبية، التى لا تعرف إلا من جهة النصوص

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٤٩

الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملا، و منعت من الخوض فى التفصيلات و الجزئيات، و هذا مبدأ سليم، يقف حاجزا منيعا دون تسرب شىء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول و العقائد.

كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم و الفنون، التى زج بها فى التفسير بدون أن يكون فى حاجة

إليها، و لم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، و على حسب الضرورة فقط.

ثم إن هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجا أدبيا اجتماعيا، فكشفت عن بلاغة القرآن و إعجازه، و أوضحت معانيه و مراميه، و أظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم و نظم الاجتماع، و عالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، و مشاكل الأمم عامة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية و تعاليم. جمعت بين خيري الدنيا و الآخرة، و وفقت بين القرآن و ما أثبتته العلم من نظريات صحيحة، و جلت للناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني و البشري، إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، و دفعت ما ورد من شبه على القرآن، و فندت ما أثير حوله من شكوك و أوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوى القارئ، و يستولى على قلبه، و يحجب إليه النظر في كتاب الله، و يرغبه في الوقوف على معانيه و أسراره. هذا ما نحمده لهذه المدرسة، و لا نستطيع أن نغمطها عليه، أو نقلل من فضلها فيه.

عيوب هذه المدرسة:

أما ما نأخذه على هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، و عدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، و ليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد و الاستغراب. استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، و استغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله و صلاحيتها لكل ممكن.

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٠

و عقائدها، و حملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهودا عند العرب في زمن نزول القرآن و طعنت في بعض الأحاديث: تارة بالضعف، و تارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري و مسلم، و هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، في كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يستهان بها.

و ما يقال من أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعا. فيه نظر من وجوه:

الأول: أن دعوى الإجماع باطله. فإن للعلماء أربعة أقوال في إفادة خبر الواحد العلم:

١- يفيد الظن مطلقا.

٢- يفيد العلم بقرينه.

٣- يفيد العلم من غير قرينه باطراد.

٤- يفيد العلم من غير قرينه لا باطراد.

الثاني: إذ جرينا على أن خبر الواحد يفيد العلم، أمكن أن تثبت به عقيدة، و إذا جرينا على أنه يفيد الظن، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتفت به قرائن - على المختار - لإفادته العلم حينئذ، و من هنا جزم ابن الصلاح و غيره بأن أحاديث الصحيحين التي لم تنتقد عليهما تفيد العلم؛ فإن الأمة قد تلقتهما بالقبول، و هي معصومة من الخطأ، و ظن المعصوم لا يخطئ «١».

الثالث: أنه ليس المراد من العقيدة كل ما يعتقد، و إلا لتناول ذلك الفروع الفقهية، فإنه لا يسوغ العمل بها إلا بعد اعتقاد صحة الحكم فيها، و إنما المراد بالعقائد أصولها، و هو ما كان الإخلال بها موجبا للكفر، كالإيمان بالله و باليوم الآخر. و أما الأحاديث الواردة في الحوادث الماضية، أو المستقبلية، أو المتعلقة بتفاصيل اليوم الآخر و ما فيه، فلا يشترط فيها التواتر، لأن هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التي يترتب على عدم تصديقها الكفر و العياذ بالله تعالى، و لكن يكتفى فيها بأن تكون من طريق صحيح. (١) انظر مقدمة ابن

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥١

أهم رجال هذه المدرسة:

إشارة

هذا .. وإن أهم رجال هذه المدرسة، و هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها و عميدها، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا، و المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، و هما خير من أنجبت هذه المدرسة، و خير من ترسم خطا الأستاذ الإمام، و سار على منهجه و طريقته في التفسير.

و لست أرى القارئ بحاجة إلى أن أترجم لحياء هؤلاء الرجال الثلاثة، فالعهد بهم قريب. و ليس يخفى على من له صلة بالحركة العلمية في هذا العصر شيء من معالم حياتهم، و يكفي أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم في التفسير و عن منهجه الذي سلكه فيه، و سيقف القارئ- إن شاء الله تعالى- على ما قلته عن هذه المدرسة، و ما ذكرته لها من أثر محمود في التفسير، و ما ذكرته عنها من أثر يؤخذ عليها و لا يحمد لها.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٢

١- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده «١»

إنتاجه في التفسير:

إذا نحن ذهبنا نستقصى ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل في التفسير، فإننا نجد له تفسيره المشهور لجزء (عم) ذلك التفسير الذي ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعا لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء، و عاملا للإصلاح في أعمالهم و أخلاقهم، و لقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء في سنة ١٣٢١ هـ إحدى و عشرين و ثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، ببلاد المغرب، و بذل جهده كما يقول: (في أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف و كثرة الوجوه في الإعراب، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية و سلامة الوجدان «٢»).

كذلك نجد له تفسيراً مطولاً لسورة (العصر) كان قد ألقاه على هيئة محاضرات، أو دروس على علماء مدينة الجزائر و وجهائها في سنة ١٣٢١ هـ (سنة ١٩٠٢ م «٣») و يقول الأستاذ الإمام: إنه قرأ تفسير هذه السورة في سبعة أيام، و كل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة و نصف «٤».

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، و دفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك و إشكالات، كشرحه لقوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة النساء «وَإِنْ تَصَبَّهْمُ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصَبَّهْمُ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ (١)» ولد سنة ١٨٤٨ م و توفي في سنة ١٩٠٥ م.

(٢) مقدمة تفسير جزء (عم) ص ٢.

(٣) تفسير سورة الفاتحة و ست سور من خواتيم القرآن الشيخ، رشيد.

(٤) تفسير المنارج ١ ص ١٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٣

لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا» و قوله في الآية (٧٩) من السورة نفسها «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ،

وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» و جمعه بينهما، و توفيقه بين ما يظن فيهما من تناف و تضاد، و هو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى، و تارة إلى العبد.

و كشرحه لقوله تعالى في الآيات (٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥) من سورة الحج «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ... إلى قوله «أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ» و إبطاله لقصة الغرائق، و تنفيذها لما بنى عليها من تفسير يذهب بعصمة النبي صلى الله عليه و سلم، و يرفع الأمان عن الوحي الذي تكفل الله بحفظه.

و كتفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة (الأحزاب): «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» و رده لما أُلصق بها من أحاديث باطله، تصور النبي صلى الله عليه و سلم بصورة الرجل الشهباني، و إبطاله لكل ما أثير حول هذه القصة- قصة زيد و زينب- من مطاعن رمى بها رسول الله صلى الله عليه و سلم زورا و بهتاناً.

و كذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف على تلاميذه و مريديه، و كان ذلك بمشورة تلميذه السيد محمد رشيد رضا، و إقناعه به. كما يقول هو في مقومه تفسيره «١».

و قد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن في غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ، و انتهى عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٢٦) من سورة النساء «وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا» و ذلك في منتصف المحرم (١) ج ١ ص ٤ من تفسير المنار.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٤

سنة ١٣٢٣هـ، إذ توفي- رحمه الله- لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها «١».

و إذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هذه الدروس في التفسير على طلابه و لم يدون شيئاً منها، فإننا لا نرى حرجاً من جعلها أثراً من آثاره في التفسير. و ذلك:

لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب في أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليمنه بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم قام بعد ذلك بنشر ما كتب في مجلته (المنار) و كان- كما يقول هو في مقدمته تفسيره- يطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة و قبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات. قال: (و لا أذكر أنه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضياً بالمكتوب؛ بل معجبا به «٢» (...)

هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام في التفسير، و هو و إن كان إنتاجاً يعد قليلاً بالنسبة لهذه الشخصية البارزة، إلا أنه- و الحق يقال- كان له أثر بالغ في تطور التفسير و اتجاهاته، كما سيظهر لك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

منهجه في التفسير:

إشارة

كان الأستاذ الإمام هو الذي قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد، و التحرر من قيود التقليد، فاستعمل عقله الحر في كتاباته و بحوثه، و لم يجر على ما جمد عليه غيره من أفكار المتقدمين، و أقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء و أفكار خالف بها من سبقه، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم، و جمعت حوله قلوب مريديه و المعجبين به. (١) المرجع نفسه.

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ١٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٥

هذه الحرية العقلية، و هذه الثورة على القديم، كان لهما أثر بالغ في المنهج الذي نهجه الشيخ لنفسه. و سار عليه في تفسيره. و ذلك: أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدءا يسير عليه في تفسير القرآن الكريم، و يخالف به جماعة المفسرين المتقدمين. و هو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا و حياتهم الآخرة: و ذلك لأنه كان يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن، و ما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله «١»، يقرر الأستاذ الإمام هذا المبدأ في التفسير، ثم يتوجه باللوم إلى المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن. و هو ما فيه من هداية و إرشاد و راحوا يتوسعون في نواح أخرى من ضروب المعاني، و وجوه النحو، و خلافات الفقه، و غير ذلك من المقاصد التي يرى الأستاذ الإمام أن الإكثار في مقصد منها (يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، و يذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي «٢»).

لهذا نرى الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلى قسمين:

أحدهما: جاف مبعد عن الله و كتابه، و هو ما يقصد به حل الألفاظ، و إعراب الجمل، و بيان ما ترمى إليه تلك العبارات و الإشارات من النكت الفنية. قال: و هذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرا. و إنما هو ضرب من التمرين في الفنون، كالنحو، و المعاني، و غيرهما. و ثانيهما: ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، و حكمة التشريع في العقائد و الأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، و يسوقها إلى العمل و الهداية المودعة في الكلام؛ ليتحقق فيه معنى قوله تعالى «هدى و رحمة» و نحوهما من (١) تفسير المنارج ١ ص ١٧.

(٢) تفسير المنارج ١ ص ١٨

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٦

الأوصاف قال الأستاذ الإمام: (و هذا هو الغرض الأول الذي أرمى إليه في قراءة التفسير «١»). هذا .. و إن الأستاذ الإمام لا يريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلا في تفسير القرآن، و لكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسر - مثلا - من وجوه البلاغة، و ضروب الإعراب بقدر ما يحتمله المعنى، و على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن و بلاغته. و ذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة.

ثم إننا نجد الأستاذ الإمام - و قد وضع لنفسه هذه الخطة في التفسير - يشترط شروطا لا بد من توفرها عند من يريد أن يفسر القرآن تفسيرا يحقق الغرض منه، و قد ذكرناها بجملة عند كلامنا عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر.

القرآن لا يتبع العقيدة و إنما تؤخذ العقيدة من القرآن:

و يرى الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذي توزن به العقائد لتعرف قيمتها، و يقرر أنه يجب على من ينظر في القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة، و يستنبط منه الرأي، و ينعى على ما كان من أكثر المفسرين، من تسلط العقيدة عليهم، و نظرهم للقرآن من خلالها، حتى تأولوا القرآن بما يشهد لعقائدهم، و يتمشى معها، و في هذا يقول: (إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى، من غير أن ندخلها أولا - فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. و أما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن، و حشرناها فيه أولا، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال؛ لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون به).

(أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب و الآراء في الدين، لا أن تكون المذاهب أصلا و القرآن هو الذي يحمل عليها. و يرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون، و تاه فيه الضالون «٢»). (١) تفسير المنارج ١ ص ٢٥.

(٢) تفسير سورة الفاتحة ص ٥٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٧

كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير و يكتبه.

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف و التدريس، أما ناحية التأليف. فمحدودة ضيقه، كما ظهر لك فيما سبق. و أما ناحية التدريس فكانت أوسع إلى حد ما من ناحية التأليف؛ فقد ألقى - رحمه الله - دروسا في التفسير بالجامع الأزهر الشريف، مدة ست سنوات، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن، كما المعنا إليه فيما تقدم.

كذلك ألقى دروسا في التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب، كما ألقى دروسا في التفسير أيضا في مساجد بيروت ... في المسجد الكبير، و في مسجد (الباشورة) «١».

و كان من عادة الأستاذ الإمام في دروسه: أنه يراعى حال من يستمعون إليه، فإذا حضره جماعة من البلداء الحاملى الفكر شرح لهم المعنى بكلمات قليلة و إذا كان هناك من يتنبه لما يقول و يلقي له بالا، يفتح الله عليه بكلام كثير.

بهذا يحدث الأستاذ الإمام عن نفسه «٢» و يحدثنا تلميذه السيد محمد رشيد رضا عن طريقه الأستاذ الإمام في دروس التفسير فيقول: (كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير، و هو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون، و يختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ، و الإعراب، و نكت البلاغة، و في الروايات التي تدل عليها، و لا تتوقف على فهمها الآيات. «٣»).

و كان الأستاذ الإمام يعتمد في دروسه و كتابته في التفسير على عقله الحر و كان - كما يقول عنه بعض الكاتبين - (لا يلتزم في التفسير

كتابا، و إنما يقرأ في المصحف، و يلقي ما يفيض الله على قلبه «٤»). (١) محمد عبده لعثمان أمين ١٠١

(٢) تفسير المنارج ١ ص ١٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٥.

(٤) محمد عبده لعثمان أمين ص ١١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٨

و كان من دأبه أنه لا يرجع إلى كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حتى لا يتأثر بفهم غيره، و كل ما كان منه أنه إذا ما عرض له وجه غريب من الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة رجع إلى بعض كتب التفسير، ليرى ما كتب في ذلك، و قد حدث عن نفسه بذلك فقال: (إننى لا أطالع عند ما أقرأ لكننى ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة «١»).

غير أننا نجد تلميذه السيد محمد رشيد رضا يذكر أن الأستاذ الإمام كان (يتوكأ في ذلك - يعنى في دروسه في التفسير - على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرأها، أو ينتقد منها ما يراه منتقدا ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه، مما فيه هداية و عبرة «٢») و سواء أقلنا إن الأستاذ الإمام كان يرجع إلى كتب التفسير أم لا يرجع إليها، فإنه كان يحكم عقله فيما يلقي و فيما يكتب، غير ملتفت إلى ما سبق به من أقوال في التفسير، و لا يواقف عند اعتبارات المؤلفين و أفهامهم و قوف من يخضع لها، و يسلم بها، على ما فيها من غث و سمين.

نعم لم يحمد الأستاذ الإمام على ما فى كتب قدماء المفسرين، و لم يبلغ عقله أمام عقولهم، بل على العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفى فى التفسير بالنظر فى أقوال المتقدمين فيقول: (التفسير عند قومنا اليوم و من قبل اليوم بقرون، هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير، على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن «و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» «٣» و لبت أهل العناية باطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب، ثم يثونه

في الناس (١) تفسير المنارج ١ ص ١٤ و يظهر من سياق الكلام أن صحة العبارة (قبل أن أقرأ كما نبه على ذلك في حاشية الكتاب.

(٢) تفسير المنارج ١ ص ١٥.

(٣) في الآية (٨٢) من سورة النساء.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٥٩

و يحملونهم عليه، و لكنهم لم يطلبوا ذلك، و إنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، و يمارون فيها من يباريهم في طلبها، و لا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول، و اختراع الوجوه من التأويل و الإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل).

(إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس و ما فهموه، و إنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا و هدايتنا، و عن سنة نبينا الذي بين لنا ما نزل إلينا «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (١)).

(يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتكم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتكم و ما به أمرتم؟ و هل عملتم بإرشاد القرآن، و اهتديتم بهدى النبي، و اتبعتم سنته؟

عجبا لنا نتظر هذا السؤال و نحن في هذا الإعراض عن القرآن و هديه، فيا للغفلة و الغرور «٢» اه كما وجدناه يعرف لنا الفهم الصحيح للقرآن فيقول: (... و أعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، و تملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه. لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذنا جافا، لم يصحبه ذلك الذوق و ما يتبعه من رقة الشعور و لطف الوجدان، الذين هما مدار التعقل و التأثر و الفهم و التدبر) اه «٣».

و مما يذكر في هذا المقام أنه (لما أبدى الأستاذ الإمام رأيا طريفا في تفسير بعض الآيات، قال له أحد المجاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل - يعني بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشي على تفسير الجلالين - فقال الأستاذ على الفور: إنني أقر ما يدل عليه المعنى الجليل، و الكلام البليغ، و لا يعينني أوافق عليه الجمل أو الحمار «٤»). (١) في الآية (٤٤) من سورة النحل

(٢) تفسير المنارج ١ ص ٢٧

(٣) تفسير المنارج ١ ص ٢٧

(٤) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٥

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٠

كل هذا يدلنا على أن الأستاذ الإمام كان حرا في تفكيره و فهمه للقرآن، صريحا في نقده و نصحه للتفسير و المفسرين، جريئا في ثورته على القديم، و دعوته إلى التحرر مما أحاط بالعقول من القيود، و ما أوغلت فيه من الركود و الجمود هذا .. و إن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا بالإسرائيليات فجعلوا منها شروحا لمبهمات القرآن، بل وجدناه على العكس من ذلك نفورا منها، و شرودا من الخوض فيها، لاعتقاده أن الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات و التفصيلات لما جاء به مبهما في كتابه، و لو أراد منا ذلك لدلنا عليه في كتابه أو على لسان نبيه، و هو يصرح بأن هذا هو (مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعي لا يتعداه، و يثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه «١»).

و إذا نحن تتبعنا أقواله في مبهمات القرآن وجدناه محافظا على هذا المبدأ، لا يعدل عنه و لا يحدد، إلا في مواضع قليلة نادرة.

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآيتين (١٠ و ١١) من سورة الانفطار «وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ* كِرَامًا كَاتِبِينَ*» نجده يقول: (و من الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به في كتابه: أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات و سيئات، و لكن ليس علينا أن نبحت عن حقيقة هؤلاء، و من أي شيء خلقوا، و ما هو عملهم في حفظهم و كتابتهم، هل عندهم أوراق و اقلام و مداد كالمعهود عندنا .. و هو يبعد فهمه؟ او هناك الواح ترسم فيها الأعمال؟ و هل الحروف و الصور التي ترسم هي على نحو ما نعهد؟ أو إنما هي أرواح

تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد في القرطاس إلى أن يبعث الله الناس؟ كل ذلك لا نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر و تفويض الأمر في معناه إلى الله، و الذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل (١) تفسير المنارج ١ ص ٣٢٠ التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦١

في عملنا، هو: أن أعمالنا تحفظ و تحصى، لا يضيع منها نقيير و لا قظمير «(١)» اه و مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤) و ما بعدها من سورة البروج «قَاتِلْ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ» ... إلى آخر القصة يقول: (أما تعيين أصحاب الأخدود، و أنى كانوا؟ و من هم أولئك المؤمنون؟ و أين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات، و الأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران، عند ما كان دينهم دين توحيد، ليس فيه حدث و لا بدعة. و أن الكافرين كانوا أمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية، غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار و إشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم، و الجهة، و خاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء، حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، و الأساطير المحشوة بالخرافات، و إنما الذي عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولاً، و لو علم الله خيراً في أكثر من ذلك لتفضل علينا به) «(٢)» اه و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآيتين (٦ و ٧) من سورة الفجر «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* نَجْدَةٌ يَقُولُ: و قد يروى المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله. فإذا وقع إليك شيء من كتبهم، و نظرت في هذا الموضوع منها، فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم، و إياك أن تنظر فيه) «(٣)» اه.

و مثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآيات (٦ و ٧ و ٨ و ٩) من سورة القارعة «فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبٌ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» نجده يقول: و تقدير الله الأعمال و ما تستحقه من الجزاء في ذلك اليوم، إنما يكون على حسب ما يعلم، لا طريقه ما نعلم، فعلياً أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه على الإيمان به، و من عجيب ما قال بعض (١) تفسير جزء (عم) ص ٣٦

(٢) تفسير جزء (عم) ص ٥٩

(٣) تفسير جزء (عم) ص ٧٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٢

المفسرين «إنه ميزان بلسان و كفتين كأطباق السموات و الأرض، و لا يعلم ماهيته إلا الله» فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه و كفتيه حتى يفوض العلم فيه إلى الله؟ و الكلام فيه جراه على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم، و لم يرد في الكتاب إلا كلمة ميزان، و قد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لنتفجع بما نعتقد، و ما عدا ذلك فاعلمه إلى الله سبحانه. و قد قالوا: إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر، إذا كان القائل به يحدد له لساناً و كفتين، مع أن البشر اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك و أضبط و أوفى ببيان الموزون. أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذي هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه؟ أيا بى عالم الغيب و الشهادة أن يستعمل في وزن المعاني و المعقولات إلا ذلك الميزان الذي اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر و ما سيبلغ بأهل العصور المقبلة؟ على أن جميع ما اخترع البشر و ما يخترعون مهما دق و لطف، إنما هو معيار الأثقال الجسمانية و الأوزان المحسوسة، و هلا يكون الأليق بالمقام الإلهي أن يكون ميزان المعاني المعقولة لديه أسمى و أعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر، مهما ارتقت المعارف و سمت بهم العلوم؟ و هل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرو على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذي تستعمله القبائل، التي لم تزل في مهد الإنسانية الأولى؟ .. ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار، الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب، و لا لحياء العقل من الله، و إطراره عن أن ينظر إلى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه، و تعاظمت قدرته).

(عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن توفن أن الله يزن الأعمال.

و يميز لكل عمل مقداره، و لا تسل كيف يزن، و لا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون «(١)» اه. (١) تفسير جزء

عم ص ١٤٧

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٣

معالجته للمسائل الاجتماعية:

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام لا يكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجاً للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض في ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التي يتكلم عنها، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها، كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يلقي به على أسماع المسلمين وغير المسلمين؛ رجاء أن يعودوا إلى الصواب، و يثوبوا إلى الرشاد. فمثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة العصر من التفسير المطول لها «وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» نجده يقول: (... و الصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتمالها، و الرضى بما يكره في سبيل الحق. و هو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، و ما أتى الناس من شيء مثل ما أتوا من فقد البصر أو ضعفه. كل أمه ضعف الصبر في نفوس أفرادها، ضعف فيها كل شيء، و ذهبت منها كل قوة، و لنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمه من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دقت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر؛ فإن من عرف بابا من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبراً على التوسع فيه، و التعب في تحقيق مسأله، و ينام على فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، و لا يجشمه تعباً، و يسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، و لو كان عنده احترام حقيقى لسلفه، لاتخذهم أسوة له في عمله، فحذا حذوهم، و سلك مسلكهم، و كلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، و اعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين).

(ثم هو إذا تعلم لا يجد صبراً على مشقة دعوة الناس إلى علم ما يعلم، و حملهم على عرفان ما يعرف، و لا جلداً على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى لاقى أول معارضة قبح في بيته و ترك الخلق للخالق كما يقولون).
(يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل، فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب، و يذهب في الجهل كل مذهب، و كل هذا من ضعف الصبر).

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٤

(يبخل البخيل بماله، و يجهد نفسه في جمعه و كثره، و تعرض له وجوه البر فيعرض عنها، و لا- ينفق درهما في شيء منها، فيؤذى بذلك وطنه و ملتته، و يترك الشر و الفقر يأكل قومه و أمته، و لو نظرنا إلى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر، و لو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض القاتل له و لأهله).

(يسرف المسرف في الشهوات، و يتهتك المتهتك في المنكرات، حتى ينفد المال، و تسوء الحال، و يستبدل الذل بالعز، و الفقر بالغنى، و لا سبب لذلك إلا ضياع صبره في مقاومة الهوى. و ضبط نفسه عن مواقع الردى، و لو صبر في مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله، و أفسد حاله ... و هكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل، و أبحث عن عللها الأولى، لوجدتموها تنتهي إلى ضعف الصبر أو فقده. و لو سردت جميع الفضائل و طلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعاً سوى الصبر. أ فلا يكون جديراً بعد هذا بأن يخص بالذكر؟ «١» اه.

ثم يبين بعد ذلك وسائل الدعوة إلى الخير فيقول: (... يجب على العلماء و من يتشبه بهم، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، على حسب الأزمان و اختلاف أحوال الأمم، و أول ما يجب عليهم في ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، و علم تكوين الأمم، و ارتفاعها و انحطاطها، و علم الأخلاق و أحوال النفس، و علم الحس و الوجدان، و نحو ذلك مما لا بد منه في معرفة مداخل الباطل إلى القلوب، و معرفة طرق التوفيق بين العقل و الحق، و سبل التقريب بين اللذة و المنفعة الدنيوية و الأخروية، و وسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير، فإن لم يحصلوا على ذلك كله فوزر العامة عليهم. و لا تنفعهم دعوى العجز؛ فإنهم

ينفقون من أزمانهم في القيل و القال، و البحث في الألفاظ و الأقوال، ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار (١) مجموعة تفسير الفاتحة و ست سور من خواتيم القرآن ص ٨٧-٨٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٥

علم، و أعلام هدى و رشد، فيطلبوا العلم من سبله التي قام عليها السلف الصالح، و الله كفيلا أن يمدهم بمعونته، أما و قد انقطعوا إلى ما يعجزهم عن القيام بأمره، فلن يقبل الله لهم عذرا، بل فليتربصوا حتى يأتي أمر الله).

(لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكين من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و اشتغال الناس بالحق عن الباطل، و بالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان في الأرض و يمسحها بالطول و العرض، و أن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله، و ما يخشى ضرره على قومه فيدفعه، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، و لهم في سلف الأمة من القرون الأولى إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة، و أفضل قدوة، و كل ما يهونون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هي و ساوس شيطان. يشغلهم بها عن النظر في معاني القرآن، و يحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن) «١» اه و مثلا عند قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة الانفطار «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ» نراه يوضح معنى البر و ما يكون به الإنسان من الأبرار، ثم يقول:

(فلا يعد الشخص برا و لا ابرا حتى يكون للناس من كسبه و من نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركات من الخشية خاليات، و بتسيحات و تكبيرات و تحميدات ملفوظات غير معقولات، و صيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين و المؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات، لا يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط، ارتفع أو انحط؛ و مع حرصه و طمعه و تطلعه لما في أيدي الناس، و اعتقاده الاستحقاق لما عندهم؛ لا لشيء سوى أنهم عاملون في كسب المال و هو غير عامل؛ و هم يجرون على سنه الحق و هو مستمسك بسنه الباطل، و هم يتجملون بحلية العمل و هو منها عاطل، فهؤلاء (١) مجموعة تفسير الناحية و ست سور من خواتيم القرآن ص ٩٩-١٠٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٦

ليسوا من الأبرار، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار «١» اه.

و مثلا- عند ما تعرض لقوله تعالى أول في سورة العاديات: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا* فَوَسَّطْنَ بِهِ جَمْعًا» نجده يقول: (... و كان في هذه الآيات الفارعات، و في تخصيص الخيل بالذكر في قوله: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ و مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُزْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ و عَدُوَّكُمْ» «٢» و فيما ورد في الأحاديث التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل، و يبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس في عقائلها، و أن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقانا. أفليس من أعجب العجب عندهم أن ترى أمما هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل و الفروسية، إلى أن صار يشار إلى راعيها بينهم بالهزة و السخرية، و أخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى؟ أ ليس أغرب ما يستغرب أن أناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل، و أبعدهم عن صفات الرجولية، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عند ما كنت أكلمه في منافع بعض العلوم، و فوائدها في علم الدين أن قال: (إذا كان كل ما يفيد في الدين نعلمه لطلبة العلم، كان علينا إذا أن نعلمهم ركوب الخيل)؟ يقول ذلك ليفحمني و تقوم له الحجة على، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق و لا ينبغي لطلبة العلم، و هم يقولون إن العلماء ورثة الأنبياء، فهل هذه الأعمال و هذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب؟

أنصف ثم احكم) «٣» اه.

و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة الماعون (١) تفسير جزء عم ص ٣٧.

(٢) في الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

(٣) تفسير جزء عم ص ١٤٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٧

«... وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ» نجده يقرر: (أن قوله و لا يحض على طعام المسكين، كناية عن الذى لا يوجد بشيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت الذى لا يستطيع له كسبا) .. ثم يقول: (و إنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين؛ و لم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه. و فيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء و لو بجمع المال من غيرهم و هى طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية، و بنحو قوله تعالى فى الآيتين (١٧ و ١٨) من سورة الفجر «كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ» و نعمت الطريقة هى لإغاثة الفقراء، و سد شيء من حاجات المساكين ... اه «١».

و من أجل هذه الروح التى تسيطر على الأستاذ الإمام فى تفسيره، نجد الشيخ المراغى - رحمه الله - يقول. (و كانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيها تطبيق القرآن على معارفهم «٢»).

تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث.

كذلك نجد الأستاذ الإمام - رحمه الله - يتناول بعض آيات القرآن فيشرحها شرحا يقوم على أساس من نظريات العلم الحديث، و غرضه بذلك: أن يوفق بين معانى القرآن التى قد تبدو مستبعدة فى نظر بعض الناس، و بين ما عندهم من معلومات توشك أن تكون مسلمة عندهم، أو هى مسلمة بالفعل، و هو - و إن كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض نبيل - يخرج أحيانا بمثل هذا الشرح و البيان عن مألوف العرب، و ما عهد لديهم وقت نزول القرآن.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الانشقاق «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» نجده يقول: (انشقاق السماء، مثل انفطارها الذى مر تفسيره فى سورة إذا السماء انفطرت. و هو فساد تركيبها، و اختلال نظامها، عند ما يريد (١) تفسير جزء عم ص ١٦٢

(٢) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٨

الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه، و هو يكون بحادثه من الحوادث التى قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، و يحدث من ذلك غمام و أى غمام، يظهر فى مواضع متفرقة من الجو و الفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشقت بالغمام، و اختل نظامها حال ظهوره) اه «١».

هذا التفسير من الأستاذ الإمام عمل جليل يشكر عليه، إذ غرضه من ذلك تقريب معانى القرآن و ما يخبر به من عقول الناس، بما هو معهود عندهم و مسلم لديهم. و لكن هل لا بد فى فساد الكون من أن يترتب على مثل هذه الظاهرة الكونية؟ و هل يعجز الله عن إفساده و إخلاله بأمر آخر غير ذلك؟ أليس الأولى بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن، و لا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات كما هو مذهب الشيخ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلا، و لا يريد على أنه أمر لا بد منه.

و مثلا عند ما يعرض لتفسير سورة الفيل. بعد أن ذكر ما قبل فى إرسال الطير على أبرهه، و ما جاءت به بعض الروايات من أن الذى أصابهم هو داء الجدرى و الحصبة يقول: (و قد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، و أن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فاذا اتصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم و تساقط لحمه، و إن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، و إن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، و هو فرق و جماعات لا يحصى عددها إلا - بارئها و لا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر

الطاغين على أن يكون الطير في (١) تفسير جزء عم ص ٤٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٦٩

ضحامة رءوس الجبال. و لا- على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، و لا- على أن يكون له ألوان خاصة به، و لا- على معرفة مقادير الحجارة و كيفية تأثيرها فله جند من كل شيء.

و في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

«(١) اه.

و هنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته في مبهمات القرآن فراح يخوض في التفصيلات و الجزئيات، ثم جوز أن تكون الطير هي ما يسمى اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض، و هذا ما لا نقره عليه، لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، و العربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، و قد جاء القرآن بلغة العرب، و خاطبهم بما يعهدون و بألفون.

و إذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم، فإننا نجده يغرق في هذه الحرية و يتوسع فيها، إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف في أفكاره، و الغلو في آرائه.

موقفه من حقيقة الملائكة و إبليس:

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآيات (٣٤) و ما بعدها من سورة البقرة «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» إلى آخر القصه نجده يقول:

(و ذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة، و هو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات و خلقه حيوان و حفظ إنسان و غير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، و هو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص، نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة و كذلك يقال في الحيوان و الإنسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في ايجاده، فإنما (١) تفسير جزء عم ص ١٥٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٠

قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكا و من لم يبال في التسمية بالتوقيف يسم هذه المعاني القوى الطبيعية، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا- ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة. و الأمر الثابت الذي لا نزاع فيه، هو أن في باطن الخلقه أمرا هو مناطها، و به قوامها و نظامها، لا- يمكن العاقل أن ينكره، و ان أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا، و زعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة و العاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات، و إن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودا لا يدرك كنهه، و الذي لا يؤمن بالغيب يقول لا- أعرف الروح، و لكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها. و لا يعلم إلا الله علام يختلف الناس، و كل يقر بوجود شيء غير ما يرى و يحس، و يعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم، و لا يصل بعقله إلى إدراك كنهه؟ و ما ذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب- و قد اعترف بما غيب عنه- لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره، و إن كنت لا أقدر قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب، و يفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي.

و يحظى بما يحظى به المؤمنون؟).

(يشعر كل من فكر في نفسه، و وازن بين خواطره عند ما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير. و وجه للباطل أو للشر، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى. فهذا يورد و ذاك يدفع، واحد يقول افعل، و آخر يقول لا تفعل، حتى ينتصر أحد

الطرفين، و يترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذى أودع فى أنفسنا و نسميه قوة و فكرا، و هى فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، و روح لا- تكتنه حقيقتها، لا يعد أن يسميه الله ملكا، أو يسمى أسبابه ملائكة، أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، و السلطان النافذ و العلم الواسع «١». (١) تفسير المنارج ١ ص ٢٦٧-١٦٨.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧١

ثم قال الأستاذ الإمام بعد ذلك «١»: (فإذا صح الجرى على هذا التفسير، فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض، و دبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها و نظامها، و جعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعداه و لا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به، خلق بعد ذلك الإنسان، و أعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى و تسخيرها فى عمارة الأرض، و عبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع و التسخير، و جعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له، و التصرف الذى لم يعط لغيره، خليفة الله فى أرضه، لأنه أكمل الموجودات فى الأرض، و استثنى من هذه القوى قوة واحدة، عبر عنها بإبليس، و هى القوة التى لزاها الله بهذا العالم لزا، و هى التى، تميل بالمستعد للكمال، أو بالكامل إلى النقص، و تعارض مد الوجود لترده إلى العدم، أو تقطع سبيل البقاء، و تعود بالموجود إلى العناء، أو التى تعارض فى اتباع الحق، و تصد عن عمل الخير، و تنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع و المصالح التى تتم بها خلافته، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودى التى خلق مستعدا للوصول إليها .. تلك القوة التى ضللت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم إليها يسمى إله الشر، و ما هى إله، و لكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو).

قال: (و لو أن أنفسنا مالت إلى قبول هذا التأويل، لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك، و العمدة على اطمئنان القلب، و ركون النفس إلى ما أبصرت من الحق «٢» اه).

ثم يعود فى موضع آخر إلى تقرير التمثيل فى القصة فيقول: (و تقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا: أن إخبار الله الملائكة يجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض و قوى هذا العالم و أرواحه، التى بها قوامه و نظامه، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود (١) غالب ما ينسب للإمام فى هذا التفسير مروى بالمعنى عنه.

(٢) تفسير المنارج ١ ص ٢٦٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٢

فى هذه الأرض، و سؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره، و يعطى استعدادا فى العلم و العمل لا حد لهما، هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك، و تمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض.

و تعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض، و انتفاعه به فى استعمارها، و عرض الأسماء على الملائكة، و سؤالهم عنها، و تنصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته. و سجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح و القوى له، ينتفع فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك. و إباء إبليس و استكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، و إبطال داعية خواطر السوء، التى هى مثار التنازع و التخاصم و التعدى و الإفساد فى الأرض، و لو لا- ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراد كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى «١» اه).

و الذى ينظر فى هذا التأويل الذى جوزه الشيخ، و فى سياق الآية و ألفاظها و ما فيها من محاوره و مقاوله، لا يسعه إلا أن يرده، و إن حاول قائلة أن يروج له يجعله الأوامر التى وردت فى الآية من قبيل الأمر التكويني، لا الأمر التكليفي.

و لقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة في فهم القرآن الكريم، أنا نجده يخالف رأى جمهور أهل السنة، و يذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة، من أن السحر لا حقيقة له، و لذلك عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤) من سورة الفلق «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ» نجده بعد أن يفسر معنى النفث و العقد، يفسر المراد بالنفثات في الآية فيقول: (المراد بهم هنا هم النمامون، المقطعون (١) تفسير المنارج ١ ص ٢٨١-٢٨٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٣

لروابط الألفه» المحرقون لها بما يلغون عليها من ضرام نمائهم، و إنما جاءت العبارة كما في الآية؛ لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء و زوجته- مثلاً- فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها و حلوها، ليكون ذلك حلاً للعقد التي بين الزوجين. و النميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر؛ لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة، بوسيلة خفية كاذبة، و النميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلّل الليل من يسير فيه بظلمته؛ و لهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق ... «(١)».

إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة:

ثم راح الشيخ- رحمه الله- يرد ما جاء من الروايات في سحر الرسول صلى الله عليه و سلم فقال: (و قد رووا هنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه و سلم سحره لبيد ابن الأعصم، و أثر سحره فيه، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشيء و هو لا يفعله، أو يأتي شيئاً و هو لا يأتيه، و أن الله أنبأه بذلك، و أخرجت مواد السحر من بئر، و عوفى صلى الله عليه و سلم مما كان نزل به من ذلك، و نزلت هذه السورة، و لا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً و هو لا يفعله، ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان، و لا من قبيل عروض السهو و النسيان في بعض الأمور العادية، بل هو ماس بالعقل، آخذ بالروح، و هو مما يصدق قول المشركين فيه «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا» (٢) و ليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله، و خيل له أن شيئاً يقع و هو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، و لا يوحى إليه، و قد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة و لا ما يجب لها: إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به، و عدم التصديق (١) تفسير جزء عم ص ١٨١.

(٢) الآية (٨) من سورة الفرقان.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٤

به من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر، و قد جاء القرآن بصحة السحر، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح. و الحق الصريح في نظر المقلد بدعة، و نعوذ بالله. يحتج بالقرآن على ثبوت السحر، و يعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه صلى الله عليه و سلم، و عده من افتراء المشركين عليه. و يؤول في هذه و لا يؤول في تلك، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقولون: إن الشيطان يلبسه عليه الصلاة و السلام، و ملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم، و ضرب من ضروبه، و هو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد، فإنه خولط في عقله و إدراكه في زعمهم).

و الذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به، و أنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه و سلم، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبت، و عدم الاعتقاد بما ينفيه، و قد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه، و وبخهم على زعمهم هذا، فإذا هو ليس بمسحور قطعاً. و أما الحديث فعلى فرض صحته، هو آحاد، و الآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، و عصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، و لا يجوز أن يؤخذ فيها الظن و المظنون، على أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح، فلا تقوم به عليه حجة، و على أي حال، قلنا، بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث. و لا نحكمه في عقيدتنا، و نأخذ

بنص الكتاب و بدليل العقل، فإنه إذا خولط النبي في عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً و هو لم يبلغه، أو أن شيئاً نزل عليه و هو لم ينزل عليه، و الأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان. إلخ) «١».

و هذا الحديث الذى يردده الأستاذ الإمام رواه البخارى و غيره من أصحاب الكتب الصحيحة، و ليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة، فإن السحر (١) تفسير جزء عم ص ١٨١ - ١٩٢.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٥

الذى أصيب به عليه الصلاة و السلام كان من قبيل الأمراض التى تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شىء من العقل، و قد قالوا إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبي صلى الله عليه و سلم من السحر لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العقد عن النساء، و هو الذى يسمونه (رباطاً)، فكان يخيل إليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نساته، فإذا ما هم بحاجته عجز عن ذلك. أما السحر الذى نفى عنه صلى الله عليه و سلم فمراد به الجنون، و هو مخل و لا شك بمقام النبوة. و قد قالوا «يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ».

ثم إن الحديث رواية البخارى و غيره من كتب الصحيح، و لكن الأستاذ الإمام و من على طريقته لا يفرقون بين رواية البخارى و غيره فلا مانع عندهم من عدم صحته ما يرويه البخارى، كما أنه لو صح فى نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن، و هذا فى نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التى هى بالنسبة للكتاب فى منزلة المبين من المبين، و قد قالوا: إن البيان يلتحق بالمبين، و ليس هذا الحديث وحده هو الذى يضعفه الشيخ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسى، فمن ذلك أيضاً حديث الشيخين (كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم و ابنها) فإنه قال فيه: (إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة «١»).

فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له، ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة، بجعل الحديث من باب التمثيل، و هو ركون إلى مذهب المعتزلة. الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة و الإغواء فقط.

و بعد .. فهذا هو إنتاج الأستاذ الامام فى التفسير، و هذا هو مسلكه و منهجه فيه، و لعلى أكون قد أرضيت الحقيقة، و لم أتجن على الشيخ، أو أتهمه بما هو منه برىء. (١) تفسير المنارج ٣ ص ٣٩٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٦

٢- السيد محمد رشيد رضا «١»

كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الامام:

نشأ السيد محمد رشيد رضا فى طرابلس الشام، و فيها تلقى العلم عن شيوخها و علمائها، و جلس يفيدهم بعلمه، و يرشدهم بنصحه و وعظه، و فى هذه الأثناء وقع فى يده نسخة من جريدة العروة الوثقى، التى كان يقوم بإخراجها و الكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغانى، و تلميذه الشيخ محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما فى الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجاباً شديداً، و رغب فى الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغانى فلم يسعده الحظ، ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ فى هذه المرة، و اتصل بالشيخ فى رجب سنة ١٣١٥ هـ و كان أول اقتراح عرضه عليه، أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب فى جريدة العروة الوثقى، و بعد أخذ و رد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروساً فى التفسير بالجامع الأزهر، و لم يلبث إلا قليلاً حتى قام بإلقاء دروسه فى التفسير على طلابه و مرديه.

و كان الشيخ رشيد- رحمه الله- ألزم الناس لهذه الدروس، و أحرضهم على تلقيها و ضبطها. فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب على الناس فى مجلته (المنار)، و لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعته أستاذه لما كتب، و تناول له بالتنقيح و التهذيب «٢».

لهذا كله نستطيع أن نقول إن الشيخ رشيد هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الإمام، إذ أنه أخذ عنه فوعى ما أخذ، و ألف في حياته و بعد وفاته؛ فكان لا يحدد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره. و ليس غريبا ما يرويه الشيخ رشيد (١) ولد في سنة ١٢٨٢ هـ و توفي في سنة ١٣٥٤ هـ.

(٢) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمته تفسير المنارج ١ ص ١٠-١٥.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٧

من أن الأستاذ الإمام - رحمه الله - كان يقول: (صاحب المنار ترجمان أفكاري) «١» كما أنه ليس غريبا ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيدا بأنه (متحد معه في العقيدة، و الفكر، و الرأي، و الخلق، و العمل «٢»).

إنتاج الشيخ رشيد في التفسير:

و إذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجا في التفسير؛ و ذلك أنه كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم، و المشهور بتفسير المنار .. ابتداء بأول القرآن و انتهى عند قوله تعالى: (١٠١) من سورة يوسف «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله.

هذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلدا كبيرا، ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة يوسف: «وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي .. الْآيَةَ».

و قد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، و طبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله.

هذا .. و قد فسر الشيخ من القصار سورة الكوثر، و الكافرون، و الإخلاص، و المعوذتين، و لا نعرف له إنتاجا في التفسير أكثر من هذا، و هو إنتاج لا بأس به، و فيه تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هي المصادر، و الهدف هو الهدف، و المنهج هو المنهج، و الأفكار هي الأفكار، لا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر. (١) ج ٢ ص ٤٩٨.

(٢) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم في مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد بالعدد ١٢ من السنة الخامسة من مجلة نور الإسلام.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٨

مصادره في التفسير:

أما مصادره في التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن على فهم بعض آخر منه، خصوصا إذا تكررت الآيات في موضوع واحد، و كان يستعين أيضا بما صح عنده من بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم، و بما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة و التابعين، و بأساليب لغة العرب و سنن الله في خلقه «١»، و مستعينا بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين، إلا- فيما يقتنع به من أقوالهم، و أقوال شيخه على الأخص، و يحدثنا بعض تلاميذه:

(أنه كان لا يراجع ما يكتب في التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه في الآية، حذرا من تأثير أقوال المفسرين على نفسه، و إذا آتاه الله فهما في القرآن لم يسبق إليه، أو لم يطلع عليه إلا- بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلى إخوانه شاكرا، و قد يقصه على أهل بيته مغتبطا مسرورا «٢»).

هدفه من التفسير:

و أما هدفه في التفسير فهو عين ما يهدف إليه الأستاذ الإمام، فإذا كان الأستاذ الإمام يصرح بأن هدفه من التفسير هو (فهم الكاتب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا و حياتهم الآخرة «٣»).

فإن صاحبنا يصرح بمثل ذلك في كثير من مواضع كتابه، فيقول بعد أن يوجه اللوم إلى من حشروا في التفسير من قواعد العلوم، و مسائل الفنون، و موضوعات الحديث، و خرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن، يقول: (إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه. و ما أنزل لأجله، من الإنذار. و التبشير، و الهداية، و الإصلاح «٤»). (١) انظر تفسير المنارج ٦ ص ١٩٦.

(٢) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمن عاصم عن الشيخ رشيد في مجلة نور الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٣٥٤ هـ.

(٣) تفسير المنارج ١ ص ١٧.

(٤) تفسير المنارج ١ ص ١٠.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٧٩

يريد أنه سيعمل تفسيره على هذا النمط ليسد حاجة الناس، و يقول في موضع آخر: (إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن، و طرق الاهتداء به في هذا الزمان «١»).

منهجه في التفسير:

و أما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا- تقييد بأقوال المفسرين، و لا- تحكّم للعقيدة في نص القرآن، و لا خوض في إسرائيلييات، و لا تعيين لمبهمات، و لا تعلق بأحاديث موضوعية، و لا حشد لمباحث الفنون، و لا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع، و كشف عن المعاني بعبارة سهلة مقبولة، و توضيح لمشكلات القرآن، و دفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات، و بيان لهديته، و دلالة إلى عظيم إرشاده، و توقيف على حكم تشريعه، و معالجة لأعراض المجتمع بناجع دوائه، و بيان لسنن الله في خليقته.

و لكننا نجد الشيخ رشيد- رحمه الله- يحدد عن هذا المنهج بعض الشيء، و ذلك بعد وفاة شيخه، و استقلاله بالعمل، و يحدثنا هو بذلك فيقول:

(و إنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه- رحمه الله تعالى- بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها، أو في حكمها، و في تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، و المسائل الخلافية بين العلماء، و في الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، و في بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوى حججهم على خصومه من الكفار و المبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعاها حلها. بما يطمئن به القلب، و تسكن إليه النفس «٢» اه. (١) تفسير المنارج ٤ ص ٤٢.

(٢) تفسير المنارج ١ ص ١٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٠

و يبدو لنا أن هذا التوسع الذي كان من الشيخ رشيد خصوصاً في المسائل الاجتماعية، لم يدفعه إليه إلا كونه رجلاً (صحفياً) اتصل عن طريق مجلته بالناس على اختلاف منازلهم و مشاربهم، و فيهم المتدين، و الملحّد، و الكافر، فأراد أن يتمشى بكتابته مع الجميع، فيثبت المتدين على دينه، و يرد الملحّد عن إلحاده، و يكشف عن محاسن الإسلام؛ لعل الكافر أن يثوب إلى رشده و يرجع عن كفره

آراؤه في التفسير:

إشارة

أما آراؤه في التفسير فهي كآراء شيخه، تقوم على حرية واسعة في الرأي و اعتداد عظيم بالفهم، و ثقة قوية بما عنده من العلم، و عدم تقيد ببعض المسلمات عند العلماء؛ و لهذا نجد له أفكارا غريبة في تفسير القرآن استقل ببعض منها، و قلد شيخه في بعضها الآخر.

رأيه في أصحاب الكبائر:

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة في شأن المرابين: «وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» نجده يخالف أهل السنة، و يؤكد أن صاحب الكبيرة التي في درجة أكل الربا و قتل العمد إذا مات و لم يتب منها يخلد في النار، و لا يخرج منها أبدا فيقول: (أى و من عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه، فأولئك البعداء عن الاعتاز بموعظة ربهم، الذى لا ينهاهم إلا عما يضرهم فى أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلزمونها كما يلزم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدون). (و قد أول الخلود المفسرون؛ لتتفق الآية مع المقرر فى العقائد و الفقه من كون المعاصى لا توجب الخلود فى النار، فقال أكثرهم: إن المراد. و من عاد إلى تحليل الربا و استباحته اعتقادا، و رده بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا، و ما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعنى (١) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه فى التفسير تباعا بمجلته (المنار) ثم جمع ما كتب فى كتاب واحد و هو تفسيره المتداول بين أهل العلم.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨١

استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل).

(و الحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون و الفقهاء، يجب إرجاع كل قول فى الدين إليه، و لا- يجوز تأويل شىء ليوافق كلام الناس، و ما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود فى آية قتل العمد، و ليس هناك شبهة فى اللفظ على إرادة الاستحلال. و من العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة فى النار، انتصارا لأصحابه الأشاعرة، و خير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث. أما نحن فنقول: ما كل ما يسمى إيمانا يعصم صاحبه من الخلود فى النار، الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالى بالدين الذى نشأ فيه المرء أو نسب إليه، و مجاراة أهله و لو بعدم معارضتهم فيما هم عليه. و إيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة فى العقل بالبرهان، مؤثرة فى النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح فى الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها فى كل حال، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان.

و ليس الربا من المعاصى التى تنسى، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة و الطيش كالحدة و ثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها فى غمرة النسيان كالغيبة و النظرة، فهذا هو الإيمان الذى يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود فى سخط الله، و لكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم و الفواحش عمدا، إشارا لحب المال و اللذة، عن دين الله و ما فيه من الحكم و المصالح. و أما الإيمان الأول: فهو صورى فقط، فلا قيمة له عند الله تعالى؛ لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور و الأقوال، و لكن ينظر إلى القلوب و الأعمال، كما ورد فى الحديث و الشواهد على هذا الذى قررناه فى كتاب الله تعالى كثيرة جدا، و هو مذهب السلف الصالح، و إن جهله كثير مما يدعون اتباع لسنة حتى جروا الناس على هدم الدين، بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين و إن لم يعمل به، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم، كما بلغنا عن بعض

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٢

كبرائنا أنه قال: إنني لا أنكر أنني آكل الربا و لكنني مسلم اعترف بأنه حرام، و قد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد، و بأنه يرضى أن يكون محاربا لله و لرسوله، و ظالما لنفسه و للناس، كما سيأتي في آية أخرى، فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب و يكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان) «١» اه.

تقليده لشيخه في قصة آدم:

كذلك نجد صاحب المنار يقلد شيخه في موقفه من قصة آدم و إبليس و ما يتعلق بها فيقول:

(و هذا التفصيل مبني على كون الأمر بالسجود للتكليف، و أنه وقع حوار بين الرب سبحانه و بين إبليس. و أما على القول بأن الأمر للتكوين، و أن القصة بيان لغرائز البشر و الملائكة و الشياطين، فالمعنى: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله و إذنه لأمرها بالسنة التي عليها مدار نظامها كما قال: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» (٢) مسخرة لآدم و ذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدا للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنة الله تعالى فيها، و بعلمه بمقتضى هذه السنة كخواص الماء، و الهواء، و الكهرباء، و النور، و الأرض: معادنها، و نباتها، و حيوانها، و إظهاره لحكم الله تعالى و آياته فيها، و مستعدا لاصطفاء الله بعض أفرادها، و اختصاصهم بوحية و رسالته، و إقامة من اهتدى بهم لدينه و ميزان شرعه، و قد أشير إلى ذلك في الآية (٣١) من سورة البقرة بقوله تعالى «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» إلا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردا على الإنسان، بل عدوا له، من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله و إقامة سنته في صلاح الخلق، و بين روح الجن الذي يغلب على شرارهم - و هم الشياطين - التمرد و العصيان. و قد أعطى الإنسان إرادة (١) تفسير المنار ج ٣ ص ٩٨-٩٩. و راجع أيضا ما كتبه عن قتل العمدة ج ٥ ص ٣٣٩-٣٤٥.

(٢) الآية (٥) من سورة النازعات.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٣

و اختيارا من ربه في ترجيح ما به يصعد إلى أفق الملائكة، و ما به يهبط إلى أفق الشياطين) «١» اه.

تذره بالمجاز و التشبيه:

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها، و يعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه، و ذلك فيما يبدو مستبعدا و مستغربا لو أجرى على حقيقته، و هذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، و مسلك الزمخشري و غيره من المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه و التمثيل سبيلا للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن، و لا تعجز عنها قدرة الله، و إن بعدت عن منال البشر.

فمثلا نجد صاحب المنار عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٧) من سورة النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ... الآية» نراه يستظهر أن المعنى المراد هنا هو (آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها في كيد الإسلام، و نردها خاسئة خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام و نصره عليكم، و فضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين و العلم الذي جاء به الأنبياء، و قد كان لهم عند نزول الآية شيء من المكانة و المعرفة و القوة، فهذا ما نفسرها به، على جعل الطمس و الرد على الأدبار معنويين ... ثم سرد بعض أقوال المفسرين في هذه الآية، ثم بين أن ما اختاره هو رأى شيخه الذي مال إليه في دروسه «٢»).

رأيه في السحر:

ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضرباً من التمويه و الخداع، و ليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، و هو يوافق بهذا القول قول شيخه و قول (١) تفسير المنار ج ٨ ص ٢٣٢.

(٢) تفسير المنار ج ٥ ص ١٤٥-١٤٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٤

المعتزلة من قبله؛ و لهذا نراه عند ما فسر قوله تعالى في الآية (٧) من سورة الأنعام: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» نجده يقول: (و الآية تدل على أن السحر خداع باطل، و تخيل يرى ما لا حقيقة له في صورة الحقائق «١» ...).

و هذا و لم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخارى فى سحر رسول الله صلى الله عليه و سلم كما فعل شيخه، و لكنه تأول الحديث على أنه كان من قبيل العقد عن النساء، و بين أن عذر من طعن فى الحديث هو أن هشاماً راوى الحديث عن أبيه عن عائشة مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح و التعديل «٢».

رأيه فى الشياطين:

و هو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالإغواء فقط، و يقول: (كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجان على بعض الناس، و قدرتهم على نفعهم و ضرهم، فهو كذب و حيل من شياطين الإنس و حدهم «٣»).

رأيه فى الجن:

كما يرى أن الجن لا ترى للإنسان على أى حال من الأحوال، و يرجح أن من ادعى رؤية الجن فذلك و هم منه و تخيل، و لا حقيقة له فى الخارج، أو لعله رأى حيواناً غريباً كبعوض القردة فظنه أحد أفراد الجن «٤». يقول هذا ثم يعرض فى (الهامش) لذكر حديث أبى هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة، (١) تفسير المنار ج ٧ ص ٣١١.

(٢) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة تفسير الفاتحة و ست سور من خواتيم القرآن ص ١٢٩-١٣٤.

(٣) تفسير سورة الناس من مجموعة تفسير الفاتحة و ست سور من خواتيم القرآن ص ١٤١.

(٤) انظر تفسير المنار ج ٧ ص ٥١٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٥

و إخبار النبى له بأنه شيطان- و هو فى البخارى- و لغيره من الأحاديث التى تدل على أن الإنسان يرى الجنى و يبصره، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات (و الصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح «١» ..)

بل و نجده يزيد على ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعاً من الجن. و ذلك حيث يقول عند ما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ... الآية»: (... و المتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، و قد قلنا فى المنار غير مرة: إنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة و تسمى بالمكروبات، يصح أن تكون نوعاً من الجن، و قد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض «٢»).

رأيه فى معجزات النبى صلى الله عليه و سلم؛

و لقد نجد صاحب المنار يذهب في معجزات النبي صلى الله عليه و سلم مذهبا بعيدا، فيقرر أنه لا معجزة للنبي صلى الله عليه و سلم غير القرآن الكريم، و ينكر بعض معجزاته الكونية، و يتأول ما يشهد لها من آيات، و يجحد صحة ما يقوم بإثباتها عن الأحاديث، و ما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو في نظره إكرام للنبي من ربه، و ليس من قبيل المعجزة، أو الحججة على صدق دعوته.

يذهب إلى هذا و يستدل له بمثل قوله تعالى في الآية (٥٩) من سورة الإسراء: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ... الآية» و بمثل قوله عليه السلام من رواية أبي هريرة عند الشيخين و غيرهما: (ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذي أوتيته و حيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة). (١) المرجع السابق (هامش)

(٢) تفسير المنارج ٣ ص ٩٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٦

و لكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن و الحديث لما ساقه من أدلة على مدعاه فيقول: (و قد يعارضه - يعنى الحديث السابق - آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين و غيرهما من أن قريشا سألوا النبي صلى الله عليه و سلم آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين، و لكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللا في متنها و أسانيدها، و إشكالات علمية، و عقلية، و تاريخية، فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار، و بينا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته صلى الله عليه و سلم في القرآن و كون الآيات المقترحة تقتضى إجابة مقترحها عذاب الاستتصال، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء «(١)».

و إذا كان الشيخ رشيد قد تخلص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه، فإنه قد تخلص في موضع آخر من معارضة الآية، حيث فسر انشقاق القمر بظهور الحججة «(٢)» !! ...

رأيه في مسائل من الفقه:

كذلك نجد صاحب المنار يعطى نفسه حرية واسعة في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، مما جعله يخالف جمهور الفقهاء، و يسفهم فيما ذهبوا إليه و إذا أردت مثلا لذلك فارجع إلى ما كتبه على قوله تعالى في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» فستجد أنه لم يعبا بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم هذه الآية منسوخ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواثيق أو حديث لا وصية لوارث، الذي جنح الشافعي في الأم إلى أن متنه متواتر «(٣)»، فراح - رحمه الله - يؤكد بكل ما يملك من (١) تفسير المنارج ١١ ص ٣٣٣ و انظر الوحي المحمدي للمؤلف ص ٦٩ - ٧٠ مطبعة المنار سنة ١٣٥٤ هـ.

(٢) انظر القول الفصل ص ١٦٣.

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ٤٠ المطبعة العثمانية سنة ١٣٥٧ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٧

حجة: أن حكم الوصية للوالدين و الأقربين باق لم ينسخ، كما راح يفند كل دليل تمسك به الجمهور. و لا أطيل بذكر ما قال في هذا الموضوع، و يكفي أن أقول لك: إنه أنهى البحث في هذه المسألة بقوله: (و صفوة القول: أن الآية غير منسوخة بآية المواثيق؛ لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، و لا دليل على أنها بعدها، و لا بالحديث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهي محكمة، و حكمها باق، و لك أن تجعله خاصا بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روى عن بعض الصحابة، و أن تجعله على إطلاقه، و لا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر، و لا سيما بعد ما أكده بقوله: «حقا على المتقين» «(١)».

و إن أردت مثلا - آخر فارجع إلى ما ذهب إليه في آية التيمم من سورة النساء، فسترى أنه يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم و لو كان

الماء بين يديه و لا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافرا، و يخالف بذلك جماعة الفقهاء، و يحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء، كما ينكر على من استشكل الآية من المفسرين، و يقول فيما يقول: (سيقول أدعياء العلم من المقلدين. نعم .. إن الآية واضحة المعنى، كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتهم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم فى السفر جائز و لو مع وجود الماء. و هذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا، فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين؟ و كيف يعقل أن يخلفوها من غير معارض لظاهرها أرجعوها إليه؟ .. و لنا أن نقول لمثل هؤلاء- و أن كان المقلد لا- يحتاج لأنه لا- علم له- و كيف يعقل أن يكون ابلغ الكلام و أسلمه من التكلف و الضعف معضلا مشكلا؟ و اى الأمرين أولى بالترجيح؟ الطعن ببلاغة القرآن و بيانه. لحمله على كلام الفقهاء؟ او تجويز الخطأ على الفقهاء؛ لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، و هو الموافق الملتزم مع غيره من رخص السفر، التى فيها قصر الصلاة و جمعها، و إباحة الفطر فى (١) تفسير المنارج ١ ص ١٤١.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٨

رمضان، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل و الوضوء، و هما دون الصلاة و الصيام فى نظر الدين، ... إلى أن قال: (ألا إن من أعجب العجيب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة فى عبارة القرآن، التى هى أظهر و أولى من قصر الصلاة و ترك الصيام، و أظهر فى رفع الحرج و العسر الثابت بالنص و عليه مدار الأحكام ...) ثم قال: (و إذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط و لا قيد، بطلت كل تلك التشديدات التى توسعوا فى بنائها على اشتراط فقد الماء، و منها ما قالوا من وجوب طلبه فى السفر، و ما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب و حد الغوث .. «١»).

حملته على بعض المفسرين:

هذا .. و لا يفوتنا أن نقول. إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحيانا قدماء المفسرين، خصوصا الفخر الرازى منهم، مع قسوة منه عليهم فى الكثير الغالب «٢».

حملته على البدع و الخرافات:

كما أنه كان كثير الاستطراد إلى تتبع بدع المسلمين، و الكشف عن عوارها و الإرشاد إلى علاجها، مع تشدد و تعسف منه فى كثير من الأحيان

شرحه لمبهمات القرآن بما جاء فى التوراة و الإنجيل:

كذلك لا يفوتنا أن ننبه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات فى تفاسيرهم، و يتخذن منها شروحا لكتاب الله، يخوض هو أيضا فيما هو من هذا القبيل و يتخذ منه شروحا لكتاب الله، و ذلك أنه كثيرا ما ينقل عن الكتاب المقدس أخبارا و آثارا (١) تفسير المنارج ٥ ص ١١٨-١٢٢.

(٢) انظر ما عقب به على الزمخشري و غيره من المفسرين الذين فسروا الركون بالميل اليسير فى قوله تعالى فى الآية (١١٣) من سورة هود «وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا... الآية» ج ١٢ ص ١٦٩-١٧٩.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٨٩

يفسر بها بعض مهمات القرآن، أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين «١». و كان الأجدد بهذا المفسر الذى يشدد النكير على عشاق

الإسرائيليات، أن يكف هو أيضا عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصا و هو يعترف أنه قد تطرق إليها التحريف و التبديل.

دفاعه عن الإسلام:

و أخيرا فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام و القرآن، و كشف عما أحاط بهما من شكوك و مشاكل، و قد استعمل في ذلك لسانه و قلمه، و ضمنه مجلته و تفسيره، و تلك مزية للرجل يحمد عليها، و لا ننسى ما له من أفكار جريئة و متطرفة. (١) انظر ما نقله عن الفصل الخامس و العشرين من سفر الخروج عن التابوت «ما حواه ج ٢ ص ٤٨٢-٤٨٣ و استشهادة على ما فسر به استجابة الله لدعاء موسى و هارون جيت قالا كما جاء في الآيتين (٨٨ و ٨٩) من سورة يونس .. «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» * قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمَا .. الآية، بما جاء في سفر الخروج ج ١١ ص ٤٧٤.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٠

٣- الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي «١»

الأستاذ المراغي في مدرسة الشيخ محمد عبده:

لم نعرف من رجال هذه المدرسة رجلا تأثر بروح الأستاذ الإمام، و نهج على طريقته من التجديد و اطراح التقليد، و العمل على تنقية الإسلام من الشائب التي ألصقت به، و تنبيه الغافلين عن هديه و إرشاده، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي عليه رحمة الله و رضوانه.

تربى هذا الرجل في مدرسة الأستاذ الامام، و تخرج منها و هو يحمل بين جنبيه قلبا مليئا بالرغبة في الإصلاح، و الثورة على كل ما يقف في سبيل الإسلام و المسلمين.

هذا القلب الفتى، العامر بما فيه من حب للخير و رغبة في الإصلاح، دفع بالرجل إلى ميدان الحياة الاجتماعية، و ترقى به في مراتب المناصب الدينية، و أخيرا وقف به عند الغاية، فإذا بالرجل شيخا للأزهر، و إذا بروح الإصلاح و التجديد تندفق من فوق منبره، و على قلوب طلابه و غير طلابه، ثم تنساب جارفه إلى نواح من الحياة مختلفة، فتعمل فيها عمل السحر، و الحياة و النور.

لم يلازم للشيخ المراغي أستاذه الامام ملازمة طويلة كما لازمه الشيخ رشيد و لم يحلس إليه كثيرا مثل ما جلس، و لكنه كان على رغم ذلك أعمق أثرا و أكثر تحقيقا لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الاصلاح و صنوف التجديد، و السر في ذلك- كما يظهر لنا- هو تعلق الشيخ في مختلف المناصب الدينية الكبيرة، ثم ما كان فيه من جاذبية و قدرة على استجلاب قلوب سامعيه و استمالتها إليه، مما أجلس بين يديه الملك، و الأمير، و الوزير، و الشيخ الكبير و الطالب الصغير، و رجل الشارع.

جلس هؤلاء جميعا يستمعون إليه و يأخذون عنه، فكان الميدان فسبحا أمام (١) و ولد في سنة ١٨٨١ م و توفي في سنة ١٩٤٥ م.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩١

الشيخ، يلقي فيه بآرائه و أفكاره، فتجد الدعوة قبولاً من مستمعيه، و رواجاً عند مريديه .. ثم لا تلبث أن تنتشر فنعم كل شيء. و اذا كان كتاب الله هو الدستور الذي شرعه الله تعالى للأمة الإسلامية، و جعل فيه خيرها و سعادتها في الدنيا و الآخرة، فلم لا يكون هو الباب الذي يصل منه الشيخ إلى ما يرجوه من خير؛ و ما يهدف إليه من إصلاح»

إنتاجه في التفسير:

طرق الشيخ هذا الباب، فعقد دروسا دينية في تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، من الملك

إلى رجل الشارع كما قلت، و أذيعت هذه الدروس أيضا في كثير من ممالك الأرض، و دول الإسلام و أخيرا طبعت هذه الدروس، و وزعت على الناس ليعم نفعها، و يزداد أثرها.

لم تكن هذه الدروس على شيء من الكثرة، و لم يكن مقدار ما تناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير، الذي كنا نرغب و نطمع في أن تزود به المكتبة الإسلامية.

نعم ... لم تناول هذه الدروس من آيات القرآن إلا مقدارا قليلا، و إذا نحن ذهبنا نستقصيه فإننا لا نجده أكثر من شرحه لقوله تعالى في الآية (١٧٧) من سورة البقرة «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...» إلى قوله «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (١).

و شرحه لقوله تعالى في الآيات (١٣٣-١٣٨) من سورة آل عمران «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...» إلى قوله «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (٢).

و شرحه لقوله تعالى في الآيتين (١٣ و ١٤) من سورة الشورى «شَرَعَ (١) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيري بالاسكندرية في رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.

(٢) ألقى هذا المسجد بمسجد الحسين بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٢

لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا...» إلى قوله «وَأَنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ» (١). و شرحه لقوله تعالى في الآيات (١٥١-١٥٣) من سورة الأنعام «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...» إلى قوله «ذَلِكَم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٢).

و شرحه لقوله تعالى في الآيات (١٨٣-١٨٦) من سورة البقرة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...» إلى قوله «... وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» (٣).

و شرحه لقوله تعالى في الآيات (٢٤-٢٩) من سورة الأنفال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...» إلى قوله «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (٤).

و شرحه لسورة الحجرات (٥)، و شرحه لسورة الحديد (٦)، و شرحه لسورة لقمان (٦)، و شرحه لقوله تعالى في الآيات (١٦٥-١٦٥) من سورة الأنعام «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...» إلى آخر السورة (٨).

و شرحه لقوله تعالى في الآيات (١٩٩-٢٠٦) من سورة الأعراف «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ» إلى آخر السورة (٨). (١) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان أبي العلاء بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.

(٢) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان الحنفى بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.

(٣) ألقى هذا الدرس بمسجد السيدة زينب بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.

(٤) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيري بالاسكندرية في رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.

(٥) في دروس ثلاثة في شهر رمضان سنة ١٣٥٨ هـ.

(٦) ألقى تفسير هذه السورة في رمضان سنة ١٣٥٩؛ ١٣٦٠ هـ.

(٨) ألقى تفسيرها في رمضان سنة ١٣٦١ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٣

و شرحه لقوله تعالى في الآيات (٣٠-٣٤) من سورة فصلت «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...» إلى قوله «كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (١). و شرحه لأوائل سورة الأعراف .. إلى قوله في الآية (٩) «... وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ»

«٢».

و شرحه لقوله تعالى فى الآيات (١١٢-١٢٣) من سورة هود «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...» إلى آخر السورة «٣».

و شرحه لقوله تعالى فى الآيتين (٥٨ و ٥٩) من سورة النساء «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...» إلى قوله: «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا «٤»».

و شرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الرعد «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...» إلى قوله «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ «٥»».

و شرحه لقوله تعالى فى الآيات (٨٣-٨٨) من سورة القصص «تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَجُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ..» إلى آخر السورة «٦».

و شرحه لقوله تعالى فى الآيات (١-١٠) من سورة الفرقان «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ...» إلى قوله «وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا «٧»».

و شرحه لقوله تعالى فى الآيات (٦٣-٧٧) من سورة الفرقان أيضا (١) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦١ هـ.

(٢) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢ هـ.

(٣) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢ هـ.

(٤) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ.

(٥) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ.

(٦) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ- و قد قدم شرحه لهذه الآيات بالكلام عن قصة قارون مع قومه و بين موضع العبرة فيها.

(٧) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠ هـ.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٤

«وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...» إلى قوله «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا «١»».

و شرحه لسورة العصر «٢».

و شرحه لسورة الملك «٣».

هذا هو كل ما للأستاذ المراعى- رحمه الله- من إنتاج فى التفسير، و هو على قلته عمل كبير و عظيم، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح، و ما يحمل فى طياته من توجيه حسن فى التفسير.

و حسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثيرة من المسلمين إلى القرآن، بعد أن أعرضوا عن هديه، و ضلوا عن إرشاده، و تلك حسنة نرجو له برها و ذخرها عند الله.

منهجه فى التفسير:

يتبع الإنسان إنتاج الأستاذ الأكبر فى التفسير، و يستقصى ما عرض له من آيات القرآن الكريم، فيلاحظ أن الشيخ- رحمه الله تعالى- كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلى فيه دلائل قدرة الله و آيات عظمتة، و ما تظهر فيه وسائل هداية البشر، و مواضع العظة و العبرة، كما يلحظ أيضا أنه وجه جانبا كبيرا من عنايته إلى الآيات التى يجمعها و قضايا العلم الحديث صلة القربى؛ ليظهر للناس أن القرآن لا- يقف فى سبيل العلم، و لا يصادم ما صح من قواعده و نظرياته، و ذلك بما يهديه الله إليه من الدقة فى التوفيق بين قضايا القرآن، و قضايا العلم الحديث.. دقة لا يبلغ شأوها، و لا يدرك خطرها إلا من شغل نفسه، و كد فهمه فى هذا السبيل. (١) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين فى سنة ١٣٥٩ هـ.

(٢) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦١ هـ.

(٣) و هو آخر دروسه في التفسير رحمه الله، إذ توفي في رمضان سنة ١٣٦٤ هـ و لم يقع لنا تفسير هذه السورة، و قد اعتمدت فيما نقلته عنه فيها على ما سمعته بنفسى من دروسه في تفسيرها.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٥

مصادره في التفسير:

و أعتقد أن الشيخ- رحمه الله- كان يستند في تحضير دروسه على كتاب الله تعالى بجمع ما كان من الآيات في موضوع واحد. لعل ما أجمل في موضع فسر في موضع آخر، و ما أبهم في آية بين في آية أخرى، و كان يستند أيضا إلى ما صح من بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم، و بيان السلف الصالح من الصحابة و التابعين، ثم على أساليب اللغة و سنن الله في الكون، ثم على ما كتبه قدماء المفسرين، و لكنه لم يبلغ عقله في هذا كله، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره، و يعرض ما فيها على قلبه و عقله، فما أعجبه منها أقره، و ما لم يطمئن إليه نبذه و أعرض عنه.

لم نسمع عن الأستاذ المراغى- رحمه الله- أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولا فيما كتبه المفسرون، و لم يبلغنا عنه أنه ادعى لنفسه أنه أتى بما لم يأت به الأوائل في التفسير، بل على العكس من ذلك وجدناه يعترف بالفضل الأقدمين. و لا ينسى ما كان لهم من مجهود طيب و أثر محمود، و ذلك حيث يقول عن تفسيره: (ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين، و زهرات من رياضهم «١»). لم يتحامل الشيخ- رحمه الله- على المفسرين كما تحامل غيره، و لم يرم في وجوههم بالعبارات القاذعة اللاذعة، بل كان عفا في نقده، نزيها في عبارته، و هذا أدب ما أجمله بالعلماء، و بخاصة مع أسلافهم و متقدميهم.

موقفه من مبهمات القرآن:

هذا، و إن الأستاذ المراغى- رحمه الله- قد نهج في تفسيره منهج شيخه، فوجدناه لا يخوض في مبهمات القرآن بالتفصيل. و لا يدخل في جزئيات سكت عنها القرآن، و أعرض عنها الرسول صلى الله عليه و سلم، فلا الروايات (١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد. التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٦

الموضوعه أو الضعيفة بكافية عنده حتى يزح بها في تفسيره، و لا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه، حتى يجعل منها شروحا لما أجمله القرآن و سكت عن تفصيله، فلهذا نراه عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» نجده يقول بعد أن ينتهي من تفسير الآية ما نصه: (و الآية تدل بظاهاها على أن الجنة مخلوقة الآن، لأن الفعل الماضي يفهم هذا. غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى «و نَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» فلا يدل على خلقها الآن، و البحث في هذا لا فائدة له، و لا طائل تحته «٢»).

و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٣) من سورة البقرة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ .. الآية» وجدناه يقول: (... و نحن لا نعلم ما هو الذى فرضه الله على الأمم السابقة من قبل، أ هو شهر رمضان كما قال بعض الناس؟ أم غيره؟ و ليس لنا ما يهدينا إلى شىء معين من دليل يطمئن إليه القلب. و التشبيه لا يدل على المماثلة في كل شىء، فنحن نؤمن بأن صوما فرض على الأمم السابقة، لا نعلم مقداره و لا كيفيته، و لا يزال الصوم معروفا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة .. «٣»).

و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٢) من سورة لقمان «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ. الآية» وجدناه يقول ما نصه: (اختلف الناس في لقمان هذا من هو؟ و من أى الأمم هو؟ فقيل: إنه من بنى إسرائيل.

وقيل: إنه كان عبدا حبشيا. وقيل: إنه أسود من السودان مصر. وقيل: إنه يوناني. و من الناس من جعله نجارا، و منهم من جعله راعى غنم، و منهم من (١) فى الآية (٦٨) من سورة الزمر.

(٢) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦ هـ مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨

(٣) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ ص ٦ مطبعة الازهر سنة ١٩٣٩

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٧

قال إنه نبي، و منهم من قال: إنه حكيم. و كل هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه، و بعد أن وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، و لا يضع من قدره أنه كان زنجيا مملوكا «١».

عنايته بإظهار أسرار التشريع:

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم فى تفسيره اهتماما كبيرا بإظهار سر التشريع الإسلامى، و حكمة التكليف الإلهي؛ ليظهر محاسن الإسلام، و يكشف عن هدايته للناس.

فمثلا عند ما تعرض لآيات الصوم فى سورة البقرة، نجده يفيض فى سر الصوم و حكمته فيقول: (الصيام أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام، و هو رياضة بدنية، و تهذيب خلقى، و تطهير روحى؛ ذلك أن الاسترسال فى الشهوات، و الانغماس فى اللذات حجاب بين الروح و بين الكمالات القدسية و الفيض الإلهي، يعوقها عن تلقى الإلهام و عن لذة الاتصال، و لذلك يلجأ أرباب المقامات و العارفون إلى الصوم، كلما أحسوا بعدا عن الذات الإلهية، و انزعج خاطرهم شوقا إلى القرب منها).

(و فى الصبر على الحرمان من اللذات التى تنازع إليها النفس، و تقتضيها الطبيعة، تربية للإرادة، و تقوية على المضى فى العزم، و عدم نقض العقد و العهد إذا وسوس الشيطان و زين للنفس الخروج عن العهد؛ لما فيها من المشقات، و فى تقوية الإرادة على هذا النحو إعداد لتلقى التكليف الإلهي بالقبول و الطمأنينة، و تثبيت لملكة المراقبة و الخوف من الله، و تقوية لخلق الحياة، و فى هذا كل الخير، و به تتحقق تقوى الله، و تستعد النفس للسخاء، و البذل و التضحية، إذا دعى الداعى، و حان وقت الفصل بين شجعان الرجال و جنبائهم، و بين كرامهم و أندالهم).

(و ليس يخفى أن كل شىء فى هذه الحياة ممكن. الفقر بعد الغنى، و المرض (١) تفسير سورة لقمان ص ١٨ مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٢

٠٤

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٨

بعد الصحة، و الذلة بعد العز، و النزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها، و تغلب الأعداء بعد الغلب عليهم و قهرهم ... و ما إلى ذلك مما هو بسبيل أن يعرض للإنسان. و عروض هذه الأشياء على نفس مدللة، و جسم مترف، ينام بقدر، و يأكل بقدر، و يمرح فى اللذات بين الأهل و العشيرة، قد يصدمه صدمة لا يقوى على احتمالها، أو يسوق إليه الجزع و يورثه اليأس).

(لذلك كله اقتضت حكمه الحكيم العليم، أن يجعل من العبادات ما يروض الأجسام و يهذب الأخلاق، و يطهر الأرواح و يزيكها .. و كان من هذه العبادات الصوم).

(و كما عنى الإسلام بتزكية الأرواح و تهذيب الأخلاق، فقد عنى بتربية الأجسام، و حرم كل ما هو ضار بها، و أباح الطيبات و كل ما هو نافع و مفيد؛ ذلك أن الإسلام يريد رجلا عاملا فى الحياة، مهذب الأخلاق، طاهر الأعراق، قويا لا بهاب الموت، يدفع عن الدين و يدافع عن الوطن، و يذود عن العشيرة، و يريد رجلا رحيفا حسن المعاشرة، سلس القياد لأهله، و عشيرته، و بنى وطنه، يريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق و أداء حقوقه ... إلخ «١»).

معالجته للمشاكل الاجتماعية:

كذلك نجد الشيخ المراغى - رحمه الله - يعرض لمشاكل المجتمع و أسباب الانحطاط فى دول الإسلام، فيعالج كل ذلك بما يفيضه الله على قلبه و عقله و لسانه، من هداية القرآن و إرشاده.

و لقد كان الأستاذ - رحمه الله - بصيرا بمواطن الداء، و أسباب الشفاء، فكان يهدف فى دروسه إلى علاجها و استئصالها، و كان كثيرا ما يوجه الخطاب إلى أرباب الحل و العقد فى الدولة - و هم غالبية المستمعين له - و يلفت أنظارهم إلى ما فى أعناقهم من أمانات، و ما عليهم من تبعات، ثم يأخذ (١) الدروس الدينية لسنة ١٩٥٧ هـ ص ٦ - ٧.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٥٩٩

بيدهم إلى حيث يكون صلاحهم، و صلاح من تحت إمرتهم و رعايتهم .. يدفعه فى هذا كله إخلاصه لربه. و لوطنه، و لأمته ...
 فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا .. الآية» نجده يقول: (... و الحكمة فى هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية و نظرياته العقلية، ضل و كره الحياة، و كان أشقى من أنواع الحيوان، و شقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه، فقد دلت التجارب على أن العقل غير المؤيد بالشرع الإلهي يذهب مذاهب شتى، منها الصواب و منها الضلال، و هو فيما عدا المحسبات و الماديات ضلاله أكثر من صوابه. و هذه آراء العلماء فى الفلسفة و الأخلاق، يشبه بعضها هذيان المحموم، و بعضها لا يدرك له محصل على كثرة ما يقولون من مقدمات و براهين. و هذه مذاهب الاجتماع قديمها و حديثها، لم تسعد الأمم بها، فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلي الحكيم.

و قد دلت التجارب أيضا على أن الأمم التى عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذى عملت به).

(و أما أنه لو لا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة، فإنها على قصرها مملوءة بالمصائب و الويلات، فمن فقر مدقع، إلى مرض مزمن، و من فقد الأهل و العشيرة، إلى فقد العزة و الجاه، و من شرف رفيع، إلى ذلة و مهانة ...

و احتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الإنسان أمل ينتظره، و حياة دائمة فيها سعادة دائمة ليس فى طاقة الإنسان، فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش، و يجعل المؤمن فى سعادة نفسية، و يقويه على احتمال الصعاب، و على الصبر على معاشره الناس، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ، و يهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما؛ فإن دائرة العقل محدودة، و هى قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل).

و إذا قيل: إن التدين مقيد للحرية، و مانع من التمتع باللذات، فكيف تكون فيه السلوى و العزاء؟ فالجواب: أن الإسلام أباح الطيبات و حرم الخبائث، و لم يحظر من اللذات إلا ما يضر الإنسان، و ليست السعادة فى حرية البهائم،

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٠

بل فى حرية يسبح بها فيما فيه خيره و سعادته، و يحظر عليه فيها ما فيه ضرره و شقاؤه، و قوام آداب الأمم و فضائلها، التى قامت عليها صروح المدنية الحققة مستند إلى الدين، و بعض العلماء يحاول تحويلها عن أساس الدين، و بناءها على أساس العقل و العلم، غير أنه لا شبهة فى أن الأمم التى تروم هذا التحول تقع فى اضطراب و فوضى لا تعلم عاقبتهم، و ليس من الميسور أن تبنى للعامة قواعد الفضيلة على أساس علم الأخلاق، أو أية قاعدة علمية أخرى، و لكن من الميسور دائما أن تبنى قواعد الفضيلة على أساس العصمة للدين، فالذى يحاول العلماء: و هم و خيال «١».

و مثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ» نجده بعد أن يشرح الآية، و يذكر ما فى القرآن من هداية يقول: (هذا هو القرآن الذى سعد به المسلمون بحياة روحية هى المثال الأعلى للنفس الإنسانية، و بحياة جثمانية ظاهرة بريئة، و بحياة علمية لا يزال ما بقى من نورها يستمتع به الناس، و هو موضع للعجب و مثار للاكبار و الإجلال).

(سعدوا به حقبة، ثم انحرفوا عنه فعاقبهم الله بما هم فيه من ذلك و هوان، حتى أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم، و صاروا في حاجة إلى غيرهم في كل مرافق الحياة، و وصل بهم الجهل إلى حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب، و كل ما عندهم شر ينبذ، و أنه لا حياة لهم إلا بالقدوة .. القدوة حتى فيما علم غيرهم شره و فساده، و حاولوا نبذه و طرحه، و قد أصبح المسلمون مثلا سيئة للاسلام، يحتج بهم عليه و الدين منهم برىء).

(الدين يطلب رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر، رجالا باعوا أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة، رجالا- خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله في الأرض، يعلمون سرها، و يسخرونه للخير و دفع الأذى، يدفعون عوادي الزمان بمناكبهم كأنهم بنيان مرصوص، يعرفون للكرامة (١) الدروس الدينية لسنة ١٣٦٥ هـ ص ٣٤-٣٦

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠١

قدرها، و للعة موضعا، و يميزون بين الأعداء و الأصدقاء، و يعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل. و أن الآخرة خير و أبقى «(١)». و عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة الحديد: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ... الآية».

وجدناه يقول بعد ما شرح الآية: (ذكر الله- سبحانه- الكتاب و الميزان و الحديد و قرنها بعضها ببعض، فالكتاب: إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل و الإنصاف. و الميزان: إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام، و الحديد: إشارة إلى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا «و الله سبحانه- و هو العليم الحكيم- لا- يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم و خيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب و علمه لا يتبع ما فيه، و غيرهم لا بد له من وازع، و هو سلطان الحاكم المشار إليه بالحديد، و لذلك وجدت التعازير في الإسلام، و وجدت الحدود. أما ترك الناس أحرارا من غير وازع. فهو ضار بالمجتمع الإنساني، و موجب للتراخي في إقامة العدل و اتباع القانون، جرب هذا في العصور المختلفة، و قامت الشواهد الناطقة في العصر الحديث عليه. و علم أن الأمم التي لم تحط أخلاقها بوازع؛ انحدرت إلى الدرك الأسفل و أضلتها الشهوات و قد كانت درة عمر سلكا قويا للنظام الإسلامي فلما رفعت ضعف ذلك الرباط «(٢)».

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة لقمان «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... الآية» نجده يقول (... من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالا و برسالة محمد، و يعظمهما و يجلهما فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق؟ و تحد القاذف؟ و لم لا- تحكم القرآن في الحياة و نحن مؤمنون به؟ هز كتفيه و ابتسم؛ أو زاد: إنها رجعية لا يحتملها (١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧ هـ ص ١٥-١٦.

(٢) تفسير سورة الحديد ص ٤٢-٤٣.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٢

تمدين العصر الحديث!! .. أليس هذا استهزاء بالآيات؟ و اشتراء للباطل؟
و ضلالا عن سبيل الله؟).

(هناك مقلدون للمذاهب في العقائد و الأحكام، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبهم، و لوا عنها و إن كانوا لا يسخرون بها؛ بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل و بيعا للحق بغير علم؟).

(هناك مذاهب ابتدعت في الدين للضلال و الإضلال بسبب السياسة، و فسر مبتدعوها الآيات في التأويل ليردوها إلى مذهبهم المبتدعة و جاء أتباعهم فقلدوهم).

(أما المبتدعون فأمرهم واضح .. اشتروا الضلالة بالهدى!! ..)

(و أما الأتباع فكان عليهم أن ينظروا في الآيات و يتدبروها عملا بقوله سبحانه «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (١) فهم أيضا اشتروا الضلالة بالهدى و لهم بعض العذر ...» (٢).
و مثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة الحجرات «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ... الآية» نجده يقول: (... و للثبث في الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس، و أكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، و لبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار).

(و كثيرا ما يقع عدم الثبث من العظماء الذين يملكون النفع و الضرر يجيئهم ذلك: من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم و هو مدخل للخطر عظيم) (و الذين هم في أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية هم الذين ييدهم مقاليد (١) الآية (٥٩) من سورة النساء.

(٢) تفسير سورة لقمان ص ٩- ١٠

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٣

الأمور؟ و ييدهم الضر و النفع. أما الذين لا يملكون ضرا و لا نفعا فحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء).

(و الآية على العموم: أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس، و إعدادها لتعرف الحق و البعد عن مواطن الباطل ...) «١».

توفيقه بين القرآن و العلم الحديث:

هذا .. و إن الأستاذ المراغى رحمه الله- كان مع اعتقاده أن القرآن و أتى بأصول عامة، لكل ما يهم الإنسان معرفته و العلم به، يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية إلى العلوم، أو العلوم إلى الآية، كى يفسرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحديث.

نعم .. كره الشيخ هذا المسلك فى التفسير، و جهر بخطأ أصحاب المؤلفين به، و كرر هذا فى مواضع كثيرة، فكان مما قاله فى بعض المواضع من دروسه فى التفسير: (وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد و الأحكام الفقهية. و وجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة و تأويل القرآن ليرجع إليها، و تأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها، و ذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، و النظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله) «٢» و لكن الأستاذ المراغى مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسر كتاب الله على شىء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث، ليستطيع أن يأخذ منها دليلا على قدرة الله، و يستلهم منها مكان العبرة و العظة.

كان الشيخ يرى هذا، و يعتقد أنه هو المسلك السليم لفهم القرآن الكريم، فجهز به فى أحد دروسه فى التفسير فقال. (ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات، و مادته و أبعاده، و أقداره، و أوزانه؟ لكنه يجب أن (١) تفسير سورة الحجرات ص ١١

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦ هـ ص ٤٢

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٤

يلم بطرف يسير منه، ليدل به على القدرة الإلهية و يشير إليه للعظة و الاعتبار) «١» ثم وجدنا الأستاذ المراغى بعد هذا يشرح قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة لقمان «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» شرحا يقوم على هذا المبدأ الذى ارتضاه فقال («خلق السموات بغير عمد ترونها» السموات مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيارات؛ و نجوم و سداثم و هى مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة فى الفضاء، كل شىء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الإلهي و نظام الجاذبية، و لا يمكن أن يكون لها عمد و الله هو ممسكها و مجريها إلى الأجل المقدر لها فإذا قيل. إن نظام الجاذبية و هو الناموس الإلهي قائم مقام العمدة و يطلق عليه اسم العمدة جاز أن نقول. إن لها عمدا غير منظورة و إذا لاحظنا أنه لا يوجد شىء مادى تعتمد عليه، و جب أن نقول: إنه لا عمد لها، و أقدار الأجرام السماوية و أوزانها أقدار و أوزان لا- عهد لأهل الأرض بها و الأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة فى الفضاء ... ثم قال: قرر الكتاب

الكريم أن الأرض كانت جزءا من السموات و انفصلت عنها و قرر الكتاب الكريم أن الله «استوى إلى السماء و هي دُخان» (٢) و هذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم و قد قال العلماء. إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس و فصلها عنها و إن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت و صارت قطعاً كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات و هذه السيارات طافت حول الشمس و بقيت فى قبضة جذبتها و الأرض واحدة من هذه السيارات فهى بنت الشمس، و الشمس هى المركز لكل هذه السيارات ... فليست الأرض هى مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هى مركز هذه المجموعة و الشمس (١) تفسير سورة لقمان ص ١٣-١٤.

(٢) فى الآية (١١) من سورة فصلت

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٥

و توابعها قوى صغيرة فى العالم السماوى، و أين هى من الشعرى اليمانية التى قال الله سبحانه فيها «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى» (١) فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوى قوة الشمس (٢٦) مرة، و قدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء، فلو فرض أن الشعرى اليمانية حلت محل الشمس يوما من الأيام لانتهد الحياة فجأة؛ بغليان الأنهار، و المحيطات و القارات الجليدية، التى حول القطبين، و ضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، و ضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق، فانظر إلى هذا البعد السحيق: (و ليست الشعرى اليمانية أكبر نجم فى السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة). (و عظمة السماء ليست فى الشمس و توابعها، كلا .. إن عظمتها فى مدنها النجمية، فى أقدارها و أوزانها و أضوائها، و أبعادها، على اختلاف أنواعها) (و هناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليونا من المرات، و هناك السدائم، و هى قريبة من الخلق أول الأمر، ثم يقف علم الإنسان، و الله تعالى وحده الذى يعلم خلقه «ما أشهدتهم خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ» (٢).

«و ألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم» أى خلق الجبال فى الأرض لثلا- تميد الأرض و تضطرب، و لبيان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس، و عكوفها على الدوران حولها على بعد منها، وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتبهة كالشمس، و تكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما فى جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، و حدث من التجعد نتوءات و أغوار، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلفت الأرض، و هناك جبال جدت عن اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحر، (١) الآية (٤٩) من سورة النجم.

(٢) فى الآية (٥١) من سورة الكهف.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٦

و جبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض و تداخلها فى الطبقات، حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها). (و الجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها، و توزعها، و تغير اتجاهها. و تكسر حدها، و تساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات، و التى يتغذى بواسطتها الحيوان و الإنسان، و تحفظها من أن تمور). (فالجبال أولا- حبست النار فى جوف الأرض، و صيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، و الجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حده العواصف و الرياح، فهى حافظة للأرض من الميدان الذى يجيء بأسباب من داخل الأرض، و الذى يجيء بسبب العواصف و الرياح ...) و هكذا مشى الشيخ إلى آخر الآية (١).

حرية الرأي فى تفسيره:

ثم إن الشيخ المراغى رحمه الله كان كغيره من رجال هذه المدرسة لا يتقيد بأقوال الأئمة، و لا يقف عند مذهب مخصوص، و لا

يقول برأى معين إلا إذا اقتنع به، وإلا فلا عليه أن يتركه إلى ما هو صواب في نظره.

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٤) من سورة البقرة «... فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ..» نجده يقول بعد أن يذكر خلاف علماء الفقه في السفر المبيح للفطر: (وقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال. وروى عن ابن أبي شيبه بإسناد صحيح أنه كان يقصر في الميل الواحد، وإذا نظرنا إلى أن نص القرآن مطلق، وأن كل ما رواه في التخصيص أخبار آحاد، وأنهم لم يتفقوا في التخصيص، جاز لنا أن نقول: إن السفر مطلقا مبيح للفطر، وهذا رأى داود وغيره من الأئمة «٢»). (١) تفسير سورة لقمان ص ١٣-١٥

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ ص ١١

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٧

و مثالا عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة لقمان «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ... الآية نجده بعد أن يبين أن عدد السبعة في الآية مراد به الكثرة يقول:

(و على هذا يمكن أن يقال في أبواب النار، أما الأبواب الثمانية للجنة، فقد أريد بالزيادة فيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسالك النار؛ لراحة أهلها، وزيادة العناية بهم).

(و كذلك يقال في السموات السبع، والأرضين السبع، والعرب تذكر السبعة للكثرة، وتذكر السبعين للكثرة كذلك، ومنه «استغفروا لهم أو لا تستغفروا لهم إن تشيتموهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» (١) و من المعلوم أن الله لا يغفر لهم في السبعين، ولا في السبعة الآلاف، ونظيره «في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوها» (٢) يراد في سلسلة طويلة هائلة، ولا يراد التقدير بهذا العدد «(٣)» والواقع أن هناك فرقا بين ما ورد من نحو قوله: استغفروا لهم الخ وقوله: في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا، وبين ما ورد في عدة أبواب الجنة والنار، و عدة السموات والأرض، فإن الأول ذكر في مقام التهويل، فلا- يراد التحديد وإنما يراد الكثرة، بخلاف الثاني فإنه ليس كذلك.

و مثالا- نجد الأستاذ المراغي في دروسه الأخيرة عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٥) من سورة الملك «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ .. الآية» يشرح كون النجوم رجوما للشياطين بما معناه: (أن ما في السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بهذه الكواكب، وجعلها على هيات مخصوصة ونظام محكم، لتكون حججا دامغة، وأدلة قوية على من يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده).

سمعناه يقول ما هذا معناه، ثم يستدل على ما ذهب إليه بأنهم يقولون: (ألقمته (١) في الآية (٨٠) من سورة التوبة

(٢) في الآية (٢٣) من سورة الحاقة.

(٣) تفسير سورة لقمان ص ٣٦.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٨

حجرا) يعني أقمت عليه الحجة فلم يحر جوابا، ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن في القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم، كقوله تعالى في الآيات (٦-١٠) من سورة الصافات «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ* لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ» و كقوله في الآيتين (٨ و ٩) من سورة الجن «وَأَنَّا لَمَسِينَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهْبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصِيدًا» يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه: (و هناك آيات أخرى في هذا المقام، تبدو مخالفة لهذا المعنى، و لكن يمكن حملها عليه، و ليس في الوقت متسع لذلك، و سنعرض لها في موضع غير هذا).

و لست أدري كيف كان يستطيع الشيخ- رحمه الله- أن يحمل كل الآيات الواردة في هذا الموضوع على المعنى الذي قاله حملا

صحيحاً، و هي كما ترى صريحة في أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء و يسترقون السمع، ثم منعوا من ذلك عند رساله محمد صلى الله عليه و سلم، فمن حاول منهم استراق السمع - كما كانوا يفعلون من قبل - رمى بشهاب من السماء فحال بينه و بين ما يريد. و خاتمة المطاف في هذه الدروس التي ألقاها الأستاذ الأكبر في التفسير:

أنه كان منها - كما قيل - أمران عظيمان لهما خطرهما في الحياة الدينية: كانت عاملاً قويا في توجيه المسلمين و نشئهم الطيب الطاهر إلى الجانب الديني، و لفت أنظارهم إلى ما في كتاب الله من تشريع حكيم، و أدب جم كريم، و إرشاد قيم مفيد، فحببت إليهم الدين، و زينته في قلوبهم، و هرعوا إليه يتعرفون حكمه، و أحكامه و يتلمسون بها حياة طيبة و نهضة قوية، أساسها الدين و الخلق الكريم، و كانت هذه الدروس أيضا: منار هدى و إرشاد، يلقي أشعته الوضاء على عقول المشتغلين بتفسير القرآن، فيضيء لهم الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه في فهم كتاب الله، و استخلاص آدابه و أحكامه، خالصة مما جاورها من التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦٠٩

إسرائيليات و تأويلات أبعدت أهل الدين عن الدين، و شغلتهم في تفسير القرآن بما لا يمت إلى روحه و معناه، و كذلك صورت الدين غير أهله الذين يتحسسون له عيبا صورة لا تتفق و ما له من جلال و جمال «١».

هذا .. و إنا لنرجو للشيخ المراغي عند ربه ما كان يرجوه هو لنفسه من وراء مجهوده في التفسير و هو: (أن يضعه الله سبحانه في كفة الحسنات من ميزان أعماله، و أن يجعله ضياء و نورا يسعى بين يديه «يوم ترى المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم».) (١) مقدمة الشيخ شلتوت لتفسير سورة الحجرات للشيخ المراغي. التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦١٠

رجاء و اعتذار

و بعد ... فهذا ما يسره الله لي و أعانني عليه، و لعلني أكون و قد طوقت بالقارئ الكريم في نواح شتى من مناهج التفسير، و أخذت بيده إلى حيث أطلعت على ألوان مختلفة منه، من مبدأ نزول القرآن إلى عصرنا هذا، و كشفت له عن طرائق القوم في فهمهم لنصوص كتاب الله، و أريته كيف حاول كل ذي نحلة أن يقيم نحلته على أساس من القرآن، و كيف تحايل على فهم آياته، و تصرف في تأويل عباراته، كل من حاول أن يجعل القرآن شاهدا له، و دليلا على ما يهدف إليه، من حق تلبج، أو باطل تلجلج .. لعلني بعد هذا كله أكون قد أرضيت عشاق التفسير خاصة، و أهل العلم عامة، و حققت رغبة طالما ترددت في صدورهم. و قضيت حاجة كثيرا ما تطلعت لها نفوسهم، و اشربت إليها أعناقهم.

و لعلني بعد ذلك أن لا- أكون قد أسأمت القارئ الكريم، من طول دعتنى إليه ضرورة البحث، و دفعتنى إليه رغبة الاستيفاء و الاستقصاء.

و اعتقادي - رغم هذا الطول - أن في هذا البحث تركيزا كبيرا، و اختصارا كثيرا، إذ أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يصلح لأن يكون كتابا وحده، و كتابا موسعا مسهبا.

و أرجو أن يهئ الله لي رشدًا من أمري، و متسعا من وقتي، لأجعل من هذا الكتاب كتبا متعددة، فيها إسهاب أوسع من هذا الإسهاب، و استيفاء اشمل من هذا الاستيفاء.

و حسبي بهذا العمل الذي يعتبر باكورة عملي في التأليف أن أكون قدمت إلى المكتبة الإسلامية بحثا فيه جدة و طرافة، و فيه متعة علمية، و لذة روحية، تستهوي القارئ، و تستحوذ على مشاعره و حسه.

حسبي هذا، حسبي و أن أكون قد أرضيت رغبتى العلمية؛ التي لم آل في

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦١١

إرضائها جهداً، و لم أدخر في إشباعها وسعاً، فإن رضى الناس بعد ذلك، فذلك من فضل الله، و إن كانت الأخرى؛ فذلك هو جهد المقل، و طاقة الناشئ، الذى لا يزال يرقب من وراء الغيب أملاً فسيحاً، و كمالاً صريحاً.

هذا .. و لا- يفوتنى أن أعتذر إلى القارئ الكريم عما قد يكون فى هذا الكتاب من أخطاء هينة لا تخفى على فطنته، و لا ندق عن إدراكه، فإن مر بها فرجائى إليه أن يتلمس لها عذراً، و أن يصححها مشكوراً، و تلك شيمه الكرام أهل الخلق الطاهر و الأدب الحميد، و أن لا يكون ممن قال فيهم الشاعر:

فإن رأوا زلة طاروا بها فرحاً عنى و ما وجدوا من صالح دفنوا

و الله سبحانه و تعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، و أن ينفع به أنا و أنا أخلصوا قلوبهم لله، و أن ينفعنى به فى دنياى و آخرتى، و أن يحقق لى به ما تصبو إليه نفسى، و تسمو إليه همتى ... و الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و أصحابه و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، محمد حسين الذهبى حدائق حلوان فى عصر الجمعة الموافق ١٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ.

٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦١ م.

التفسير و المفسرون (للذهبي)، ج ٢، ص: ٦١٢

قد تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الثانى من كتاب التفسير و المفسرون فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩٦ هـ فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٧٦ م

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رحِمَ اللهُ عبداً أحيا أمرنا... يتعلم علوماً و يعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا... (بنادير البحار - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رحمه الله - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطقي ومصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقليين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسايل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - فى أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

- (الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة
 (ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
 (ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...
 (د) إبداع الموقع الانترنتى " القائمية " www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخر
 (ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية
 (و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
 (ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS
 (ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد
 جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسه " الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسه

(ى) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رمضان " و "مفترق" و فائى/ "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسيه (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توفى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحالية و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - فى حد التمكن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

